1965

مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

1

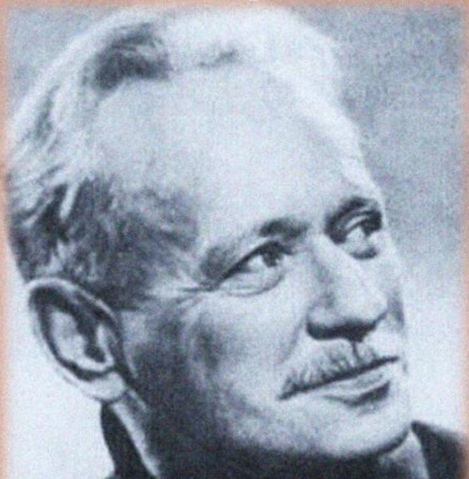

ترجمة : علي الشول ، أمجد حسين ، غانم حمدون .

مراجعة : غالب طعمة فلرمان

الدون الهادئ

١٩٦٥
مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

(المجلد الأول)

ترجمة

علي الشوك - أمجد حسين - غانم حمدون

مراجعة: غائب طعمة فرمان

اصدارات المجمع الثقافي

مكتبة نوبل

Author : Mikhail Sholokhov
Title : The Silent Don /1
Translator: A. Al-Shuk/
A.Hussein\ G. Hamdoun
Al- Mada : P. C.
Cultural Foundation
First Edition 1998
Copyright ©

اسم المؤلف : ميخائيل شولوخوف
عنوان الكتاب : الدون الهادئ ـ ١
ترجمة : علي الشوك/أمجد حسين/غانم حمدون
مراجعة : غائب طعمة فرمان
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
المجمع الثقافي/ أبو ظبي
الطبعة الأولى : ١٩٩٨
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ = ٧٧٧٦٨٦٤ – فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت – لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ – ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ – ٩٦١١

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة – أبو ظبي
ص .ب : ٢٣٨٠
تلفون : ٢١٥٣٠٠

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or
7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

Cultural Foundation
U.A.E. Abu Dhabi
P.O.Box: 2380
Tel. 215300

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

كتاب عن الثورة والانسان

قبل عدة اعوام احتفلت الصحافة الادبية بمناسبة رائعة ، وهي مرور خمسين عاما على ظهور رواية شولوخوف «الدون الهادىء» .

هل كان في مقدور سيرافيموفيتش اقدم الكتاب السوفييتيين وصاحب الرواية الشهيرة «السيل الحديدي» أن يعرف أنه ، في حينه ، اي قبل نصف قرن كان ذا نبوءة بشكل ما ؟ فقد قرأ لتوه مخطوطة المؤلف الشاب من قرية الدون البعيدة «فيشينسكايا» في قلب روسيا . كانت المخطوطة قد وصلت الى مجلة «اوكتوبر» التي كان سيرافيموفيتش آنذاك يرأس تحريرها . وكان سيرافيموفيتش قبل سنتين من هذا التاريخ قد شخص في مقدمة كتاب شولوخوف الاول ، وهو مجموعة قصص ، الخصائص الفنية لهذه الموهبة الشابة . وتقرر البدء بنشر الرواية ابتداء من سنة ١٩٢٨ الجديدة . في عشية ذلك استقبل الكاتب الشيخ في بيته زملاءه الاجانب هنري باربوس ، ومارتين اندرسون نيكسه ، وبيلا ايليش . وانزل من الرف اضبارة ضخمة من الاوراق المطبوعة على الالة الكاتبة ، ووزنها في يده ، وقال وفي صوته نبرة انتصار :

- اصدقائي الاعزاء! ارجو أن تتذكروا العنوان : «الدون الهادىء» وتتذكروا اسم المؤلف ميخائيل شولوخوف... وهذه كلمتي لكم : عن قريب سيكون هذا العمل مشهوراً في روسيا كلها ، وبعد سنتين او ثلاث في العالم أجمع...

وهذا ما حصل بالفعل . في نهاية ١٩٢٨ ، بعد أن نشر المجلد الاول من «الدون الهادىء» في مجلة «اكتوبر» صدر في مجلة «رومان ـ غازيتا»* بعدد نسخ ضخم بالنسبة لذلك العهد ، ثم في طبعة «الجديد في الادب البروليتاري» . ونوهت بالكتاب جميع صحف ومجلات البلاد تقريباً (ومما تجدر الاشارة اليه أن التنويه لم يأت من قبل النقاد المحترفين وحدهم ، بل ومن عدد كبير من «القراء البسطاء» حيث اعرب عمال ومستخدمون في مكتبات ومراسلون ريفيون في القرى عن انطباعاتهم عما قرأوه) وقبل أن ينقضي عامان ترجم المجلد الاول من الرواية الفرنسيون والالمان والسويديون والاسبان ، والتشيكيون ، والهولنديون الى لغاتهم ، وصدر «الدون الهادىء» في النمسا ، وفي المستعمرات الفرنسية ، ومن بعد ذلك في اليابان ، وانجلترا ، والصين ، وبولونيا ، والولايات المتحدة الامريكية...

كان ميخائيل شولوخوف عندما صدر المجلد الاول في الثالثة والعشرين لا غير . الا أنه كان يملك حياة تكفي لأكثر من شخص ، اذا جاز القول ، فقد كان معلما في مدرسة للفلاحين القليلي التعليم ، كاتباً مسجلا في مكتب التخزين ، وكان يعرف فخارة الاجر والشحن والتفريغ . وقد عمل في فصيلة تموين ، وهو في سن الخامسة عشرة ، فكان لذلك أعمق الاثر في ذاكرة الكاتب المقبل اذ شارك في مصادرة الحبوب من الكولاك ، الحبوب الضرورية لروسيا الجائعة .

ولم ينس شولوخوف استجواب ماخنو** نفسه له ، عندما لم ينج من الاعدام رميا بالرصاص «الا لصغر سنه» ولا المعركة التي شارك فيها ضد زمرة فومين ، والتي ينسبها شولوخوف فيما بعد لبطله غريغوري ميليخوف .

---

* مجلة مخصصة للرواية تصدر حتى الآن . المترجم

** ماخنو ـ ناستور ماخنو هو رئيس العصابات الفوضوية المعادية للثورة في اوكرانيا ما بين ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ .

بل على العكس جعل الحماس الكاتب الشاب يتوغل أعمق فاعمق في تتبع واستقصاء جذور الظواهر والمصائر التي كان شاهدا عليها . وفي الوقت الذي صدرت فيه المجموعتان القصصيتان «قصص الدون» و«السهب اللازوردي» كانت قد نضجت وسجلت على الورق شخصيات المرحلة الشعبية التراجيدية والعظيمة : «الدون الهادىء» .

وصار ظهور المجلد الاول من «الدون الهادىء» في عام ١٩٢٨ حدثا كبيراً للادب السوفييتي الفتي بأسره . وحين قرأ مكسيم غوركي «الدون الهادىء» قال عن مؤلفه : «انه يكتب كقوزاقي عاشق للدون ، ولحياة القوزاق ، وللطبيعة...»

في رواية شولوخوف بالذات انفتح اقليم الدون على الادب العالمي بشكل حقيقي . واصبحت منطقة الدون جزءا لا يمكن فصله عن اسم شولوخوف ، مثلما لا يمكن فصل الدنيبر عن غوغول ، منطقة ريازين عن يسينين ، والفولغا عن غوركي .

في السنوات الاولى من السلطة السوفييتية ، كان ذكر الدون ، وقوزاق الدون يستحضر في اذهان جمهور القراء أعلى درجات القلاقل والبلبلة .

ماذا كانوا يعرفون عن القوزاق ؟ انهم ، من ناحية ، احفاد اولئك الاحرار الجريئين الذين استطاعوا حتى في القرن الخامس عشر أن يثبتوا حقوقهم في الحرية ، ويحصلوا على غايتهم في الواقع المريع لدولة الاقنان الروسية ، اولئك العبيد الهاربون ، المتمردون تحت رايتي ستيبان رازين ويمليان بوغاتشيف... ومن الناحية الاخرى ، «القوزاق» شيء يُعاب ويخَّوف به الناس . انهم أولئك الذين كانوا يجلدون الطلبة بالسياط في العهد القيصري ويفرقون مظاهرات الاول من ايار ، والذين اغرقوا بالدم ثورة ١٩٠٥ الشعبية...

ولكن القوزاق ايضا هم جيش الخيالة الاول الاسطوري ، مجد ودرع السلطة السوفييتية الفتية! وبودوني نفسه ، قائد جيش الخيالة الاول من

القرية القوزاقية كوزيورين... فأي ناس هم ، هؤلاء القوزاق على كل حال ، من هم في واقع الحال ؟

الرواية تجيب عن هذا السؤال ايضاً . لقد جعل شولوخوف القارىء احد المقيمين القدامى في كوخ قوزاقي ، واجلسه مع ارباب البيت على مائدة واحدة ، وأخذه الى الحقل للم التبن في أكداس ، والى صيد السمك ، والى درس الحبوب . ولم يُرِه فقط القوزاقي على صهوة حصانه ، والرمح في يده ، والجزمة الطويلة في ساقيه ، فقط ، بل والقوزاقي في حذائه اللبادي والمحش في يديه ، أو الطفل على ركبتيه ، او مع محبوبته يغازلها عند السياج... وشولوخوف يتحدث عن الحياة الصعبة والمتناقضة . وقد رسم اخلاق ناس لطفاء وافظاظ ، أباة ومتشربكين بايديهم وارجلهم في الانحيازات الطبقية في الكثير من النواحي . ذلك شعب كادح ، مجتمع كادح ، يعرف مثل اي مجتمع طبقي ، الانقسام الاجتماعي الداخلي ، والتناقضات الطبقية ، وما هو عامل على التطور التاريخي النشيط والسير نحو الكمال .

«الدون الهادىء » ذو قيمة هائلة للمؤرخ والمختص بالاقتصاد السياسي ، والفيلسوف ، والعالم الاجتماعي . ومع ذلك فان كشف الفنان الكبير للنفس الانسانية هو أعلى من كل الحقائق الاخرى . ان المعرفة بالخلق القوزاقي ، والعادات ، والقوة الحياتية ، والمطامح الرفيعة لهولاء ليس بمجموعهم فقط ، بل ولكل شخص على انفراد ، هي وحدها تتيح لنا أن نفهم فهما كاملاً لماذا كان من الممكن أن ينشأ ، تحت سقف بيت واحد ، اشخاص متباينون ، مثل بيتر ميليخوف ، وغريغوري ميليخوف ، ومثل ميتكا الجزار وناتاليا الطاهرة النفس من آل كورشونوف .

يقص «الدون الهادىء » بلغة الفن عن انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا بموثوقية ثابتة .

و«الدون الهادىء » من ناحية الشكل الفني غالبا ما يصنَّف كملحمة شعبية . ومن هذا الارتفاع يجب ان يُفهم كل شيء في هذا العمل . ومن

ضمنه المجلد الاول من الكتاب . ان حوادثه «محلية» وبعيدة عن ثورة ١٩١٧ التي كانت موضوع اهتمام المؤلف الرئيسي .

... الشاب القروي الفتى غريشا ميليخوف ينام في الفجر . وقد رمى ذراعه بحرية وبكل طولها ، ويراجع أحلامه الفتوية .

في الامكان أن تمعن فيه العين من غير عجالة وتميزه كما هو : جميلا جماله الخاص ، نافر الخصلات ، احدب الانف ، ذا وجنتين حادتين ، وبشرة سمراء متوردة مشدودة . كم كان هذا الشاب من قرية تاتارسكي في تلك اللحظة فتيا ، مفتوحا لكل مسرات الحياة!

وأيامه قائمة على الفرح خلية ، بسيطة . وها هم فتيان القرية ينظمون السباقات ، وغريشا بالطبع ، شديد الولع بلعب الخيول . ثم جاء أوان حش المروج ، ويتهيأ الى العمل بحذق . ان ذلك يريحه . وبصره يلتقط أرض المرج الملونة بتنورات النساء القشيبة ، والمروحة الشفافة التي تكونها اشعة الشمس الغاربة وراء الجبال البعيدة . ومحشه يقطع الاعشاب بتنغيم ، تاركاً أثرا متماوجا ينساب بنعومة وراءه...

تبدو هذه الفصول من النظرة الأولى غير المتمعنة كثيرا «لا تقول شيئاً مهما» وكأنها تخطيطات حياتية لمختلف وجوه المعيشة . نسمع نوادر الشاب المرح البسيطة تبدو على كثير من السذاجة . ونحس كيف يبرد الندى الاقدام الحافية . وكل ذلك يبدو ابسط من البسيط . وحتى ما حدث لغريغوري مع اكسينيا ، لا يحمل بعد ما يعكر كثيرا مجرى الايام الهادىء السمح ، الخالي من الاحداث من الناحية الاجتماعية...

ولكن في غضون ذلك هناك قصة تروى عن الشعب ، عن المجتمع ، عن الفرد . وبدأت ترتسم ، بالفعل ، لوحة عريضة عن عالم القوزاق الخلقي ، بل ، اذا توسعنا قلنا وعن شعب روسيا بأسرها ، في عشية الحرب الامبريالية الاولى ، مع الاحساس بدنو الثورة العظمى .

ان اللحظات الاجتماعية لحياة البطل ، وما هو شخصي لصيق به ،

تماما ، يرد في «الدون الهادىء » في وحدة متلاحمة ، ويشكل تيارا حياتيا هداراً واحدا . وفي سلوك غريغوري ميليخوف الاجتماعي ، ومصيره الحياتي الكثير من النموذجي بالنسبة لقوزاق تلك السنين ، وفي نفس الوقت لا نجد شبـهـا لكل مـا يحـصـل له بشيء آخـر . لم يتكرر في اي انســان ، وعلى الاطلاق ، مصير وشخصية غريغوري ميليخوف! على الأقل لأن ما هو متناقض في هذه الشخصية كأنما مضاعف ، واكثر من مضاعف ، ولا عجب . فانه «تركي» «شـركسي» حفيد بروكوفي الذي دخل اسمه ولمدة طويلة في تاريخ قرية تاتارسكي ، لانه كان جسورا بشكل فريد في اتخاذ القرارات ، وصلبا بشكل مذهل في الدفاع عن كرامته الانسانية...

ومن ناحية اخرى تبدو قصة حب غريغوري واكسينيا الجميلة منفصلة بمـا فيه الكفاية عن كل ما هو اجتماعي الى ابعد الحدود . ولكننا نفكر : أليست هي الاخرى مرتبطة ، بطريقتها الخاصة ، بتحول الاحداث والمعارك الاهلية ، وذات صلة بالتحول الشديد لمصير غريغوري السياسي ، وعموما ، بكل بحثه المضني عن الطريق الصحيح في الحياة ؟

والذي يحدث على الدوام أن الواقع الثوري يضـفي ألوانه ، على نحـو فريد ، ليس على ما كان يبدو خصوصيا ، غير خاضع لاية تأثيرات خارجية بل على مصيـر غريغوري كله . ومن بداية الرواية حتى نهايتـهـا لا يضـعف ميدان الأحداث الموحد الجبار القوي .

تضم رواية «الدون الهادىء» اكثـر من ٦٠٠ شخصـيـة ، وجـمـيـعـهـم ضروريون لان نفهم في اكثر ما يمكن من العمق ونقيم بشكل اصدق تلك الشخصية المعقدة من الشعب ، الباحثة بعذاب عن موقعها في الثورة . فغريغوري ميليخوف مرتبط ، بهذا الشكل او بذاك ، بكل هذه الشخصيات ، وحتى بأولئك الذين لم يلتـقهم بشكل مباشر ابداً ، في شـربكات الاحداث العاصفة .

وعلى خلفية مصائر كل هذه الشخصيات الستمائة في «الدون الهادىء »

(وشخصيات من مثل بونتشوك أو ميشكا كوشيفوي قبل كل شيء) يمكن ان نفهم الى الآخر تاريخ حياة غريغوري نفسه ، تلك الفكرة العميقة التي وضعها المؤلف في هذه الشخصية الرائعة حقا .

و«الدون الهادىء » سرد قصصي يبين لنا كيف تستحوذ عملية الثورة بشكل لا مرد له على الانسان مهما كان موقفه من الثورة ذاتها معقدا ومتناقضا .

ومع السنين تكشف رواية شولوخوف امام عالم القراء المزيد والمزيد من طبقاتها الجديدة ذات الدلالة ، والمواضيع والصراعات ، والمشاكل الاجتماعية والمعاشية المحضة التي لم يلحظها النقد من قبل . ولا يخلو من دلالة أن الجدل الابداعي الواسع الذي يدور حول «الدون الهادىء » منذ عام ١٩٢٨ لا ينقطع . فالكتاب هو نفس الكتاب ، ولكن الاسئلة التي تبرز في مجرى النقاش ، في العقود المختلفة ، تبدو مختلفة .

يتصور البعض ان «الدون الهادىء » يظهر بشكل شامل ومقنع اصطفاف القوى الطبقية في الثورة والحرب الاهلية ، وأن المؤلف يجيب ، بالدرجة الاولى ، عن هذا السؤال : كيف تصرف الفلاحون المتوسطو الحال ، والذين ترتبط بهم دائما احدى اللحظات في أية ثورة شعبية . وبالطبع ليس من الصعب إيجاد الأسس لمثل هذا الرأي في المعيار العام للرواية وفي تفاصيلها ، فان «الانقسام» الطبقي لأبطال «الدون الهادىء » واضح جدا . في أحد الطرفين يقف أفقر القوزاق («ولد» ، كريستونيا ، بروخور زيكوف ، كوشيفوي) وفي الطرف الاخر المستغلون الريفيون «ذوو الايدي البيض» (موخوف ، كورشونوف ، ليستنتسكى) وبينهما آل غريغوري ميليخوف الذي يمثلون الوسط في أكثر مظاهره الاجتماعية والخلقية تعبيراً...

وآخرون في التزامهم «الضيق» للطريق السيوسيالوجي يجدون في الرواية ، دون عناء ، المادة اللازمة لان يستنتجوا : لقد كان من المهم لشولوخوف أن يظهر أن الجماهير الكبيرة ، القسم الكبير من الشعب وليس

فقط المشاركين الأفراد في الثورة يمكن أن يتعرضوا ، دون وعي ، إلى الضلال التاريخي ، ويجدوا أنفسهم منجرين الى قضية غير صحيحة مناقضة لمصالحهم ، كما حدث ذلك في تمرد فيشينسكويه . ان تتبع طريق البطل باعتباره «ضلالا» من جانبه يعارض في البحث الأدبي اعتبار هذا الطريق جريرة ثابتة لغريغوري إزاء الثورة والشعب . جريرة شخص وحيد لم يرغب في الإصغاء إلى حقيقة الشعب المعذبة ، التي قادت أغلبية القوزاق إلى الطريق الثوري الصحيح الوحيد .

وفي رأيي إن الكثير جداً من الأدلة المقنعة سيجد ، في عمل شولوخوف هذا ، اصحاب الرأي القائل بأن الجوهري ، بالنسبة «للدون الهادىء» هو دحر الفكرة الكاذبة عن إمكانية وجود طريق ثالث للثورة . وفي حقيقة الأمر : لماذا ترك غريغوري معسكر الحمر ، على الرغم من انه كان يكره البيض «ذوي الايدي البيض» بكل قوة روحه المتمردة ؟ فهو ليس انانياً ، على الاطلاق ، ولا مالكا صغيرا ، بل على العكس ، إنه في إلقائه نفسه في الاتون ، غير باخل بها ، كان يريد أن يجد أفضل نصيب لشعبه الذي يتعرض غريغوري في سبيله لجميع العذابات التي وصفها المؤلف ذلك الوصف البليغ .

ومع ذلك فإن مصيبة غريغوري هي أنه كان يعتبر الشعب كله يتجسد كلياً في القوزاق ، ولا يرى شعباً خارج الدون ، ولا يفهم «عذابات» «روسيا» هنا . ولم يكن متعطشاً أبدا للقتال مع «روسيا» هذه . يكفيه أن يكون للقوزاق برنامج بسيط بما فيه الكفاية : وليتحارب البيض مع الحمر ، أما نحن فسنجد طريقنا الى الثورة ، الطريق الذي لا يؤدي إلى هؤلاء ، ولا الى اولئك... وكل التاريخ الحياتي لبطل الرواية الرئيسي ، وتاريخ الكثيرين الذين كانوا مرتبطين به يخبرنا أيضاً الى أين تؤدي بالناس مثل هذه الفلسفة في ظروف الانقسامات الثورية العظيمة .

في كل ثورة ، في كل عاصفة اجتماعية يوجد دائما أناس يحاولون خداع انفسهم بهذه الفكرة البريئة من الوهلة الاولى ، فكرة الحياد

السياسي . ولكن كم من الناس قادت الى حافة الهاوية ، وكم من الناس دفعت الى دوامة مصائب وعذابات لا حصر لها! وقد أظهرت رواية «الدون الهادئ» كل ما ينطوي عليه هذا الموقف الـ «بين بين» من تهلكة في الصراع بين القوى المقاتلة من أجل الحياة او الموت ، وفشل البحث عن «طريق ثالث» بين الحق والباطل ، الخير والشر ، النور والظلمة ، الثورة والعداء للثورة ، الايديولوجية التقدمية ، والايديولوجية الرجعية . وفي هذا المنحى يمكن ان تضاف ميزة اخرى الى الميزات الكثيرة لرواية شولوخوف الرائعة هذه وهي أن هذا العمل يصف كيف أن الافكار الاجتماعية السياسية تأسر الناس ، جماهير غفيرة من الناس ، ويكشف أهمية هذه الافكار بالنسبة لناس أحياء ، بالنسبة لعائلة بعينها او هذه القرية المعنية . ان الثمن الفعلي لفكرة «الطريق الثالث» في الثورة هو حياة غريغوري المريرة ، وموت جميع المحيطين به على وجه التقريب .

بالطبع ، إن مثل هذا التفسير «للدون الهادئ» ليس إلا واحداً من التفسيرات العديدة ، ولا يستوعب مطلقا كل الغنى الفكري للرواية . ومهما كان عدد التفسيرات التي تظهر يجب أن نفهم دائما ، مثلما لاحظ الاكاديمي السوفييتي خرابتشنكو ، ان السمة الحقيقية لفن شولوخوف «تتمثل في أنه اعطى للشخصيات التي أبدعها عمقا مذهلاً ، وملأها بمحتوى ذي أهمية انسانية شاملة» .

في «الدون الهادئ» لوحة تاريخية محددة هائلة ، وأمام نظر القارئ تندلع عاصفة الثورة النارية ، وتجري الاحداث على مساحة هائلة ـ من بطرسبورغ الثورية وخنادق غاليتسيا الى قرية على الدون ، وسهوب الكوبان ، التي صارت مسرحاً لواحدة من أخطر معارك الثورة . ومع كل هذه السعة توجد عناية دقيقة ومتفحصة بشكل مذهل تكاد تشمل كل الذين يقعون في مدى نظر المؤلف ، عناية بالتحولات المفاجئة للمصائر ، وباليومي الاعتيادي المعيشي الصغير...

ويجب بشكل خاص أن يُبْرز في مهارة شولوخوف فن النفاذ السيكولوجي الى حياة البطل الداخلية الروحية : فالقارىء يعيش شيئاً فشيئاً ودون أن يدري أحاسيس البطل ، وينظر بعينيه الى ما يحيطه .

إن العبارة التي ألقاها شولوخوف ذات مرة في حديث مع ادباء فرنسيين تجعلنا اكثر فهما لما يقلق شولوخوف أكثر من غيره في حياة الإنسانية وفي مصير كل فرد محدد . لقد قال شولوخوف :

« يهمني الناس الذين تستحوذ عليهم الفورات الاجتماعية والوطنية... إذ يبدو لي أن شخصياتهم تتبلور في هذه اللحظات » .

ويمكن للمرء ان يسمع من صفحات «الدون الهادىء » ذلك النداء الداعي إلى تذكر الانسان دائما في كل الازمنة ، وفي اية هزات وتغيرات اجتماعية عالمية . إن ذلك ما يؤكده الفنان الذي رسم شخصيات غريغوري واكسينيا ، وبودتلكوف ، وبونتشوك ، وايلينشنا ، وداريا ميليخوفا . ومع ذلك فان من القليل على شولوخوف الرضى بالتجاوب الخيّر مع مصيبة انسان ، وقليل عليه أن يفهم الناس ويتعاطف معهم . بل ان الكاتب كان يريد أن تثير الشخصيات التي أبدعها النشاط ، وتدعو بفعالية الى مساعدة الانسان .

يشترط ميثاق جائزة نوبل أن يُلقي الحائز عليها كلمة تعطي بشكل موجز تصورا عن نظرات الكاتب إلى الحياة والفن ، والى واجب الفنان . وقد قال شولوخوف عن نفسه ما يلي : «أود ان تساعد كتبي الناس ليكونوا أحسن ، وأنقى روحا ، وتوقظ الحب نحو الانسان ، والسعي الى النضال الناشط في سبيل مثل الروح الانسانية وتقدم البشرية» .

واعتقد ان ذلك أهم شيء لفهم مؤلف «الدون الهادىء » كفنان ، وكانساني .

ليتفينوف

ليس بمحراث شُقّت أرضنا المجيدة... .
بسنابك الخيل تُحرث ارضنا ،
برؤوس القوزاق تُزرع ارضنا المجيدة ،
بهيٌ دوننا الهادىء بأرامله الصبايا ،
أبونا ، الدون الهادىء ، يزهو باليتامى ،
وأمواج الدون الهادىء تزخر بأدمع الاباء والامهات .

ايه ، يا أبانا ، أيها الدون الهادىء!
ايه ، يا دوننا الهادىء ، علام تجري مياهك عكرة ؟
هيهات لي ، انا الدون الهادىء ، ان أجري صافيا!
ففي أعماقي تنبض ينابيع باردة ،
وفي أحشائي ، ، أنا الدون الهادىء ، تتواثب الأسماك الشهب .

(أغنيتان قوزاقيتان قديمتان)

الجزء الأول

١

كان بيت ميليخوف يقع عند طرف القرية الأقصى . وكانت بوابة زريبة الماشية تفتح صوب الشمال باتجاه الدون . ويأتي الشاطىء وراء منحدر وعر يمتد مسافة حوالي سبعة عشر متراً بين صخور طباشيرية ضخمة يغطيها الطحلب . وثمّة أكوام لؤلؤية من قواقع المحار ، وحافة رمادية اللون متكسرة قوامها الحصباء تلثمها الأمواج ، ومن ثم وجه الدون الرقراق الفولاذي اللون ، تلاعبه الريح . وإلى الشرق ، وراء أسيجة من أغصان الصفصاف تحيط بساحات درس الحبوب ، يمتد طريق هتمان ، حيث يوجد نبات الشيح الرمادي ، ونبات لسان الحمل المتصلّب ذو اللون البنّي والذي هرسته حوافر الخيل ، وثمّة مصلى عند مفترق الطريق ، ثم يأتي السهب مغلفاً بضباب متنقّل . وإلى الجنوب ، تمتد سلسلة من التلال الطباشيرية . وإلى الغرب ، هناك الشارع ، يقطع الساحة ميمماً صوب المروج الساحلية .

عاد القوزاقي بروكوفي ميليخوف إلى القرية أثناء الحرب ماقبل الأخيرة مع تركيا ، وقد جلب معه زوجة : امرأة صغيرة متلفعة بشال من رأسها إلى قدمها ، تغطّي وجهها على الدوام ، ونادراً ما تكشف عن عينيها الوحشيتين الحزينتين . وكان الشال الحريري يحمل عطوراً غريبة فوّاحة ، وطرائزه

الملونة بألوان قوس قزح تثير حسد النساء القوزاقيات . وظلّت هذه الأسيرة التركية بعيدة عن أقارب بروكوفي ، ولم يمض وقت طويل حتى أعطى ميليخوف العجوز لولده حصته من الإرث . وظلّ طيلة حياته يرفض أن يضع قدمه داخل بيت ابنه ، ذلك لأنه لم يستطع أن ينسى ذلك العار .

وسرعان ماتدبّر بروكوفي أمره ، فأقام له النجارون داراً ، وصنع هو بنفسه سياجاً لساحة الماشية ، وفي مطلع الخريف أخذ زوجته الاجنبية محنية الرأس الى دارها الجديدة . وقد سار معها خلال القرية وراء العربة المحملة بما لديهما من متاع الدنيا ، فاندفع الجميع ، شيباً وشباناً ، الى الشارع . وكتم الرجال ضحكاتهم وراء لحاهم ، وتناقلت النسوة تعليقات مسموعة ، بينما اندفع سرب من أطفال القوزاق الوسخين يزعقون خلف بروكوفي . ولكنّه واصل سيره بطيئاً ، بمعطفه مفتوح الأزرار ، وكأنّه يترسّم أرضاً حرثت تواً ، وهو يعصر معصم زوجته الرقيق بكفّه السوداء الضخمة ، رافعاً رأسه ذا الناصية الشقراء ، في تحدٍّ واستخفاف . سوى أن أكياسه الدهنية تحت عظام خديه انتفخت وارتعشت ، وتفصّد العرق بين حاجبيه المقطّبين دائماً .

منذ ذلك الحين لم يقع عليه نظر إنسان في القرية إلا نادراً ، ولم يحضر هو لقاءات القوزاق بتاتاً . وعاش حياة عزلة في داره المنفردة على جانب الدون ، ورويت عنه حكايات غريبة في القرية . زعم الصبيان الذين يرعون العجول وراء طريق المرج أنهم كانوا يشاهدون بروكوفي كل مساء ، وضوء النهار يتلاشى ، يحمل زوجته بين ذراعيه حتى رابية مدفن التتار . فيجلسها على قمة الرابية ، مسنداً ظهرها الى صخرة مسامية تآكلتها الأنواء ، ويجلس هو إلى جانبها ، والاثنان يحدقان بثبات عبر السهب ويلبثان يحدقان حتى يتلاشى الغروب ، ثم يلف بروكوفي زوجته بمعطفه المصنوع من الجوخ الخشن ويحملها عائداً الى البيت . وتاهت القرية في الظنون ، بحثاً عن تفسير غريب كهذا . وتقولت النساء كثيراً حتى انشغلن عن تفلية رؤوسهن

بحثاً عن القمل . وسرت الشائعات حول زوجة بروكوفي أيضاً ، فقال البعض أنها ذات جمال خلاّب ، وذهب آخرون الى نقيض ذلك . على أن الأمر حسم في الأخيرحينما انطلقت الى دار بروكوفي واحدة من أكثر النساء جرأة ، وهي مافرا زوجة الجندي ، بحجّة الحصول على شيء من الخميرة . وحين نزل بروكوفي الى القبو لجلب الخميرة ، سنحت الفرصة لمافرا لتكتشف أن سبية بروكوفي التركية كانت الرعب بعينه...

بعد بضع دقائق كانت مافرا ، وقد تورّد وجهها وانداحت عصابة رأسها ، تسامر جمعاً من النساء في زقاق صغير :

ـ وماذا يمكن أن يكون قد رأى فيها ، ياعزيزتي ؟ ليتها كانت امرأة حسب ، ولكن مخلوقاً مثلها!... لامؤخرة لها ولا نهد! هي الهول بعينه! إن فتياتنا لذوات أجساد أفضل! عجباً! وأنتن تستطعن أن تفككن جسمها ، كالزنبور . أما تلكما العينان الهائلتان السوداوان ، فإنها تجعلهما تومضان كما يفعل الشيطان ، اللهم اغفر لي . لابد أنها على وشك الولادة ، يشهد الله .

فقالت النساء في دهشة :

ـ على وشك الولادة ؟

ـ لست ابنة البارحة! فقد ربيت ثلاثة أبناء بنفسي .

ـ ولكن ، ترى ما شكل وجهها ؟

ـ وجهها ؟ أصفر . لاضياء في عينيها . ويتوجّب عليّ أن أقول أنها لا تجد الحياة في أرض غريبة محققة لأحلامها . والأدهى ، يافتياتي ، أنها ترتدي ...سروال بروكوفي!

فشهقت النساء معاً وفي ذعر : ـ مستحيل!

ـ لقد رأيتها بنفسي ، إنها ترتدي السروال ، ولكن من غير أشرطة لابد أن ما عليها هو سروال عمله . إنها ترتدي قميصاً طويلاً ، ومن تحته يمكن لكنّ أن تشاهدن السروال محشواً في الجواريب . أنا ، حينما رأيتها ، سرت البرودة في دمي...

وانتشر الهمس في القرية أن زوجة بروكوفي ساحرة . وأقسمت زوجة ابن استاخوف (وآل استاخوف كانوا أقرب جيران بروكوفي) انها شاهدت زوجة بروكوفي في اليوم الثاني للثالوث* ، قبيل الفجر ، حافية ، حاسرة الرأس ، تحلب بقرة استاخوف في ساحة الماشية . ومنذ ذلك الحين تضاءل ضرع البقرة حتى صار بحجم قبضة الطفل ، وفقدت البقرة حليبها ، ثم سرعان ما نفقت .

في تلك السنة ، كانت ثمّة حالة غير اعتيادية نفق خلالها الكثير من الماشية ، وعند المناطق الضحلة من الدون كانت تظهر ، كل يوم ، جيف جديدة لأبقار وعجول على الشاطئ الرملي . ثم سرت العدوى الى الخيل . وقلّت القطعان التي كانت ترعى في مراعي القرية . وزحفت خلال أزقة القرية وشوارعها إشاعة شريرة...

عقد القوزاق اجتماعاً ثم ذهبوا الى بروكوفي ، فخرج الى درج العتبة وانحنى لهم قائلاً :

ـ ماالذي أستطيع أن أفعله من أجلكم ، أيها الشيوخ المبجلون ؟

وبدون أن ينبسوا ببنت شفة ، تقدّم الجمع من الدرج . وكان أول الصارخين عجوز مخمور :

ـ جرّ ساحرتك الى هنا! فلسوف نحاكمها...

فاندفع بروكوفي الى داخل الدار ، غير أنهم أمسكوا به في الممر ، وضرب قوزاقي ضخم ، يعرف باسم لوشنيا ، رأس بروكوفي على الحائط وقال له :

ـ أقلع عن العراك ، ولا حاجة بك للصياح . نحن لن نمسك بشيء ، لكننا سنسحق زوجتك سحقاً . خير لنا أن نهلكها من أن تموت القرية بكاملها بسبب من نقص الماشية . ولكن إياك والعراك وإلا بقرت الحائط برأسك!

---

* الثالوث في الدين المسيحي ، اتحاد الثلاثة : الأب والابن وروح القدس . المترجمون .

وجاء الزئير من الدرج :

ـ اسحبوا العاهرة الى الفناء!

فلف زميل بروكوفي في الجيش شعر المرأة التركية حول إحدى يديه ، وبالأخرى أغلق فمها الصارخ وسحبها جرياً عبر الممر وطرحها أرضاً عند أقدام الجمع . وانطلقت صرخة حادة فوق الأصوات العاوية ، فانفلت بروكوفي من قبضة ستة من القوزاق واندفع متفجراً الى داخل الدار واختطف سيفاً من الحائط . فتدافع القوزاق بالمناكب وهم ينطلقون خارج الدار . وجرى بروكوفي نازلاً الدرج وهو يلوح بسيفه الصافر اللماع فوق رأسه ، فتراجع الجمع وتفرقوا شذر مذر في أرجاء الفناء .

كان لوشنيا بطيئاً فاستطاع بروكوفي أن يلحق به عند السقيفة . وبضربة مائلة على الكتف الأيسر من الخلف شق سيف بروكوفي جسم القوزاقي الى حد الحزام . أما الجمع ، الذين كانوا ينتزعون أوتاد السياج ، فقد تراجعوا على أعقابهم وانطلقوا عبر ساحة درس الحبوب نحو السهب .

بعد نصف ساعة ، تجرأ القوزاق على الاقتراب من دار بروكوفي من جديد ، وتقدّم اثنان منهم بحذر نحو الممر . هناك ، على عتبة المطبخ كانت زوجة بروكوفي راقدة ، وسط بركة من الدماء ، رأسها ملقى الى الوراء ، وشفتاها ملتويتان في ألم ، ولسانها المقضوم بارز الى الخارج . وكان بروكوفي يهز رأسه وفي عينيه حملقة زجاجية وهو يلف كرة صغيرة زاعقة في معطف من جلد الخراف ـ هو وليد جاء قبل الأوان .

* * *

ماتت زوجة بروكوفي في المساء . وأشفقت أمه العجوز على الطفل فتعهدته بالرعاية .

لبخوه بمعجون النخالة ، وأطعموه حليب الفرس ، وما أن مضى شهر حتّى حملوه إلى الكنيسة ، بعد أن تأكد لهم أن الصبي الأسمر ذا الملامح

التركية سيعيش ، وهناك عمدوه ، وأطلقوا عليه اسم جدّه بانتلاي . ورجع بروكوفي بعد اثني عشر عاماً قضاها في الأشغال الشاقة . ولم يكن ليشبه القوزاق بلحيته المقصوصة الحمراء التي وخطها المشيب ، وبملابسه الروسية . وأخذ ابنه وعاد الى داره .

شب بانتلاي أسمر البشرة صعب المراس . وكان يشبه أمه وجهاً وقالباً . وزوجه بروكوفي الى ابنة جار له قوزاقي .

منذ ذلك الحين بدأ الدم التركي يمتزج بدم القوزاق ، وهكذا ظهر في القرية آل ميليخوف ، الذين عرفوا باسم الأتراك ، وهم القوزاق ذوو الأنوف المعقوفة والوسامة المتوحشة .

وحينما مات بروكوفي ، تعهد ابنه بانتلاي شؤون الدار ، فأعاد تسقيف الدار بالقش ، وألحق بالحقل نصف هكتار من الأرض المشاعة ، وبنى سقائف جديدة ومخزناً للحبوب جعل له سقفاً من صفائح الحديد . وطلب من السمكري أن يقطع من مخلفات الحديد زوجاً من ديوك ، وحينما ثبت هذان على سطح المخزن ، أضفيا حيوية على عزبة ميليخوف وأسبغا عليها مظهر الاعتداد والرفاهية .

تحت وطأة السنين العابرات أصبح بانتلاي بروكوفتش مفتول العضل صلباً ، وعرض جسمه واحدودب قليلاً ، ولكنه مافتيء يبدو رجلاً كبيراً قوي البنيان . لقد كان يابس العظام ، أعرج (فقد انكسرت ساقه اليسرى في شبابه حينما كان يطفر الموانع أثناء استعراض امبراطوري للجيش) . وكان يعلق في أذنه اليسرى قرطاً فضّياً على شكل هلال ، وبقي شعره ولحيته محافظين على لونهما الأسود الزاهي حتى تقدمت به السن . وكان اذا استبد به الغضب فقد زمام نفسه ، مما جعل ، بلاشك ، زوجته الممتلئة تشيخ قبل أوانها ، ويصبح وجهها ، الذي كان جميلاً يوماً ما ، كنسيج العنكبوت ، مليئاً بالغضون .

وقد ورث بيوتر ، ابنه الأكبر المتزوج ، عن أمّه قامة معتدلة وأنفاً

أفطس ، وشعراً غزيراً بلون الحنطة ، وعيوناً بنية . غير أن الابن الاصغر ، غريغوري ، كان يشبه أباه . وهو أطول من بيوتر بمقدار نصف رأس ، وأصغر منه ست سنوات ، وله ذات الأنف المتدلّي المعقوف الذي كان لأبيه ، أمّا بياض عينيه الملتهبتين فكان مائلاً الى الزرقة داخل شقيهما المنحرفين قليلاً . وكان جلده أسمر مائلاً للحمرة ، مشدوداً على عظام خديه البارزين . وقد احدودب ظهر غريغوري قليلاً ، تماماً كأبيه . حتى في ابتسامته كانت ثمّة سمة متشابهة ، وحشية بعض الشيء .

ويكتمل شمل أسرة ميليخوف بدونيا ، الأثيرة لدى والدها ، وهي صبية نحيفة ذات ذراعين طويلتين وعينين واسعتين ، وداريا ، زوجة بيوتر وطفلها الصغير .

٢

كانت نجمات قليلات تتلألأ في سماء الفجر الرمادي ، والريح تهب عند أعتاب الغيوم . وثمّة ضباب عال يتدحرج فوق الدون ليتجمّع عند منحدر تل طباشيري ، ويزحف داخلاً الأخاديد كما تزحف أفعى رمادية لا رأس لها . وكانت الضفة اليسرى للنهر ، والرمال ، والغدران المعشوشبة ، ومستنقعات القصب ، والأشجار الندية تومض تحت ضياء الفجر البارد الفتان . ووراء الأفق ، كانت الشمس تحترق بلا لهب ، وهي لما تزل متحجبة .

كان بانتلاي بروكوفتش أول من استيقظ في دار ميليخوف ، فخرج الى العتبة وهو يزرر ياقة قميصه المطرّز ، كان الفناء الحشيشي مغطّى بلون فضّي نَدي ، فأطلق الماشية في الشارع . وجرت داريا لتحلب البقرة وهي ماتزال ترتدي قميص النوم ، وتلألأ الندى على سمانتي ساقيها البيضاوين العاريين ، وتركت قدماها على حشيش الفناء أثراً فضّياً .

ووقف بانتلاي بروكوفتش لحظة يراقب الحشيش وهو يستقيم بعد أن تطأه أقدام داريا ، ثم استدار عائداً الى الغرفة .

على افريز النافذة المفتوحة كانت ثمّة أوراق ازهار وردية لشجرة الكرز الآخذة بالتفتّح في الحديقة الأمامية . وكان غريغوري نائماً على وجهه وإحدى ذراعيه مسبلة إلى جانب .

ـ غريغوري ، أتأتي للصيد ؟

فتساءل هامساً وهو ينزل ساقيه من السرير :

ـ ماذا ؟

ـ تعال نخرج للصيد حتى طلوع الشمس .

فسحب غريغوري بنطاله اليومي من المشجب ، وهو يتنفّس من أنفه في تثاقل ، ولبسه ، ودسّه في جواربه الصوفية البيضاء ، وقضى وقتاً طويلاً في لبس حذائه وهو يصلح من وضع أعلى كعبيه المطويين .

وتساءل بصوت أجش فيما كان يتبع أباه الى الممر :

ـ ولكن هل غلت أمي طُعم الصيد ؟

ـ أجل . اذهب الى القارب . سآتي بعد دقيقة .

وصب العجوز الجويدار* المغلي ذا الرائحة النفاذة في إناء ، ولمّ الحبّات المتساقطة بحرص في كفه ومضى يظلع نحو الشاطىء ، فوجد ابنه جالساً في القارب محدودب الظهر .

ـ أين ستذهب ؟

ـ إلى الشاطىء الاسود . وسنجرّب الصيد عند الشجرة الغريقة حيث كنّا نصيد منذ أيام .

انفصل القارب عن الشاطىء ، ومؤخرته تخط على الأرض ، ثم استقر في الماء . وحمله التيار ، وهو يهزّه محاولاً أن يقلبه جانباً ، فيما كان

---

* الجويدار : نبات كالشعير . المترجمون .

غريغوري يقوده بالمجذاف دون أن يجذف .

ـ فيم لا تجذف ؟

ـ لنصل الى وسط التيار أولاً .

وتحرّك القارب باتجاه الضفّة اليسرى قاطعاً تيار المجرى الرئيسي . وتعالى وراءهما صياح ديوك القرية الرنان منداحاً فوق الماء بلا رنين . وفيما كان جانب القارب يحتك بالضفة الصخرية السوداء المتعالية فوق النهر ، اقترب من الشق . وعلى مبعدة حوالى عشرة أمتار من الشاطىء ظهرت من الماء أغصان معوجة لشجرة دردار غريقة ، ودارت حولها ودوّمت فقاقيع زبد مضطربة .

همس الأب لابنه :

ـ أحضر الخيط بينما أنثر أنا الطعم .

وغمس يده في فوهة الإناء الذي يتصاعد منه البخار . وتناثر الجويدار في الماء بصوت مسموع كما لو أن أحداً كان يهمس «شش» . ثم لضم غريغوري بعض الحبات المنتفخة في الصنارة ، وتبسّم :

ـ هيا ، يا أسماك! صغيرات وكبيرات معاً!

ونزل الخيط في الماء بدوائر وتوتّر ، ثم ارتخى من جديد حالما وقعت رصاصة الصنارة في القعر . ووضع غريغوري قدمه على نهاية العصا ، ودس يده في جيبه بحذر ليخرج كيس تبغه .

ـ لا حظّ لنا اليوم يا أبتاه . فالقمر في المحاق .

ـ هل جلبت بعض عيدان الكبريت ؟

ـ أي .

ـ أعطني ناراً .

وشرع العجوز يدخن ، وحدّج صوب الشمس الراقدة وراء شجرة الدردار . وأجاب :

ـ يأكل الشبوط الطعم كما يحلو له . فقد يفعل ذلك أحياناً والقمر في أفول .

فتنهد غريغوري :
- يبدو أن صغيرات الأسماك ينقرن الطعم .
وتلاطم الماء صخاباً على جانبي القارب ، وقفز الى الأعلى شبوّطٌ طوله أكثر من متر ، زاءٍ كما لوصب من نحاس أحمر ، وهو يئن ، ضارباً الماء بذيله العريض المقوّس . وتناثرت قطرات كبيرة من الرذاذ فوق القارب .
ومسح بانتلاي بروكوفتش لحيته المبللة بكمه :
- انتظر الآن!
وإلى جانب الشجرة الغريقة وبين الأغصان العارية المتفرعة ، قفز شبوطان في آن واحد ، وتلوّى ثالث في الهواء ، أصغر حجماً ، ورف بعناء قرب الشاطىء .

* * *

لاك غريغوري بنفاد صبر عقب سيكارته المبلل . وكانت الشمس الموشحة بالضباب قد طلع نصفها الآن . ونثر بانتلاي بروكوفتش بقية الطعم ، وزم شفتيه معبساً وهو يشخص نظره بقساوة على طرف العصا الساكن .
بصق غريغوري عقب سيكارته مراقباً انفلاته السريع في حنق . وفي سرّه كان يلعن أباه لأنّه أيقظه في ذلك الوقت المبكّر . ثم إن التدخين ومعدته خالية جعل الدخان يفوح من فمه وكأنّه شعر محروق . وكان على وشك أن ينحني ويغرف بعض الماء في كفه ، حينما تحرّكت نهاية العصا في تلك اللحظة حركة طفيفة وبدأت تغيب في الماء .
همس العجوز :
- انتشه!
انتفض غريغوري وأطبق كفيه على العصا ، غير أنها تقوّست وغاص

طرفها بسرعة في الماء . جرت إلى الاسفل قوة هائلة كقوة الطارة العصا المرنة المصنوعة من الصفصاف الاحمر .

فدمدم العجوز : «أمسكه!» بينما كان يجنح بالقارب بعيداً عن الشاطىء .

حاول غريغوري أن يرفع العصا ، لكن السمكة كانت من القوة بحيث انقطع الخيط الغليظ محدثاً صوتاً جافاً ، فترنّح غريغوري وأوشك أن يسقط .

فتمتم ابوه : «إنها قويّة كالثور» فيما كان يحاول أن يلضم صنارة بشيء من الطعم الجديد دون أن يفلح . أمّا ابنه فقد أطلق ضحكة منفعلة وشد خيطاً جديداً إلى العصا ، وألقى به في الماء . وما كاد الرصاص يصل الى القعر حتّى تقوّس طرف العصا .

فحمحم غريغوري وهو يداور السمكة في طرف الخيط . بصعوبة : «هوذا ابليس!» وجعلت هذه تندفع الى وسط التيار . وشق الخيط صفحة الماء محدثاً حفيفاً عالياً ، مخلفاً وراءه حاجزاً مائياً مخضوضراً . وجعلت أصابع العجوز القصيرة تعبث بمقبض المغرفة بلا تفكير .

ـ لا تدعه يدنو من القارب! حاذر أن يقطع الخيط!

ـ لا تقلق .

وارتفع الى سطح الماء شبوط كبير ، ذو لون أحمر وأصفر ، وخبط الماء محدثاً زبداً ، ثم غاص من جديد إلى الأعماق شاقاً الماء برأسه العريض .

ـ إنه يخلع ذراعي! كلا ، أيها الشبوط ، لن تفلت!

ـ أمسك به ، غريغوري!

ـ إنني ماسكه!

ـ لا تدعه يلجأ الى أسفل القارب! اياك!

وشرع غريغوري ، وهو يستعيد أنفاسه ، يسحب إلى القارب الشبوط

المنهك الراقد على جنبه ، ودفع العجوز المغرفة الى الماء ، لكن الشبوط عاد فغطس من جديد إلى الأعماق بما تبقى لديه من قوة .

وصاح العجوز :

ـ اجعل رأسه إلى الأعلى! ودعه يبتلع بعض الهواء ، فذلك كفيل بتهدئته!

مرة ثانية ، سحب غريغوري السمكة المتعبة إلى القارب ، فطافت على سطح الماء وفمها مفتوح وأنفها يصطدم بحافة القارب الخشنة ، وزعانفها الذهبية ترف .

فقال بانتلاي بروكوفتش منحنحاً ، فيما كان يرفع الشبوط بالمغرفة :

ـ لقد انتهى أمره!

ولبثا جالسين طوال نصف ساعة أخرى ، لكن سمك الشبوط لم يعد يتواثب .

وأخيراً قال العجوز :

ـ لف الخيط ، يبدو أننا حصلنا على نصيب يومنا .

استعدا للعودة فدفع غريغوري القارب بعيداً عن الشاطىء ، لقد اجتازا نصف الطريق . كان غريغوري يستشف من وجه أبيه أنه كان يريد أن يقول شيئاً ما ، غير أن العجوز جلس يشخص بنظره في صمت الى بيوت القرية المتناثرة على سفح التل .

ثم شرع يتكلم متردداً وهو يجرجر عقدة الكيس تحت قدميه :

ـ اسمع ياغريغوري... لقد لاحظتُ أنك واكسينيا استاخوفا...

فاحمر وجه غريغوري بشدة ، وأدار رأسه . وحزّت ياقة قميصه رقبته الغليظة التي لوحتها الشمس ، وضيقت عليها حتى برز طوق أبيض من البشرة .

واستطرد العجوز ، خشناً ومغضباً هذه المرة :

ـ كن على حذر أيها الفتى ، وإلا فسيكون لي معك حديث من نوع آخر . إن ستيبان جار لنا ، ولن أقبل بأي تعابث مع امرأته . فهذا الضرب من

الأشياء قد يؤدي الى أفدح الضرر ، وأنا أحذرك مقدّماً ، إن وجدتك تعابثها فسأسلخ جلدك!

وضم بانتلاي بروكوفيتش قبضته الناتئة ، وبعينين ضيقتين لاحظ انحسار الدم عن وجه ولده .

تمتم غريغوري بصوت أجش : «كلها أكاذيب» ، وحدّق صوب جسر أنف أبيه المزرق .

ـ اسكت!

ـ الناس ميالون إلى الكلام...

ـ أمسك لسانك يا ابن العاهرة!

فانكب غريغوري على المجذافين ، وتواثب القارب الى الامام ، وجعلت فقاقيع الماء تتراقص مبتعدة عن ذيل القارب في مويجات صغيرة .

ظلا صامتين إلى أن أشرفا على الشاطىء حين ذكّره أبوه قائلاً :

ـ تذكّر ماقلته لك ، وإلا فسأمنعك منذ اليوم من الخروج ليلاً ، وآنئذ لن تستطيع أن تمد قدماً خارج الحوش!

لم يجب غريغوري . وتساءل فيما كان يجنح بالقارب الى الضفة :

ـ هل سأعطي السمكة للنساء ؟

فأجاب العجوز بصوت أرق :

ـ اذهب وبعها ، وبثمنها تستطيع أن تبتاع لك تبغاً . وتبع غريغوري أباه ، وهو يعض شفتيه . وقال في سره : «حاول ذلك ياأبي! فلسوف أخرج الليلة حتى لو علّقت قدمي» وراحت عيناه تنغرزان بقساوة في قفا رأس العجوز .

حين وصل غريغوري إلى الدار ، غسل السمكة بعناية ونظفها من الرمل ، وأدخل عوداً في خياشيمها .

عند بوابة الحوش التقى بصديقه القديم ميتكا كورشونوف . وكان ميتكا يتمشى وهو يعابث طرف حزامه المرصعّ بالفضّة ، وقد تلألأت عيناه

الدائريتان الصفراوان بوقاحة في حدقتيهما الضيقتين . كان بؤبؤا ميتكا مستطيلين كبؤبؤي القطة مما يجعل نظراته زائغة .

ـ أين تذهب بهذه السمكة ؟

ـ لقد صدناها اليوم ، وسوف أبيعها .

ـ لموخوف ؟

ـ أي .

وبنظرة واحدة خمّن ميتكا وزن السمكة .

ـ خمسة عشر رطلاً ؟

ـ خمسة عشر ونصف ، فقد وزنتها على القبان .

ـ خذني معك ، وسأقوم بالمساومة عليها .

ـ هيا إذن .

ـ وما هو نصيبي ؟

ـ لا حاجة بك للتخوف ، فلن يذهب تعبك سدى . كان القداس قد انتهى ، والقرويون الخارجون من الكنيسة يملأون الشوارع .

وكان الاخوة من آل شامل يوسعون الخطى ، ثلاثتهم ، جنباً إلى جنب في الطريق . كان أكبرهم ، أليكسي الأقطع* ، يتوسطهم ، وقد جعلت ياقة قمصلته العسكرية الضيقة رقبته القوية تشرئب منتصبة ، وكانت لحيتة الصغيرة المدببة ذات الشعر المجعد الخفيف تتلوى جانباً بشكل متحد ، وعينه اليسرى تطرف بصورة عصبية فقد انفجرت بندقيته بيده أثناء تدربه على الرماية قبل عدة سنوات ، ونفذت شظية طائشة في وجنته ، وهكذا غدت عينه اليسرى تطرف بمناسبة وبدونها ، وكانت ندبة زرقاء تمتد على وجنته إلى أن تختفي وراء شعره الشبيه بألياف القنب . وقد بترت يده اليسرى عند المرفق ، لكن أليكسي معروف بمهارته في لف السيكارة بيد

* الأقطع : ذو الذراع الواحدة . المترجمون .

واحدة . يضغط كيس التبغ على صدره ويقطع الحجم المناسب من الورق بأسنانه ، ويلفه على شكل حوض ، ثم يضع التبغ ويلف السيكارة ، وقبل أن تدرك ما الذي يفعله تجده يسألك ناراً ليشعل سيكارته وهو يطرف بعينه .

وعلى الرغم من أنه ذو ذراع واحدة فإنه أبرع مقاتل في القرية . ولم تكن قبضته ضخمة بصورة متميزة عن القبضات الاعتيادية ـ حوالي حجم القرعة البرية ـ ولكن حدث مرة أن اغاظه ثوره أثناء الحراثة ، ولم يكن يحمل سوطه ، فانهال عليه بضربة من قبضته ، طرحت الثور على أخاديد الأرض المحروثة والدم يتدفق من اذنيه . ولم يستعد الثور صحته إلا بعد جهد . أما الأخوان الآخران ، مارتن وبروخور فقد كانا يشبهان اليكسي حتى في أدق التفاصيل . كانا قصيرين قويين ، مثله ، وعريضي المنكبين ، سوى أن لكل منهما ذراعين .

حيّا غريغوري الأخوة شامل ، غير أن ميتكا واصل السير مشيحاً بوجهه بحدة . ففي مباريات النزال بالقبضات يوم عيد المرفع لم يظهر اليكسي أي اعتبار لأسنان ميتكا اليافعة . فبضربة قوية ، أصابه في فمه وكانت النتيجة أن بصق ميتكا زوجاً من الاسنان الجيدة على الجليد الازرق الرمادي الذي حفرته كعوب الأحذية الحديدية .

وفيما تقدّم اليكسي ناحيتهما ، غمز خمس مرات .

ـ أتبيع حملك ؟

ـ هل تريد أن تبتاعه ؟

ـ بكم ؟

ـ بزوج من الثيران زائداً امرأتك!

فزر اليكسي عينيه وهزهز طرف ذراعيه وقال :

ـ إنك لشخص هزلي! هأ ـ هأ! زائداً امرأتي! هل ستأخذ أولادها أيضاً ؟

فتبسم غريغوري وقال مازحاً :

أبق لنفسك شيئاً للنسل ، وإلا فسينقرض آل شامل .

في ساحة القرية تجمع القوزاق حول سور الكنيسة . وكان حارس الكنيسة يمسك إوزة فوق رأسه ويصيح : خمسون كوبيكا . هل من مزيد ؟ »

ومدت الإوزة عنقها وجعلت تجيل النظر حولها ، بينما حولت عينها الخرزية بازدراء .

وسط إحدى حلقات الناس كان ثمة عجوز أشيب يقف ملوحاً بذراعيه ، وصدره مغطى بالأوسمة والميداليات .

فقال ميتكا مشيراً ناحية تلك الحلقة :

ـ إن غريشاكا العجوز يروي إحدى حكاياته عن الحرب التركية . فلنذهب ونستمع إليه .

ـ وبينما نستمع إليه ، سيجيف الشبوط وينتفخ .

ـ إذا انتفخ ، ازداد وزنه وهذا من صالحنا .

في الساحة الواقعة وراء مأوى عربة الحديقة ـ حيث توجد براميل متشققة ذات مقابض مكسورة ـ كان السقف الاخضر لبيت موخوف يرتفع أمام البصر . حين حاذى غريغوري المأوى بصق وسد أنفه : برز عجوز من وراء برميل وهو يزرر سرواله ويمسك حزامه بين أسنانه .

فسأله ميتكا بسخرية :

ـ هل ضايقتك بطنك كثيراً ؟

فأتم العجوز تزرير سرواله ، وأخرج الحزام من بين أسنانه وقال :

ـ مادخلك أنت ؟

ـ يجب أن يدس به ذقنك ولحيتك ، فلا تستطيع امرأتك أن تنظفه حتى لو قضت أسبوعاً في غسله .

فقال العجوز في حنق :

ـ سأدستك أنت فيه!

فضيق ميتكا عينيه الشبيهتين بعيني القط ، وكأنما في وهج الشمس .

ـ يالرقتك! أغرب عنّي ياابن العاهرة . فيم تضايقني ؟ أترغب أن تتذوق طعم حزامي ؟

تضاحك غريغوري وتقدّم صوب مدخل بيت موخوف . كان الدرابزين تزينه ضفائر غزيرة من أغصان الكروم البرية ، بينما تظللت الدرجات بظلال كسلى .

ـ انظر كيف يعيش بعض الناس ياميتكا!

ـ حتى مقبض الباب مذهب...

وضحك ميتكا ضحكة قصيرة فيما كان يفتح الباب المؤدي الى الشرفة ، واستطرد :

ـ تصوّر ذلك العجوز وهو يدخل هنا...

ونادى شخص من الجهة الاخرى للباب : «من هناك ؟ » فدخل غريغوري بحياء ، بينما ترك ذيل الشبوط أثراً على ألواح الأرضية المطلية .

ـ من تريد ؟

كانت ثمّة فتاة تجلس في كرسي هزّاز مصنوع من خشب الصفصاف ، وبيدها صحن من الفراولة . وحملق غريغوري بصمت في الشفتين الممتلئتين الورديتين المرسومتين على شكل قلب تحتضنان ثمرة . ونظرت الفتاة الى الفتيين ورأسها مائل الى جانب .

أسرع ميتكا لنجدة غريغوري . فتنحنح وهو يسأل :

ـ أتريدون شراء شيء من السمك ؟

ـ سمك ؟ سأذهب لأستفسر .

وأرجحت كرسيها صعداً ، ثم نهضت وخرجت تصفق بخفيها المطرزين . وتلألأت الشمس خلال ثوبها الأبيض ، ورأى ميتكا معالم باهتة لساقين ممتلئتين ودانتلا قميصها الداخلي العريض المتموج . وأذهله البياض الحريري لسمانتي ساقيها العاريين . أمّا عند كعبيها المكورين الصغيرين ، فقد كان الجلد أصفر بلون الحليب . وقال لاكزاً غريغوري :

ـ انظر أي ثوب! مثل الزجاج تستطيع أن ترى كل شيء خلاله .

وعادت الفتاة من الباب المؤدي الى الممر ، وجلست برشاقة على الكرسي .

ـ اذهب إلى المطبخ .

فسار غريغوري على رؤوس أصابعه داخل البيت . ووقف ميتكا يطرف محملقاً في الخط الأبيض لمفرق شعر الفتاة المقسوم إلى نصفي حلقة ذهبية . وتفحّصته هي بعينين مرحتين لا يقر لهما قرار .

ـ أنت من القرية ؟

ـ نعم .

ـ ابن من أنت ؟

ـ ابن كورشونوف .

ـ وما اسمك ؟

ـ ميتري!

وتفحصت أظافرها الوردية بتمعّن ، وبحركة رشيقة ثنت ساقيها الى أعلى .

ـ من منكما اصطاد السمكة ؟

ـ صديقي غريغوري .

ـ وهل تصيد السمك أنت أيضاً ؟

ـ عندما تحدوني الرغبة .

ـ بالخيط والصنارة ؟

ـ نعم .

بعد برهة ، قالت :

ـ أود لو أذهب للصيد يوماً ما .

ـ حسناً ، سآخذك إن رغبت .

ـ حقاً ؟ وكيف يمكننا ترتيب ذلك ؟

ـ يستوجب عليك أن تستيقظي مبكّرة جداً .

ـ سوف أستيقظ مبكّرة ، سوى أن عليك أن توقظني .

ـ بإمكاني أن أفعل هذا . ولكن ماذا عن أبيك ؟

ـ ماذا عن أبي ؟

فتضاحك ميتكا وقال :

ـ قد يحسبني لصاً ويطلق الكلاب عليّ .

ـ هراء! فأنا أنام في الغرفة التي في الزاوية . تلك هي النافذة ـ وأشارت إليها ، واستطردت : ـ اذا جئت تطلبني ، دق على النافذة فأستيقظ .

وبين حين وآخر كان يأتي من ناحية المطبخ صوت غريغوري متهيباً ، ونبرة الطباخة الغليظة المتشحمة . وصمت ميتكا وهو يتحسس فضة حزامه .

ثم سألته بابتسامة خفية :

ـ أنت متزوج ؟

ـ لماذا ؟

ـ اوه ، مجرّد فضول .

ـ كلا ، أنا أعزب .

واحمر وجه ميتكا فجأة ، أمّا هي فعادت تسأله وهي تبتسم في غنج وتعابث غصناً من التوت الشتائي* المتناثر على الأرضية :

ـ وهل تحبّك الفتيات يا ميتيا ؟

ـ بعضهن يحببنني وبعضهن لا يحببنني .

ـ قل لي... ولماذا تشبه عيناك عيني القط ؟

ـ القط ؟

وهنا بلغ ارتباك ميتكا أشدّه .

ـ أجل ، فهما بالضبط كذلك ، كعيني القط .

---

* التوت الشتائي : المزروع في المنابت الزجاجية . المترجمون .

ـ لابد أنني ورثتهما عن أمي . ليس لي حيلة في الأمر .
ـ ولماذا لايزوجونك يا ميتيا ؟

وأفاق ميتكا من اضطرابه العارض ، وقد أحس بالسخرية الخفية في كلماتها ، وراح صفار عينيه يومض وقال :

ـ لابد للديك أن يشتد عوده قبل أن يبحث له عن دجاجة .

فرفعت حاجبيها دهشة ، واحمر وجهها ، ونهضت عن كرسيها . وكان ثمّة وقع أقدام ترتقي الدرجات من الشارع .

لقد لسعت ابتسامتها العابرة ميتكا كالشوكة . ومرّ بميتكا رب البيت ، سيرغي بلاتونوفيتش موخوف ، حاملاً جسده البدين في اعتزاز ، وهو يجرجر برقّة حذاءه الكبير المصنوع من جلد الجدي .

وتساءل ، فيما كان يمر دونما التفاتة من رأسه :

ـ أيريدني هذا الشخص ؟
ـ لقد جلبا شيئاً من السمك يا بابا .

وظهر غريغوري بدون شبوطه .

٣

كان صياح أول ديك قد انطلق حينما عاد غريغوري من سهرته تلك الليلة . وانبعث من ناحية الردهة عبير الكروم الحامضة ونبات الكرنب الشوكي ذي الرائحة النفّاذة .

مشى على أطراف أصابعه إلى الغرفة ، خلع ملابسه ، وعلّق سروال يوم الاحد بعناية ، ورسم إشارة الصليب واستلقى . كانت على أرضية الغرفة بركة ذهبية من ضوء القمر ، تتقاطع عليها ظلال النافذة . وفي الزاوية التمعت فضة الإيقونات باهتة تحت المناشف المطرزة ، وانبعث من الرف المثبّت فوق السرير طنين متكاسل لذباب مستثار .

وكاد ينام لولا أن ابن اخيه شرع يبكي في المطبخ . وبدأ المهد يصر كعجلة عربة غير مشحمة . وسمع داريا ، زوجة أخيه ، تتمتم بصوت نعسان : «نم أيها الملعون الصغير! أنت لاتدعني أظفر بلحظة هدوء!» وشرعت تترنم للطفل برقّة :

اوه ، أين كنت إذن ؟
كنت أراقب الخيل
وماالذي رأيت ؟
رأيت حصاناً ذا سرج
مقصّباً ، كلّه ، بالذهب...

وفيما غريغوري يغفو على صرير المهد المنتظم المريح ، تذكّر : «غداً ، سيرحل بيوتر إلى المعسكر ، تاركاً داريا مع الطفل... سيتوجّب علينا أن نقوم بالحش بدونه» .

ودفن رأسه في وسادته الحارة ، غير أن تنويمة داريا ظلّت تنفذ إلى إذنه بإصرار :

وأين هو حصانك ؟
خارج البوابة
وأين هي البوابة ؟
جرفها الفيضان بعيداً

وانبعث صهيل قوي أطار من عينيه النوم ، وأدرك من نبرته أنه حصان بيوتر العسكري . وامتدت أصابعه الخدرة ليزرر قميصه بتثاقل ، وكاد أن يلفّه النوم من جديد على وقع أغنية داريا المنساب :

وأين هو الإوز ؟

راح الى القصب
وأين هو القصب ؟
قطعته الصبايا
وأين هن الصبايا ؟
الصبايا تزوجن
وأين هم القوزاق ؟
ذهبوا الى الحرب

توجّه غريغوري النعسان إلى الإسطبل وقاد حصان بيوتر إلى الشارع . وفارقه النعاس من غير ما توقّع حينما دغدغ وجهه نسيج عنكبوت طائر .

عبر الدون ، انتشر ضوء القمر متراقصاً ، لايطاله الموج أبداً . وتعلّق فوق النهر ضباب ، وفوق الضباب نجوم ، كحبات قمح متلألئات . وفي حذر شديد تهجس الحصان طريقه بحوافره ، فالمنحدر إلى النهر صعب الارتياد ، ومن الجانب الأقصى للنهر تناهى صياح البط . وقفزت سمكة قرموط محدثة رذاذاً على الشاطىء الطيني الضحل ، تبحث على غير هدى عن سميكات أصغر .

وقف غريغوري وقتاً طويلاً إزاء النهر . كان الشاطىء ينضح برطوبة وعفونة شديدتين . سقطت من شفتي الحصان رذاذة ماء . كان ثمة فراغ رقيق وبهيج في فؤاد غريغوري ، وغمره شعور بالطيبة وصفاء البال . وفيما انثنى عائداً حدق صوب الشرق حيث شرعت عتمة الليل الزرقاء تنجاب رويداً رويداً .

والتقى بأمه عند الاصطبل .

ـ أهذا أنت ياغريشا* ؟

---

* صيغة تحبب لاسم غريغوري . المترجمون ، .

ـ ومن عسى أن يكون ؟

ـ هل أوردت الحصان ؟

فأجابها باقتضاب أن : «نعم» . وألقت أمه رأسها إلى الوراء وهي تحمل ملء صدريتها روثاً جافاً للموقد ، وقدماها الحافيتان المتيبستان تصطفقان على الأرض .

ـ هلاّ ذهبت لإيقاظ آل استاخوف . فقد قال ستيبان أنه سيمضي مع ولدنا بيوتر .

وأشاعت رطوبة الصباح قشعريرة باردة راعشة في غريغوري ، وسرت في جسمه وخزات مخدرة . وجرى صاعداً الدرجات الثلاث ذات الصدى المتجاوب الى دار استاخوف . كان الباب مرفوع المزلاج ، وكان ستيبان نائماً على فرشة في المطبخ ورأس زوجته تحت إبطه .

وعلى ضوء الفجر الشاحب رأى غريغوري قميص نوم اكسينيا منحسراً فوق ركبتيها ، ونظر إلى ساقيها المنفرجتين بلا حياء بيضاوين كلحاء نبات البتولا . فوقف لحظة يحملق ، وهو يحس بجفاف يزحف في حلقه ودوي حديدي يتفجّر في رأسه . جعل يسترق النظر . ثم نادى بصوت أجش غريب :

ـ هاي! هل من أحد هنا ؟ استيقظوا!

وتنهدت اكسينيا بعمق وهي تستيقظ .

ـ اوه ، من هذا ؟

ومدت يدها العارية وشرعت تتحسس قميصها باستعجال ، مسوّية إياه فوق ساقيها . وكان ثمّة قطرة صغيرة من الرضاب على وسادتها : فنوم النساء عميق عند الفجر .

ـ هوذا أنا . أرسلتني أمّي لأوقظكما .

ـ سننهض بعد لحظة . إننا نائمان على الأرض بسبب من البراغيث . قم يا ستيبان ، ألا تسمعني ؟

وخمّن غريغوري من صوتها أنها شعرت بالحرج ، فأسرع بالخروج .

* * *

ثمّة ثلاثون قوزاقياً سيذهبون الى معسكر ربيعي للتدريب ومكان اجتماعهم ساحة القرية . وقبيل الساعة السابعة بدأت تتوارد على ساحة القرية عربات ذات أغطية مشمعية ، وقوزاق مشاة وخيّالة يرتدون قمصاناً خفيفة ويحملون عُددهم .

كان بيوتر واقفاً عند عتبة الدار وهو يخيط باستعجال عناناً مقطوعاً . وكان بانتلاي بروكوفيتش يظلع حول حصان بيوتر ، ويضع شوفاناً في معلفه ، ويصيح من حين لآخر :

ـ دونيا ، ألم تضعي كسرات الخبز في الكيس بعد ؟ هل ملّحت شرائح لحم الخنزير ؟

وكانت دونيا تنطلق كالسنونو رائحة غادية ، متوردة الوجنتين ومتفتحة كالبرعم ، وهي ترد على صيحات أبيها بالضحك :

ـ عليك بما يخصّك يا أبتاه ، وأنا سأحزم متاع أخي بصورة متقنة بحيث لن يتحرّك منه شيء حتى يصل تشركاسك .

وسأل بيوتر والده وهو يومىء برأسه الى الحصان ويبلل الخيط برضابه :

ـ ألم ينته من طعامه بعد ؟

فأجاب أبوه متأنياً : «لم ينته بعد »فيما كان يفحص مرشحة السرج بكفه الخشن ، فإن وجود عشبة أو كسرة خبز صغيرة عالقة بالمرشحة قمينة ، خلال مسيرة واحدة ، بحز ظهر الحصان وجعله يتقيّح .

ـ حينما ينتهي من طعامه ، أورده ياأبي .

ـ سينزل به غريشا الى الدون . ياغريغوري قد الحصان إلى النهر!

أخذ غريغوري الحصان الطويل الضامر ، ذا الغرّة البيضاء ، وقاده خلال البوابة ، ثم قفز إلى ظهره مسنداً يده اليسرى برفق على غاربه ، ومضى في

خبب متمايل . وحاول أن يكبح جماح الحصان عند النزول الى النهر ، غير أن الحيوان أسرع الخطى وجرى نازلاً المنحدر . وفيما أرجع غريغوري ظهره إلى الوراءحتى كاد أن ينطبق على العمود الفقري للحصان ، رأى امرأة تحمل سطلين نازلة التل . فانحرف بحدّة عن الممشى وانطلق الى الماء مخلفاً وراءه مثاراً من النقع .

جاءت اكسينيا هابطة المنحدر وهي تتمايل ، وصاحت بصوت زاعق من بعيد :

ـ أيها الشيطان المجنون! كدت تدحرجني بحصانك . ألا انتظر ، فلسوف أحكي لوالدك كيف تركب .

ـ لا ياجارتي ، لا تغضبي . فحينما تودعين زوجك الذاهب الى المعسكر ، قد أكون ذا فائدة في بيتك .

ـ وكيف بحق الشيطان ستكون ذا فائدة لي ؟

وتضاحك غريغوري قائلاً :

ـ ستطلبينني حينما يحل موسم الحصاد .

وغرفت اكسينيا بمهارة سطلاً مليئاً بماء النهر ، وحبست تنورتها بين ركبتيها لتحميها من الريح ونظرت إلى غريغوري .

سألها غريغوري :

ـ هل تهيأ ستيبان للرحيل ؟

ـ وما دخلك أنت ؟

ـ أية نارية أنت! ألا يجوز السؤال ؟

ـ حسناً ، لقد تهيأ . ثم ماذا ؟

ـ إذن ستصبحين امرأة بلا رجل ؟

ـ نعم .

رفع الحصان شفتيه من الماء ، صرّ بأسنانه وهو يحاول أن يلوك الماء وضرب سطح الماء بحافره الأمامي شاخصاً عبر الدون . أمّا اكسينيا فقد

ملأت سطلها الثاني ، ورفعت النير الى كتفيها ، وبخطوات متمايلة جعلت ترتقي المنحدر ، فأدار غريغوري حصانه وتبعها في حين خفقت الريح بتنورتها وتعابثت بجعدات شعرها اللطيف الناعم على رقبتها السمراء . وتوهجت عصابتها المطرزة بالحرير الملون فوق عقصتها الغزيرة ، والتم قميصها الوردي في تنورتها عند الخصر ، والتصق في نعومة بظهرها المنتصب وكتفيها المرصوصين . وبينما كانت تتسلق المرتقى انحنت إلى الأمام ، فبان المنخفض مابين كتفيها واضحاً تحت قميصها ، ورأى غريغوري حلقات إبطها السمر ، حيث تبقّع قميصها بالعرق . وظل يراقبها في كل لحظة ، وألحّت عليه الرغبة في مواصلة الحديث معها .

ـ ستفتقدين زوجك ، أليس كذلك ؟

وبدون أن تتوقف ، التفتت اكسينيا وتبسمت .

ـ بالطبع سأفتقده . تزوّج أنت وسترى ما إذا كنت ستفتقد حبيبتك أم لا .

قالت هذا بصوت متقطّع وهي تتنفس بصعوبة .

واقترب غريغوري بحصانه منها حتى حاذاها ، ونظر في عينيها .

ـ ولكن ثمّة زوجات أخريات يسعدن بذهاب أزواجهن . فهذه داريا ستسمن في غياب بيوتر .

ارتجف منخرا اكسينيا من شدّة تنفسها وسوّت شعرها وقالت :

ـ ليس الزوج دودة علق ، مع أنّه يمتص الدم .

ثم تساءلت :

ـ هل سنراك متزوجاً عمّا قريب ؟

ـ أنا لاأدري ، فالموضوع يعتمد على والدي . ربّما بعد خدمتي العسكرية .

ـ لازلت يافعاً ، فلا تتزوج .

ـ ولم لا ؟

ـ الزواج ضجر لاغير .

وتطلعت من تحت حاجبيها ، وابتسمت بكآبة دون أن تنفرج شفتاها . فلاحظ غريغوري لأول مرة أن لها شفتين شرهتين بلا حياء وممتلئتين نوعاً ما . وأجاب وهو يمرر أصابعه على عرف الحصان :

ـ أنا لا أريد أن أتزوج . فثمّة من ستحبني دونما زواج .

ـ هل لاحظت واحدة ، إذن ؟

ـ من عساي ألاحظ ؟ فها أنت الآن وأنت تودعين زوجك...

ـ لاتحاول أن تتعابث معي!

ـ وما الذي ستفعلين إن حاولت ؟

ـ سأخبر ستيبان .

ـ وأنا سألقّن ستيبان هذا درساً...

ـ أنت معتد بنفسك كالديك ، ولكن إياك أن تكون أول من يصيح .

ـ لا تحاولي أن ترهبيني يا اكسينيا!

ـ أنا لا أحاول إرهابك . تعابث مع الفتيات ، وليطرزن لك مناديلك ، ولكن اصرف نظرك عنّي .

ـ سأنظر إليك أكثر الآن .

ـ حسناً ، فانظر إذن .

وأعطته اكسينيا ابتسامة مصالحة ، وحادت عن الممشى محاولة المرور من جانب الحصان . فأدار غريغوري الحصان جانباً وسدّ عليها الطريق .

ـ دعني أمر ياغريشا .

ـ لن أدعك .

ـ لاتكن أحمق ، فيجب أن أعين زوجي .

فاستفز غريغوري الحصان مبتسماً ، وحاصر اكسينيا عند الضفة ، فقالت :

ـ دعني أمر أيها الشيطان! فثمّة اناس فوقنا . ماذا عساهم يظنون لوشاهدونا ؟

وتلفتت حولها في نظرة وجلة ، وتخطّته مقطبة دون أن تلتفت الى الخلف .

كان بيوتر يودّع عائلته عند درجات الباب . فأسرج غريغوري الحصان .وأسرع أخوه هابطاً الدرجات وهو يشد على سيفه إلى جانبه وأمسك بالأعنّة . وراوح الحصان في اضطراب وهو يتحسس بالطريق الطويل ، وجعل يلوك اللجام . وقال بيوتر لأبيه وقد وضع قدماً في الركاب وأمسك بالسرج :

ـ لا ترهق الخيل ذوات الطرر البيض ياأبي ، فإننا سنبيعها في الخريف . وسيحتاج غريغوري إلى حصان في الجيش ، كما تعلم . ولا تبع حشائش السهب . فأنت نفسك تعلم أي تبن قد نحصل عليه من المرج هذا العام .

فأجاب العجوز راسماً إشارة الصليب :

ـ حسناً… ليكن الله معك . حظّاً سعيداً .

فألقى بيوتر بجسمه الصلب على السرج بحركة معتادة ، وسوّى طيّات قميصه في نطاقه من الخلف . وتحرّك الحصان صوب البوابة ، واهتز السيف بإيقاع فيما كانت رمانته تتلامع باهتة في ضوء الشمس .

وتبعته داريا والطفل على ذراعيها ، بينما وقفت أمه وسط الحوش تمسح عينيها بكمها وأنفها بطرف صدريتها .

ومرقت دونيا الى البوابة تصيح :

ـ يا أخي! الفطائر! لقد نسيت الفطائر! فطائر البطاطة!

صاح بها غريغوري متضايقاً :

ـ فيم هذا الزعيق ، ياحمقاء ؟

ـ لقد ترك فطائره وراح ـ وانتحبت دونيا مستندة الى عمود البوابة ، وجرت الدموع على خديها الملتهبين وسالت على بلوزتها البسيطة .

وظللت داريا عينيها بكفها ، ووقفت تشخص إلى قميص زوجها الأبيض خلال ستار من التراب . وهز بانتلاي بروكوفيتش العجوز عمود البوابة المتهرىء ، ونظر إلى غريغوري قائلاً :

ـ أصلح البوابة ، وضع عموداً جديداً لها . ـ ووقف لحظة يفكّر ، ثم أعلن كما تعلن الأخبار : ـ رحل بيوتر .

ورأى غريغوري ستيبان ، عبر السياج المضفور ، يتهيأ للرحيل ، بينما أخرجت اكسينيا حصانه ، وهي ترتدي تنورة صوفية خضراء جميلة . وقال لها ستيبان شيئاً وهو يبتسم ، ومن غير ما استعجال قبّل زوجته باعتداد ، وترك ذراعه حول كتفها لوقت طويل . وبدت يده التي لفحتها الشمس والأشغال المرهقة سوداء كالفحم إزاء قميصها الأبيض . كان يقف وظهره صوب غريغوري ، ورقبته القائمة الحليقة ، وكتفاه العريضتان المتهدلتان بعض الشيء ، وذؤابة أحد شاربيه المفتولين ، تبدو عبر السياج كلّما مال على زوجته .

وضحكت اكسينيا لشيء ما وهزّت رأسها بالنفي . وتمايل الجواد الضخم الأدهم قليلاً حينما ألقى ستيبان جرمه الثقيل على السرج . ومضى بحصانه عبر البوابة مستعجلاً ، وقد بدا وكأنّه مزروع على السرج ، وسارت اكسينيا إلى جانبه وهي تمسك بالركاب وتنظر كالكلبة في عينيه من أسفل الى أعلى بوجد ونهم .

وظل غريغوري يراقبهما بنظرة طويلة لاتطرف حتى مرّا ببيت مجاور واختفيا وراء منعطف الطريق .

٤

قبيل المساء بدأت عاصفة رعدية ، وامتدّت طبقة من السحب الثقيلة فوق القرية . وأهاجت الريح نهر الدون فجعل يرسل أمواجاً كاسرة مزبدة صوب ضفتيه ، وأومضت السماء ببرق جاف ، وبين آونة وأخرى كانت الأرض تهتز بقصف الرعد . وحوّمت حدأة بجناحين منشورين تحت الغيوم ، وطاردتها غربان ناعقة . وعبرت الغيمة نهر الدون من الغرب ، ناشرة

أنفاسها الباردة . وادلهمّت السماء متوعدة وراء المروج ، وامتد السهب في صمت وترقّب . وفي القرية ، كان ثمّة اصطفاق ينبعث من صفاقات النوافذ المغلقة ، وأسرعت العجائز عائدات الى بيوتهن من صلاة المغرب وهن يرسمن علامة الصليب . ودوّم عمود رمادي من الغبار فوق ساحة القرية ، وكانت أولى قطرات المطر تهبط على الأرض التي أرهقها الحر الربيعي .

جرت دونيا عبر الحوش ، هازة ضفائرها المجدولة ، وصفقت باب بيت الدجاج ، ووقفت وسط الحوش ومنخراها منتفخان كحصان يتهيأ لطفر الموانع . وفي الشارع كان الأطفال يتقافزون هنا وهناك . وكان ميشكا ابن الجار ، ذو الثمانية أعوام ، يدور حول نفسه على رجل واحدة ، وقبعة أبيه الواسعة بشكل غير معقول تغطّي رأسه حتّى عينيه ، ويهزج بصوت حاد :

رُخْ ، رُخْ ، يامطر
فنحن خارجون
لنوفي ربّنا النذر
ولننحني للمسيح

راقبت دونيا بغبطة قدمي ميشكا الحافيتين الخشنتين تضربان الأرض . هي ، الأخرى ، ودّت لو ترقص في المطر وتبلل رأسها ، كي يغزر شعرها ويتجعّد ، وهي ، الاخرى ، ودّت لو تقف على يديها فوق التراب على جانب الطريق ، كما يفعل صديق ميشكا ، مجازفة بالسقوط على الاعشاب الشوكية . لكنّ أمها كانت تراقبها وتحرّك شفتيها مُغضبة من وراء الشبّاك . فتنهدت وجرت إلى الدار . وكان المطر آنذاك ينهمر بغزارة ، وقرقع رعد فوق سطح الدار تماماً ، ثم انحدر مبتعداً عبر الدون .

في الممر كان بانتلاي بروكوفيتش وغريغوري الناضح عرقاً ، يجرجران شبكة صيد ثقيلة ملفوفة من الغرفة الجانبية .

وصاح غريغوري على دونيا : «هاتي خيطاً غليظاً ومخيطاً ، بسرعة!»

وأشعلوا المصباح في المطبخ . وقعدت داريا لتصلح الشبكة . وتأففت حماتها فيما كانت تهزهز الطفل :

ـ ماذا في دماغك يارجل! فلنذهب إلى الفراش . لقد زادت كلفة الكاز أكثر وأكثر وأنت لاتبخل به . فما عساكم تصيدون الآن ؟ وأين تراكم ذاهبون بحق الطاعون ؟ قد تغرقون ، انظروا إلى ما يجري في الحوش! فغضب الله مسلّط على رؤوسنا . ياللبرق الرهيب! ياسيدي عيسى المسيح ، ياأم السماوات...

ولبرهة ، كان كل شيء أزرق زاهياً وساكناً داخل المطبخ ، وكان بالإمكان سماع المطر ينقر صفاقات النافذة . وتلا ذلك قصف الرعد . فندت عن دونيا شهقة متكسرة وأخفت وجهها في الشبكة . ورسمت داريا علامة الصليب إزاء النوافذ والباب . وحملقت العجوز بعينين مخيفتين في القطة المتمسحة برجليها :

ـ دونيا ، اطردي هذه الملعونة... يا أم السماوات ، اغفري لي ذنوبي... دونيا ، أخرجي القطة إلى الحوش . بست ، ياروح الشر! فلتنزل عليك...

واهتز غريغوري في ضحك صامت وهو يلقي الشبكة .

ـ حسناً ، فيم ضجيجك هذا ؟ ـ صاح بانتلاي بروكوفيتش ، وأردف : ـ أسرعن بعملكن يانسوة . لقد أخبرتكن ذاك اليوم أن تعنين بالشبكة .

فتجرأت زوجته قائلة :

ـ ليس ثمّة سمك في الوقت الحاضر .

ـ إن كنت لا تفهمين ، فأمسكي لسانك! سنصيد أسماك الحفش الصغيرة في الأماكن الضحلة . ستجنح أسماك الحفش الصغيرة نحو الضفاف الآن ، فهي تخاف العواصف . ولابد أن يكون الماء طينياً الآن . دونيا ، اخرجي لتتسمعي إلى المجرى فيما إذا كان سريعاً .

فتقدمت دونيا صوب الباب في تردد .

أما الأم فما كان لها إلا أن تسكت ، وألحّت قائلة :

ـ ومن الذي سيخوض معك ؟ داريا لا يجب أن تفعل ذلك ، فقد يصيب البرد صدرها .

ـ أنا وغريغوري ، وأما بشأن الشبكة الاخرى... فسننادي على اكسينيا وامرأة أخرى .

وجرت دونيا الى الداخل منقطعة الانفاس ، وقد علقت بأهدابها قطرات مطر متراقصة ، وفاحت منها رائحة التراب الأسود الرطب . وقالت لاهثة :

ـ إن المجرى يهدر أيما هدير .

ـ هل تأتين أنت أيضاً ؟

ـ ومن غيري ذاهب ؟

ـ سنأخذ بعض النساء .

ـ حسن .

فقال لها أبوها :

ـ ضعي عليك معطفك واجري الى اكسينيا . فإن رغبت في المجيء معنا ، اطلبي منها أن تحضر مالاشكا فرولوفا أيضاً .

فقال غريغوري بابتسام :

ـ أمّا تلك ، فلن يجمدها البرد ، فهي سمينة كالخنزير .

أسدت أم غريغوري نصيحة إليه : ـ لم لا تأخذ شيئاً من القش ، غريشا أيها العزيز ؟ احش بعضاً منه تحت قلبك ، وإلا ستصيبك نزلة في داخلك .

ـ أجل ياغريغوري ، اذهب وأحضر بعض القش ، فالعجوز على حق بين .

عادت دونيا بسرعة مع المرأتين . وبدت اكسينيا بتنورتها الزرقاء وسترتها الممزقة والمحزومة بحبل ، أقصر وأكثر نحافة . وفيما كانت تتبادل الضحكات مع داريا ، نزعت عصابة رأسها . ولفّت شعرها في عقصة أكثر إحكاماً ، وإذ كانت تلقي برأسها الى الوراء حين وضعت عصابتها على رأسها

من جديد ، شخصت ببصرها الى غريغوري في برود . وقالت مالاشكا البدينة بصوت مبحوح وهي تشد جوربيها :

ـ هل أحضرتم الاكياس ؟ قسماً بالرب سنصطاد السمك عن آخره ، اليوم .

وذهب الجميع الى الحوش . كان المطر لا يزال ينهمر بغزارة على الأرض المنقوعة ، تاركاً على البرك زبداً ، ومتدفقاً صوب الدون في جداول .

قادهم غريغوري في طريق النزول إلى النهر . ومن غير ما سبب ، أحس فجأة بالمرح الشديد .

ـ حذار من الحفرة ، ياأبتي .

ـ ما أشد الظلمة!

وقالت مالاشكا متضاحكة بصوت خشن :

ـ تشبثي بي ، يااكسينيا . سنهلك معاً .

ـ أليس هذا هو مرسى ميدانيكوف ، ياغريغوري ؟

ـ هو بالذات .

وصاح بانتلاي بروكوفيتش فوق زئير الريح :

ـ ابدأوا من هنا .

وانطلق صوت مالاشكا الأجش :

ـ لا أستطيع أن أسمعك ياعم .

ـ ابدأوا بالخوض والله في عونكم ، وأنا سآخذ الجانب العميق... العميق... أقول يامالاشكا ، أيتها الشيطانة الصماء ، الى أين تجرجرين الشبكة ؟ ها أنا ذاهب نحو الجوانب العميقة... غريغوري ، غريشا ، دع اكسينيا تأخذ جانب الضفة!

ويزأر الدون زئيراً مزمجراً ، والريح تمزّق صفحة المطر المائل شذر مذر .

خاض غريغوري ، متحسساً القاع بقدميه ، حتّى بلغ الماء خصره . وزحفت إلى صدره برودة ثقيلة ، حتّى ضيقت الخناق على قلبه ، وكانت الأمواج تضرب وجهه وعينيه المخاوصتين بإحكام ، كما يضرب السوط . وتجوفت الشبكة وانجرفت نحو الاعماق وتزحلقت قدما غريغوري الملفوفتان بجوارب صوفية فوق القاع الرملي . انفلتت الشبكة من يده ، أعمق فأعمق . وهوى فجأة ، وانجرفت ساقاه . ثم انتشله التيار وحمله إلى وسط المجرى . فراح يجذف بذراعه اليمنى بعنف عائداً الى الضفة . لقد أخافته الأعماق المدوّمة السوداء كما لم تخفه من قبل . وتحسست قدماه ، فرحتين ، القاع الطيني . واصطدمت سمكة بركبتيه .

ـ خذها إلى الأعماق! ـ هكذا تناهى إليه صوت أبيه من الظلمة المخيفة .

ومرة أخرى غاصت الشبكة المائلة إلى الأعماق ، ومن جديد جرف التيار قدمي غريغوري عن القاع ، وسبح نافثاً الماء رافعاً رأسه .

ـ اكسينيا ، هل أنت بخير ؟

ـ بخير ، حتّى الآن .

ـ ألن يتوقف المطر ؟

ـ بلى ، سيتوقف الرذاذ ، ليبدأ فوقنا المطر الثقيل .

ـ تكلمي بهدوء . فلو سمعنا أبي ، فسيصب جام غضبه عليّ .

ـ خائف من أبيك . هه ؟

مرت لحظة ، وهما يجرجران الشبكة في صمت . ويحول الماء دون أي حركة مثل عجين لزج .

ـ غريشا ، ثمّة شجرة غريقة إزاء الضفة ، كما أتصوّر! لابد لنا أن نجنّب الشبكة منها .

وطوّحت غريغوري موجة لاطمة فظيعة الى بعد كبير عنها . بدا وكأن كتلة هائلة من التراب قد انفصلت عن الجرف وهوت في الماء فأثارت موجة صاخبة .

ـ آه ـ آه ـ صاحت اكسينيا من مكان ما قرب الضفّة . فشرع غريغوري يسبح ، باتجاه صياحها والرعب يتملكه .

ـ اكسينيا!

ريح ، وزئير الماء الدفوق .

ـ اكسينيا! ـ صاح غريغوري ثانية ، ورعشة الخوف تغشاه .

ـ ايه ، غريغوري ـ تناهى إليه صوت أبيه من بعيد . وصار يضرب الماء بضراوة . تحسس شيئاً لزقاً تحت قدميه ، فأمسكه بيده : لقد كانت الشبكة .

وجاء صوتها مختنقاً بالدموع : «غريشا ، أين أنت ؟» فزعق غاضباً فيما كان يحبو على يديه وركبتيه صاعداً الى الضفة :

ـ لم لم تجيبي ندائي ؟

وأخذا يسوّيان الشبكة الملتفة المشربكة ، جالسين القرفصاء على أعقابهما وهما يرتجفان . وأطل القمر خلال فرجة مشروخة لإحدى الغيمات . كان ثمة همهمة مكتومة للرعد فيما وراء المروج ، وتلامعت الأرض بالبلل ، وبدت السماء ، غب استحمامها بالمطر ، صاحية باردة .

وبينما كان غريغوري يفك الشبكة ، تفرّس في اكسينيا . كان وجهها أبيض كالطباشير ، لكنّ شفتيها الحمراوين الغليظتين قليلاً كانتا تبتسمان . وكانت تقول بصوت منقطع لتستعيد أنفاسها :

ـ ليتك رأيت كيف ارتطمت بالضفّة! كدت أفقد عقلي . كنت خائفة حتّى الموت . فقد ظننت أنك قد غرقت .

تلامست يداهما ، وحاولت اكسينيا أن تدس يدها في كم قميصه .

ـ ما أدفأ ذراعك ـ قالت ذلك متشكية وأضافت : ـ فأنا جمدانة! والقشعريرة تسري في جسمي .

ـ انظري كيف انفلت هذا النغل ، ـ وأطلعها غريغوري على ثقب في وسط الشبكة ، قطره أكثر من متر .

وجاء شخص راكضاً على الضفّة . وخمّن غريغوري أنها دونيا ، فصاح عليها من بعيد :

ـ هل جلبت الخيط ؟

أجابت دونيا وهي تقترب منهما لاهثة :

ـ أجل ، لماذا جالسان هنا ؟ لقد أرسلني أبي إليكما لتذهبا في الحال إلى رأس الضفة ، لقد صدنا ملء الكيس حفشاً صغيراً .

وكان في صوتها رنّة انتصار جلي .

رتقت أكسينيا الثقب في الشبكة ، وأسنانها تصطك برداً . ولأجل أن يدفأوا ، قطعوا المسافة إلى رأس الضفة ركضاً .

كان بانتلاي بروكوفيتش يلف سيجارة بأصابع متشققة ، ومتورمة من الماء . وقال متفاخراً ، وهو يحرك قدميه كأنه يرقص :

ـ في المرة الأولى ، ثماني سمكات ولكن في المرة الثانية ... ـ وتوقف برهة يشعل سيجارته ، ثم أشار بقدمه إلى الكيس دون أن يقول شيئاً . فنظرت أكسينيا بفضول إلى داخل الكيس ، حيث انبعثت منه حسحسة السمك المضطرب ، يتزحلق بعضه فوق بعض .

ـ أين كنتما ؟

ـ لقد أحدثت سمكة قرموط ثقباً في شبكتنا .

ـ هل أصلحتماها ؟

ـ نعم ، بصورة ما .

ـ طيب . سوف نخوض مرة أخرى إلى ركبنا ، ومن ثم إلى الدار . انزل ياغريشا ، ماذا تنتظر ؟

وخطا غريغوري نحو النهر وساقاه خدرتان . وكانت أكسينيا ترتعش بشدة حتى أنه شعر بالشبكة تهتز معها .

ـ لاترتعشي!

ـ بودي لو استطعت ، لكن ستختنق أنفاسي .

ـ أصغي إلي! فلنخرج ، وعلى السمك اللعنة!

وفي تلك اللحظة وثب فوق الشبكة شبوط كبير ، فضيق غريغوري دائرة الشبكة . وتحاملت أكسينيا على نفسها حتى بلغت الضفة . وعلى الرمال تناثرت المياه ثم كرت منحسرة ، بينما استلقى السمك مرتعشاً في الشبكة .

ـ هل سنعود عن طريق المرج ؟

ـ العودة أقرب عبر الغابة . هاي ، أنتم ، يامن هناك . هل أنتم قادمون ؟

ـ اذهبا قبلنا . سنلحق بكما . فنحن نقوم بتنظيف الشبكة .

عصرت أكسينيا تنورتها ، عابسة الوجه ، وألقت كيس السمك على كتفها وانطلقت راكضة . التقط غريغوري الشبكة . وكانا قد قطعا حوالي مائتي خطوة حين بدأت أكسينيا تئن :

ـ لم أعد أقوى على السير ، فساقاي خدرتان .

ـ انظري ، ثمة كومة قش عتيقة . لماذا لاتتدفأي فيها ؟

ـ شيء حسن! وإلا لن أصل بيتي .

فأزاح غريغوري ذروة الكومة وحفر حفرة ، فانبعثت من القش المتروك زمناً طويلاً رائحة دفء وعفونة .

ـ ازحفي إلى الوسط إنه كالفرن هنا . فألقت عنها الكيس ودفنت نفسها بالقش حتى الرقبة .

واستلقى غريغوري إلى جانبها وهو يرتعش من البرد وانبعثت رائحة لطيفة مثيرة من شعرها المبلل . كانت قد استلقت ورأسها ملقى إلى الوراء وهي تتنفس بانتظام من فمها المنفرج . همس غريغوري مائلاً نحوها :

ـ إن لشعرك رائحة كرائحة السيكران . أتعرفين تلك الزهرة البيضاء ؟

التزمت الصمت . كانت نظرتها غائمة وبعيدة ، ومثبتة على الهلال الأفل .

أخرجَ غريغوري يده من جيبه ، وجذب رأسها إليه فجأة . فانتزعت نفسها منه بعنف . وقامت من القش .

ـ تخلّ عني!

ـ اهدأي .

ـ تخلّ عني ، وإلا صرخت !

ـ انتظري ياأكسينيا!

ـ ياعمي بانتلاي! وانبعث بانتلاي بروكوفيتش قريباً جداً ، من وراء أجمة من شجيرات الزعرور البري :

ـ هل ضللت الطريق ؟

فقفز غريغوري من كومة القش وهو يصر بأسنانه . وتساءل العجوز من جديد وهو يتقدم نحوها :

ـ فيمَ صراخك ؟ هل تهت ؟

فوقفت أكسينيا إزاء كومة القش تصلح من وضع عصابتها ، والبخار يتصاعد من ملابسها .

ـ لم أته ، ولكني أكاد أتجمد .

فقال لها العجوز :

ـ انظري ياامرأة ، ثمة كومة قش ، تدفأي فيها . وتبسمت أكسينيا وهي تنحني لترفع الكيس .

٥

يبعد معسكر التدريب في قرية سيتراكوفو حوالي ٦٠ فرستا* . وقد ركب بيوتر ميليخوف وستيبان ستاخوف في عربة واحدة ، وكان برفقتهما ثلاثة

---

* فرستا : مقياس طول روسي قديم ، يساوي ١,٠٦ كيلومتر . المترجمون .

آخرون من قريتهم : فيدوت بودوفسكوف ، وهو قوزاقي شاب له وجه كالميكي مجدور ، وكريسانف توكين الذي يلقب بكريستونيا وهو جندي احتياط من الوجبة الثانية في كتيبة حرس الأتمان* ، وإيفان توميلين ، المدفعي الذي كان يتوجه الى قرية بريسيانوفكا . وبعد أن توقفوا لإطعام الأحصنة ، شدوا حصاني كريستونيا وأستاخوف إلى العربة ، واقتيدت الخيول الأخرى وراءها ، وأمسك بالأعنة كريستونيا ، وهو قوي البنية ، غريب الأطوار نوعاً ما ، كأغلبية أفراد كتيبة الأتمان . فجلس في مقدمة العربة ، محني الظهر كالعجلة ، حاجباً الضياء عن داخلها ، واستحث الخيول بصوته ذي الجرس العميق ، الخفيض الهادر ، وتمدد بيوتر واستيبان وتوميلين يدخنون تحت غطاء المشمع الجديد المشدود بإحكام . وسار بودوفيسكوف خلف العربة ، وساقاه الكالميكيتان الحنفاوان** تسرعان الخطو على الطريق المعفر .

كانت عربة كريستونيا تتقدم الركب وتتقاطر خلفها سبع عربات أو ثمان أخر ، تجر وراءها خيولاً مسرجة وغير مسرجة . وضج الطريق بالضحك والصياح والأغاني وزنخرة الخيل وجلجلة الركائب الخالية .

كان رأس بيوتر مسنداً على كيس فيه البقسماط ، وهو مضطجع بلاحراك ، يبرم شاربيه الطويلين الأصفرين .

ـ ستيبان!

ـ ها ؟

ـ هيا نغني .

---

* الأتمان ، كان الأتمانات ينتخبون من القوزاق في روسيا القيصرية لإشغال مناصب القيادة على مستويات متعددة ، فقد كان قائد جيش الدون يسمي أتمان الجيش ورئيس القصبة (ستانيتسا) وتعني منطقة أو مركز منطقة قوزاقية . ـ كان يسمى أتمان القصبة ، وإذا ماخرجت مفرزة قوزاقية في حملة ما انتخبت المفرزة أتماناً لها . وتعني الكلمة بتعبير واسع الرئيس أو الزعيم . وحينما فقد القوزاق استقلالهم في النهاية أصبح (أتمان جميع القوات القوزاقية) لقباً وراثياً للقيصر ، وصارت قيادة جميع القطعات القوزاقية في الواقع ، بيد أتمانات معينين .

** الحنفاوان ، معوجتان الى الداخل . المترجمون...

ـ الحر شديد ، وحنجرتي جافة كالعظمة!

ـ سوف لاتجد حانات هنا ، فلا تنتظر ذلك!

ـ حسناً ، غنّ أنت . غير أنك لاتصلح للغناء . لكن غريشا ، أخاك ، يمكنه أن يغني . فما صوته كالأصوات ، إنه وتر من الفضة الخالصة . كنا أنا وهو نغني في السهرات .

وألقى ستيبان رأسه إلى الخلف ، وتنحنح ثم شرع يغني بصوت خفيض متناغم :

أواه ثمة شروق بديع وضاء .
قد تعالى مبكراً في السماء

وأسند توميلين خده على راحته ، كما تفعل النساء ، والتقط النغم في صوت رفيع نواح . وراقب بيوتر ، مبتسماً ، وطرف شاربه في فمه ، العقد الصغيرة في أوردة صدغي المدفعي العريض الصدر تزرق من الجهد الذي يبذله .

يافعة كانت ، تلك المرأة
التي درجت نحو الجدول الصغير .

واستدار ستيبان على مرفقه ، وكان مضطجعاً ورأسه إزاء كريستونيا واحمرت رقبته الجميلة الصلبة . وقال :

ـ هيا ياكريستونيا... اشترك في الغناء .

والولد لما أدرك مرماها .
أسرج فرسه الكستنائية

حول ستيبان نظرته الباسمة إلى بيوتر الذي أطلق طرفي شاربيه من فمه وضم صوته إليهم . أما كريستونيا فقد زأر بصوت هز غطاء المشمع ، شاطراً بفمه شاربيه العريضين :

أسرج فرسه الكستنائية
ليلحق بالمرأة الشابة

وثنى كريستونيا قدمه الحافية الضخمة وانتظر أن يستأنف ستيبان الغناء . وواصل ستيبان غناءه برقة مغمض العينين ، ووجهه المعروق في الظل ، وقد جعل صوته خفيضاً حتى الهمس تارة ، ورناناً كرنين المعادن تارة أخرى .

دعيني ، دعيني ، أيتها المرأة
أسقي كستنائيتي في الجدول

ومن جديد انطلق صوت كريستونيا الهادر العميق ليغرق أصوات الآخرين . وانبعثت أصوات من العربات المجاورة تردد الأغنية . وقرقعت العجلات على حوافها الحديدية ، وزنخرت الخيل من الغبار ، وانسابت الأغنية فوق الطريق ، قوية عميقة كمياه الفيضان . وانطلق في الجو زقزاق أبيض الجناحين من السهب البني ذي الأشجار المتهدلة ، فطار مطلقاً صيحة باتجاه الوادي ، محولاً عيناً زمردية ليراقب سلسلة العربات ذوات الأغطية البيض ، وخيلاً تثير بحوافرها سحائب ترابية ، ورجالاً في قمصان بيض معفرة ، يسيرون على حافة الطريق . ولما هبط الزقزاق في الوادي واستقر صدره الأسود على الحشيش الرطب الذي سوته حيوانات هائمة ، فاته المشهد الذي كان يجري في الطريق . كانت العربات مازالت تدرج على الطريق كما في السابق ، والخيل العروقى مازالت تشق طريقها ، برمة ، خلال الغبار ، غير أن القوزاق صاروا الآن يركضون بقمصانهم المتربة من عرباتهم إلى عربة القيادة ، يدورون حولها ويزأرون بالضحك .
كان ستيبان منتصباً بطوله فوق العربة ، ماسكاً الغطاء بيد ، وموقعاً اللحن بأخرى ، وهو يهدر بنغم شائع في سرعة مضاعفة :

لاتقعد قربي
لاتقعد قربي
سيقول الناس أنك واقع في حبي
واقع في حبي
وآت على دربي
واقع في حبي
وآت على دربي
ولكنني لست من الصنف الوضيع...

وانطلقت حزمة من الأصوات الخشنة لتؤدي دور الجوقة في زئير ينفرش على الغبار المثار على جانبي الطريق :

لكنني لست من الصنف الوضيع
لست من الصنف الوضيع
فقد ولدت ابنة لشيخ قطاع الطريق
وقد نشأت ابنة لشيخ قطاع الطريق
ولست من الصنف الوضيع
إنني حبيبة لابن الأمير...

صفر فيدوت بودوفسكوف ، واضطربت الخيل محاولة أن تحرر نفسها من الأعنة ، ومال بيوتر جسمه خارج العربة وضحك ولوح بقبعته ، وهزّ ستيبان كتفيه في مجون ، وابتسامة براقة على وجهه ، وعلى امتداد الطريق تدحرجت سحابة من غبار ، وقفز كريستونيا من العربة ، وهو في قميصه الكبير الطويل من غير ما نطاق ، وشعره متلبد ، ووجهه ينضح بالعرق ، وأدى رقصة قوزاقية ، مدوماً كأنه عجلة ضخمة ، عابساً ومتأوهاً ، تاركاً على التراب الحريري اللاهب آثاراً مفلطحة لقدميه العاريتين .

٦

توقفوا عند رابية ذات قمة رملية عريضة ، ليقضوا ليلتهم . زحفت سحب من الغرب ، وتساقط المطر من أجنحتها السود . وأوردت الخيل من بركة تمايلت فوق سدها ، على مهب الريح ، أشجار صفصاف موحشة . وعلى الماء الذي تغطيه طحالب راكدة وتزحف فوقه مويجات يائسة ، كان ضوء البرق ينعكس مشوهاً . وكانت الريح تفتت قطرات المطر ، وكأنها تنثر الهبات على راحة الأرض السمراء .

واقتيدت الخيل المقيدة الى الكلأ ، وأنيطت حراستها بثلاثة رجال ، فيما أشعل الآخرون النيران وعلقوا القدور على عرائش* العربان .

وكان كريستونيا يطبخ الدخن . وبينما كان يحركه بملعقة شرع يروي قصة للقوزاق الجالسين حوله :

ـ كانت الرابية عالية ، كهذه . قلت لأبي الذي مات :

«ألن يعاقبنا الأتمان على حفرنا الرابية دونما إذن بذلك ؟»

فتساءل ستيبان فيما كان عائداً من موضع الخيل :

ـ فيم يهرف هذا ؟

ـ إنني أروي كيف نقبنا عن الكنز ، أنا وأبي ، رحمة الله على روحه .

ـ وأين بحثتم عنه ؟

ـ خلف الوادي أنت تعرف هذا المكان هو رابية مركولوف .

قال ستيبان : ـ هكذا إذن .

وجلس القرفصاء حذاء النار والتقط جمرة بكفه وجعل يتلاعب بها وقتاً طويلاً ، ثم أولع سيكارة بها .

ـ طيب ، وقال أبي :«هيا ياكريستونيا ، فسوف نحفر في رابية

---

* العريش : المحور الذي تشد به الخيل . المترجمون .

مركولوف» . فقد سمع عن أبيه أن ذلك الكنز مدفون فيها . ولكن الكنز ليس شيئاً سهل المنال ولذ فإن أبي نذر لله بقوله : «هبني الكنز ، ولسوف أشيد كنيسة بديعة» . وهكذا تم الاتفاق بيننا ومضينا ، كانت أرضاً مشاعة . ولهذا فلم يكن هناك من يستطيع منعنا غير الأتمان ، وصلنا عند العصر ، ولهذا انتظرنا حتى حلول الليل وقيدنا الخيول وتسلقنا مع مجارفنا حتى قمة الرابية . وشرعنا نحفر في القمة تماماً . وحفرنا حفرة عميقة ، وكانت الأرض مثل الصخر . وغمرني العرق من رأسي الى قدمي ، بينما ظل أبي يتمتم بصلواته ، ولكن صدقوني ، ياإخوان ، كانت بطني تقرقر بشدة... فأنتم تعرفون ما نأكله في الصيف : لبن حامض وكفاس* وأشعر بالمغص حتى أكاد أموت! وأبي رحمة الله عليه يقول : «اف!يا كريستونيا ، إنك وغد . فها أنا أصلي وأنت لا تستطيع أن تضبط بطنك ، أنا لا أقدر أن أتنفس بسبب الرائحة الكريهة . تنح عن الرابية يا... . وإلا فسأشج رأسك بالمجراف . إن وقاحتك كفيلة بجعل الكنز يغور في أعماق الأرض» . وهكذا استلقيت إلى جانب الرابية وأوجاع بطني قمينه بهلاكي ، وأبي - الذي كان رجلاً قوياً - يمضي ويمضي في التنقيب وحده . ويظل يحفر حتى يصل الى بلاطة صخرية ، فيناديني ، وأضع قضيباً تحتها . وأرفعها . صدقوني ، ياإخوان ، كانت ليلة قمراء ، وتحت تلك البلاطة انبعث بريق ، وأي بريق...

فقاطعه بيوتر مبتسماً ومعابثاً شاربيه :

ـ ها أنت ذا تكذب الآن ياكريستونيا .

ـ من الذي يكذب ؟ فلتذهب أنت الى الشيطان ، وإلى أم الشيطان!

وعقد كريستونيا بنطاله ذا المؤخرة العريضة وألقى نظرة خاطفة على مستمعيه .

---

* الكفاس : مشروب شعبي روسي . المترجمون

ـ كلا ، فما أنا بكاذب . إنها حقيقة الله .

ـ أكمل قصتك!

ـ ثمّة بريق ينبعث يا إخوان . وأنا أنظر ، واذ به فحم خشبي . حوالي أربعين بوشلا* وأبي يقول : «ازحف ياكريستونيا داخلاً ، وأخرجه برمته» . وهكذا أخرجت كل تلك النفايات . مضيت أخرجها حتى طلوع النهار . وفي الصباح ، كان هو أمامنا .

ـ من ؟ ـ تساءل توميلين المضطجع على مشرحة السرج .

ـ من يكون غير الاتمان ؟ يصادف أن يمر من هناك بمركبته . «من أعطاكما الإذن ؟» وما إلى ذلك . أمّا نحن فنصمت ويقبض علينا ويجرجرنا الى القرية . ثم استدعينا الى المحكمة في كامنسكايا في السنة ما قبل الأخيرة ، لكنّ أبي ، وقد خمّن ما هو آتٍ عليه ، استطاع أن يموت قبل حلول الأوان . فكتبنا الى المحكمة نقول إنه ليس في عداد الأحياء .

وأخذ كريستونيا قدر الدخن المغلي من النار وذهب إلى العربة لإحضار الملاعق . وحينما عاد سأله ستيبان :

ـ حسناً ، وماذا عن أبيك ؟ فقد نذر لله أن يبني كنيسة ، ألم يف بنذره ؟

ـ أنت أحمق ياستيبان . فماذا عساه يبني بقيمة الفحم الخشبي ؟

ـ مادام قد نذر ، كان عليه أن يفي بنذره .

ـ لم يكن هناك اتفاق ، أيّاً كان شكله ، حول فحم الخشب ، أمّا الكنز...

واهتزّت ألسنة النار من القهقهات التي انطلقت عالياً ، ورفع كريستونيا رأسه عن القدر ، ولمّا لم يفهم سبباً للضحك ، انطلق هو الآخر بزئيره المرعد وغطّى على ضحك الجميع .

---

* بوشلا : اربعة غالونات . المترجمون .

٧

كانت اكسينيا في السابعة عشرة من عمرها حينما زوجت من ستيبان استاخوف . لقد جاءت من قرية دوبروفكا ، من رمال الجانب الآخر للدون .

قبل الزواج بحوالي عام ، كانت اكسينيا ذات يوم خريفي تحرث في السهب الذي يبعد حوالي ثمانية فرستات عن القرية . وفي ذلك الليل قيّد يديها أبوها ، وهو في الخمسين من عمره ، واغتصبها .

وتوعّدها قائلاً :

سوف أقتلك إن تنفّست بكلمة ، ولكن إذا بقيت هادئة فلسوف أشتري لك سترة فاخرة وطماقين وخفّين ، تذكّري ، لسوف أقتلك إن أنت ...

وتحت جنح الليل جرت اكسينيا بتنورتها الداخلية الممزقة عائدة الى القرية . وارتمت على قدمي أمّها ونشجت تروي القصّة كاملة . فشدّ أخوها الأكبر الذي عاد منذ حين من الخدمة العسكرية وأمها حصانين الى العربة وجعلا اكسينيا تجلس معهما ، وانطلقا الى الأب . أوشك أخوها أن يميت الخيول في منطلقه عبر الفرستات الثمانية . ووجدوا العجوز بالقرب من خيمة الحقل . كان مستلقياً على معطفه في غيبوبة سكران وإلى جانبه زجاجة فودكا فارغة . وأمام عيني اكسينيا حل أخوها العريش من العربة ، وبرفسة أقام أباه على قدميه ، ووجه إليه باقتضاب سؤالاً أو سؤالين ، ثم ضربه فيما بين عينيه بالعريش ذي الرأس الحديدي . وطوال ساعة ونصف ، ظل وأمّه يضربانه بدون توقّف . وجعلت الأم المسنّة ، وهي التي كانت على الدوام زوجة مطيعة ، تمزّق بجنون شعر زوجها الغائب عن الوعي ، بينما استخدم الأخ قدميه . وتمددت اكسينيا تحت العربة ، وقد غطّت رأسها وهي ترتعش في صمت..وحملوا أباها الى الدارقبيل الفجر . تمدد يئن بصوت ذبيح وعيناه تجولان في أرجاء الغرفة بحثاً عن اكسينيا

التي أخفت نفسها وجرى الدم من أذنه الممزقة على الوسادة ، إلى أن مات قبيل المساء . وأخبروا الجيران بأنّه سقط سكراناً من العربة فمات .

بعد عام من الزمن ، وصل خاطبون في عربة صغيرة زينت بصورة مرحة ، طالبين يد اكسينيا . فلقي ستيبان الطويل ، ذو الرقبة المنتصبة والجسم القوي ، قبولاً لدى زوجته المقبلة ، وحدد عيد الخريف ميعاداً للزفاف . كان النهار زمهريراً والجليد ذا وقع بهيج على الطرق يوم نصبت اكسينيا سيدة فتيّة لبيت استاخوف . وفي الصباح الباكر الذي تلا أفراح الزواج جاءت حماة اكسينيا ، وهي عجوز طويلة تقوّص ظهرها بسبب من مرض نسائي مؤلم ، وأيقظتها ، ثم أخذتها الى المطبخ وقالت لها وهي تنقل الأشياء بلا هدف :

ـ والآن ياعزيزتي ، نحن لم نأخذك لتمارسي الحب ، ولا لكي تضطجعي في الفراش . اذهبي واحلبي البقرات ، وبعد ذلك أعدي شيئاً من الطعام . إنني عجوز ومريضة . ويجب عليك أن تتعهدي شؤون الدار ، فكل مافيها سيقع على عاتقك .

وفي اليوم نفسه ، أخذ ستيبان زوجته داخل المخزن ، وضربها عامداً وبشكل فظيع . ضربها على بطنها ونهديها وظهرها ، حريصاً ألا تكون آثار الضرب ظاهرة للعيان . وبعد ذلك ، أهملها ، وجعل يصاحب زوجات طائشات منفصلات عن أزواجهن الجنود ، ويترك داره كل ليلة تقريباً ، بعد أن يحبس أكسينيا في المخزن أو في الغرفة .

وطوال ثمانية عشر شهراً ، أي إلى أن رزقا بطفل ، لم يكن ليغفر لها العار الذي جلبته إليه . ثم صار أكثر هدوءاً ، ولكنه كان ضنيناً في ملاطفتها ، ونادراً ما كان يقضي ليلة في الدار .

أثقل الحقل الواسع بماشيته الكثيرة كاهل أكسينيا بالعمل . وكان ستيبان يعمل بلا حماسة ، ويزوغ للتدخين أو لعب الورق بعد أن يمشط شعره بعناية ، أو لتقصي آخر الأخبار ، وصار على أكسينيا أن تفعل كل

شيء . ولم تكن حماتها لتساعدها إلا بالنزر اليسير . فما أن تنتقل هنا وهناك قليلاً حتى تهوي على الفراش ، وبشفتين مزموميتن صفراوين وعينين محملقتين في السقف بألم ، تستلقي متأوهة وتتكوم على شكل صرة . وفي مثل هذه الأوقات ، كان وجهها ، الذي تكسوه شامات كبيرة قبيحة ، ينضح بالعرق وتقطر دموعها على خديها ، قطرة إثر قطرة . وكانت أكسينيا تترك عملها وتنزوي في ركن من الغرفة وتحدق في وجه حماتها بخوف وإشفاق .

ماتت العجوز بعد عام ونصف عام . ففي الصباح بدأت أكسينيا تشعر بآلام المخاض ، وحوالي الظهر ، وقبل مجيء الطفل إلى العالم بساعة أو زهائها ، سقطت العجوز ميتة عند باب الاسطبل القديم وجرت القابلة لتحذر ستيبان السكران من دخول غرفة النوم ، فوجدت العجوز ممددة وقد انثنت رجلاها تحت جسمها .

وبعد ولادة الطفل ، كرست أكسينيا نفسها لزوجها ، غير أنها لم تكن لتشعر نحوه بأية عاطفة غير الإشفاق الأنثوي المر وحكم العادة . وفي غضون عام مات الطفل ، وعادت الحياة إلى ما كانت عليه . وحينما عبر غريشا ميليخوف درب أكسينيا ، أدركت ، والرعب يتملكها ، أنها كانت منجذبة إلى ذلك الفتى الأسمر اللطيف ، وقد تصابر غريشا عليها في حب مؤمل عنيد ، وكان هذا الإصرار عين ما كانت تخشاه أكسينيا في غريشا . ووجدت أنه لا يخاف ستيبان ، أو يتراجع بسببه ، وعلى الرغم من مقاومة شعورها بكل قوتها ، فقد لاحظت على نفسها أنها كانت تعنى بزينتها أيام الآحاد وفي أيام الأسبوع أكثر من أي وقت مضى . وكانت تعلل نفسها ، إزاء ضميرها ، بشتى المعاذير وهي تحاول أن تظهر أمامه كلما سنحت لها الفرصة . لقد كان مما يسعدها أن تتحسس عيني غريغوري السوداوين تلاطفانها باصرار وهيام . وحينما كانت تستيقظ في الصباح قبل أن تمضي لتحلب البقرات ، كانت تبتسم لنفسها ، ومن غير أن تدرك لماذا ، تقول في دخيلتها : «اليوم يوم سعيد . ولكن لماذا ؟ أواه يا غريغوري...

ياغريشا » . كان يخيفها هذا الشعور الجديد الذي ملأها ، وصارت تتلمس طريقها عبر أفكارها في حذر ، كما لو كانت تعبر الدون فوق جليد آذار الذائب .

وبعد أن ودعت ستيبان الذاهب الى المعسكر ، قررت أن تتجنب غريغوري ماستطاعت . وقد ازداد قرارها تصميماً بعد حادثة صيد السمك .

٨

قبل أحد الثالوث بحوالي يومين ، تم توزيع مروج القرية ، وكان بانتلاي بروكوفيتش حاضراً أثناء التوزيع . ثم عاد إلى داره عند موعد الغداء . فألقى جزمته متأففاً ، وأعلن وهو يهرش قدميه المتعبتين بتلذذ :

ـ حصتنا هي البقعة القريبة من الضفة الحمراء . ليست بذي حشائش أفضل بكثير من المعتاد . ويمتد جزؤها الأعلى حتى الغابة . وهي مجرد نجيل في بعض الأماكن وشيء من الثيل .

تساءل غريغوري :

ـ ومتى سنقوم بالحش ؟

ـ بعد العيد .

دمدمت العجوز مقطبة :

ـ وهل ستأخذون داريا معكم ؟

لوح بانتلاي بروكوفيتش بيده فأسكتها :

ـ دعيني وشأني! سنأخذها إذا احتجنا إليها . هيا أعدي الغداء . فيم وقوفك فاغرة الفم ؟

ففتحت الزوجة العجوز باب الفرن بقرقعة وأخرجت حساء الكرنب المدفئ . وجلس بانتلاي بروكوفيتش إلى الطعام وقتاً طويلاً يروي أحداث التوزيع ويحكي عن الأتمان المخادع الذي كاد أن يغش مجمع القوزاق برمته . وعقبت داريا :

ـ لقد لجأ إلى حيلة في العام الماضي أيضاً . خصوصاً حينما حاول أن يغش مالاشكا أثناء توزيع الأرض .

فتمتم بانتلاي بروكوفيتش :

ـ لقد كان ابن عاهرة دائماً .

وتساءلت دونيا متهيبة :

ـ ولكن من الذي سيجرف ويكوّم يا بابا ؟

ـ ماذا عنك أنت ؟

ـ أنا لا أستطيع أن أقوم بكل ذلك لوحدي .

ـ سوف ندعو أكسينيا ستاخوفا ، فقد رجانا ستيبان أن نحش له . علينا أن نلبي رجاءه .

في الصباح التالي ، جاء ميتكا كورشونوف راكباً جواده أبيض السيقان ودخل إلى حوش ميليخوف . كان ثمة مطر خفيف وضباب كثيف عالق فوق القرية . ومال ميتكا من على سرجه وفتح البوابة ودلف إلى الداخل ، فصاحت به العجوز من العتبة :

ـ هاي ، أنت ، أيها الوغد ، ماذا تريد ؟ ـ وكان النفور واضحاً في صوتها ، فلم تكن تميل إلى ميتكا المشاكس .

ومادخلك أنت يا ايلينيشنا ؟ ـ قال ميتكا ذلك في استغراب بينما كان يربط جواده إلى حاجز العتبة ، وأضاف :

ـ أريد غريشا ، أين هو ؟ .

ـ إنه نائم في السقيفة . ولكن هل أصابك مس ؟ أم تراك لم تعد قادراً على استعمال ساقيك حتى صار عليك أن تأتي راكباً ؟

فرد عليها ميتكا برماً :

ـ أنت دائماً تحشرين أنفك أيتها العمة .

وصقع جزمته الجلدية اللامعة بسوطه الأنيق ، وانطلق متمايلاً يبحث عن غريغوري فوجده نائماً في عربة صغيرة . فزر ميتكا عينه اليسرى كأنه

يصوب ، وهوى بسوطه على غريغوري .

ـ قم ، يا موجيك*!

كانت (موجيك) أسوأ كلمة وجدها ميتكا . فقفز غريغوري كما لو كان فوق نوابض .

ـ ماذا تريد ؟

ـ لقد نمت مافيه الكفاية .

ـ دعك عن العبث ياميتكا قبل أن يعصف بي الغضب .

ـ قم ، فلدي ماأحدثك به .

ـ حسناً ؟

فجلس ميتكا على جانب العربة وقال وهو يكشط بالسوط الوحل المتيبس من جزمته :

ـ لقد أُهنتُ ، ياغريشا .

ـ أي ؟

ـ انظر ، إن القضية... .

وقذف من فمه سباباً كثيراً ، واستطرد :

ـ إنه ملازم أول ، ولهذا فإنه يريد أن يتباهى .

وكان يلفظ الكلمات بسرعة مغتاظاً دون أن يفتح فمه ، فيما كانت ساقاه ترتجفان .

ورفع غريغوري جسمه قليلاً متسائلاً :

ـ أي ملازم أول ؟

فقال ميتكا بهدوء أكثر وهو يمسك بكم غريغوري :

ـ أسرج حصانك في الحال ، وتعال إلى المروج . لسوف أريه! قلت له : تعال ، ياصاحب السعادة ولسوف نرى ـ فقال ـ أجلب جميع أصدقائك

---

* موجيك : تعني فلاحاً . المترجمون

ورفاقك ، وسوف أهزمكم جميعاً ، فلقد حصلت أم فرسي على الجوائز في سباق قفز الموانع لخيل الضباط في بطرسبورغ ، وماعسى أن تكون فرسه أو أمها بالنسبه لي ؟ عليهما اللعنة! فلن أدعهما تسبقان جوادي!

فارتدى غريغوري ملابسه مسرعاً وتبعه ميتكا ، والغضب آخذ بخناقه :

ـ لقد جاء لزيارة التاجر موخوف . اسمع ، ماكان اسمه ؟ ليستنتيسكي ، على ماأظن . ضخم ، جدي المظهر ، ويضع عوينات . حسناً فليضع عوينات ، لكنها لن تساعده في شيء : فلن أدعه يلحق بجوادي .

وأسرج غريغوري الفرس العجوز متضاحكاً . ولكي يتحاشى لقاء أبيه انطلق إلى السهب خلال بوابة ساحة درس الحبوب . وركبا صوب المرج بمحاذاة سفح التل ، وكانت حوافر الخيل تعجن الوحل بفرقعة . وبالقرب من شجرة حور جرداء كان عدد من الفرسان في انتظارهما : الضابط ليستنتيسكي على فرس رشيقة جميلة ، وسبعة من صبيان القرية ممتطين جيادهم .

ـ من أين سنبدأ ؟ ـ تساءل الضابط ملتفتاً إلى ميتكا ، وهو يسوي عويناته المعلقة على أنفه دون إطارات ، وينظر بإعجاب إلى عضلات الصدر القوية بجواد ميتكا .

ـ من شجرة الحور إلى بركة القيصر .

ـ وأين هي بركة القيصر ؟ ـ

ـ حاوص ليستنتسكي عينيه بصورة تنم عن قصر نظره .

ـ هناك ، ياصاحب السعادة . عند طرف الغابة واصطفت الخيل في خط واحد . ورفع الضابط سوطه فوق رأسه . فتلوت كتافته .

ـ نبدأ حينما أقول «ثلاثة» اتفقنا ؟ واحد : اثنان : ثلاثة!

وانطلق ليستنتسكي أولاً ، منحنياً فوق قربوس* السرج ، ويده على

---

* القربوس : حنو السرج او حدبته . المترجمون

قبعته . وبقي ، برهة ، يتقدم الجميع . ثم انتصب ميتكا على ركابيه ، ووجهه شاحب قانط . وبدا لغريغوري أن ميتكا كان متباطئاً بشكل لايحتمل في إنزال السوط على كفل الجواد .

كانت المسافة الى بركة القيصر حوالي ثلاثة فرستات . وحينما قطعوا نصف المسافة لحق جواد ميتكا الذي استقام جسمه كالسهم بفرس ليستنتسكي ، أما غريغوري الذي تخلف منذ البداية ، فقد كان يخب خاملاً وهو يراقب بفضول سلسلة الراكبين المتناثرة .

كان إلى جانب بركة القيصر تل رملي صغير ، غسلته فيضانات الربيع ، وقد كست حدبته أعشاب قليلة . ورأىغريغوري ميتكا والضابط ينطلقان صاعدين التل ثم يختفيان معاً عبر حافته ، يتبعهما الآخرون . وحينما بلغ البركة وجد الخيل العرقة متجمعة إلى جانب بينما كان الصبيان المترجلون يتحلقون حول ليستنتسكي ، وميتكا يتألق في حبور مكتوم ، وتنم كل حركة فيه عن الشعور بالانتصار . أما الضابط فلم يبد عليه الغم مطلقاً ، بخلاف ماكان متوقعاً ، إذ كان يقف وظهره مستند على شجرة ويدخن سيكارة . وقال مشيراً إلى فرسه المزبدة : «كنت قد قطعت عليها مائة وخمسين فرستا وجئت عليها من المحطة أمس ، فلو كانت مرتاحة لما استطعت أن تلحق بها ، يا كورشونوف» .

فقال ميتكا بأريحية : ـ ربما .

كان صبي أنمش الوجه ، قد وصل آخر الراكبين ، فصاح حاسداً :

ـ إن جواده أحسن ما في المقاطعة من خيل .

فقال ميتكا : «إنه حصان جيد» ، ومرر كفه على رقبة الجواد ، ويده تهتز انفعالاً . ونظر إلى غريغوري وابتسم ببلاهة .

ترك غريغوري وميتكا الآخرين وعادا إلى البيت بمحاذاة أطراف القرية . أما الضابط فقد ودعهما ببرود وحياهما تحية عسكرية رافعاً إصبعين إلى حافة قبعته ، واستدار مبتعداً .

وبينما كانا يقتربان من الدار ، رأى غريغوري أكسينيا قادمة باتجاههما ، وهي تجرد غصناً أثناء سيرها . وحينما لحظته طأطأت رأسها . فصاح ميتكا قائلاً :

ـ فيم تحمرين خجلاً ، هل نحن عاريان ؟ ـ وغمز بعينه ـ يافرحة عيني!

وكاد غريغوري أن يحاذيها وهو يحدق أمامه في خط مستقيم ، ثم ضرب فرسه المتبخترة بسوطه ، على حين غرة ، فأقعت إلى الوراء على ساقيها الخلفيتين ، وأرسلت رذاذاً من الوحل فوق أكسينيا .

ـ تباً لك من شيطان مخبول !

فأدار غريغوري فرسه الجامح بحدة وتقدم نحوها ، وتساءل :

ـ لم لا تقولين «مرحباً» ؟

ـ إنك لست أهلاً لها .

ـ ولهذا نثرت عليك الوحل . لاتغتري بنفسك كثيراً .

فصاحت أكسينيا ملوحة بذراعيها أمام أنف الفرس :

ـ دعني أمر . فيم تدوسني بحصانك ؟

ـ إنها فرس وليست حصاناً .

ـ هذا لايهمني ، دعني أمر .

ـ فيم غضبك يا أكسينيا ؟ أبسبب ماحدث ذلك اليوم في المرج ؟

وحدجها غريغوري محدقاً في عينيها . فحاولت أكسينيا أن تنطق بشيء ما ، لكن دمعة صغيرة ظهرت في زاوية عينها السوداء ، وارتعشت شفتاها بصورة تثير الشفقة . وهمست وهي تبتلع ريقها بصعوبة :

ـ اتركني ياغريغوري.. لست غاضبة.. فأنا ... ثم مضت .

لحق غريغوري بميتكا عند البوابة والاستغراب يتملكه .

سأله ميتكا :

ـ هل ستخرج الليلة ؟

ـ كلا .

ـ لماذا ؟ ما السبب ؟ أم تراها دعتك لقضاء الليلة معها ؟ فمسح غريغوري جبينه براحته ، ولم يجب .

٩

لم يخلف عيد أحد الثالوث في بيوت القرية سوى زعتر جاف منثور على الأرض ، ونثار أوراق مسحوقة ، وأغصان دردار وبلّوط ذابلة معقودة على البوابات والسلالم .

بدأ جمع القش مباشرة بعد أحد الثالوث . فمنذ الصباح الباكر ازدهرت المروج بتنورات النساء الزاهية ، والصدريات المطرزة اللامعة ، وعصابات الرأس الملوّنة . وخرجت القرية عن بكرة أبيها للحش . وتزيّن الحاشّون والجارفون ، كما لو كانوا في عيد سنوي . هكذا جرت الأمور منذ القدم . ومن الدون الى أدغال الحور البعيدة ، تململت أرض المروج المنهوبة وتأوّهت .

أمّا أسرة ميليخوف فقد تأخرت عن العمل ، ولم ينطلقوا إلا بعد أن كان نصف القرية تقريباً قد بلغ المرج .

حيّا جامعو القش رب الأسرة والعرق يتصبب منهم :

ـ أنت تستيقظ متأخراً ، ياپانتلاي پروكوفيتش .

ـ ليست غلطتي ، إنهن النساء مرّة أخرى ـ وتضاحك العجوز ، واستحث الثيران بسوطه المصنوع من الجلد الخام .

ـ طاب يومك ، ياجار! أنت متأخّر قليلاً ، أليس كذلك ؟ ـ قالها قوزاقي طويل يعتمر قبعة من القش ، هازاً رأسه وهو واقف على جانب الطريق يشحذ منجله .

أتحسب أنّ العشب سيكون جافاً ؟

ـ اذا لم تسرع خطاك سيجفّ عمّا قريب . أين حصّتك ؟
ـ بالقرب من الضفّة الحمراء .
ـ استعجل إذن وإلا فاتك الأوان .

وفي مؤخرة العربة جلست اكسينيا وقد غطّت وجهها كلّياً لتتقي الشمس ومن الفتحات الضيقة التي تركتها لعينيها ، جعلت تحدّق بهدوء وصرامة في غريغوري الذي جلس إزاءها . وكانت داريا متلفعة أيضاً وقد ارتدت أحسن ثياب يوم الأحد ، وقد تدلت ساقاها بين عوارض جانب العربة ، وأعطت ثديها الطويل ذا العروق الزرق للطفل الراقد بين ذراعيها . وتململت دونيا على حافة العربة وعيناها السعيدتان تتفرسان في المرج والناس السائرين على امتداد الطريق ، وقد بدا على وجهها المرح الذي لفحته الشمس ، وأنفها الذي انتثرت عليه رشّة من النمش ، وكأنّه يقول بلسانها «إنني أشعر بالمرح والسعادة لأن اليوم ، بسمائه الزرقاء الصافية ، هو الآخر سعيد ، ولأن روحي يملؤها الهدوء الأزرق الصافي ذاته . إنني سعيدة ، ولدي كل ما أريد» . وجذب بانتلاي بروكوفيتش كمي قميصه القطني فوق قبضتيه ، ليمسح العرق المنساب من تحت ذؤابة قبعتة . والتصق قميصه التصاقاً محكماً على ظهره المقوّس ، وقد قتم لونه ببقع العرق . ونفذت الشمس قويّة خلال غيمة رمادية منفوشة ، وأسالت مجرى من الأشعّة المتكسّرة السديمية فوق المرج والقرية والسهب وتلال الدون الفضّية البعيدة .

كان النهار قائظاً . والغيمات الصغيرة تزحف متكاسلة ، حتّى أنها لم تسبق ثيران بانتلاي بروكوفيتش في سيرها المكدود على الطريق . وكان بانتلاي بروكوفيتش العجوز نفسه يرفع ويلوّح بسوطه متثاقلاً ، كما لو كان متردّداً في ضرب جوانبها الهزيلة . ويبدو أن الثيران نفسها أدركت ذلك ، فلم تسرع خطاها ، وواصلت سيرها إلى الأمام متباطئة متكاسلة تهز ذيولها بلا انقطاع . حوّمت فوقها ذبابة خيل غبراء ذات لون ذهبي وبرتقالي .

وبدت أرض المروج ، حيثما قطعت الحشائش على مقربة من بيوت القرية ، تتألّق في بقع خضراء شاحبة ، وفي المناطق التي لم تقطع فيها الأعشاب ، انبعث من الحرير الحشيشي ، الأخضر المشوب بالسواد ، حفيف كلّما داعبة النسيم .

لوّح بانتلاي بروكوفيتش بسوطه قائلاً :

ـ تلك هي قطعتنا .

سأله غريغوري :

ـ نبدأ من الغابة ؟

ـ من الممكن أن نبدأ من هذا الطرف أيضاً ، تركت العلامة هناك .

حل غريغوري الثيران المتعبة . وراح العجوز ، والقرط يتلامع في اذنه ، يبحث عن العلامة التي وضعها عند نهاية القطعة . وبعد دقيقة صاح ملوحاً بيده : «هات المناجل» .

فذهب غريغوري إليه وهو يدوس الحشيش ، مخلفاً وراءه أثراً متماوجاً . ويمم بانتلاي بروكوفيتش وجهه صوب برج الناقوس البعيد ورسم علامة الصليب وتناول المنجل . وشع أنفه المعقوف وكأنّه قد لمع بالدهان لتوّه ، وتلكأ العرق في تجاويف خدّيه الاسمرين . وابتسم ، فكشف عن صف مرصوص من الأسنان البيض اللامعة وراء لحيته السوداء بلون الغراب ، ومال برقبته المتغضنة الى اليمين ، وهوى بمنجله الكبير على الحشيش ، فاذا بنصف دائرة ، قطرها متران ، من الحشيش تتكوّم عند قدميه .

وحذا غريغوري حذو أبيه ، وعيناه نصف مغمضتين ، وهو يلقي الحشيش أرضاً بمنجله . وأمامه ازدهت صدريات النساء كقوس قزح مبعثر ، لكنّ عينيه كانتا تبحثان عن صدرية واحدة ، بيضاء مطرّزة الحاشية ، واختلس نظرة إلى اكسينيا واستأنف الحش من جديد ، متساوقاً مع خطى أبيه .

لقد شغلت اكسينيا ذهنه طوال الوقت . وفيما كانت عيناه نصف مغمضتين قبّلها في الخيال وناجاها بكلمات ملتهبة رقيقة تدفّقت على لسانه

من حيث لايدري . ثمّ أزاح عنه تلك الأخيلة وواصل الخطى من جديد بصورة منتظمـــة... واحـــد... اثنان... ثلاثة ، وانصـــرف ذهنه الى شـــذرات من الماضي .« كنت جالساً معها تحت كومة القش الرطب... القمر فوق المرج... وبين حين وآخر تتساقط قطرة من الشجيرات في البركة... واحد... اثنان... ثلاثة... بديع! آه ، لكم كان هذا بديعاً!»

وتناهت إليه ضحكة من ورائه ، فتطلّع إلى الخلف : كانت داريا مستلقية تحت العربة واكسينيا منحنية عليها تسرّ لها شيئاً ما . ولوّحت داريا بذراعيها ، وعادتا تضحكان من جديد . وكانت دونيا جالسة على محور العربة تغنّي بصوت زاعق .

قال غريغوري لنفسه : «سأبلغ تلك الشجيرة ، ثم أشحذ منجلي» . وفي تلك اللحظة شعر بمنجله يمر خلال شيء ناعم ومستكين . فانحنى غريغوري ، فاذا ببطة برّية صغيرة تمرق داخل الحشيش وهي تصيح . وإلى جانب الحفرة التي ضمّت عشّها تكوّمت بطّة أخرى وقد شقّها المنجل نصفين ، بينما تفرقت بقية الفراخ مذعورة واختفت في الحشيش . فوضع غريغوري الطائر الميت على راحته . لقد كان واضحاً أنّه خرج من البيضة قبل بضعة أيام ، فقد كان ثمّة دفء باقياً في زغبه . وعلى منقاره المسطّح نصف المفتوح ، كانت فقاعة وردية من الدم ، وانكمشت عيناه الخرزيتان ، بينما ظلت رجلاه الصغيرتان دافئتين ترتعشان . وجعل غريغوري يحدّق في الكرة الصغيرة الهامدة في يده ، وقد انتابه شعور حاد مفاجيء بالرثاء له .

ـ ماذا وجدت ياغريشا ؟ ـ وجاءت دونيا ناطة خلل الممر المحشوش وضفيرتاها تتواثبان على صدرها . فألقى غريغوري البطّة ، متجهّم الوجه ، وأعمل بمنجله مغضباً .

تناولوا غداءهم بسرعة . وكان قوام وجبتهم ، التي كانوا قد جلبوها من البيت في كيس ، شحم الخنزير واللبن الرائب .

قال بانتلاي بروكوفيتش أثناء الغداء «لا داعي للذهاب الى الدار . سنسرح الثيران لترعى في الغابة ، وفي الغد ، حالما يزول الندى من العشب سنتم الحش » .

بعد الغداء ، شرعت النساء في جرف القش ، وانكمش الحشيش المقصوص وتيبس فصار يبعث رائحة قويّة مخدّرة .

كان الغسق قد حل حينما توقفوا عن عمل اليوم . وجمعت اكسينيا الصفوف الأخيرة من الحشيش معاً ، ومضت الى العربة لتطبخ شيئاً من هريسة الدخن ، لقد سخرت متخابثة من غريغوري طوال اليوم ، وظلّت تتابعه بنظرات تفيض كراهية ، كما لو كانت تقتص منه لذنب عظيم لايغتفر . ساق غريغوري الثيران ليوردها من الدون ، وهو مكتئب خائر العزيمة . ظل أبوه يراقبه هو واكسينيا طوال النهار . وقال ناظراً الى غريغوري في كدر : «تناول عشاءك ، ثم اذهب لحراسة الثيران . واحرص ألا تدخل المرج . وخذ فروتي » .

وأرقدت داريا طفلها تحت العربة ومضت إلى الغابة بصحبة دونيا لجلب الحطب .

وفوق المرج ، تعالى القمر الشاحب في السماء المنيعة المظلمة . وحوّمت زوبعة من الفراشات حول ألسنة اللهيب ، وإلى جانبها وضع العشاء على قطعة قماش خشنة . وغلى الدخن في إناء الحقل الأسخم . وصاحت داريا على غريغوري ، وهي تمسح ملاعق بطرف تنورتها الداخلية :

ـ تعال تناول عشاءك .

فظهر غريغوري من الظلمة ، وفروة أبيه ملقاة على كتفيه ، واقترب من النار . سألته داريا مبتسمة : «ما الذي يثقلك بالهموم . بهذا القدر ؟ » فردّ عليها مازحاً : «أحس بألم في ظهري . يبدو أنها ستمطر » .

وقالت دونيا متضاحكة : ـ إنه لايريد أن يحرس الثيران . وحاولت أن تجاذب أخاها الحديث بينما جلست الى جواره . ولكن باءت محاولاتها بالفشل

المستوي . وكانت اكسينيا تأكل دون أن ترفع عينيها ، وهي تبتسم لفكاهات داريا من غير ما حماسة كثيرة في حين اشتعلت وجنتاها باحمرار شديد .

نهض غريغوري قبل الآخرين ، ومضى إلى الثيران .

فصاح أبوه وراءه ،«احرص على ألا تدوس الثيران حشيش الآخرين» ، ثم غص بلعومه بفتات الدخن فجعل يسعل سعالاً جافاً لوقت طويل .

وانتفخت وجنتا دونيا فيما كانت تحاول أن تكتم ضحكتها . تضاءلت النار . ولف الجماعة رائحة حلوة انبعثت من الأوراق المحترقة في الحطب المتوهج .

***

عند منتصف الليل تسلل غريغوري إلى المضرب ، وتوقف على مبعدة عشر خطوات . كان أبوه يشخر شخيراً مرناناً في العربة . والجمر غير المطفأ يتألّق من خلل الرماد كأنّه عيون طاووس ذهبية .

وانتزع شبح رمادي ملثّم نفسه من العربة واقترب وئيداً من غريغوري . وعلى مبعدة خطوتين أو ثلاث ، توقّف الشبح . اكسينيا! ودق قلب غريغوري سريعاً وعنيفاً ، وتقدّم إلى الامام حبواً ، وقد نحى طرف فروته الى الوراء ، وضغط إليه جسدها الملتهب المستسلم . وانثنت ساقاها عند الركبتين ، وارتعشت واصطكّت أسنانها . فرفعها غريغوري فجأة وألقاها على ذراعيه ، كما يلقي ذئب شاة ذبيحة على ظهره ، ومضى متعثراً بأطراف معطفه المفتوح مبهور النفس .

ـ اوه! غريشا ، غريشا! أبوك... .

ـ اهدئي!

وانتزعت نفسها منه ، لاهثة تنشد الهواء في ثنايا صوف الفروة الحامض ، والندم يأخذ بخناقها ، وندّت عنها صيحة متأوّهة خفيضة هي إلى العياط أقرب :

ـ أنزلني ، مافي اليد حيلة سأذهب بنفسي .

١٠

ليس لازوردياً ولا أحمر فاتحاً كلون الخشخاش ، حب المرأة المتأخر ، لكنّه مسعور كعشب السيكران النابت على جانب الطريق .

بعد انتهاء الحش ، أمست اكسينيا امرأة اخرى : وكأن أحداً قد وسم وجهها بميسم من نار . واذا صادفتها النساء تبسمن بخبث ، وهززن رؤوسهن وراءها . أمّا الفتيات فقد حسدنها ، لكنها شمخت عالياً برأسها الهانىء المجلل بالعار .

وسرعان ماعرف الجميع حكايتها مع غريغوري ميليخوف . في البدء ، كان الحديث يدور همساً ، والناس بين الشك واليقين ، ولكن بعد أن رآهما راعي القرية في بكرة الفجر مستلقيين في الذرة اليانعة تحت ضياء القمر الآفل بالقرب من طاحونة الهواء ، انتشرت الشائعات كموجة عكرة تتكسّر مضطربة على الشاطىء .

ثم بلغت الشائعة سمع بانتلاي بروكوفيتش أيضاً . فقد حدث ذات يوم أحد ، أن ذهب الى حانوت موخوف ، وكان الازدحام على الباب شديداً الى درجة لاتحتمل المزيد . فدخل بانتلاي بروكوفيتش ، وبدأ الجميع يوسعون له الطريق ، وهم يبتسمون وراءه . واتجه صوب الطاولة حيث تباع الأقمشة . وجاء صاحب الحانوت ، سيرغي بلاتونوفيتش موخوف ، ليلبي طلب العجوز بنفسه . وسأله :«أين كنت طوال هذه المدّة يا بروكوفيتش ؟ »

ـ لدي عمل كثير ومتاعب في الحقل .

ـ حقّاً ؟ متاعب وعندك مثل هذين الولدين ؟

ـ أي ولدين ؟ لقد ودّعت بيوتر إلى المعسكر ، وليس ثمّة سواي وغريشا لنعمل كل شيء .

وفرّق موخوف لحيته الحمراء الناشفة بأصابعه إلى نصفين ، وألقى من زاوية عينه نظرة ذات معنى على جمع القوزاق .

ـ لمَ لمْ تحك لنا شيئاً عنه ؟

ـ عن أي شيء ؟

ـ ماذا تعني بقولك عن أي شيء ؟ تفكّر بتزويج ابنك ، دون أن تقول كلمة ما لأي انسان ؟

ـ أي ابن ؟

ـ غريغوري ابنك غير متزوج .

ـ أنا لم أفكّر بتزويجه ، بعد .

ـ لكنني سمعت أنك بصدد اتخاذ كنّة لك . اكسينيا ، زوجة ستيبان استاخوف .

ـ ماذا ؟ وزوجها على قيد الحياة... كيف يا بلاتونوفيتش... لابد أنّك تمزح . أليس كذلك ؟

ـ أمزح ؟ ولكني سمعت الخبر من الآخرين .

فمسح بانتلاي بروكوفيتش بيده على قطعة القماش المبسوطة على الطاولة ، ثمّ استدار بحدّة ومضى يعرج قاصداً الباب . واتجه الى داره مباشرة ، مطأطأ الرأس كالثور وقد ضمّ قبضة أصابعه المعروقة ، وصار يحجل على ساقه العرجاء بصورة أوضح . وحين مرّ بدار استاخوف ألقى نظرة عجلى عبر سياج الصفصاف . كانت اكسينيا في ثوب جميل تدلف إلى الدار تحمل سطلاً فارغاً وقد بدت يافعة ، وهي تهزهز ردفيها اللدنين .

صاح بانتلاي بروكوفيتش : «ياهذي ، انتظري» ومرق إلى الداخل خلال البوابة . فتوقفت اكسينيا تنتظره . ثمّ دخلا الى المطبخ . كانت القاع الترابية المكنوسة يتلألأ عليها رمل أحمر ، وكان ثمّة على المصطبة في الزاوية الأمامية فطائر طازجة أخرجت تواً من الفرن . وانبعثت من الغرفة رائحة ملابس زنخة وتفاح حلو .

هرت قطة رقطاء ذات جرس كبير حول رجلي بانتلاي بروكوفيتش . وقوّست ظهرها والتصقت بجزمته . فركلها ركلة ضارية قذفت بها إلى المصطبة . صاح وهو يسمّر نظره في عيني اكسينيا :

ـ ماهذا الذي أسمعه ؟ ها ؟ لم يكد زوجك يغيب ، حتّى عمدت الى غواية رجال آخرين! لسوف أجعل دم غريشا يسيل لأجل ذلك ، وسأكتب الى زوجك ستيبان! فليسمع بهذا! ياعاهرة ، لم تنالي كفايتك من الضرب على ما يبدو ؟ إياك أن تضعي قدماً داخل حوشي من الآن فصاعداً . تتعابثين مع شاب . وعندما يأتي ستيبان ، هو سيقول لي...

أنصتت إليه اكسينيا وقد حاوصت عينيها . وفجأة رفعت طرف تنورتها بلا حياء وغمرت بانتلاي بروكوفيتش برائحة ملابس النساء وتقدّمت نحوه متلعة بصدرها وقد التوت شفتاها وتعرّت أسنانها .

ـ من أنت ؟ حماي ها ؟ من أنت كي تعلمني ؟ رح وعلّم امرأتك ذات المؤخرة السمينة . اضبط من في دارك أنت ، لن أعيرك اهتماماً أيها الشيطان الاعرج ذو القدم البتراء! اخرج من هنا ، فأنت لا تخيفني!

ـ انتظري ، أيتها السفيهة المخبولة!

ـ ليس ثمّة ما أنتظره! عد من حيث أتيت! وإذا أردت ابنك غريشا ، فلسوف آكله ، بعظامه وكل مافيه ، دون أن يحاسبني أحد! ماذا لو أحببت غريشا ؟ اضربني ، هلاّ فعلت ؟ تريد أن تكتب إلى زوجي ؟ اكتب إلى الاتمان لوشئت ، ولكن غريشا يعود لي! فهو لي! إنّه ملكي ، وسأبقيه ملكاً لي!

وضغطت اكسينيا على بانتلاي بروكوفيتش الواهن بنهدها الذي كان يترجرج خلف قميصها الرقيق الضيّق كطير حباري واقع في فخ ، وألهبته بشعلة عينيها السوداوين ، وأغرقته بمزيد من الكلمات البذيئة الفظيعة . فتراجع العجوز نحو الباب ، وحاجباه يرتعشان ، وتلمّس العصا حيث تركها في الزاوية ، ودفع الباب بمؤخرته وهو يلوّح بيده . وظلّت اكسينيا تضغط عليه حتى أخرجته من الممر ، وهي تصيح لاهثة هائجة :

ـ سوف أنعم بحبّي ، وسوف أعوض عن كل ماقاسيته من مظالم! وآنذاك ، لك أن تقتلني إن شئت! فغريشا ملكي ، ملكي!

ومضى بانتلاي بروكوفيتش يعرج إلى بيته ، مدمدماً بشيء خلل لحيته . فوجد غريغوري في الغرفة ، ومن غير أن يقول شيئاً هوى بعصاه على ظهر ابنه ، فتقوّس غريغوري وأمسك بذراع أبيه :

ـ فيم هذا ، ياأبي ؟

ـ جزاء أفعالك المشينة ، يا ابن العاهرة!

ـ أيّة أفعال ؟

ـ لا تلوّث جارك! لا تجلب العار لأبيك! لا تجر وراء النساء ، أيها التيس الحقير!

وطفق بانتلاي بروكوفيتش يزمجر وهو يجرجر غريغوري في أرجاء الغرفة محاولاً انتزاع العصا التي كان غريغوري يمسك بها .

ـ لن أدعك تضربني ـ صاح غريغوري في صوت مبحوح وهو يصر على أسنانه ، ووضع العصا على ركبته ، ثم... طاق... كسرها!

فهوى بانتلاي بروكوفيتش بقبضته القاسية على رقبة غريغوري ، مزمجراً : سأجلدك علناً ياابن الشيطان الرجيم! سوف أزوجك من بلهاء القرية! سوف أخصيك! ـ راوح في مكانه مستعداً ليوجّه ضربة جديدة .

وجلب الصياح الأم العجوز فجاءت الى الغرفة مهرولة .

ـ بروكوفتش . بروكوفتش! اهدأ قليلاً . مهلاً!

لكن الرجل العجوز كان قد استشاط غضباً عن جد ، فدفع زوجته بعنف ، وقلب المنضدة وعليها ماكنة الخياطة وانطلق إلى الحوش . ولم يكن غريغوري قد أتمّ نزع قميصه الذي تمزّق كمّه خلال العراك ، حين دفع أبوه الباب وظهر من جديد على العتبة كأنّه سحابة عاصفة .

ـ لسوف أزوجه وأتخلّص منه ، ابن العاهرة هذا ـ وضرب الأرض بقدمه كما تفعل الخيل ، وثبت نظره على غريغوري القوي ، واستطرد : ـ سأذهب

غداً وأدبّر الزيجة . ما كنت أعتقد أنني سأعيش لأرى الناس يتضاحكون عليّ بسبب ابني .

ـ دعني أرتدي قميصي أولاً ، ثمّ زوجني!

ـ سأزوجك من بلهاء القرية! سأزوجك حتماً!

وانصفق الباب ، وطقطقت أقدام العجوز هابطة السلّم وهدأت .

١١

على مبعدة من قرية سيتراكوفو ، كانت صفوف العربات ذات الأغطية المشمعية تمتد عبر السهب . كانت ثمّة بلدة صغيرة نظيفة ذات سقوف بيضاء ، تتنامى بسرعة لا تصدّق ، وامتدّت خلالها شوارع مستقيمة ، وتوسطتها ساحة صغيرة حيث يمشي جندي للحراسة ذهاباً واياباً .

كان الرجال يحيون حياة معسكر التدريب الاعتيادية الرتيبة . ففي الصباح تقوم مفرزة من القوزاق الذين يتولون حراسة الخيل السارحة بسوقها إلى المعسكر . ثم يتبع ذلك الحس* وسرج الخيول وقراءة الأسماء ، والاستعراض . وكان ضابط الركن آمر المعسكر ، العقيد بوبوف ، ينعق بصوت جهوري ، والعرفاء الذين يدربون القوزاق الشباب يصرخون بأوامرهم . وقد اشتركوا في الاشتباكات خلف التل ، وحاصروا «العدو» بمهارة وصوّبوا النار إلى الأهداف . وتحمس فتيان القوزاق في مباريات المبارزة بالسيف ، بينما تملّص كبارهم من التدريب قدر ماستطاعوا .

وبينما كانت الأصوات تخشوشن من الحر والفودكا ، هبّت رياح منعشة معطّرة فوق صفوف العربات الطويلة المغطّاة ، وصفرت السوالق من بعيد وأومأ السهب يدعوهم إليه ليخلفوا وراءهم دخان الأكواخ البيضاء .

---

* الحس ، تنظيف الخيل بالمحسة . المترجمون

قبل ارفضاض المعسكر بحوالي اسبوع ، جاءت زوجه أندري توميلين (وهو أخو المدفعي ايفان) لزيارته ، وقد جلبت له شيئاً من الفطائر المصنوعة في البيت ، ومجموعة من الأطعمة اللذيذة ، وقبضة من أخبار القرية .

وقفلت عائدة في الصباح الباكر ، حاملة تحيّات القوزاق وتوصياتهم إلى عوائلهم وأقربائهم في القرية ، إلا ستيبان استاخوف الذي لم يحمّلها أيّة رسالة . فقد ألمّ به مرض في الليلة السابقة ، وشرب الفودكا ليشفي نفسه ، فكانت النتيجة أن أمسى عاجزاً عن رؤية أي شيء في عالمنا الفسيح هذا ، بما في ذلك زوجة توميلين . ولم يخرج إلى الاستعراض ، ورجا مساعد الطبيب أن يفصد له دمه ، فاستجاب الاخير لرجائه واضعاً مجموعة من ديدان العلق على صدره ، وجلس ستيبان بقميصه الداخلي مستنداً إلى عجلة عربته وقد تلطّخ غطاء قبعته الكتاني الأبيض بشحم العربة ، أرخى شفته السفلى ، وراح ينظر الى ديدان العلق وهي تمتص من صدره الذي يشبه البرميل فتنتفخ بالدم القاتم .

وكان مساعد الطبيب يقف الى جانبه مدخناً ، ينفث الدخان خلال الفجوات الواسعة بين أسنانه .

ـ أتشعر بأي تحسّن ؟

ـ إنها تمتص الدم بصورة حسنة . هذا أخف على القلب نوعاً ما .

ـ ديدان العلق شيء عظيم!

واقترب توميلين وغمز لستيبان قائلاً :

ـ ستيبان ، لدي معك كلمة .

ـ تكلّم .

ـ تعال لحظة .

فنهض ستيبان متأففاً وابتعد مع توميلين .

ـ قل مالديك .

ـ كانت امرأتي هنا في زيارة . وقد رحلت هذا الصباح .

ـ حسناً ؟

ـ ثمة لغط كثير حول زوجتك في القرية .

ـ ماذا ؟

ـ لغط لا يسر .

ـ أي ؟

ـ إنها تتعابث مع غريغوري ميليخوف . وبصورة مكشوفة تماماً .

فشحب وجه ستيبان وانتزع الديدان من صدره وسحقها بقدمه . وحين أتم سحق آخر واحدة منها ، زرر ياقة قميصه ، ثمّ ، كما لو انتابه الخوف على حين غرّة ، عاد ففك أزرار قميصه ، فيما كانت شفتاه الطباشيريتان تتحركان بدون توقّف : ارتجفتا ، ثمّ انزلقتا في ابتسامة بلهاء ، ثمّ ارتعشتا وتجمعتا في ثنية دكناء . وظنّ توميلين أن ستيبان لا بد ماضغ شيئاً قوياً وصلباً . ثمّ ، شيئاً فشيئاً ، عاد اللون إلى وجهه ، وتجمّدت شفتاه ، اللتان ضغطت عليهما أسنانه ، وغدتا هامدتين بلا حراك . نزع قبعته ، وفرش بكمّه بقعة الشحم على غطائها الأبيض ، وقال بصوت رنّان : «شكراً للأخبار» .

ـ لم أرد سوى تحذيرك . معذرة... هذه هي أخبار البيت...

وخبط توميلين يديه على بنطاله في أسف ، ومضى إلى حصانه غير المسرج . وانبعث عن المعسكر لغط وصيّاح . فقد عاد القوزاق من تمارين المبارزة . ووقف ستيبان برهة يحدّق بثبات وتجهّم في اللطخة السوداء في قبعته . كانت ثمّة علقة نصف مسحوقة ، ومحتضرة ، تزحف صاعدة على جزمته .

١٢

بعد عشرة أيام سيكون القوزاق في طريق عودتهم من المعسكر .

وفي تلك الأثناء عاشت اكسينيا في جنون حب مرير لم تظفر به إلا

متأخرة . وكان غريغوري ينسل إليها في الليل ، على الرغم من وعيد أبيه ، ويعود عند الفجر .

وفي ظرف أسبوعين استنزف قواه ، كحصان يجهد نفسه بما يفوق طاقته . وبسبب من قلّة نومه ، تشرّب وجهه الأسمر ذو الوجنتين البارزتين بلون أزرق ، ولمعت عيناه المتعبتان من محجريهما الغائرين لمعاناً محموماً . أمّا اكسينيا فصارت تمضي سافرة الوجه تماماً ، وقد اسودّت التجاويف العميقة تحت عينيها في سواد كلّي ، وابتسمت شفتاها الشرهتان المتورّمتان في تحدّ قلق .

وقد بلغت علاقتهما المجنونة حدّاً من الغرابة والعلانية ، واحترقا هائمين في شعلة واحدة لاتعرف الخزي ، ولم يردعهما ضمير ولا أخفيا حبهما عن العالم ، وتضاءلا أمام أعين الناس واسودّت صورتاهما ، وصار الناس يخجلون من النظر إليهما أثناء التقا ئهما في الشارع .حتّى رفاق غريغوري الذين كانوا يمازحونه حول اكسينيا ، غدوا الآن يلزمون الصمت ويشعرون بالتثاقل والضيق في صحبته . أمّا النساء ، فقد غبطن اكسينيا في قلوبهن ، ومع ذلك ذممنها ، وانتظرن بشماتة عودة ستيبان ، يلوعهن الفضول لمعرفة ما ستؤول إليه الأمور .

ولو أن غريغوري تظاهر وبذل أي جهد لإخفاء علاقته مع اكسينيا زوجة الجندي ولو أن اكسينيا أبقت علاقتها بغريغوري خفيّة نسبيّاً ، دون الإعراض عن الآخرين ، لما كان العالم قد وجد في علاقتهما شيئاً غير عادي ، ولربّما كانت القرية قد ثرثرت بعض الشيء ثم نسيتهما . لكنهّما تعاشرا فيما يشبه العلن . وكانت تربطهما علاقة قويّة لاتشبه أيه عشرة عارضة ، ولهذا السبب اعتبرها القرويون منافية للأخلاق ، وأمسكوا أنفاسهم في ترقّب متلصص . فسيعود ستيبان ويحل العقدة .

في حجرة نوم آل استاخوف ، كان خيط يمتد فوق السرير لُضمت فيه بكرات خياطة ، بيضاء وسوداء ، كان القصد من تعليقها تزيين الغرفة .

وكان الذباب يقضي لياليه على البكرات ، وقد امتدّت منها أنسجة العنكبوت حتّى بلغت السقف . كان غريغوري متمدّداً على ذراع اكسينيا البارد العاري ، يحدّق في سلسلة البكرات . وكانت اكسينيا تعابث خصلات شعره الخشنة بيدها الأخرى ذات الأصابع التي اخشوشنت في العمل الشاق . وكانت ثمّة رائحة لبن دافيء تنبعث من أصابعها ، وحينما أدار غريغوري رأسه غارزاً أنفه في إبطها ، أفعمته رائحة العرق الأنثوي الحلوة النفاذة .

إلى جانب السرير الخشبي المطلي المزيّن ببكرات صغيرة ، ضمّت الحجرة صندوقاً واسعاً ، ذا أطر حديدية ، كان موضعه قرب الباب ، وقد احتوى على ملابس زفاف اكسينيا وحليها . وفي ركن من الغرفة ، كانت منضدة ، وصورة زيتية للجنرال سكوبوليف على صهوة حصان منطلق صوب صف من الأعلام المنحنية أمامه ، وكرسيان ، فوقهما أيقونات ذوات هالات ورقية مزخرفة ، وعلى الحائط الجانبي ، تدلّت صور نقطها براز الذباب . وكانت واحدة منها تضم عدداً من القوزاق بخصل شعرهم المجعّدة ، وصدورهم المنتفخة تزينها سلاسل الساعات ، وسيوفهم المشهرة ، وكانت الصورة لستيبان ورفاقه أثناء الخدمة العسكريّة الفعلية . وعلى مشجب علقت بزّة ستيبان العسكريّة التي لم تغادر مكانها ذاك . وأطلّ القمر خلال النافذة وحطّ متردداً على خيطي نائب العريف الأبيضين فوق كتف البزّة .

قبلت اكسينيا ، متأوّهة ، غريغوري على منبت أنفه فيما بين حاجبيه .

ـ غريشا ، ياحبيبي .

ـ ماذا ؟

ـ لم يبق غير تسعة أيام .

ـ ليس هذا بالأجل القصير .

ـ ماذا عساي أن أفعل ، ياغريشا ؟

ـ وكيف لي أن أعرف ؟

وكتمت اكسينيا آهة ، وعادت من جديد تسوّي شعره الملبّد وتفرّقه .

قالت بلهجة اختلط فيها التساؤل بالإفصاح : «سيقتلني ستيبان» .

لم ينبس غريغوري ببنت شفة . لقد أراد أن ينام . وبذل جهداً كي يفتح جفنيه الملتصقين ، فرأى فوقه سواد عيني اكسينيا المزرق المتلألىء .

ـ حينما يعود زوجي ، ستتخلّى عنّي ، أليس كذلك ؟ ستخاف ؟

ـ لمَ أخاف منه ؟ أنت زوجته ، ويفترض فيك أن تكوني الخائفة .

ـ حينما أكون الى جانبك لا ينتابني خوف ، ولكنّي حينما أفكّر في الأمر أثناء النهار أجدني خائفة .

تثاءب غريغوري وغيّر من وضع رأسه وقال :

ـ ليست لعودة ستيبان أهمية كبيرة . إن أبي يتحدّث عن تزويجي .

وابتسم ، وكان على وشك أن يضيف شيئاً ، إلا أنّه أحس بيد اكسينيا تحت رأسه ترتخي فجأة ، وتلين وتدفن نفسها في الوسادة ، وترتعش وبعد لحظة تعود فتتصلّب من جديد . ثم تساءلت والغصة تخنق صوتها :

ـ ممن يفكّر في تزويجك ؟

ـ إنّه يتحدث في الأمر ، لاغير . أمّي تقول إنّه يفكّر في ناتاليا بنت كروشونوف .

ـ ناتاليا... إنها فتاة جميلة . جميلة جداً . حسناً ، امض وتزوّج منها . رأيتها في الكنيسة قبل مدّة . كانت أنيقة الملبس...

كانت اكسينيا تتكلّم بسرعة ، لكنّه لم يكد يسمعها ، فقد كان صوتها خالياً من الحياة وكئيباً الى درجة كبيرة .

ـ إنني لا أعير جمالها قدر دبوسين من اهتمامي ، بودّي أن أتزوجك أنت .

فسحبت اكسينيا ذراعها من تحت رأسه ، وأخذت تحدّق في النافذة بعينين جافتين . كان في الحوش ضباب ليلي أصفر ، وألقت السقيفة ظلاً ثقيلاً . وكانت الصراصير تصر ، وعلى الدون تهدر طيور الواق ، وتنساب نغماتها الأسيانة خلال نافذة حجرة النوم .

ـ غريشا!

ـ خطر لك شيء ما ؟

فأمسكت اكسينيا بيدي غريغوري الخشنتين الصلبتين ، وضغطتهما على صدرها وعلى خديها الباردين شبه الميتين ، وأعولت :

ـ فيم أقمت علاقتك بي ، عليك اللعنة! ماالذي سأفعله ؟ لقد أخذت قلبي... غريشا ، لقد انتهى أمري... ستيبان سيرجع ، وماذا عساي أقول له ؟... من ذا الذي سيكون في عوني ؟

لم يجب غريغوري بشيء . وحدّقت اكسينيا بأسى في أنفه الجميل الذي يحاكي منقار النسر ، وعينيه المظللتين ، وشفتيه الخرساوين... وفجأة اجتاح فيضان طاغ من الشعور السد الذي كان يكبح جماح عواطفها ، فجعلت تقبّله بجنون في وجهه ورقبته وذراعيه والشعر الأسود الخشن المجعّد على صدره ، وأحسّ غريغوري بجسدها يرتعش حين التقطت أنفاسها وهمست :

ـ غريشا... يا أعز من عندي... ياحبيبي... لنهرب بعيداً . ياحبيبي . لنترك كل شيء ونمضي . سأهجر زوجي وكل شيء مادمت أنت معي... سنرحل بعيداً ، إلى المناجم . سأظل أحبّك وأرعاك . لي عم يعمل حارساً في مناجم بارامونوف سوف يساعدنا... غريشا... قل شيئاً!

التوى حاجب غريغوري الأيسر . وظلّ يفكّر لحظة ، ثم فتح فجأة عينيه التركيتين الملتهبتين ، وكان فيهما استخفاف هازئ متلامع .

ـ حمقاء أنت يا اكسينيا ، حمقاء! تثرثرين ، وليس في كلامك ما يستحق الإنصات . كيف أستطيع أن أرحل عن القرية ؟ عليّ أن أؤدّي الخدمة العسكرية في العام القادم... لا جدوى من الرحيل... لن أتزحزح مطلقاً عن أرضنا . هنا ، يوجد السهب ، وثمّة شيء أستنشقه ـ أمّا هناك ؟ في الشتاء الماضي ، ذهبت مع أبي إلى المحطّة . كدت أموت . آلات تزأر ، والهواء خانق ومثقل بالفحم المحترق . كيف يعيش الناس هناك ، لا أدري . ربّما اعتادوا ذلك!

وبصق غريغوري ، وكرّر القول :

ـ لن أرحل عن القرية .

اشتدّت عتمة الليل خارج النافذة ، ومرّت سحابة أمام القمر . وتلاشى الضباب الأصفر من الحوش ، واختفت الظلال ، وصار من العسير أن يتبين المرء ما إذا كانت أحطاب العام الماضي أم أعشاب جافة ، تلك التي لاحت ، عتماء ، وراء السياج .

واشتدّت العتمة في الغرفة أيضاً . اختفى لمعان الخيطين على بزّة ستيبان العسكرية المعلقة إلى جانب النافذة ، وفي الظلام الرمادي الهامد لم يلحظ غريغوري الارتعاش الخفيف في كتفي اكسينيا ، ولا رأسها المدفون في يديها ، وهي تهتز في صمت على الوسادة .

١٣

بعد زيارة زوجة توميلين ، تغيرت ملامح ستيبان بشكل واضح ، فتدلّى حاجباه فوق عينيه ، وتجعّد جبينه في تقطيب قاسٍ عميق . صار مقلاً في كلامه مع رفاقه ، وجعل يغضب لأتفه الأسباب ، وتخاصم مع رئيس العرفاء ، ولم يعد يطيق النظر إلى بيوتر ميليخوف . لقد انقطعت عرى الصداقة التي كانت تربطهما في السابق . وفي حومة هياجه الفوار المغتاظ ، انحدر في سلوكه الى الحضيض وكأنّه حصان شموس . وهكذا ، رجعا الى القرية عدوّين .

وكان لابد من حدوث شيء يوصل العداء الغامض بينهما إلى حد فاصل . انطلقا الى قريتهما مع الجماعة نفسها كما كان الحال في السابق . وكان حصان بيوتر وستيبان مشدودين إلى العربة ، وكان كريستونيا على حصانه خلفهما . وتمدّد اندري توميلين ، الذي كان يعاني من الحمّى ، في

يقود العربة ، فأمسك بيوتر بالأعنّة . وسار ستيبان الى جانب العربة ، لافحاً بضربات من سوطه الرؤوس القرمزية للأشواك النامية على جانب الطريق . كان المطر يتساقط ، وجعل التراب الأسود الثر يلتصق بالعجلات كالقطران . وكانت السماء خريفية تضفي عليها السحب لوناً رمادياً . وجاء الليل . ولم تكن أنوار أيّة قرية تلوح في مدى الرؤية . فأخذ بيوتر يستحث الخيل بسوطه بلا رادع . وفجأة صاح ستيبان في الظلمة :

ـ أنت... يا... أنت! تترك حصانك ، وتهوي بالسوط على فرسي طول الوقت!

ـ افتح عينيك! أنا أضرب الحصان الذي لا يسحب .

ـ اخشَ ألا أربطك أنت الى عريش العربة . ذاك هو المكان اللائق بالأتراك .

فألقى بيوتر بالأعنّة وقال :

ـ ماذا تقصد ؟

ـ اوه ، ابق في مكانك .

ـ اخرس!

وتساءل كريستونيا وهو يقترب من ستيبان على حصانه : «فيم هياجك عليه ؟ »

لم يجبه ستيبان ، وكان الظلام يخفي وجهه . ومضوا صامتين طوال نصف ساعة أخرى . كان الطين ينسحق تحت العجلات ، والمطر يتساقط برتابة فوق الأغطية المشمعة . أرخى بيوتر الأعنّة ، ودخّن وهو يسترجع في ذهنه كل كلمات الإهانة التي قد يستعملها في عراكه القادم مع ستيبان . فار الحنق في قلبه واستبدّت به الرغبة في أن يقول لستيبان السافل كلمات لاذعة ويستهزىء به .

ـ تنح عن طريقي . أريد أن أدخل تحت الغطاء .

قال ستيبان ذلك وهو يدفع بيوتر جانباً ووثب الى مدوس العربة .

ارتجّت العربة فجأة ووقفت ، فقد تزحلقت الخيل في الوحل ، وتتابعت حوافرها ، وأنّ العريش . فصرخ بيوتر :

ـ هوه! ـ وقفز الى الأرض .

فتساءل ستيبان قلقاً :«ماذا حدث ؟» اقترب كريستونيا على حصانه قائلاً :

ـ ماذا حدث ياشياطين ؟

ـ هات ضوءاً .

ـ أين الكبريت ؟

ـ ياستيبان هات الكبريت .

في المقدّمة ، كانت الفرس تنافح وتزنجر . وأشعل أحدهم عود ثقاب ، فتكوّنت دائرة برتقالية صغيرة من الضياء ، ثمّ خيّم الظلام من جديد . وبيدين مرتعشتين تحسس بيوتر العمود الفقري للفرس المنكفئة ، ثم جر العنان :«هاي!»

أنّت الفرس وانقلبت ، فانكسر العريش الأوسط نصفين . وأشعل ستيبان جملة من عيدان الثقاب . كانت فرسه متمددة وهي تشرئب برقبتها ، وقد انغرست إحدى قادمتيها حتّى الركبة في حفرة مرموط في الأرض .

فك كريستونيا السيور ، في عجلة . وتبادل بعضهم البعض بالكلام :

ـ اسحب قادمتها!

ـ فك العنان عن حصان بيوتر بسرعة!

ـ هوه! على مهلك! على مهلك!

ـ إنها ترفس! اللعنة عليها! احترس!

وأخيراً ، أوقفت فرس ستيبان على أقدامها بعد لأي . وفيما أمسك بها بيوتر من عنانها ، زحف كريستونيا على ركبتيه في الوحل ، متحسساً ساقها المتدلية باستكانة .

وهدر كريستونيا :

ـ يبدو أنها كسرت .

وضرب فيدوت براحة يده على ظهر الفرس المرتعش :

ـ لنر فيما اذا كانت تستطيع السير .

وسحب بيوتر العنان ، فحجلت الفرس خطوة أو خطوتين دون أن تطأ الأرض بقائمتها اليسرى ، وصهلت . راح توميلين في قلق وهو يرتدي معطفه السميك ، ويقول :

ـ كُسرت ، اللعنة! فقدنا فرساً .

وبدا على ستيبان الذي ظلّ صامتاً حتى الآن ، كأنّه ينتظر مثل هذه الملاحظة . فهجم على بيوتر منحيّاً كريستونيا عن طريقه . كان يستهدف رأسه ، إلا أنّه أخطأ ، وهوى بضربته على كتفه . وتماسك الاثنان ، وسقطا في الوحل . وانبعث صوت قميص يتمزّق . واستطاع ستيبان أن يطرح بيوتر تحته ، ضاغطاً بركبته على رأس بيوتر . وراح يكيل له الضربات بقبضته . واستطاع كريستونيا أن يجرّه عن بيوتر وهو يصرخ بالشتائم البذئية .

صاح بيوتر وهو يبصق دماً :

ـ فيم ذلك ؟

ـ افتح عينيك حين تسوق ، يا أفعى! سر في الطريق!

وحاول بيوتر أن ينتزع نفسه من قبضة كريستونيا ، فزأر الأخير لاصقاً بيوتر بيد واحدة على العربة :

ـ كفاية! حذار أن تعاركني!

شدوا حصان بودوفسكوف الصغير القوي إلى جانب حصان بيوتر . وأعطى كريستونيا حصانه لستيبان ليمتطيه ، وزحف هو إلى داخل العربة مع بيوتر .

كان أول الليل قد انتصف حينما بلغوا إحدى القرى ، فتوقفوا عند أول

يخوض في الوحل صوب الشباك ، غير مكترث بالكلب الذي كان يعض أطراف معطفه . فتح شيش الشباك ، وجعل يخمش على لوح الزجاج بأظفر متقرّن .

ـ يارب البيت!

ولم يجبه سوى همس المطر ، وهدير النباح .

ـ يارب البيت! أيها الأخيار ، سلاماً! دعونا نقضي الليلة عندكم ، إكراماً للمسيح ، ها ؟ نحن قادمون من معسكر التدريب ، كم عددنا ؟ خمسة . بديع ، فليحفظكم المسيح .

ثم استدار إلى ناحية البوابة وصاح :«ادخلوا!»

فقاد بودوفسكوف الخيل الى الداخل ، وتعثّر بمعلف خنزير ملقى في وسط الحوش ، فانحدر من فمه سيل من السباب المقذع . وقادوا الخيل إلى الحظيرة . ومضى توميلين الى البيت وأسنانه تصطك ، بينما بقي كريستونيا وبيوتر في العربة .

عند الفجر ، تهيأوا لمواصلة الرحلة ثانية . فخرج ستيبان من البيت ، تظلع وراءه عجوز حدباء . وصاح كريستونيا ، الذي كان يشد الخيل ، بلهجة مشفقة :

ـ هوْ هوْ ، ياجدتي! ياله من سنام هذا الذي حطّوه عليك! لكنّه ذو فائدة لك عند الركوع في الكنيسة . فلست بحاجة إلى الإنحناء الكثير للوصول الى الأرض!

ـ لئن كنت أصلح للركوع ، فأنت ياعزيزي تصلح لتعليق الكلاب عليك . فثمّة شيء ما لكل واحد منّا!

وابتسمت العجوز بصرامة ، مثيرة استغراب كريستونيا بما كشفته من صف كامل لأسنان صغيرة سليمة .

ـ وأسنانك ، يالها من أسنان ، كسمك الكراكي! ألا تعطينني بعضاً منها ؟ ها أنذا في ريعان الشباب ، وليس لدي ما ألوك به .

ـ وماذا سيتبقّى لدي ، ياعزيزي ؟

ـ لسوف نعطيك طقماً من أسنان الخيل ، ياحبّوبة . ستموتين يوماً ما ، ولن يلقوا نظرة الى أسنانك في الآخرة . فليس القديسون تجّار خيل ، كما تعلمين .

فقال توميلين مبتسماً :«استمر في ذلك يا كريستونيا » ، وتسلّق الى داخل العربة .

ومشت العجوز وراء ستيبان إلى الحظيرة ، وتساءلت : «أي منها ؟ » فتنهد ستيبان قائلاً : «الدهماء » فوضعت العجوز عصاها على الأرض . وبحركة رجولية قويّة واثقة ، رفعت ساق الفرس المصابة . وتحسست بأصابعها الهزيلة المعقوفة رضفة الركبة بعناية ، فتحرّكت أذنا الفرس وجعلها الألم تتراجع على ساقيها الخلفيتين . وكشفت عن صف أسنانها البنّية .

ـ لا لا ، ليس هناك كسر ، أيها القوزاقي . اتركها هنا وسأشفيها .

ـ متأكّدة ياجدتي ؟

ـ أأنا متأكدة ؟ لا أدري ياعزيزي . سأحاول أن أشفيها .

فلوّح ستيبان بيده ومضى الى العربة . فارتفع صوت العجوز وهي تراقبه بعينين ضيقتين :«هل ستتركها أم لا ؟ »

فأجاب :

ـ فلتبق هنا .

وقال كريستونيا هادراً بالضحك :

ـ ستشفيها لك . وحين تعود إليها لن تجد لديها أيّة ساق باقية ، فالبيطارة نفسها حدباء .

١٤

ـ آه ، لكم اتحرّق شوقاً إليه ، ياجدتي العزيزة! ها أنا أرى نفسي تذوب . لم أعد أستطيع خياطة ثنيات لتنورتي بالسرعة الكافية . وجسمي

يزداد نحافة . كلّما يمر بجانب البيت أحس بقلبي يحترق . بودّي لو أرتمي على الأرض وألثم آثار أقدامه . لربّما استعمل شيئاً ما ليسحرني ؟ ساعديني ياعزيزتي . إنهم بصدد تزويجه... ساعديني ياعزيزتي... مهما يكن الثمن... لسوف أعطيك كل ما أملك ، فقط ساعديني!

ونظرت العجوز دروزديخا الى اكسينيا بعينين صافيتين داخل شبكة وجهها المجعّد ، هازة رأسها لدى سماعها القصّة المريرة .

ـ ومن هو هذا ؟

ـ ابن بانتلاي ميليخوف .

ـ التركي ، أليس كذلك ؟

ـ بلى .

وتمضغت العجوز لثتها عديمة الأسنان ، وترددت في جوابها :

ـ تعالي إليّ في بكرة الغد ، ياطفلتي ، حالما يطلع الفجر . سوف ننزل إلى الدون ، إلى الماء ، سوف نغسل عنك حنينك . وأحضري قليلاً من الملح معك... هكذا...

وتلفعت اكسينيا بشالها الأصفر ، ومضت ، وكتفاها متهدلتان ، خارجة خلال البوابة . وابتلع الليل هيكلها الداكن ، وكان الصوت الوحيد في الشارع صوت صندلها الذي تخط به على الأرض . ثمّ تلاشت خطواتها . ومن مكان ما في طرف القرية ، انبعثت جلبة عراك وغناء .

عند الفجر ، وقفت اكسينيا ، التي لم تعرف النوم طوال الليل ، تحت نافذة دروزديخا :

ـ جدّتي!

ـ من هناك ؟

ـ أنا اكسينيا . انهضّي .

ـ سأرتدي ملابسي حالاً .

واتخذتا طريقهما خلل الدروب الخلفية إلى النهر . وعلى مقربة من

المرسى كانت محاور عربة مهجورة ملقاة وقد تشربت بالماء . وعند حافة الماء كان الرمل يحز أقدامهما ببرودة . وزحفت ، صاعدة من الدون ، ضبابة باردة رطبة .

وأخذت دروزديخا يد اكسينيا بيدها الهزيلة وقادتها الى الماء .

ـ أعطني الملح . ارسمي علامة الصليب باتجاه المشرق . فرسمت اكسينيا الصليب على نفسها ، وهي تحدّق في حنق باتجاه المشرق الوردي البهيج .

ـ خذي شيئاً من الماء براحتك واشربي .

وشربت اكسينيا ، مبللة كمّي قميصها ، وكعنكبوت أسود فجّت العجوز الأمواج المتلاطمة في تكاسل ، وجلست القرفصاء ، وجلست تهمس :

ـ أيتها التيارات القادمة من الأعماق... جسد محزون... وحش في القلب... حمى وحنين... باسم الصليب المقدّس ، باسم الأم الطاهرة المقدسة... عبد الرب... غريغوري .

تناهت هذه الكلمات إلى مسمع اكسينيا .

ونثرت دروزديخا بعض الملح على الرمل الندي عند قدميها وبعضاً منه في الماء ، ووضعت الباقي في صدر اكسينيا .

ـ رشّي بعض الماء على كتفك . أسرعي!

فعلت اكسينيا ذلك ، وحملقت بحزن وغضب في خدّي دروزديخا النحاسيين .

ـ أهذا كل شيء ؟

ـ نعم ، هذا كل شيء . اذهبي ونامي .

جرت اكسينيا ، مبهورة الأنفاس إلى الدار ، كانت الأبقار تخور في الفناء . وكانت داريا تسوق أبقارها لتلحق بقطيع القرية ، وعيناها نعستان متوردان ، وحاجباها مقوسان . فابتسمت حين رأت اكسينيا تجري مارة بها وقالت :

ـ هل نمت جيداً ، ياجارتي ؟

ـ الحمد لله...

ـ وأين كت في هذا الوقت الباكر ؟

ـ كنت في زيارة في القرية .

كانت نواقيس الكنيسة تدق داعية لصلاة الصبح ، وكان وقعها النحاسي يتكسّر إلى نثار من الأصوات . وفرقع مساعد راعي القرية بسوطه في الطريق الجانبي . فساقت اكسينيا بقراتها مسرعة إلى الخارج ، ثم حملت اللبن إلى الدار لتخضّه . وشمّرت كمّيها ومسحت يديها بصدريتها ، وصبّت اللبن في المخضّة ، وهي شاردة الذهن .

كان ثمّة ضجيج عجلات صاخب وزنخرة خيل في الشارع . فوضعت اكسينيا السطل ، وذهبت لتستطلع الأمر من الشبّاك الأمامي . كان ستيبان قادماً خلال البوابة ، ويده على رمانة سيفه ، وكان القوزاق الآخرون يجرون على خيلهم صوب ساحة القرية . جعدت اكسينيا صدريتها بأصابعها ، وجلست على المصطبة . ثمّة خطوات في السلّم... خطوات في الممر... خطوات عند الباب مباشرة...

وقف ستيبان على العتبة ، ضامراً نفوراً ، وقال :

ـ حسناً ؟

فتقدمت نحوه اكسينيا ، وجسمها الممتلىء يترنّح برمّته . وقالت ببطء : «اضربني» وأدارت إليه كتفها .

ـ حسناً ، يا اكسينيا ؟

ـ لن أكتمك . لقد أثمت . اضربني ، ياستيبان!

وضمّت رأسها بين كتفيها ، وانحنت الى الأسفل لتحمي بذراعيها بطنها فقط ، وصارت وجهاً لوجه معه . وحملقت عيناها دون أن تطرفا من محجريهما الداكنين في وجهها الأبكم الذي شوهه الخوف . ترنّح ستيبان وتخطّاها ، فانبعثت من قميصه غير المغسول رائحة العرق الرجولي ، وروائح

الطريق الحريفة ، ثمّ هوى على السرير دون أن ينتزع قبعته . واستلقى لحظة هناك ، ثمّ هزّ كتفيه ، وألقى عنه نطاق سيفه . وتدلّى شاربه الأشقر ، البارز المبروم في العادة ، وارتخت ذؤابتاه . فحدجته اكسينيا بطرف عينها ، دون أن تدير رأسها نحوه ، وكانت القشعريرة تجتاح بدنها بين لحظة وأخرى . ثم وضع ستيبان قدميه على طرف السرير ، فانزلق الوحل من جزمته . حدّق في السقف ، ولاعب شرابة سيفه الجلدية .

ـ الفطور جاهز ؟

ـ لا...

ـ هاتي شيئاً آكله .

رشف شيئاً من اللبن مبللاً شاربه . ومضغ الخبز متباطئاً . وكانت عضلات وجنتيه الوردية تتحرّك بانتظام . وقفت اكسينيا قرب الموقد تراقب بفزع لاهب أذني زوجها الغضروفيتين الصغيرتين ترتفعان وتنخفضان وهو يأكل .

نهض ستيبان من المائدة ورسم علامة الصليب عليه ، وطلب إليها باقتضاب :

ـ هيّا ياعزيزتي ، أخبريني بالأمر .

وبرأس منكّس ، نظفت اكسينيا المائدة ، ولم تنبس بشيء .

ـ أخبريني كيف انتظرت زوجك ، كيف صنت شرفه ، ها ؟

وهوت ضربة مريعة على رأسها ، فانتزعتها من الأرض ، وقذفتها شطر الباب . وارتطم ظهرها بعمود الباب ، فندّ عنها أنين بائس .

إن النساء ضعيفات الجسم ناعماته ، ولكنّ ستيبان بوسعه أن يصرع حتى رؤوس رجال الحرس الأقوياء الأشدّاء ، بضربة محكمة على الرأس ، فلعل الخوف هو الذي أنهض اكسينيا ، أو ربّما رغبة المرأة في الحياة ـ فأفاقت من الضربة ، واستراحت لحظة مستلقية ، ثمّ حبت زاحفة على الأربع .

كان ستيبان يشعل سيكارة وسط الغرفة ، فلم يرها تنهض على قدميها .

ألقى كيس تبغه على المنضدة ، غير أنّ اكسينيا كانت آنذاك قد صفقت الباب وراءها ، فاندفع خلفها يطاردها .

ركضت اكسينيا ، والدم يسيل من رأسها ، متجهة صوب السياج الذي يفصل فناءهما عن فناء آل ميليخوف . وأدركها ستيبان عند السياج ، فأهوى بيده السوداء على رأسها كالصقر ، ولفّ شعرها بأصابعه ، وجعل يجذبها ، حتّى طرحها أرضاً ، على رماد الفحم الذي كانت اكسينيا ترميه كل يوم بجانب السياج .

مر اليكسي شامل الأقطع بالسياج ، وألقى نظره رلى الداخل ، فطرفت عينه ، وانفرجت لحيته الكثّة الصغيرة عن ابتسامة :

ليس في الأمر غرابة أن زوجاً يسحق زوجته بجزمته بالفعل ، ويداه وراء ظهره ، إنّه لشيء طبيعي جدّاً أن يعاقب ستيبان زوجته الشرعية . وساور شامل الفضول في أن يتوقّف ، ليرى ما إذا كان سيضربها حتى الموت أو لا ، لكنّ ضميره أبى عليه ذلك . فهو ، على كل حال ، ليس بامرأة .

لو كنت تراقب ستيبان عن بعد ، لظننت أنّه يؤدّي رقصة قوزاقية . وكان هذا ما حسبه غريغوري بالفعل ، حينما شاهد ستيبان ، خلال النافذة ، يتواثب ، صاعداً هابطاً ، لكنّه أعاد النظر مرّة أخرى ، ومرق خارج الدار ، راكضاً صوب السياج على أصابع قدميه ، وهو يضم قبضتيه القويتين الخدرتين إلى صدره ، وتبعه بيوتر في جزمتيه الثقيلتين .

انطلق غريغوري ، كالطائر ، عبر السياج العالي ، وهجم على ستيبان من الخلف فترنّح ستيبان ، ثمّ استدار وتقدّم صوب غريغوري كالدب .

قاتل الأخوان ميليخوف باستبسال ، وانقضّا على ستيبان كما تنقض غربان الرمم على جثّة متفسخة . وحدث عدة مرات أن هوى غريغوري تحت قبضة ستيبان الصخرية ، فهو لم يكن ندّاً متكافئاً لعراك شديد المراس كستيبان ، لكنّ بيوتر القوي البنيان ، والخفيف الحركة استطاع أن يقف بثبات على قدميه ، وان كان ينحني تحت ضربات ستيبان مثل قصبة في مهب الريح .

تراجع ستيبان إلى درجات الباب ، وإحدى عينيه تومض لهباً والأخرى تكتسي لون الخوخ الفج .

في تلك الأثناء ، حدث أن جاء كريستونيا ليستعير رباط خيل من بيوتر ، ففرقهم .

ـ كفّوا عن ذلك ـ ولوّح بذراعيه ، ـ تفرقوا ، وإلا أبلغت الأتمان .

بصق بيوتر بحذر دماً ونصف سن في راحة يده ، ثمّ قال بصوت مبحوح : ـ تعال ياغريشا . سنظفر به في وقت آخر .

وجاء صوت ستيبان متوعداً من الدرج : ـ احرص على أن لا أظفر أنا بك!

ـ طيب ، طيب!

ـ لا «طيب» ولاهم يحزنون ، لسوف أقلع مصارينك!

ـ أجاد أنت أم هازل ؟

وجرى ستيبان نازلاً الدرجات ، فانطلق غريغوري لمواجهته ، لكن كريستونيا دفعه نحو البوابة ، وقال متوعداً :

ـ جرّب ، سوف أسلخ عنك جلدك!

منذ ذلك اليوم ، تطورت الكراهية بين آل ميليخوف وستيبان استاخوف حتى صارت عقدة مستحكمة . لكن غريغوري ميليخوف كتب له أن يحل تلك العقدة بعد عامين في بروسيا الشرقية قرب بلدة ستولييين .

١٥

ـ قل لبيوتر أن يشد الفرس على العربة ويعد حصانه أيضاً .

فخرج غريغوري إلى الحوش . كان بيوتر يدفع عربة صغيرة من تحت طنف الحظيرة .

ـ يقول أبي أن عليك أن تشد الفرس على عربة وتعد حصانك أيضاً .

فقال بيوتر وهو يثبت العريش :

ـ أعرف ذلك دون أن يقول لي هو . لا حاجة إلى نصائحه .

كان بانتلاي بروكوفيتش جالساً يتم تناول حسائه وهو ينضح بالعرق ، وقد بدا وقوراً ، مثل راعي كنيسة أثناء القدّاس .

وكانت دونيا تراقب غريغوري بتيقّظ ، وهي تكتم تلألؤاً صبيانيّاً في موضع ما تحت الظلال المنعشة لأهدابها المقوّسة الطويلة . وبدت ايلينشنا ضخمة مهيبة في شال يوم الأحد الليموني ، ولاح في طرفي شفتيها قلق أمومي ، القت نظرة إلى غريغوري وقالت لزوجها العجوز :

ـ كفاك حشو بطنك ، يا بروكوفتش . من يراك يخال أنّك كنت تموت جوعاً .

ـ حتّى الطعام تمنعينه عنّي! يالك من امرأة نقوق!

ثم ظهر شارب بيوتر القمحي الطويل عند الباب .

ـ عربتك جاهزة ، لو سمحت!

فانفجرت دونيا ضاحكة وأخفت وجهها في كمها ، ومرت داريا عبر المطبخ متفحصة عريس المستقبل ، وحاجباها الرقيقان يتراقصان .

وكانت الخالة فاسيليسا الأرملة ابنة عم ايلينشنا ، ذاهبة معهم للخطبة . وكانت صاحبة همّة خبرت الحياة ، وعركت تجاربها ، وكانت أوّل من حطّ على العربة الصغيرة ، مديرة رأسها المدوّر ، متضاحكة وكاشفة عن أسنانها السود المعوجّة تحت ثنيات شفتيها .

فقال بانتلاي بروكوفيتش محذراً :

ـ لا تعرضي أسنانك ، يا فاسيليسا ، سوف تفسدين كل شيء . فأسنانك تبدو كمن أمضت سهرة صاخبة ، فليست بينها سن تستطيع أن تقف معتدلة .

ـ آه يا ابن العم ، أنا لست بالعروس المرتقبة .

ـ ربّما لا تكونين ، ومع ذلك فلا تضحكي . يا لها من أسنان... لونها

وحده يبعث في المرء الغثيان .

أصاب فاسيليسا الاستياء ، على أن بيوتر كان ، في تلك الأثناء ، قد فتح البوابة ، وسوى غريغوري الأعنة الجلدية ، وقفز الى مقعد السائق . وجلس بانتلاي بروكوفيتش وايلينشنا الى الخلف ، وكأنهما عروسان جديدان .

وصاح بيوتر ، مرخياً الرسن :

- ألهبهما بالسوط!

فعضّ غريغوري شفتيه وانهال بالسوط على الحصان الذي تتحرك أذناه : «إياك أن تتشريك!» فشدّت الخيل على الأعنّة ثم انطلقت بسرعة .

وزعقت داريا : «حذار! سوف تنقلب!» ولكن العربة انحرفت بحدّة ، ومضت تتوثّب مقرقعة على عثرات الطريق .

ومال غريغوري جانباً ليستحث حصان بيوتر المتخلّف بسوطه . وأمسك أبوه لحيته بيده ، وكأنّه يخشى أن تنتشها الريح منه . وصاح بصوت مبحوح ، منحنياً فوق كتف غريغوري : «اضرب الفرس!» وألقى نظرات إلى الجانبين .

ومسحت ايلينشنا بكم قميصها المخرّم عينيها اللتين أدمعتهما الريح ، وطرفت إلى قميص غريغوري الأطلس الأزرق الذي كان يخنق ويتموّج على ظهره . وكان القوزاق يتنحّون عن الطريق ، ويقفون طويلاً محملقين وراءهم . وجرت الكلاب من البيوت تنبح بين حوافر الخيل ، على أن نباحها ضاع في قرقعة العجلات المؤطرة حديثاً .

لم يرحم غريغوري الخيل ولا بخل بالسوط ، ولم تمض عشر دقائق حتى خلفوا القرية وراءهم . وامتد على جانبي الطريق الطوق الأخضر للبساتين الأخيرة . وسرعان مالاح لهم بيت كورشونوف الكبير بسياجه الخشبي . جذب غريغوري الأعنّة ، فقطعت العربة نشيدها الحديدي في منتصفه ، وتوقفت عند البوابة المطلية والمنقوشة بحفر دقيق .

لبث غريغوري مع الخيل ، بينما مضى بانتلاي بروكوفتش يعرج صوب درجات الباب . ومخرت وراءه ايلينشنا حمراء الوجه وفاسيليسا المزمومة الشفتين تحف بهما خشخشة تنورتيهما . وتعجّل العجوز نفسه خشية أن يفقد الشجاعة التي استجمعها خلال الطريق ، وتعثّر بالعتبة العالية ، وصدم ساقه العرجاء ، فاستبد به الغيظ ، وتجهّم وجهه من الألم ، وضرب بقدمه مغتاظاً درجات العتبة المكنوسة جيداً .

دخل المطبخ هو وايلينشنا معاً تقريباً . كان يكره الوقوف إلى جانب زوجته ، إذ كانت أطول منه ، ولهذا تقدّمها خطوة ، ورسم علامة الصليب أمام أيقونة دكناء ، فيما كان ينزع قبعته .

ـ صحة طيبة!

فأجاب رب البيت وهو ينهض من على المصطبة :«لله الحمد » كان عجوزاً أنمش قصير القامة .

واستطرد بانتلاي بروكوفيتش :

ـ جئناك ضيوفاً ، يا ميرون غريغورييفتش .

ـ الضيوف على الرحب والسعة دائماً . ماريا ، هاتي شيئاً يقعد عليه الزوار .

فمسحت زوجته العجوز ، ضامرة الصدر ، غباراً وهمياً من على ثلاثة مقاعد ، ودفعتها إلى الضيوف . فجلس بانتلاي بروكوفتش على طرف أحدها مجففاً عرق جبينه بمنديله .

وابتدر قائلاً دون مقدمات : «جئناكم بمهمّة» وهنا جلست ايلينشنا وفاسيليسا أيضاً ، وهما تلملمان تنورتيهما .

وابتسم رب البيت :«على الرحب والسعة . أيّة مهمة هي ؟ »

ودخل غريغوري ، ونظر حوله ثم قال :

ـ صحّة طيبة ــ لله الحمد ـ أجابت زوجة رب البيت بصوت ممطوط .

وحيّاه رب البيت بنفس التحيّة . وكست وجه ميرون غريغوريتش الأنمش

موجة من احمرار نحاسي ، فقد أدرك الآن موضوع الزيارة ، فأصدر إلى زوجته أمراً : «أدخلوا الخيل إلى الفناء ، وألقوا لها شيئاً من التبن» . فخرجت زوجته .

استأنف بانتلاي بروكوفتش كلامه ، فاتلاً لحيته الجعداء وشاداً قرط أذنه في سورة انفعاله :

ـ ليس لدينا سوى القليل مما نتحدّث به . لديك فتاة غير متزوجة ، ولدينا ابن . ألا نستطيع أن نصل الى ترتيب ما ؟ بودّنا أن نعرف ، أتعطيها لنا أم لا ؟ فلربّما نصبح أنسباء ؟

ـ من يدري ؟ ـ وحكّ ميرون غريغوريتش موضع الصلع في رأسه ، واستطرد : ـ يتعيّن عليّ أن أقول أننا لم نفكّر في تزويجها هذا الخريف . فثمّة عمل ملء ايدينا ، وهي ليست كبيرة السن . لقد سلخت في التو ربيعها الثامن عشر . هذا صحيح ، أليس كذلك ياماريا ؟

ـ صحيح .

فتدخلت فاسيليسا : «هذا أوان الزواج تماماً . فما أسرع ما تشيخ الفتاة!» ، وتململت على مقعدها ، وقد وخزتها المكنسة التي سرقتها من الممر ، وحشرتها تحت سترتها . فقد جرت التقاليد على أن الخاطبين الذين يسرقون مكنسة الفتاة لايرد لهم طلب .

وأجابت زوجة كورشونوف : «لقد جاءت عروض أخرى لابنتنا منذ بداية الربيع . لن توضع ابنتنا على الرف . لا نستطيع أن نشكو إلى الله الكريم... فابنتنا تستطيع القيام بكل شيء... سواء في الحقل أو في البيت» . فقاطع بانتلاي بروكوفتش ثرثرة المرأة قائلاً : «لو جاء رجل طيب ، يمكن أن تزوجوها» .

فحك رب البيت رأسه : «الزواج ليس بمشكلة . فباستطاعتنا أن نزوجها في أي وقت كان» .

فظن بانتلاي بروكوفيتش أن طلبه سيرفض ، وتملّكه الكدر .

ـ طيّب ، إنّ هذا يعود لك وحدك ، بالطبع . فللمرء حق الاختيار ، وفي مستطاعه أن يسعى حيث يشاء . إن كنت تبغي الحصول على ابن تاجر ، أو رجل من هذا القبيل ، فهذا بحث آخر ، ونحن نعذرك .

واذ كانت المفاوضات على وشك أن تنهار ، انفعل بانتلاي بروكوفيتش وصار وجهه أحمر كالبنجر ، بينما كانت أم الفتاة تقوق كدجاجة راقدة تحوم فوقها حدأة . غير أن فاسيليسا تدخلت في الوقت المناسب ، فصبّت فيضاً من الكلمات الهادئة الملطّفة ، كما يُصب الملح على الحروق ، وأفلحت في سد الثغرة :

ـ مهلاً ، مهلاً يا أعزائي! اذا أثير موضوع كهذا وجب أن يسوى كما ينبغي من أجل سعادة طفلتكم . فناتاليا ـ لن تجدوا مثيلة لها ولو بحثتم في وضح النهار! العمل يلتهب في يديها! أية شابة مجتهدة! أيه ربة بيت! أمّا جمالها ، فلكم أن تنظروا بأعينكم ، أيها الناس الطيبون... ـ وفتحت ذراعيها في تلويحة معطاءة ، متلفتة إلى بانتلاي بروكوفتش وايلينشنا العابسة ، واستطردت : ـ أمّا هو فزوج أهل لكل فتاة . كلّما أنظر إليه ، أحس بقلبي يدق حنيناً ، فما أشد شبهه بزوجي الراحل ، أمّا أسرته فهي مجدّة في العمل . سلوا أي إنسان في هذه الديار عن بروكوفتش ، فكل العالم يعرفه رجلاً شريفاً كريماً... بالله عليكم ، هل نحن نريد ضرراً لأطفالنا ؟

وانساب صوتها الناعم في أذني بانتلاي بروكوفتش مثل الشراب الحلو . كان يستمع إليها ويفكّر في نفسه معجباً بما تقول : «آه ، هذه الشيطانة ذلقة اللسان ، لها أسلوب في الكلام عجيب! من يقدر أن يبزها! باستطاعة بعض النساء أن يصعقن قوزاقياً بكلماتهن... كل ذلك من امرأة!» واستغرق في إعجابه بفاسيليسا التي جعلت الآن تصب المديح على الفتاة وعائلتها ، متوغلة في نسبها حتّى الجد الخامس .

ـ لا ريب ، أننا لا نريد ضرراً بابنتنا .

وقال رب البيت ملطّفاً ، وهو يبتسم :

ـ كل مافي الأمر هو أن الوقت لم يحن لتزويجها .
فاستأنف بانتلاي بروكوفتش كلامه ملحّاً :
ـ ليس الوقت مبكّراً ، وحق الله ليس الوقت مبكّراً .
ونشجت ربّة البيت ، بين منافقة ومخلصة :
ـ عاجلاً أو آجلاً ، سيتعين علينا أن نفارقها .
ـ ادع ابنتك يا ميرون غريغوريفتش . لنراها .
ـ ناتاليا!
فظهرت الفتاة خجلى عند الباب ، تتشاغل أصابعها السمر بكشكش مئزرها . فشجعتها الأم مبتسمة خلال دموعها :
ـ ادخلي... ادخلي... إنها خجلى .
كان غريغوري جالساً بجنب صندوق كبير مزيّن برسوم زرقاء باهتة اللون فنظر إليها .
عينان رماديتان جريئتان تحت وشاح أسود مخرّم . وغمّازة ورديّة صغيرة في الخد الأسيل ، وابتسامة مكتومة خجلى على الشفتين . ثمّ حوّل غريغوري عينيه إلى يديها : كانتا كبيرتين . ترك العمل الشاق عليهما أثره . تحت البلوزة القصيرة الخضراء التي ضمّت جسدها الممتلىء ، برز نهداها الصغيران الصلبان صلابة نهود الصبايا ، بسذاجة واستكانة ، وبدت حلمتاهما الصغيرتان الناتئتان كزرين .
وما هي إلا لحظة ، حتى استوعبها غريغوري كلها بنظره ، من الرأس حتّى الساقين الطويلتين البديعتين . تأملها كما يفحص تاجر فرساً قبل الشراء ، وقال لنفسه : «لابأس بها» ، ثمّ ترك عينيه تلتقيان بعينيها . فبدت نظرتها الساذجة المخلصة ، والمرتبكة قليلاً ، كأنّها تقول : «ها أنا ذا ، بكل ما أنا عليه . فاحكم عليّ كما تشاء» . فأجاب غريغوري بعينيه وابتسامته : « رائعة!»
ـ حسناً ، حسبك هذا ـ وأشار لها أبوها أن تخرج . فيما كانت ناتاليا

تسد الباب وراءها ، نظرت إلى غريغوري دون أن تحاول إخفاء ابتسامتها أو فضولها .

استأنف كورشونوف كلامه من جديد ، بعد أن تبادل النظرات مع زوجته ، قائلاً :

ـ اسمع يا بانتلاي بروكوفتش . ابحثوا الأمر مجدّداً ، وسنبحثه نحن مع العائلة . وبعد ذلك سنقرر ما إذا كنّا سنعتبره إتفاقاً على الزواج أو لا .

وبينما كان بانتلاي بروكوفتش يهبط الدرج دسّ هذه الجملة :

ـ سنزوركم مرّة أخرى يوم الأحد القادم .

وتعمّد كورشونوف أن يظلّ صامتاً ، متظاهراً بأنّه لم يسمع .

١٦

لم يدرك ستيبان ، وهو يداري الألم والحقد في نفسه ، أنّه كان يحب اكسينيا حبّاً بائساً مقيتاً ، على الرغم من ماضيها والحياة التعسة التي يحياها معها ، إلا بعد ماعلم عن سلوكها من توميلين . كان يقضي لياليه في المعسكر مستلقياً في العربة ، يغطّيه معطفه السميك ، وذراعاه معقودتان خلف رأسه ، يفكّر بالصورة التي ستلقاه بها زوجته لدى عودته . كان يحسّ بأنّ عقرباً قد حلّت في صدره في محل قلبه . واذ رقد يفكّر بألف وسيلة للانتقام منها ، أحسّ بأسنانه كما لو رصّت بينها ذرات رمل ثقيلة . لقد خفف عراكه مع بيوتر من غلواء غضبه . وحينما وصل إلى داره كان متعبّاً جدّاً ، فلم يصب اكسينيا منه سوى عقاب يسير .

ومنذ يوم عودته ، حوّم شبح خفي على دار استاخوف ، فاكسينيا تمضي على أطراف أصابعها ، وتتكلّم همساً ، لكن ثمّة في عينيها ، اللتين ظللهما رماد الخوف ، قبساً من النار التي أضرمها غريغوري .

فيقاسي العذاب . وفي الليل ، وحينما كانت أسراب الذباب تنام في المطبخ على عوارض السقف ، واكسينيا قد سوّت الفراش وشفتاها ترتعشان ، كان ستيبان يطبق على فمها بكفّه ذات العقد ويضربها ، ويطالبها بتفاصيل مخجلة عن علاقتها بغريغوري . فتتلوى اكسينيا ، وتشهق متلمسة الهواء فوق السرير الصلب الذي تنبعث منه رائحة جلد الخروف . فإذا أتعبه تعذيب جسمها الناعم اللدن كالعجين ، مرر يده على وجهها باحثاً عن الدموع ، فلا يجد سوى الجفاف في خدّيها المشتعلين ، وفكّيها يختلجان تحت أصابعه .

ـ هل ستخبرينني ؟

ـ كلا!

ـ سأقتلك!

ـ اقتلني ، اقتلني ، بحق المسيح . ستنتهي آلامي . هذه ليست حياة .

ويطحن ستيبان أسنانه ، ويلوي جلد ثديها الرقيق المبلل بالعرق ، فترتعد اكسينيا وتئن .

ويتساءل ستيبان هازلاً : «يؤلمك هذا ؟»

ـ أجل ، يؤلمني .

ـ وهل تعتقدين أن ذلك الأمر لم يؤلمني ؟

ويتقدّم الليل قبل أن يغلبه النعاس ، فينام متكوراً وأصابعه السوداء المتورمة تتحرك بلا انقطاع . وتنهض اكسينيا متكئة على مرفقها ، فتتأمّل وجه زوجها وقد جعله النوم وسيماً ، ثمّ تلقي برأسها على الوسادة من جديد ، وتهمس مع نفسها .

لم تعد ترى غريغوري إلا لماماً . وقد حدث مرّة أن التقت به قرب الدون ، وكان قد أورد الثيران ، وهمّ بصعود المنحدر وهو يلوّح بغصن في يده ويتأمّل قدميه . وكانت اكسينيا نازلة الى الدون حين رأته فأحسّت بنير الدلاء يبرد في يديها ، والدم الحار ينبض في صدغيها .

وحينما استعادت ذكرى ذلك اللقاء فيما بعد ، وجدت من الصعب عليها

إقناع نفسها بأن ذلك قد حدث فعلاً . لم يلحظها غريغوري إلا بعد أن كادت تعبره ، فرفع رأسه على صرير السطل الموصول ، وارتعش حاجباه ، وابتسم في غباء . فشخصت اكسينيا ببصرها عبر رأسه الى أمواج الدون الخضر ، وإلى أبعد منها حيث حافة الرأس الرملي المتوغل في النهر . واجتاحها انفعال ملتهب اعتصر الدموع من عينيها .

ـ اكسينيا!

مشت بضع خطوات ثمّ توقّفت منكسة الرأس كمن يتوقّع صفعة ، فقال غريغوري دون أن يدير رأسه ، وهو يضرب بغصنه في حنق ثوراً متلكئاً :

ـ متى سيحش ستيبان الجويدار ؟

ـ إنّه يتهيّأ لذلك الآن .

ـ حين تودعينه ، اذهبي الى حديقة عبّاد الشمس العائدة لنا ، وسأوافيك هناك .

نزلت اكسينيا الى الدون ودلواها يصرّان . كان الزبد يتلوّى كالأفعى على امتداد الشاطىء ، مثل شريط أصفر يومض على طراف الموجة الاخضر . وكانت ثمّة طيور بيض تصيد الأسماك تحوم وتصيح فوق النهر ، وعلى سطح الماء تألقت سمكات صغيرات تألّق مطر فضّي . وفي الجانب الآخر ، وراء بياض الرأس الرملي ، شمخت ذروات رمادية لشجرات حور معمرات ، بعجرفة وتجهّم . وبينما كانت اكسينيا تغرف الماء ، أسقطت دلوها في النهر ، فرفعت تنورتها ، وخاضت في الماء إلى ركبتيها ، وراح الماء يدغدغ سمانتيها ، وللمرّة الأولى منذ عودة ستيبان ضحكت اكسينيا بهدوء وتردد .

والتفتت لتنظر إلى غريغوري . كان لم يزل يلوح بغصنه كأنّه يطرد الذباب ، وهو يرتقي المرتفع ببطء .

وبعينين تغشاهما الدموع ، رنت إلى ساقيه القويتين بحنان وهما تخطوان باعتداد . وكان سرواله الفضفاض المحشور في جوارب صوفية بيضاء ، يزهو بأشرطته القرمزيّة . وقد رفرفت على ظهره ، فوق عظم اللوح ،

قصاصة قميص مزّق حديثاً ، وبدا من الشق مثلّث من بشرته السمراء . فقبلت اكسينيا بعينيها هذه البقعة الصغيرة من الجسد الحبيب الذي كان لها ذات مرّة . وتساقطت الدموع على شفتيها الشاحبتين الباسمتين .

وضعت دلويها على الرمل لتعلقهما على النير ، ولاحظت آثار حذاء غريغوري . فنظرت خلسة حولها ، لم يكن ثمّة أحد على مرمى البصر سوى بعض الأولاد يستحمّون على مقربة من الرصيف البعيد . فجلست القرفصاء وغطّت أثر القدم براحتها ، ثمّ قامت ، وعلقت النير على كتفيها ، وأسرعت الى الدار مبتسمة لنفسها .

كانت الشمس تعبر السماء فوق القرية ، وقد أحاط بها ضباب خفيف . وامتد ، وراء القطيع المتجعّد من السحب البيضاء الصغيرة ، مرعى لازوردي ، بارد عميق . والحرارة خانقة مميتة فوق السقوف الحديدية المحرقة ، والشوارع المغبرة المهجورة ، وعلى الأقنية ذات العشب الأصفر اليابس .

كانت اكسينيا تمشي متمايلة والماء يطرطش من الدلوين متساقطاً على الأرض المتشققة . حينما اقتربت اكسينيا من درجات الباب ، كان ستيبان يشد الخيل الى آلة الحصاد ، وقد وضع على رأسه قبّعة قش عريضة . نظر الى اكسينيا وهو يعدل مشد الصدر على الفرس الناعسة وقال :« صبّي شيئاً من الماء في الإبريق » . فصبّت اكسينيا سطلاً من الماء في الإبريق فاكتوت أصابعها بالحافة الحديدية الحارة .

وقالت وهي تنظر الى ظهر زوجها العرق :« عليك أن تأخذ شيئاً من الثلج وإلاّ فسيصبح الماء دافئاً بعد قليل » . ـ اذهبّي واطلبي شيئاً من الثلج من آل ميليخوف » ـ ثم صرخ ستيبان مستدركاً :« لا ، لا تذهبي » .

ومضت اكسينيا لتسد البوابة . وأخفض ستيبان عينيه واختطف السوط .

ـ أين ذاهبة ؟

ـ لأسدّ البوابة .

ـ ارجعي ، ياعاهرة . قلت لك لا تذهبي .

واسرعت عائدة الى الدرجات ، وحاولت أن تعلّق النير على الحاجز غير أن يديها كانت ترتعشان بشدة ، فسقط النير مقعقعاً على الدرجات .

نشر ستيبان معطفه المشمّع على المقعد الأمامي ، ثمّ جلس وأمسك بالأعنّة .

ـ افتحي البوابة .

وبينما كانت تفعل ذلك ، غامرت بالسؤال :«متى ستعود ؟»

ـ عند المساء . لقد اتفقت مع انيكوشكا على الحصاد . خذي الطعام إليه . سيخرج إلى الحقل بعد أن ينهي شغله عند الحداد .

وصرّت عجلات الحاصدة فيما كانت تحفر بساط التراب الرمادي . ومضت اكسينيا إلى داخل الدار ، ووقفت لحظة وهي تضع يديها على قلبها ، ثمّ ألقت عصابة على رأسها ، وجرت نازلة إلى النهر .

والتهبت الفكرة فجأة في ذهنها : «ولكن ، لنفرض أنّه عاد ؟ ما العمل اذن ؟» وتوقفت كما لو رأت حفرة عميقة عند قدميها ، ونظرت إلى الخلف ثم أسرعت ، تكاد تركض على امتداد ضفّة النهر صوب المروج .

أسيجة . بقاع من الأرض مزروعة خضاراً . بحر أصفر من عبّاد الشمس يتحدّى الشمس بنظراته . اخضرار شاحب لنبات البطاطة . نساء آل شامل يعزقن حقل البطاطة ، مقوسات الظهور في ثياب وردية ، ومعازقهن ترتفع وتنخفض بحدّة على الأرض الرمادية . وحينما وصلت اكسينيا إلى بستان ميليخوف ، تلفتت حولها ، ثم رفعت السقّاطة الخشبية وفتحت البوابة . وتتبعت الممشى صوب الدغل الأخضر لسيقان عباد الشمس . وحشرت نفسها في وسط الدغل ، محنيّة الظهر ، وقد علق على وجهها لقاح النبات الذهبي ، ثمّ لملمت تنورتها واقتعدت الأرض الدغلاء .

راحت تنصت : ورن السكون في أذنيها . وانبعث من مكان ما فوقها طنين نحلة وحيدة . إن سيقان عبّاد الشمس تمتص الأرض في صمت .

ظلّت جالسة على هذه الحال حوالي نصف ساعة ، يعذبها الشك . هل سيأتي ؟ كانت على وشك أن تذهب ، وهي تسوّي عصابتها ، حينما صرت البوابة صريراً ثقيلاً . وقع خطوات .

ـ اكسينيا!

ـ تعال من هنا .

ـ ها قد جئت إذن!

واقترب غريغوري ، والأوراق تخشخش عند مروره ، وجلس إلى جانبها . صمتا لحظة .

ـ ماهذا الذي على خدّك ؟

فمسحت اكسينيا بكمها الغبار الذهبي العطر .

ـ لا بد أنّه من عباد الشمس .

ـ هناك ، تحت عينك . أيضاً .

ومسحته عنها . التقت عيونهما . فأجهشت اكسينيا بالبكاء ، إجابة على تساؤل غريغوري الصامت .

ـ ماعدت أحتمل . فأنا ضائعة ياغريشا .

ـ ماذا يفعل بك ؟

فسحبت ياقة بلوزتها بعنف . وبدا نهداها الورديان ، الممتلئان كنهود الفتيات ، تغطيهما كدمات زرقاء محمرّة .

ـ ألا تعلم ؟ إنّه يضربني كل يوم . إنّه يمتص دمي... وأنت أيضاً... لوثتني كالكلبة ، ثم تركتني... إنكم جميعاً...

وزررت بلوزتها بأصابع مرتعشة ، ثم غشيها الخوف من أن يكون قد تكدّر ، فتطلعت إلى وجهه المشيح عنها .

قال غريغوري ببطء ، وهو يقضم نصلاً من الحشيش :

ـ اذن فأنت تحاولين إلقاء اللوم عليّ ؟

أثار صوته الهادىء غيظ اكسينيا فصرخت بضراوة :

ـ ألا تستحق اللوم ؟
ـ الكلب لا يواقع كلبة تُمانع .
أخفت اكسينيا وجهها في يديها ، إذ هوت عليها الإهانة مثل لطمة قويّة سديدة .

تجهّم غريغوري واختلس النظر إليها مخاوصاً . كانت ثمّة دمعة تتألق بين السبابة والوسطى من أصابعها . وتلألأ شعاع متكسّر من الشمس مغبرّ على الدمعة الشفافة ، وجفف أثرها الرطب على بشرتها .

لم يكن غريغوري ليحتمل الدموع ، فتململ نافذ الصبر ، ونفض نملة بنّية عن سروالة بقسوة ، ونظر إلى اكسينيا من جديد . لم تكن قد تحرّكت ، ولكن ثلاثة مسايل من الدموع كانت تتسابق هابطة على ظهر يدها .

ـ ماذا حدث ؟ هل جرحت شعورك ؟ اكسينيا! اسمعي! كفى... أريد أن أقول شيئاً .

انتزعت يديها من وجهها ، وقالت :

ـ لقد جئت إلى هنا لألتمس النصيحة . فلماذا تقول هذا الكلام ؟ إن الحال مريرة بما فيه الكفاية ، وأنت...

احمر وجه غريغوري وهو يفكّر : «لا تستحق هذه الإهانة» .

ـ اكسينيا... أنا لم أقصد ذلك ، فلا تتكدّري .

ـ أنا لم أجئك لأكون عالة عليك ، فلا تخف .

وفي تلك اللحظة ، كانت تعتقد حقّاً أنها لم تأت لتكون عالة على غريغوري ، ولكنّها كانت قد حدّثت نفسها بغموض وهي تعدو بمحاذاة الدون : «سوف أقنعه بالكلام . لن يتزوّج . فمع من أعيش إذا لم أعش معه ؟» ثمّ تذكّرت ستيبان ، فهزّت رأسها بعناد لتطرد عنها الفكرة المباغتة .

وتساءل غريغوري : «إذن ، فحبّنا انتهى ؟» وانبطح على بطنه ، متكئاً

على مرفقه وهو يبصق أوراق زهرة وردية لدغل متسلّق ، كان يمضغها .

فقالت اكسينيا فزعة :

ـ أتقول : انتهى ؟ ـ وكررت القول بإصرار وهي تحاول النظر في عينيه :

ـ ماذا تعني ؟

كان فيها بصيص أبيض مزرق حينما أشاحهما عنها .

فاحت الأرض الجافة المتعبة بالغبار والشمس . وحفت الريح بين الأوراق الكبيرة الخضراء . وغابت الشمس لحظة ، وقد غلفتها سحابة عابرة وسقط ظل أغبش متموّج على السهب ، على القرية ، على رأس اكسينيا الأسيان ، وعلى الكأس الوردي لزهرة الدغل المتسلّق .

أطلق غريغوري تأوهاً برماً ، وتمدّد على ظهره ، ضاغطاًعظمي اللوح على التربة الحارة .

وشرع يتكلّم متباطئاً :

ـ اسمعي يا اكسينيا . هذه ورطة عفنة بصورة ما... لقد كنت أفكّر...

وانبعث صرير عربة فوق بقعة الخضار مصحوباً بصوت امرأة تستحث :«هو..و...وها... امضوا ياثيراني!»

وبدا النداء لاكسينيا قريباً جداً فانبطحت على الأرض . ورفع غريغوري رأسه وهمس :

ـ انزعي عصابة رأسك . إنها ظاهرة... وقد يروننا .

أزاحت عصابتها ، فلاعب النسيم اللاهب المتسلل خلال عبّاد الشمس خصلات الشعر على رقبة اكسينيا . وشيئاً فشيئاً تلاشى ضجيج العربة .

فاستأنف غريغوري كلامه من جديد : «حسناً ، إليك ما كنت أفكّر به»

ثمّ أضاف متشجعاً :

ـ مافات فات . فيم نحاول إلقاء اللوم على أحدنا ؟ علينا أن نحيا بشكل من الأشكال .

واستمعت إليه اكسينيا في قلق وترقّب ، وهي تكسّر ساقاً من النبات

بيدها فيما كانت تنتظر . ثمّ نظرت إلى وجه غريغوري ، وتعقّبت في عينيه لمعاناً صارماً جاداً .

ـ كنت أفكّر في أن نضع نهاية لـ....

ترنحت اكسينيا . وانشبت أصابعها في الدغلة المتسلقة الخشنة ونفخت منخريها وهي تترقّب نهاية الجملة . ولسعت وجهها نار ضاربة من الرعب ونفاذ الصبر ، وجفّ حلقها . ظنّت أنّه سيقول« نضع نهاية لستيبان » ، ولكنّه لحس شفتيه اليابستين اللتين كانتا تعتملان بصعوبة ، وقال برماً :

ـ... أن نضع نهاية لهذه العلاقة . ها ؟

انتصبت اكسينيا ، ومضت صوب البوابة شاقة طريقها خلل رؤوس عباد الشمس الصفر المتمايلة . وصاح غريغوري بصوت مختنق : «اكسينيا!» وأجاب نداءه صرير البوابة الثقيل .

١٧

ما أن تمّ حصاد الجويدار ، وقبل أن يتيسر نقله الى المخازن ، نضج القمح . ففي الحقول الخصيبة وعلى السفوح ، حال لون الأوراق الجافة أصفر ، وتثنّت حتّى صارت أنابيب ، ويبست السيقان بعد أن أدت ماعليها .

وانتشى الجميع بالحصاد الوفير ، فقد جاءت السنابل ممتلئة والحبّات ثقيلة كبيرة .

قرر بانتلاي بروكوفتش ـ بعد أن بحث الموضوع مع ايلينشنا ـ أن الزفاف سيتم ، إذا ما وافق آل كورشونوف على الخطبة ، في عيد المخلص الخريفي . ولم يكن قد زار آل كورشونوف بعد لمعرفة جوابهم ، فقبل كل شيء يجب أن يتم الحصاد ، ثمّ ينتظر حلول عطلة ما .

بدأ آل ميليخوف الحصاد ذات جمعة . جرت الحاصدة ثلاثة خيول .

أعد بانتلاي بروكوفتش العربة لنقل الحصيد . ومضى بيوتر وغريغوري إلى الحقول للحصاد .

سار غريغوري واضعاً يده على المقعد الأمامي الذي جلس عليه أخوه . كان غريغوري مكتئباً ، واختلجت العضلات ما بين فكّه الأسفل وعظام وجنتيه فاستشف منها بيوتر علامة أكيدة على أنّ أخاه يتميز غضباً وأنّه على استعداد للعراك ، ولكنّه شرع مع ذلك في معابثة أخيه وهو يبتسم من تحت شاربه القمحي .

ـ وحق الرب ، لقد أخبرتني بنفسها!

فتمتم غريغوري ، وهو يمضغ شعره من شاربه :

ـ حسناً ، وماذا لو أخبرتك ؟

ـ قالت :«بينما كنت عائدة من بستان الخضار ، سمعت أصواتاً من بقعة عبّاد الشمس في حدائق ميليخوف» .

ـ بيوتر ، كفّ عن هذا!

ـ أجل ، أصوات .«وتطلعت خلال السياج...»

وارتعش جفنا غريغوري :

ـ هل ستكف عن هذا ، أم لا ؟

ـ أنت صبي غريب الأطوار! دعني أكمل .

فتوعده غريغوري ، وهو يتراجع الى الخلف :

ـ إنني أحذّرك يابيوتر ، فسوف نتعارك بعد لحظة .

فرفع بيوتر حاجبيه ، واستدار في مقعده ليواجه غريغوري .

ـ «تطلّعت خلال السياج ، وهناك رأيتهما ، العاشقين ، مستلقيين متعانقين!» هذا ما قالته . قلت : «من ؟» فأجابت : «عجباً! هما اكسينيا وأخوك» . فقلت...

فالتقط غريغوري مذراة من قبضتها ، كانت ملقاة في مؤخرة الحاصدة ، وهجم على أخيه . فقذف بيوتر بالأعنّة ووثب عن مقعده . وجعل يزوغ أمام الخيل . وقال صائحاً :

ـ باه! ياللشيطان! لقد جن! باه! حسبكم أن تنظروا إليه...

فقذف غريغوري المذراة باتجاه أخيه ، وهو يكشّر عن أسنانه ، فجثا بيوتر على يديه وركبتيه ، وطارت المذراة فوقه ثمّ انغرست من أسفلها في الأرض الجافة الصلبة ، وهي تتذبذب رنّانة .

تجهّم وجه بيوتر وأمسك بأعنّة الخيل المستفزّة ، وأخذ يلعن ثائراً :

ـ كدت تقتلني ، ياخنزير!

ـ أجل ، وددت لو قتلتك!

ـ أنت أحمق ، شيطان مخبول . أنت ابن أبيك حقّاً : تركي ابن تركي .

انتزع غريغوري المذراة من الأرض ، وجعل يمشي وراء الحاصدة . ثم أشار إليه بيوتر باصبعه قائلاً :

ـ تعال هنا . أعطني المذراة .

وحوّل الأعنّة إلى يده اليسرى ، وأمسك بالمذراة من أسنانها ، ثمّ سدّد بمقبضها ضربة على ظهر غريغوري الذي لم يتوقّع شيئاً . وقال في أسف ، وهو يراقب غريغوري الذي كان قد قفز بعيداً : «تستحق ضربة أشدّ» .

بعد لحظة أو لحظتين ، أشعلا سيكارتين ، ونظر الواحد إلى الآخر ، ثمّ انفجرا ضاحكين .

حينما هجم غريغوري على أخيه ، كانت زوجة كريستونيا تقود عربتها عائدة إلى البيت ، فرأتهما في تلك الحال . انتصبت على عربتها ، غير أنّها لم تتبين ماكان يحدث . إذ أن الحاصدة والخيل حجبتهما عنها . وما أن وصلت إلى شارع القرية حتّى صرخت منادية إحدى جاراتها :

ـ يا كليموفنا! اجري وأخبري بروكوفتش التركي بأن ولديه يتقاتلان بالمذاري على مقربة من رابية التتار . قولي له إن غريغوري ـ ياللشيطان! طعن بيوتر في جنبه بأسنان المذراة . فما كان من بيوتر إلا أن سدّد إليه... فسال دم كثير .

بدأ صوت بيوتر يبحّ من الصياح وراء الخيل المتعبة . فجعل يصفر بدلاً

من ذلك . وكان غريغوري يذري الحزم عن الحاصدة مسنداً قدمه التي سوّدها التراب على عارضة الحاصدة . وكانت الخيل ، والذباب ينهشها بضراوة ، تهزّ ذيولها وتجر الماكنة متثاقلة .

كان الناس يعملون على امتداد السهب كله حتّى خط الأفق الازرق وشفرات الماكنات تصلصل وتئز والسهب ترقطه حزم القمح ، وأخذت السناجب البرّية تقلّد السواق في صفيرهم ، فراحت تصفر من على الأكمات .

صاح بيوتر فوق ضجيج الماكنة وهو يلتفت إلى غريغوري : «شوطان آخران ، ثمّ نتوقّف لندخّن!» . فأومأ غريغوري برأسه اذ لم يكن بمستطاعه أن يفتح شفتيه اليابستين إلاّ بمشقّة . وقرّب قبضته من أسنان المذراة ليوفّر لنفسه سيطرة أفضل على الحزم الثقيلة ، وتنفّس بما يشبه التشنّج . وصار صدره المبلل بالعرق يحكّه ، وسال العرق من تحت قبعته على وجهه وأحرق عينيه كالصابون . وبعد أن أوقفا الخيل ، شربا ودخّنا .

قال بيوتر مظللاً عينه براحته : «ثمّة شخص ما راكب حصاناً يجري بسرعة كبيرة على الطريق» .

فحدّق غريغوري ، ورفع حاجبيه مستغرباً .

ـ يبدو وكأنّه أبي .

ـ أنت مجنون . أي حصان يمكن أن يركب ، اذا كانت كل الخيل هنا ؟

ـ إنّه هو .

ـ أنت مخطىء .

ـ إنّه هو ، وحقّ الله . أبي .

وبعد لحظة صار بالإمكان رؤية الحصان الجاري بسرعة والراكب ، فراوح بيوتر في دهشة قلقة :

ـ حقّاً ، إنّه أبي!

ـ لابد أن شيئاً ما وقع في الدار ـ عبّر بذلك غريغوري عن فكرة أقلقتهما معاً .

كبح بانتلاي بروكوفيتش حصانه ، وهو لم يزل على مبعدة مائة خطوة ، وصاح ملوّحاً بسوطه الجلدي فوق رأسه : «سأجلدكما ياولدي العاهرة»!»

ــ ماذا هناك ؟ ـ واستبدّت ببيوتر دهشة طاغية ، ودسّ نصف شاربه في فمه .

وقال غريغوري مبتسماً ، ومنتقلاً إلى الجانب الآخر من الحاصدة تحوّطاً .

ـ تعال إلى الجانب الآخر من الحاصدة تحوّطاً! والله ، سوف يجلدنا بذلك السوط . وإلى أن نصل إلى صلب الموضوع ، يكون قد انتزع مصاريننا من بطوننا!

وجاء الحصان المزبد يخب فوق القمح المحصود . وهزّ بانتلاي بروكوفيتش سوطه ، وقدماه تصطكّان على جنبي الحصان (فقد كان يركبه بلا سرج) وصاح :

ـ ماذا كنتما تفعلان هنا ، يا أبناء الشيطان ؟

فلوّح بيوتر بذراعيه ، وعيناه ترمقان السوط في خشية :

ـ كنّا نحصد .

ـ من الضارب بالمذراة ومن المضروب ؟ وفيم كان عراككما ؟

أدار غريغوري ظهره لأبيه ، وشرع يعد الغيمات همساً .

راوح بيوتر وتساءل وهو ينظر الى أبيه من أسفل الى أعلى وهو يطرف بعينيه :

ــ مابالك ؟ ايّه مذراة ؟ من كان يتعارك ؟

ـ كيف ؟ لقد جاءتني ، راكضة بنت الدجاجة تلك ، وهي تزعق : «لقد تضارب ولداك بالمذاري» . فما رأيك بهذا ؟

ها ؟ ـ هزّ بانتلاي بروكوفتش رأسه منفعلاً ، ثم أرخى الأعنّة وقفز عن الحصان اللاهث .

ـ اختطفت حصاناً من فيدكا سميشكين وجئت أجري . حسناً ؟
ـ من أخبرك بكل هذا ؟
ـ امرأة!
ـ كذبت يا أبي . لابد أنها كانت نائمة في عربتها وحلمت بهذه الحكاية .

فقال بانتلاي بروكوفتش بين صائح وصافر ، وهو يهز بلحيته :
ـ امرأة! عاهرة كليموف تلك! ياإلهي! سأجلد تلك المومس!
وأخذ يضرب الأرض بقدميه وهو يعرج بقدمه اليسرى .

ظل غريغوري يحدّج في الأرض وهو يختلج في ضحك مكتوم . ومسح بيوتر رأسه العرق ، وعيناه مثبتتان على أبيه .

لبث بانتلاي بروكوفتش يهتز انفعالاً الى أن برد قلبه ثمّ هدأ . فجلس على مقعد ماكنة الحصاد ، وحصد صفّين أو ثلاثة ثمّ امتطى حصانه ، وهو يشتم ، وركب عائداً إلى القرية في الطريق المغبر ولحق عربتين محملتين بالقمح وسبقهما . نسي سوطه على الأرض ، فالتقطه بيوتر وقلّبه بين يديه وهز رأسه قائلاً لأخيه :

ـ لقد تحاشينا مصيبة ، يافتى . فمع هذا السوط! كان بالإمكان أن يجعل منك عاجزاً ، أيها الأخ . فبوسع هذا أن يقطع رأسك عن بدنك كلّياً .

١٨

اشتهر آل كورشونوف بأنهم أغنى أسرة في قرية تتارسكي ، فلديهم أربعة عشر زوجاً من الثيران ، بالإضافة إلى الخيل والأفراس التي جيء بها من مزرعة جياد بروفالسك ، وخمس عشرة بقرة ، وماشية أخرى لاحصر لها ، وقطيع مكوّن من عدّة مئات من رؤوس الغنم . عدا ذلك كان ثمّة مايلفت النظر : كان بيتهم بغرفه الست وسقفه الحديدي يضاهي بيت التاجر

موخوف ، وقد سقفت مرافقه الخارجية بقرميد جديد زاه ، وبلغت مساحة حديقته ومرجه حوالي هكتارين . فما عسى المرء أن يطلب أكثر من ذلك ؟

ولهذا كان بانتلاي بروكوفتش خجلاً نوعاً ما ومتردداً في سرّه أثناء زيارته الأولى لآل كورشونوف خاطباً . كان باستطاعة آل كورشونوف أن يجدوا لابنتهم زوجاً أغنى بكثير من غريغوري . كان بانتلاي بروكوفتش يعلم هذا فيتوجّس خيفة من أن يقابل عرضه بالرفض ، فلم يكن يودّ أن يذهب سائلاً لدى كورشونوف المغرور . إلا أن ايلينشنا ظلّت تنخر فيه كما ينخر الصدأ بالحديد ، حتّى استطاعت أن تتغلّب على عناد الشيخ . وأخيراً ، قام بزيارة آل كورشونوف ، لاعناً في أعماقه غريغوري وايلينشنا والدنيا برمّتها .

والآن ، حان الوقت للذهاب إليهم لاستجلاء جوابهم ، سوى أنهم كانوا ينتظرون حلول يوم الأحد . وفي الوقت ذاته ، ثار تحت السقف الحديدي المطلي لبيت كورشونوف خلاف حاد . فقد صرخت ناتاليا لأمّها ، بعد رحيل آل ميليخوف ، قائلة :

ـ أنا أميل الى غريشا ، ولن أزف إلى سواه .

فردّ عليها أبوها : ـ وجدت لنفسها عريساً ، هذه البلهاء . ميزته الوحيدة هي أنّه أسود كالغجر . ياوردتي العزيزة ، إنني استطيع أن أجد لك زوجاً أفضل بكثير .

ـ أنا لا أريد سواه ، ياأبتي ، ـ وتوردت وجنتاها وشرعت تنتحب : ـ وإلا فيمكنك أن تأخذني إلى الدير .

فألقى أبوها بورقته الأخيرة :

ـ إنّه زير نساء يجري وراء زوجات الجنود . كل القرية تعرف ذلك .

ـ حسناً ، ليكن ذلك!

ـ حسناً ، فاذا كان رأيك «ليكن كذلك» ، فهو كذلك بالنسبة لي .

كانت ناتاليا ، وهي كبرى البنات ، أثيرة لدى أبيها ، فلم يجبرها على الزواج . وقد جاءتها عروض كثيرة للزواج ، بعضها من قرى بعيدة ، من

قوزاق أثرياء ، لكنّ ناتاليا لم تبد ميلاً لأي من الخاطبين المتقدمين ، ولم تجد جهودهم نفعاً .

على أن ميرون غريغوريتش كان يميل إلى غريغوري في أعماق قلبه ، لهمّته القوزاقية ولحبّه الزراعة والعمل الدؤوب . وكان قد جلب انتباهه من بين شباب القرية حينما فاز بالجائزة في سباق الخيل ، لكنّه اعتقد أن من المهانة أن يزوّج ابنته إلى رجل غير غني ، وذي سمعه سيئة .

وفي الليل ، راحت زوجته تهمس له ملاطفة يده النمشاء المشعرة :« إنّه فتى وسيم . وناتاليا متيمة به فعلاً . فتن قلبها » .

فأدار ميرون غريغوريتش ظهره إلى صدر زوجته الذاوي البارد ، ودمدم غاضباً :

ـ تنحّي عنّي ، أيتها الثرثارة! زوجيها من أبله ، ماذا يهمّني ؟ لقد أخذ الله منك عقلك .« وسيم! »

قالها مقلّداً لهجة زوجته ، واستطرد :

ـ هل تجنّين من وجهه محصولاً ؟

ـ ليست المحاصيل كل شيء في الدنيا...

ـ ما قيمة وسامته ؟ لو أن له مركزاً حسناً! يجب أن أعترف أنّه مما يحط من قدري أن أزوج ابنتي من الأتراك . يجب أن يكون الخطيب نداً لنا ـ وتململ ميرون غريغوريتش على السرير في اعتزاز .

وهمست زوجته وهي تتقرّب إلى ظهره وتلاطف يده بتودد :

ـ إنهم عائلة دؤوب وميسورة الحال .

ـ ايه ، الشيطان! تنحّي عنّي ، ألا تستطيعين ؟ أفسحي لي مجالاً صغيراً . فيم تتحسسين يدي كما لو كنت بقرة حبلى ؟ اعملي ماشئت بخصوص ناتاليا . زوجيها من فتاة قصيرة الشعر إن كان هذا يلائمك!

فتمتمت في أذنه الغزيرة الشعر :

ـ كان عليك أن تولي ابنتك بعض العطف! لاوزن للثروة في هذا المجال...

لكنّ ميرون غريغوريتش جعل يلبط برجله ، وألصق نفسه بالحائط وبدأ يشخر وكأنّه قد نام فعلاً .

حين جاء آل ميليخوف ليستطلعوا الرد ، وقع آل كورشونوف في حيرة . فقد وصلوا بعيد صلاة الصباح . وحينما وضعت اليني‍شنا قدمها على درجة العربة اوشكت أن تقلبها ، لكنّ بانتلاي بروكوفتش وثب نازلاً من مقعده مثل ديك صغير . رغم أنّه تعثّر ومشى مشية الفتى إلى البيت .

تأفف ميرون غريغوريتش وهو يتطلّع من النافذة :

ـ ها هم... أي شيطان جاء بهم إلينا اليوم .

ـ يا إلهي ، لم أكد أخرج من المطبخ ، ولم أجد الفرصة حتّى لاستبدال تنورتي اليومية .

ـ مظهرك حسن كما أنت . ليس ثمّة من يفكّر في الزواج منك . من عساه يريدك ، ياجرب الخيل!

ـ أنت وغد منذ ولدت! وها قد فقدت عقلك في كهولتك هذه!

ـ أمسكي لسانك يا امرأة!

فعنّفته زوجته وهي تتفحّصه أثناء مرور الزوار عبر الحوش :

ـ كنت تستطيع أن ترتدي قميصاً نظيفاً ، عظام ظهرك بارزة خلال هذا الذي ترتديه . عيب ، أيها الشيطان الهرم!

ـ لا عليك ، فهم سيعرفونني كما أنا . ولن يمانعوا حتى لو ارتديت الجنفاص!

صاح بانتلاي بروكوفتش وهو يتعثّر فوق عتبة الباب : «صحّة طيبة!» وما لبث أن خجل لارتفاع صوته ، وحاول أن يصلح الأمر فرسم علامة الصليب على نفسه مرتين أمام الأيقونة .

وأجاب ميرون غريغوريتش ، ناظراً اليه بعبوس : «طاب يومك!» .

ـ وهبنا الله طقساً حسناً .

ـ الحمد لله ، وسيستمر كذلك .

ـ ولهذا سيغدو الناس أيسر حالاً .

ـ صحيح .

ـ نـ...نـ... نعم .

ـ أحم .

ـ وهكذا جئنا ياميرون غريغوريتش لنعرف ما استقرّ عليه الرأي فيما بينكم... ما اذا كنّا سنعقد الزيجة أم لا ؟

وتقدّمت ربّة الدار مرحبة بهم ، وماسحة الأرضية بطرف تنورتها المثنية الطويلة :«ادخلوا ، من فضلكم . اجلسوا ، رجاء» . فأجابت ايلينشنا : «لا تهتمّوا بنا أرجوكم» .

فجلست وثوبها يحف حولها . وأراح ميرون غريغوريتش مرفقيه على مشمّع المائدة الجديد ، ولاذ بالصمت . وانبعثت رائحة مزعجة من المطّاط الرطب ومن شيء آخر من المشمّع ، الذي كان مزيّناً في زواياه بصور القيصر والقيصرة السابقين ، وفي وسطه الأميرات الامبراطوريات الجليلات وعلى رؤوسهن قبعات بيض ، والقيصر نيقولاي الثاني ، منقّطاً ببراز الذباب .

قطع ميرون غريغوريتش حبل الصمت :

ـ حسناً... لقد قرّرنا أن نعطيكم ابنتنا . وهكذا سنصبح أقرباء إن استطعنا الاتفاق على الصداق .

وهنا ، اخرجت الينشنا من موضع ما في الأعماق المجهولة لسترتها اللماعة ذات الكمّين المنتفخين ، رغيفاً كبيراً من الخبز الأبيض ووضعته على المائدة .

ولسبب خفي أراد بانتلاي بروكوفتش أن يرسم علامة الصليب على نفسه ،الا أن أصابعة المخلبية المعقوفة ، وان اتخذت الوضع المناسب للعلامة وارتفعت الى نصف المسافة المطلوبة ، الا أن وضعها تغيّر على حين غرّة . وانزلق ابهامه الأسود الضخم ، خلافاً لرغبة صاحبه ، بين سبابته ووسطاه ، ومرق هذا العنقود الصفيق من الأصابع ، خلسة ، وراء ذيل معطفه الأزرق المفتوح ، وأخرج قنينة حمراء الفم .

نظر بانتلاي بروكوفتش ، وهو يطرف عينه بانفعال ، الى القنينة براحته الحافرية العريضة . واقترح :

ـ والآن ، يا اصدقائي الاعزاء ، سنقدّم صلاة لله ، ونشرب ونتحدّث عن طفلينا ، وعن اتفاق الزواج .

بعد ساعة من الزمن ، كان الرجلان يجلسان متقاربين بحيث اختلطت حلقات لحية ميليخوف السوداء كالقطران بخيوط لحية كورشونوف المنتصبة الحمراء . وانبعثت مع زفير بانتلاي بروكوفتش رائحة الخيار المخلل فيما كان يتناقش حول الشؤون المالية لاتفاقية الزواج . وشرع في همس مبحوح : «يا نسيبي العزيز» وكرّر : «يا نسيبي الأعز» رافعاً صوته الى درجة الصيّاح . ثمّ زأر : «يا نسيبي» مكشراً عن أنيابه الكبيرة المسطّحة . «إنّ مطاليبك أثقل بكثير مما أستطيع تحمّلها . تأمّل ، يانسيبي العزيز ، تأمّل كيف تحاول سلبي ، أولاً طماق وأخفاف . ثانياً ، معطف من الفراء . ثالثاً ، ثوبان صوفيّان ، رابعاً ، عصابة رأس حريرية . إن هذا يعني خراب بيتي!» ..

وبسط بانتلاي بروكوفتش ذراعيه على اتساعهما حتّى تفتّقت دروز معطفه . واحنى ميرون غريغوريتش رأسه وحدّق في المشمع الطافح بالفودكا المراقة والمخللات . وقرأ في النقوش المزركشة في الرأس «العائلة الملكية الروسية» . وخفض عينيه مسافة أخرى : «صاحب الجلالة الامبراطورية والملك ، الامبراطور نيقولاي...» ، وكانت ثمّة قشرة بطاطا تغطّي بقية الكتابة . ولم تكن قسمات الامبراطور واضحة من تحت قنينة الفودكا الفارغة . وحاول ميرون غريغوريتش وعيناه تطرفان بجلال ، أن يتبيّن بزّة الامبراطور الفاخرة ذات النطاق الأبيض ، لكنّها كانت مغطّاة بطبقة كثيفة من بذور الخيار اللزجة . أمّا الامبراطورة فكانت تشمخ في نظرتها بغرور ، وعلى رأسها قبعة عريضة الاطراف ، وقد احاطت بهاحلقة من بناتها الباهتات . وأحسّ ميرون غريغوريتش أنه قد أهين حتى كادت الدموع تطفر الى عينيه ، وقال في سرّه

مخاطباً الامبراطورة :«أنت تبدين فخورة الآن ، كأوزّة تطل من سلّة ، لكن حين سيتعيّن عليك تزويج بناتك ، سأطل أنا عليك ، وأرى كيف تتخبطين أنت» .

وطنّ بانتلاي بروكوفتش في أذنيه طنين نحلة سوداء كبيرة فرفع كورشونوف عينين تغشاهما الدموع ، وأنصت .

ـ لكي نقدّم هدية كهذه مقابل ابنتك ـ والآن نستطيع أن نقول ابنتنا ـ هذه الطماق والاخفاف ومعاطف الفراء ، سنضطر الى أن نسوق بقرة الى السوق ونبيعها .

فضرب ميرون غريغوريتش المائدة بقبضته وصاح :

ـ وهل تضن بها ؟

ـ ليس الأمر أن أضن بها...

ـ هل تضن بها ؟

ـ مهلاً ، أيّها النسيب!

ـ اذا كنت تضن بها... فليأخذك الشيطان!

ولوّح ميرون غريغوريتش بيده العرقة على المائدة فاسقط الاقداح على الأرض .

ـ إن ابنتك هي التي ستكد لقاءها .

ـ فليكن! ولكن عليك أن تقدّم الهدايا اللائقة ، والاّ فلن يكون هناك زواج!

فهز بانتلاي بروكوفتش رأسه :«بقرة تباع من حظيرتي!» وهزّ قرطه في اذنه لامعاً لمعاناً باهتاً .

ـ الصداق لا بد منه . إن لها صندوقاً من الملابس ، ولكن عليك أن تظهر الاحترام لي إن كنت قد وضعت عينك عليها . تلك هي عادتنا القوزاقية . تلك هي منذ القدم ، ونحن متمسكون بالتقاليد القديمة .

ـ سوف أظهر لك احترامي!

- أظهر احترامك!

- سأظهره!

- ثم دع الصبيين يعملان ويثريان . لقد عملنا ، وها نحن نعيش ميسورين كأي فرد من الناس ، فليفعلا الشيء نفسه!

وتشابكت لحيتا الرجلين في إيقاع ملوّن ، وقبّلا بعضهما ، شرع بانتلاي بروكوفتش يأكل خيارة منكمشة جف ماؤها ، وانتحب وقد جاشت نفسه بمشاعر متداخلة متضاربة .

كانت المرأتان جالستين على الصندوق وقد تشابكتا متعانقتين ، وكل منهما تصم أذن الأخرى بوقوقة صوتها . وقد التهب وجه إيلينشنا بحمرة كرزية ، بينما حال لون لوكينشنا أخضر بسبب الفودكا ، وصارت كالثمرة التي أذبلها الصقيع . قالت لوكينشنا :

- لن تجدي طفلة مثلها في أي مكان آخر في أرجاء العالم . ستكون مجدّة ومطيعة ، ولن تتفوّه بكلمة تعارضك .

فقاطعتها ايلينشنا ، مسندة خدها بيدها اليسرى ، وواضعة مرفقها الايسر في يدها اليمنى :

- يا عزيزتي ، هذا ماقلته له ، لا أدري كم من المرّات ، ابن العاهرة هذا ، كان يستعد للخروج ، مساء ذلك الأحد ، واضعاً شيئاً من التبغ في كيسه ، قلت له : «متى ستتركها ، أيها الكافر الملعون ؟ إلام سأظل أتحمّل هذا العار في شيخوختي ؟ سيضع ستيبان حداً لعبثك الصبياني ، ذات يوم جميل!» .

في هذه الأثناء ، تطلّع ميتكا الى الغرفة خلال خصاص الباب ، وأوطأ منه تهامست أختا ناتاليا الصغريان ، بينما كانت ناتاليا نفسها جالسة في الغرفة الأبعد ، تمسح دموعها بكم قميصها الضيّق . كانت تخشى الحياة الجديدة التي تتفتح أمامها ، ويضنيها المجهول .

وفي الغرفة ، أفرغت قنينة فودكا ثالثة ، واتفق على لم شمل العروس والعريس في عيد المخلص الأوّل .

١٩

ظل بيت كورشونوف يطن كخلية نحل بجلبة الاستعدادات للزفاف ، فكانت الملابس الداخلية تخاط للعروس على عجل ، وناتاليا تجلس كل مساء لتحوك لعريسها القفازين ولفاف الرقبة التقليدي من شعر الماعز ، وتظل أمها منكبّة على ماكنة الخياطة حتى الغسق تساعد الخيّاطة المأجورة .

حين وصل ميتكا يصحبه أبوه وعمال الحقل ، عائدين من الحقول ، لم يتوقّف ليغتسل أو ينزع جزمة الحقل الثقيلة ،بل مضى ليجالس ناتاليا فقد كان يجد لذّة كبيرة في إغاظة أخته .

كان يتساءل باقتضاب وهو يشير الى اللفاف :

ـ تحوكين ؟

ـ نعم ، وماذا في ذلك ؟

ـ اقتلي نفسك بالحياكة ، بلهاء . إنّه سيحطّم فكك ، بدلاً من الإعراب عن امتنانه لك .

ـ لماذا ؟

ـ اوه ، أنا أعرف غريشا ، فهو صديقي . هذا دأبه ، فهو يعض دونما سبب .

ـ لا تهرف بالأكاذيب . تظن أنني لا أعرفه .

ـ لكنني أدرى به منك . فقد كنّا نذهب الى المدرسة سويّة .

ويفتعل ميتكا حسرة عميقة ، ويخفض نظره الى يديه المخرمشتين ويحني ظهره المديد .

ـ سوف تضيعين يا ناتاليا ، لو تزوجته . خير لك أن تبقي عانساً . ما الذي تجدينه فيه ، على أيه حال! إنّه قبيح الخلقة بما يكفي لإشاعة الذعر في حصان . وبليد أيضاً . حسبك أن تمعني النظر فيه قليلاً ، إنّه شخص قذر .

فتغضب ناتاليا ، وتحبس دموعها ، وتحني وجهاً بائساً فوق اللفاف .

ويستطرد ميتكا دونما رحمة : «والأدهى من ذلك أنّه مغرم ، ففيم تحرقين شبابك ؟ أنت حمقاء يا ناتاليا! أعرضي عنه! سأسرج الحصان وأذهب الى دارهم لأخبرهم...» .

ويأتي الجد غريشاكا لينقذ ناتاليا من ميتكا ، وهو يخط على الأرض بعصاه المعقّدة ، ويمسّد لحيته الصفراء الكالحة . ويغرز العصا في جنب ميتكا ويسأل : «ما تفعل هنا ، يا عديم النفع ، ها ؟» فيجيب ميتكا معتذراً : «جئت للزيارة ، يا جدّي» .

ـ جئت للزيارة ؟ حسناً ، وأنا آمرك بأن تخرج من هنا . الى الوراء عد!

ويرفع العجوز عصاه ويتقدّم صوب ميتكا على ساقيه الهزيلتين المرتعشتين .

لقد درج الجد غريشاكا على الأرض تسعة وستين عاماً . اشترك في الحملة ضد الأتراك عام ١٨٧٧ ، وكان مراسلاً تابعاً للجنرال كوركو ، لكنّه فقد حظوته لدى سيده فأعيد الى كتيبته . ومنح وسامي القديس غيورغي ومدالية القديس غيورغي لاستبساله في ميادين القتال في بليفنا وروشيتش . وهو يعيش الآن مع ابنه ، متمتعاً باحترام القرية الشامل لصفاء ذهنه وأمانته التي لا يرقى اليها الشك ، ولأريحيته ، وهو يقضي سنواته الباقيات في استعادة ذكرياته .

كان يجلس في الصيف من الفجر حتّى الغسق على المصطبة بالجنب من البيت ، محني الرأس ، يخط بعصاه على الأرض ، فيما تطوف في ذهنه صور غامضة وفتات من الأفكار ، وتتلألأ ومضات واهنة من الذكرى بين ظلال النسيان .

وكان رفرف قبعته المكسور يلقي ظلاً داكناً على عينيه المغمضتين مما يزيد الغضون على خدّيه عمقاً وكانت لحيته شيباء رمادية . والدم الأسود يجري متثاقلاً خلال أصابعه المقوّسة فوق عصاه وعروق يديه المنتفخة .

ومن عام الى عام كان دمه يبرد فيروح يتشكّى الى ناتاليا ، حفيدته الأثيرة :

ـ هذه الجوارب صوفية ، لكنّها لا تفي بالدفء . ويحسن بك أن تحوكي من الجوارب زوجاً لي ، يا طفلتي .

فتتضاحك ناتاليا قائلة : «لكننا في الصيف يا جدّي!» ، وتجلس الى جانبه على المصطبة ، وتنظر إلى أذنه المجعّدة الصفراء الكبيرة .

ـ ثمّ ماذا ، يا طفلتي ؟ نحن في الصيف ، ولكن دمي بارد كبرودة الأرض العميقة تحتنا!

نظرت ناتاليا الى شبكة العروق على يده ، والتمعت في ذهنها ذكرى يوم من أيام طفولتها . كانوا يحفرون بئراً في حوشهم ، وكانت ، وهي لما تزل صبيّة صغيرة ، تغرف الطين الرطب من الدلو وتصنع دمى ثقيلة وبقرات ذوات قرون مهشّمة . واستعادت بوضوح ذكرى ملمس الطين الثلجي الجامد ، المرفوع من عمق كبير . وجعلت ناتاليا تحدّق الآن خائفة في يدي جدّها المغطّاة بنمش الكهولة الاسمر طيني اللون . فقد بدا لها أن ما كان يسري في شرايينه كان تراباً طينياً أسود وليس دماً قرمزيّاً ناصعاً .

وتتساءل ناتاليا : «أخائف أنت من الموت ، يا جدّي ؟» .

فيلوي الشيخ رقبته الرقيقة المعقدة كأنّه يخلّصها من الياقة الصلبة لسترة بزته العسكريّة البالية ويهز شاربيه الاشهبين المخضوضرين ويجيبها ، والابتسامة تكشف عن أسنانه البيضاء ، وترتعش غضون صغيرة حول عينيه : «إنني أنتظر الموت كما أنتظر ضيفاً عزيزاً . لقد آن الآوان ، فقد عشت أيامي ، وخدمت قياصرتي ، وشربت كفايتي من الفودكا» .

فتمسّد ناتاليا على يد جدها وتتركه ، وهو لم يزل منحنياً ، محدودباً ، جالساً على المصطبة في بزته الرمادية المرقعة في مواضع كثيرة ، مخرمشاً الأرض بعصاه ، بينما تتلألأ شاراته الحمر اللامعة ، في حبور وفتور ، على ياقته الصلبة المنتصبة .

وقد استقبل نبأ زواج ناتاليا المقبل بهدوء ظاهر ، ولكنّه حزن في دخيلته وغضب . فقد كانت ناتاليا تنتقي له أفضل اللقم من المائدة وتعطيها له ، وكانت

تغسل أفرشته ، وتصلح وتحوك جواربه وبنطاله وقمصانه . وهكذا ، حينما سمع الشيخ بالنبأ ، ظل يوجّه اليها نظرات عابسة صارمة طوال يومين .

وجه السؤال الى ميرون غريغوريتش :

ـ آل ميليخوف قوزاق طيبون ، الراحل بروكوفي كان قوزاقياً طيباً . لكن كيف حال أحفاده ؟ ها ؟

فأجابه ميرون غريغوريتش متملصاً : « لابأس بهم » .

ـ غريغوري هذا فتى لا يحترم الأخرين . كنت قادماً من الكنيسة ، قبل أيام ، ومر بي دون تحيّة . لا يجد الشيوخ احتراماً كبيراً هذه الأيام...

فتسهم لوكينشنا بكلمة في صالح صهرها المقبل : « إنّه فتى طيب » .

ـ « طيب » ما تقولين ؟ اوه حسناً ، مادامت ناتاليا ميّالة اليه...

ولم يسهم غريشاكا في مفاوضات الزواج بشيء ذي بال ، فقد جاء من المطبخ ، وجلس الى المائدة لحظة أو لحظتين ، وبجهد جهيد شرب قدحاً من الفودكا ، وحينما شعر بها تلعب برأسه وأحس بدفء يسري في جسمه ، مضى خارجاً من جديد .

وطوال يومين ظل يراقب ناتاليا السعيدة المنفعلة ، في صمت ، ويمضغ طرفي شاربيه المخضوضرين ، ثم بدا أكثر لطفاً في موقفه ، وناداها :«ناتاليا . حسناً ، ياحفيدتي الصغيرة ، اذن فأنت سعيدة جداً ، ها ؟» فاعترفت له : « أنا لا أدرك كنه شعوري جيداً ، يا جدّي» .

ـ حسناً ، حسناً ، فليكن المسيح معك ، وليمنحك الرب بركته...

ثم سألها بمرارة :

ـ ألم يكن في مقدورك أن تنتظري حتى أموت ، أيتها الملعونة الصغيرة ، ستكون حياتي مريرة بدونك .

كان ميتكا يتسمّع لحديثهما في المطبخ ، فقال معقّباً :

ـ من المحتمل أن تعيش مائة سنة أخرى ، يا جدّي . فهل عليها أن تنتظر طيلة ذلك الوقت ؟ يا للماكر!

واستحال لون الشيخ أرجوانياً من الغضب ، فجعل يقرع الأرض بعصاه وقدميه صائحاً : «اخرج ، ابن القحبة! قلت اخرج! يا عفريت الشيطان! من طلب إليك أن تتسمّع ؟» .

فجرى ميتكا الى الحوش متضاحكاً . ظل العجوز منفعلاً مدّة طويلة بعد ذلك ، لاعناً ميتكا ، وكانت ساقاه ترتجفان عند الركبتين في جوربيه الصوفيين القصيرين .

كانت شقيقتا ناتاليا الصغيرتان ، ماريشا وهي في الثانية عشرة وكريبا ، وهي عفريتة في الثامنة من عمرها ، تنتظران الزفاف بنفاد صبر .

وشمل السرور المكتوم الأجراء الزراعيين الذين كان كورشونوف يستخدمهم على الدوام متوقعين وليمة فاخرة من سيدهم وعطلة لبضعة أيام . كان أحدهم وهو أوكراني طويل ، كالرافعة ، له اسم غريب «هت ـ بابا» ، يغرق في نوبة سكر وعربدة مرّة كل ستّة أشهر تقريباً ، فيسكر بكل ما لديه من ملابس وأجور . وبالرغم من أنّه أحس ببوادر تأجيل النوبة المألوفة منذ وقت مضى ، إلا أنه أجبر نفسه على تأجيل الشروع بالسكر حتّى يوم الزفاف .

ولم يكن الأجير الزراعي الثاني ، وهو قوزاقي أسمر نحيف يسمّى ميخي ، قد اشتغل لدى كورشونوف إلا منذ مدّة قصيرة . وقد عمل أجيراً بعد أن أصابته كارثة حريق . وبسبب من صداقته لهت ـ بابا ، صار شيئاً فشيئاً مدمناً على الشراب . وكان ذا ولع كبير بالخيل . وحينما يكون سكراناً ، يشرع بالبكاء ، ويتبلل وجهه حاد القسمات عديم الحاجبين ، بالدموع ، فيسبب الازعاج لميرون غريغوريتش :

ـ سيدي! يا سيدي العزيز! حينما تزوّج ابنتك دعني أشترك في سباق الخيل لمناسبة الزفاف . سأريهم مهارتي في السوق . سأقودها خلال النار ولن تشتعل شعره واحدة من الخيل . فقد كانت لي خيل ذات يوم . آه...

وأمسى هت ـ بابا العابس المتجهّم متعلقاً بميخي ، لسبب أو لأخر ،

وجعل يسميه العذاب على الدوام بنفس النكتة القديمة حول اسم قريته الأصلية ، فيظل يضحك بلا انقطاع ، وبصوت أجش ، من نكتته التافهة المبتذلة ، ويضرب على ساقيه الطويلتين اليابستين . فينظر ميخي باشمئزاز الى وجه هت ـ بابا الحليق والى جوزة عنقه المرتجفة ويلعنه .

تحدّد موعد الزفاف في أوّل يوم بعد الصوم الكبير . لم تبق سوى ثلاثة أسابيع . وفي عيد صعود العذراء جاء غريغوري لزيارة عروسه المقبلة ، فجلس الى المائدة المستديرة في غرفة الاستقبال ، يتناول بذور عبّاد الشمس والبندق مع صويحبات العروس ، ثمّ همّ بالعودة الى داره ، فخرجت ناتاليا لتوديعه . وفي الحظيرة المسقفة ، حيث كان حصانه مربوطاً ، وقد أسرج بسرج جديد أنيق ، دسّت يدها في صدرها ، وقد احمرّت خجلاً ، وهي تتطلّع إليه بعينين تنطقان بالحب ، ثم دسّت في يده لفّة صغيرة تشع بدفء صدرها . وبهرها غريغوري ، وهو يأخذ الهديّة ، ببياض أسنانه الذئبية ، وتساءل :

ـ ما هذا ؟

ـ سترى... طرزت لك كيساً للتبغ .

فجذبها غريغوري إليه متردداً يريد أن يقبّلها ، لكنّها دفعته بقوّة في صدره بيديها ، وألقت رأسها الى الوراء ، وأدارت عينيها ، وجلة ، نحو نوافذ البيت .

ـ سيروننا!

ـ دعيهم!...

ـ انني خجلة!

فشرح غريغوري لها الأمر : «يحدث هذا في البداية حسب!» .

أمسكت ناتاليا بالأعنّة بينما امتطى حصانه ، فوضع قدمه في الركاب ، مقطّب الوجه ، جلس بارتياح على السرج ، ومضى خارجاً من الحوش . ففتحت له البوابة ، ووقفت تتبعه بنظرها مظللة عينيها براحة يدها . مال

غريغوري على سرجه الى اليسار ، على الطريقة الكالميكية ، ملوّحاً بسوطه في زهو . «لم يبق سوى أحد عشر يوماً آخر» ، حدثت ناتاليا نفسها ، وتنهدت وضحكت .

٢٠

تشق الحنطة لخضراء ذات الأوراق الحادة الأرض ، وتنمو ، وما أن تمضي بضعة أسابيع حتّى يصبح بمستطاع زاغ أن يحط فيها دون أن يلوح منه شيء . ويمتص القمح السوائل من التربة ويصعد النسغ الى السنبلة ، فتزهر ، وتتلفع السنابل بغبار ذهبي وتمتلئ الحبّة بعصير حليبي ، حلو ، معطار . ويخرج الفلاح الى السهب ، ويقف متأملاً ، فتمتلئ جوانحه بالفرح . وقد يأتي قطيع من الماشية ، ويدوس على القمح ، ويسحق الحبّة المثقلة فوق التراب . وتخلف الماشية ، حيثما ترقد ، بقعاً مستديرة من الحنطة المسحوقه ، فيملأ المشهد قلب الفلاح بالمرارة واليأس .

كذلك الحال مع اكسينيا . فقد داس غريغوري بصندله الخشن الثقيل ، على مشاعرها التي تنامت حتّى نضجت وغدت مثل حبّة ممتلئة . لقد لوّثها ، وسحقها ، واضرم فيها النار حتّى أمست رماداً ـ وكان هذا كل ما في الأمر .

بعد عودتها من حديقة عبّاد الشمس في بستان ميليخوف ، كان ثمّة فراغ ووحشة يتناميان في أعماقها ، مثل حقل مهجور غطّته أعشاب الاوز والنجيل . فمضت تلوك أطراف عصابتها ، وقد غصّ بلعومها بالبكاء . دخلت دارها ، وتهاوت على الأرض ، يخنقها الدمع والعذاب ، والفراغ الموحش الذي ألهب رأسها... ثم مرت الأزمة فقد غار الألم في قعر فؤادها وتعشش هناك .

وتعود الحنطة التي داستها الماشية فتسوى من جديد . وبالندى والشمس ، تستفيق السيقان المسحوقة ، منحنية ، في البدء ، كرجل ينوء

بحمل ثقيل جسيم ، ثمّ تنتصب رافعة رؤوسها وتتمايل في مهب الريح ، ويعود النهار نهاراً من جديد...

وحينما كانت اكسينيا تلاطف زوجها بعاطفة مشبوبة في الليل ، كان ثمّة رجل آخر يملك زمام أفكارها ، وتختلط الكراهية بحب عظيم في قلبها . كانت المرأة ترسم الخطط للإتيان بمنكر جديد وعار جديد . لقد عقدت العزم على انتزاع غريغوري من ناتاليا السعيدة ، التي لم تعرف طعماً لمرارة الحب أو حلاوته . واستلقت تفكّر في خططها ليلاً ، وعيناها الجافتان تطرفان في العتمات ، ورأس ستيبان الوسيم يرقد ، ثقيلاً ، على ذراعها اليمنى ، وقد مالت خصلته على جبينه . كان يتنفّس خلال شفتيه المواربتين ، وأصابعه السودالخشنة تستكن على صدر زوجته في إغفائه .

واستلقت اكسينيا تعمل فكرها وخططها ، لكن شيئاً واحداً قد عقدت عليه العزم الراسخ : ستنتزع غريغوري من أي إنسان آخر ، ستغمره بالحب ، وتمتلكه كما امتلكته في السابق . على أن في أعماق قلبها ألماً عميقاً ، مافتئ يلسعها ، كلسع النحلة .

وفي النهار ، كانت أكسينيا تغرق نفسها بالأعمال والواجبات المنزلية . وقد تصادف غريغوري من حين لآخر ، فيشحب وجهها ، ثم تشد باعتزاز جسدها الجميل الذي يتحرّق إليه بلهفة عارمة ، وتحدّق بتحد ومن غير ما حياء في متاهات عينيه السوداوين .

وبعد كل لقاء كان الحنين إليها يستبد بغريغوري . وصار يغضب بلا سبب ، وجعل يصب غيظه على دونيا وأمّه ، على أنّه غالباً ما كان يستل حسامه ، ويخرج الى الفناء الخلفي ، ويهوي به على الأغصان القويّة النابتة في الأرض ، حتّى يسبح في عرقه . وخلال أسبوع قطع منها كومة كبيرة . وأثار ذلك حنق بانتلاي بروكوفتش ، فراح يلعن :

ـ هذا الشيطان الخسيس ، لقد قطع ما يكفي لعمل سياجين . ياللفارس الملعون! رح الى الغابة ، إن كان عليك أن تهلك نفسك بالتقطيع . صبراً ، يا

فتاي! فستحين لك الفرصة ، حينما سيدعونك للخدمة العسكرية . وآنذاك ، سرعان ما تستنفد قواك!

٢١

أربع عربات مزينات في بهرج بهيج ، يجر كلاً منها زوج من الخيل ، ستذهب لإحضار العروس . ويتزاحم حشد من أهالي القرية في ملابس العيد حولها ، وهي واقفة في فناء آل ميليخوف .

كان بيوتر اشبين العريس ، وقد ارتدى سترة رسمية سوداء وبنطلوناً أزرق بأشرطة ، وربط ذراعه اليسرى بمنديلين أبيضين ، وثبّت تحت عذاريه القمحيين ابتسامة مزدرية . كان يقف دائماً الى جانب العريس . وقال لأخيه :

ـ لا تكن خجولاً ، يا غريغوري! ارفع رأسك مثل ديك ، ولا تعبس!

تتعالى أصوات في الحشد بالقرب من العربات :

ـ أين الاشبين ؟ حان الوقت لنذهب الى العريس!

ـ يا نسيب!

ـ ها ؟

ـ اجلس في العربة الثانية! هل تسمع ؟

ـ هي مريحة بلا مقاعد!

وكانت داريا ، الرشيقة اللدنة مثل غصن صفصاف ، ترتدي تنورة صوفية حمراء ، كلون توت العليق . واهتز قوسا حاجبيها المزججين ، ولكزت بيوتر :

ـ قل لأبيك أن الوقت قد حان لذهابنا ، فهم هناك في انتظارنا .

فتشاور بيوتر مع أبيه همساً ، ثمّ أصدر أمره :

ـ خذوا أماكنكم . في عربتي ، خمسة والعريس . يا انيكاي اجلس في مقعد الحوذي .

فتسلقوا الى العربات . وفتحت ايلينشنا البوابات ، متوردة الوجه مزهوّه ، وتسابقت العربات الأربع ، واحدة إثر الأخرى ، في الشارع .

جلس بيوتر الى جانب غريغوري وراحت داريا تلوح ازاءهما بمنديل من الدانتيلا . وجعلت حفر الطريق ونتوءاته تقطع الأصوات التي انطلقت تردد إحدى الأغاني ، وتشكّلت صورة ملوّنة من الشرائط القرمزيّة لقبعات القوزاق ، والبزات والسترات الرسمية السوداء والزرقاء ، والأكمام المربوطة بالمناديل البيض ، وقوس قزح متناثر لعصابات النساء ، والتنورات الزاهية ، ومثار الغبار الرقيق .

كان أنيكاي ، جار ميليخوف وأحد اقربائهم ، يقود عربة العريس ، وقد مال الى الأمام فوق ذيول الخيل حتّى كاد أن يقع من على مقعده ، وفرقع سوطه وصفّر ، فجعلت الخيل العرقى تشد بمزيد من الجهد على الأعنّة المتوترة .

وزأر بيوتر :

ـ هيّا ، ازجرها ، ازجرها!

فغمز انيكاي الأمرد ، الشبيه بالخصي ، لغريغوري ، وجعّد وجهه الانثوي الأملط في ابتسامة خافتة ، وأطلق صفيراً واستحث الخيل بسوطه .

وهدر ايليا اوجوكين ، خال العريس ، وهو يحاول أن يسبقهم بالعربة الثانية :«افسح لي الطريق!» وتبين غريغوري وجه دونيا السعيد وراء ظهر خاله .

فصاح أنيكاي وهو يثب على قدميه ويطلق صفيراً نفّاذاً : «لا ، لن تسبقني!» ولفح الخيل حتّى انطلقت في جنون فصاحت داريا : «سوف تقع!» واحتضنت بذراعيها جزمة أنيكاي الجلدية الطويلة اللامعة . وصاح الخال ايليا من جانبهم : «حذار!» لكن صوته ضاع في هدير العجلات وقرقعتها .

أمّا العربتان الأخريان ، فقد سارتا جنباً الى جنب مثقلتين بنساء ورجال

يتصايحون . وكانت الخيل المزينة على ظهورها بأجلّة حمر وزرق ووردية ، وأزهار من ورق وشرائط مضفورة في نواصيها وأعرافها ، وأجراس بأعنتها ، تنهب الأرض على الطريق العاثر ، ناثرة ندفاً من الزبد ، والأجلّة المبللة ترفرف وتخفق في مهب الريح .

عند بوابة آل كورشونوف كان جمع من صبيان القرية في انتظار الموكب . فما أن رأوا الغبار المتصاعد من الطريق حتّى ركضوا الى الحوش زاعقين : «إنهم قادمون!» و«ها قد وصلوا!» ، وأحاطوا بهت ـ بابا الذي خرج تواً .

ـ فيم الزحام ؟ اغربوا ، أيها الشياطين الصغار . أي ضجيج هذا! أنا لا أقدر أن اسمع نفسي .

وتواثب الصغار حول سروال هت ـ بابا الفضفاض صارخين وهازئين به . فنظر هت ـ بابا الى الأطفال الهائجين ، ورأسه منحن كما لو كان يحدّق في بئر عميقة ، وحك بطنه المشدودة المستطيلة وعلى وجه ابتسامة سمحة .

وبلغت العربات البوابة وهي تقرقع ، فقاد بيوتر غريغوري الى درجات الباب ، وتبعهما الآخرون .

أغلق الباب مابين الممر والمطبخ . فطرقه بيوتر ، وترنّم : «يا سيدنا عيسى المسيح ، ارحمنا!» .

وجاء صوت من الجانب الآخر للباب : «آمين!» .

وكرّر بيوتر الكلمات والطرق ثلاثة مرّات ، وفي كل مرّة كان يتلقّى نفس الجواب .

ـ هل لنا أن ندخل ؟

ـ على الرحب والسعة .

وفتح الباب على مصراعيه . وحيّت بيوتر اشبينة ناتاليا ، ممثلة والديها ، وهي أرملة جميلة ، بانحناءة وابتسامة من شفتين رقيقتين حمراوين كتوت العليق ، وقالت له : «اشرب هذا في صحتك ، أيها الاشبين» ، وناولته

قدحاً من كفاس جديد عكر . فسوّى بيوتر عذاريه ، وكرع القدح عن آخره ، ثم حمحم وسط ضحك الجميع المكتوم : «يا له من شراب! فانتظري يا توتتي السوداء ، انتظري حتّى أرد اليك الفضل . لسوف أجعلك تدفعين ثمن هذا» .

قالت الاشبينة وهي تنحني وتبتسم في مكر : «معذرة» .

وبينما كان اشبين العريس واشبينة ناتاليا يتنافسان في مباراة من الملح ، جيء بثلاثة كؤوس لكل واحد من أقرباء العريس ، طبقاً لاتفاق الزواج .

أمّا ناتاليا ، التي ارتدت ثوب زفافها والخمار ، فقد جلست الى المائدة تحرسها شقيقتاها . وامسكت ماريشكا في يدها الممتدّة ، بشوبك* ، ولوّحت كريبا ، وفي عينيها حماس وتحد ، بسلّة تستعمل أثناء البذر . وانحنى بيوتر ، وقد بلله العرق وأسكرته الفودكا قليلاً ، وعرض عليهما في قدحه قطعة من ذات الخمسين كوبيكاً . غمزت الاشبينة لماريشكا فضربت المائدة بشوبكها :

ـ قليل! لن نبيع العروس!

وكرة أخرى ، قدّم لهما شيئاً من القطع الفضّية في قدحه . فزمجرت الشقيقتان : «لن ندعك تأخذها!» وأحاطتا بمرفقيهما ناتاليا منكسة الرأس .

ـ والآن ، ما معنى هذا ؟ ها نحن قد دفعنا المزيد .

فأمر ميرون غريغوريتش الفتاتين مبتسماً : «أقبلا أيتها البنتان!» وتقدّم من المائدة . وكان شعره الأحمر الملطّخ بالزبدة الذائبة تنبعث منه رائحة العرق والروث .

نهض أقارب العروس وأصدقاؤها من مقاعدهم حول المائدة ، وأفسحوا المكان للقادمين الجدد .

---

* الشوبك أو الشوبق ، خشبة الخبّاز التي يسوّي بها الرغيف قبل الخبز . المترجمون

دفع بيوتر طرف منديل في يد غريغوري ، وقفز على مصطبة ، ثم قاده الى العروس حيث جلست تحت الأيقونات ، فأخذت ناتاليا المنديل من طرفهاالآخر في يدها الرطبة المضطربة .

وطقطقت الاسنان حول المائدة ، وجعل الضيوف يمزّقون الدجاجات المسلوقة بأيديهم إرباً إرباً ليمسحوها بعدئذ بشعورهم . وبينما كان انيكاي يلوك عظمة صدر ، جرى الدسم الاصفر على ذقنه الأمرد الى ياقته .

ورثى غريغوري لنفسه ، وهو يرى الى ملعقته وملعقة ناتاليا المعقودتين معاً بمنديل ، أولاً ، ثمّ الى الشعرية التي يتصاعد بخارها من الإناء . كان جائعاً الى حد كبير ، وأحس بمعدته تتضوّر .

أمّا داريا فقد كانت تأكل بشهية ، بينما بدا على الخال ايليا ، الذي جلس الى جانبها يمصمص ضلع خروف بتمهّل ، أنّه يهمس في أذنها بأشياء غير لائقة ، ذلك لأنها خاوصت عينيها ورفعت حاجبيها ، متوردة الوجه مقهقهة .

أكل الضيوف كثيراً وبشهيّة ، واختلط بخار العرق الرجالي النفّاذ برائحة النساء المعطرة الأكثر نفاذاً . وانبعثت من التنورات والسترات السود والشالات المحفوظة في صناديقها زمناً طويلاً ، رائحة النفتالين ورائحة أخرى ، ثقيلة وخانقة ، مثلما ينبعث من ملابس العجائز البالية .

نظر غريغوري من طرف عينه الى ناتاليا ، ولاحظ لأوّل مرة أن شفتها العليا كانت منتفخة ومتدلية على الشفة السفلى كما يتدلّى رفرف القبعة . ولاحظ أيضاً شامة بنيّة على خدّها الأيمن تحت عظم الوجنة ، وقد نبتت من الشامة شعرتان ذهبيتان ، ولسبب ما أثار ذلك نفوره . وتذكّر رقبة أكسينيا الهيفاء بخصلاتها الجعد الوبرية ، وانتابه شعور بأن أحداً ما ألقى في داخل ياقته حفنة من الأعشاب الشوكية التي تخز ظهره العرق . فارتعش جسمه ، وجعل يراقب الأخرين يمضغون ويلوكون ويتلمظون شفاههم ، وقد استبد به شعور خانق بالتعاسة .

وحينما انفضّوا عن المائدة جاء أحدهم ، ورائحة عصير الفاكهة المختمرة وحموضة خبز القمح تفوح من أنفاسه ، وصب قبضة من الدخن في ساق جزمته لكي تحميه من العين الشريرة .

وطوال طريق العودة الى بيته ظل الدخن يؤلم قدمه . كما ضايقته ياقة القميص الضيقة حد الاختناق . وجعل غريغوري يتمتم باللعنات مع نفسه في غضب يائس بارد ناجم عن مراسيم الزواج المقبضة للنفس .

٢٢

حينما وصلت الخيل إلى فناء آل ميليخوف ، كان التعب قد هدّها ، بالرغم من أنّها استراحت قليلاً لدى آل كورشونوف . وكانت أعنّتها ملطخة بالزبد ، لكنّ السواق السكارى ظلّوا يستحثّونها بلا رويّة .

واستقبل العجوز ميليخوف وزوجته الموكب . كان بانتلاي بروكوفتش يمسك بأيقونة ولحيته السوداء المشوبة بلون فضّي تتلألأ ، بينما وقفت زوجته الى جانبه ، وقد تصلبت شفتاها الرفيعتان .

وتحت وابل من ثمار حشيش الدينار وحبّات القمح ، تقدّم غريغوري وناتاليا نحوهما ليتقبّلا بركاتهما . وسالت دمعة على وجه بانتلاي بروكوفتش وهو يباركهما ، ثمّ عبس وتململ ، وقد ضايقه أن يشهد الآخرون ضعفه .

دخل العروسان إلى الدار . وانقضّت داريّا على دونيا الراكضة من المطبخ عند درجات العربة ، وقد احمرّت من الفودكا والرحلة والشمس ، تسألها :

ـ أين بيوتر ؟

ـ لم أره .

ـ عليه أن يذهب إلى القس في حين ليس له أثر ، عليه اللعنة!

وأخيراً عثرت على بيوتر متمدّداً في عربة ، يئن ، بعد أن كرع من

الفودكا أكثر مما ينبغي ، فانقضّت عليه كالحدأة : «لقد شربت أكثر مما ينبغي ، ياكافر! قم واجر إلى القس!»

فاحتج بيوتر ، وهو يمد يديه نحو القش وذرق الدجاج : «أغربي عنّي! أنا لا أعرفك . من أنت حتّى تتأمّري ؟»

فدفعت داريّا اصبعين في فمه ، والدموع في عينيها . وأمسكت بلسانه الهاذي ، وأعانته على أن يفيق ، فأربكه ذلك . ثمّ صبّت على رأسه دلواً من ماء البئر البارد ، ونشّفته ببطّانية خيل وأخذته الى القس .

وبعد ساعة وقف غريغوري إلى جانب ناتاليا (التي جعل ضوء الشموع وجهها جميلاً) في الكنيسة ، ممسكاً شمعه بيده ، وعيناه تجولان في سهوم فوق جدار من الناس المتهامسين حوله ، ومردّداً في نفسه هذه الكلمات التي لم تكن لتنأى عن ذهنه : «ها إنّك قد انتهيت» . ومن خلفه ، سعل بيوتر ذو الوجه المنتفخ . وفي مكان ما بين الرهط ، لحظ عيني دونيا متلألئتين ، وخيّل إليه أنّه ميّز وجوهاً أخرى . وسمع أصوات الجوقة المتنافرة وغناء الشمّاس الطنّان . كان تبلّد أحاسيسه يشلّه . ومشى وراء الأب فيساريون حول كرسي الكتاب ، متعثراً بكعبي جزمة القس المتآكلة ، وتوقّف حينما جذبه بيوتر برفق من طرفي سترته الرسمية . وجعل يحدّق في ألسنة لهب الشموع الصغيرة المتلألئة ، ويقاوم رغبة في الإغفاء تملّكته .

وقال الأب فيساريون لغريغوري وهو يحدّق في عينيه بلطف : «تبادلا الخاتمين!» فأطاعاه . وتساءل غريغوري في صمت حينما التقى نظره ببيوتر : «هل سنفرغ من هذا عمّا قريب ؟» ، ورفّت زاويتا فم بيوتر وهو يكتم ابتسامة : «عمّا قريب» . ثم قبّل غريغوري شفتي زوجته المبللتين ، عديمتي الطعم ، ثلاث مرّات ، واخذت تنبعث من الكنيسة رائحة الشموع المطفأة الكريهة ، وتزاحم الجمع نحو الباب .

خرج غريغوري ماسكاً يد ناتاليا الخشنة الكبيرة ، وخبط أحدهم قبعته على رأسه . وحملت نسمة دافئة من الجنوب رائحة نبات الشيح إلى

منخريه ، وانحدرت البرودة من السهب . تلوي البرق الأزرق وراء الدون ، وقدم المطر ، وتناهى إلى الأسماع عبر سور الكنيسة الأبيض وفوق همهمة الأصوات ، الرنين الرقيق الحفي للأجراس المدلاة من الخيل الجامحة .

٢٣

لم يصل آل كورشونوف الى دار آل ميليخوف إلا بعد مبارحة العروسين إلى الكنيسة . وكان بانتلاي بروكوفتش ، قبل ذلك ، قد خرج إلى البوابة عدّة مرات ليستطلع قدومهم ، لكن الطريق الرمادي المحدّد بخطوط من النباتات الشوكية كان مهجوراً تماماً .

وحوّل عينيه ناحية شاطئ الدون الآخر . كانت الغابة تكتسي لوناً ذهبياً وعيدان القصب الناضج تميل ، تعبى ، فوق البحيرة الصغيرة .

وثمة خمول الخريف الباكر ، المتّشح بالغسق ، يلف القرية والدون وحافة التلال الكلسية والغابة الكامنة في سديم ليلكي وراء النهر ، والسهب . وعند مفترق الطرق ، كانت الحدود الحادة للمصلى القائم على جانب الطريق بارزة إزاء صفحة السماء الزرقاء .

التقطت أذنا بانتلاي بروكوفتش صوتاً لا يكاد يسمع لعجلات تدور وكلاب تنبح . ثمّ دارت عربتان صغيرتان من ساحة القرية عبر الشارع ، وقد جلس في الأولى ميرون غريغوريتش وإلى جانبه زوجته يواجهها الجد غريشاكا في بزّة رسميّة جديدة وقد علّق على صدره وسام القدّيس غيورغي ومدالياته . وكان ميتكا يقود العربة ، جالساً باسترخاء على المقعد الأمامي دون أن يكلّف نفسه عناء التلويح بسوطه للخيل القويّة . وكان ميخي في العربة الثانية مائلاً إلى الخلف ، يجر الأعنّة محاولاً تقليل سرعة الخيل المندفعة . وكان وجهه الهزيل ، عديم الحاجبين ، قرمزيّاً ، والعرق يتصبب من تحت رفرف قبعته المكسور .

فتح بانتلاي بروكوفتش البوابة ، واندفعت العربتان إلى داخل الفناء . وانسابت ايلينشنا نازلة على درجات المدخل وطرف ثوبها يكنّس بقايا الوحل من الدرجات .

ـ مرحباً ، أيها الأقرباء الأعزاء! امنحوا دارنا المتواضعة شرف دخولكم .. وثنت خصرها السمين في انحناءة .

وفتح بانتلاي بروكوفتش ذراعيه ، ورأسه مائل الى جانب ، ورحّب بهم : ـ نحن ندعوكم الى الدخول!

وأمر أن تحل الخيل ، اتجه نحو والد كنته . ومسح ميرون غريغوريتش سرواله بيده ليزيل عنه الغبار . سلّم أحدهما على الآخر واتجها الى مدخل الدار . وتباطأ غريشاكا العجوز خلفهما ، وقد خضّته رحلة العربة غير المعتادة .

وألحّت ايلينشنا : «تفضّلوا ، تفضّلوا ، أيها الأعزاء!»

ـ نشكرك ، هانحن قادمون .

ـ كنّا ننتظركم . تفضّلوا . سآتي بمنفضة لتنظّف بها بزّتك . ما أكثر الغبار هذه الأيام ، حتّى لقد صرنا لا نتنفّس إلا بصعوبة .

ـ أجل ، حقّاً ، إنّها جافة جداً ... وهذا هو سبب الغبار... لاتزعجي نفسك يا عزيزتي ، سوف آتي بعد أن... .

وتراجع العجوز غريشاكا إلى مخزن الحبوب فالتجأ وراء ماكنة درس مطليّة .

فغمغم بانتلاي بروكوفتش ، موقفاً زوجته عند درجات العتبة :

ـ ألا تستطيعين أن تتركي العجوز وشأنه ، ياحمقاء . هو يريد أن يقضي حاجته وأنت تظلّين... أين عقلك ، ياامرأة!

فاحتجّت ايلينشنا في ارتباك :

ـ أنّى لي أن أعرف .

ـ كان ينبغي لك أنت أن تخمّني ذلك . لابأس خذي الضيوف إلى المائدة .

وأخذت أسرة العروس الى غرفة كبيرة ، حيث جلس إلى المائدة رهط من الضيوف نصف مخمورين . وسرعان ما عاد العروسان الجديدان من الكنيسة . وقد ملأ بانتلاي بروكوفتش الأقداح من قنينة هائلة ، والدموع تترقرق في عينيه :

ـ حسناً يا أقرباءنا الأعزّاء ، فلنشرب نخب طفلينا! لتمتلىء حياتهما بالطيبات ، كما امتلأت حياتنا . وليعيشا سعيدين متمتعين بأحسن عافية... .

وصبّوا قدحاً كبيراً من الفودكا للجد غريشاكا وأفلحوا في إفراغ نصفه في فمه ذي اللحية المتصوفة والنصف الآخر على ياقة بزّته الصلبة . وقرعت الأقداح . وجعل القوم يشربون دون أي نخب ، وهم يثيرون جلبة كجلبة السوق . وقام نيكيفور كولوفايدين ، وهو يمت إلى آل كورشونوف بصلة بعيدة وكان يجلس عند طرف المائدة الأقصى ، فرفع قدحه وزأر بالكلمات التقليدية : «مُر الطعم ، مُرا!»* .

فتصايح الضيوف الجالسون حول المائدة وراءه : «مُرا! مُرا!» . وجاء الجواب من المطبخ المزدحم : «أوه ، مُرا!» . فقبّل غريغوري بعبوس شفتي زوجته عديمتي الطعم ، وأجال في الغرفة نظرة طريدة ، لم ير سوى وجوه قرمزيّة محمومة ، ونظرات وابتسامات فظّة كدرة بفعل السكر ، وأفواه تلوك بشراهة ، ولعابها يسيل على خوان المائدة المطرّز حين بلغت الحفلة ذروتها .

وفتح كولوفايدين فمه متباعد الأسنان ، على سعته ، وقال :

ـ «مُرا!» وانكمشت شارات خدمته الطويلة على كم بزة الحرس الزرقاء ، حين رفع قدحه .

ـ«مُرا!» ، التقط الجميع الصرخة من جديد .

ونظر غريغوري الى فم كولوفايدين بكراهية ، ولاحظ لسانه القرمزي بين أسنانه حينما صرخ : «مُرا!» .

---

* حسب التقاليد يتبادل العروسان القبلات حين يسمعان هذه الجملة . الناشر .

وتمتم بيوتر ، وقد رف شاربه المبلل بالفودكا : «تبادلا القبل ، أيها العروسان البليدان» . ومن المطبخ ، شرعت داريّا تغنّي وقد تورّد وجهها من السكر ، فالتقط الأغنية الآخرون ، وانتقل الغناء إلى الغرفة الكبيرة . واختلطت الأصوات ، لكن إرعاد كريستونيا علا فوق الجميع هازاً زجاجات النوافذ .

ـ يا للزفاف ، ايها الناس الطيبون!...

ـ ذق لحم الضأن هذا!

ـ أبعد مخلبك عنّي ، فزوجي ينظر إلينا!

ـ مُرا! مُرا!

ـ لا! لا أريد لحم ضأنك هذا . أفضّل شيئاً من السمك السلمون . أجل ، أحب ذلك... . إنّه دسم .

ـ بروشكا يا ابن العم ، لنشرب نخباً آخر!

ـ آه ، إن هذا يبعث الدفء في عصافير قلبك!

ـ يا سيمين غورديتش!

ـ ها ؟

ـ ليأخذك الشيطان!

وفي المطبخ ، أنّت الأرض واهتزّت ، واصطكّت الكعوب ، وسقط قدح على الأرض ، ولكن صوت تحطّمه ضاع في الضجيج العام . ونظر غريغوري إلى المطبخ عبر رؤوس الجالسين إلى المائدة . وشرعت النساء يرقصن بمصاحبة الصيحات والصفير ، ورحن يهززن مؤخراتهن الضخمة ، فلم تكن بينهن نحيفة واحدة ، إذ كانت كل واحدة قد لبست خمس أو سبع تنورات معاً ، وجعلن يلوّحن بمناديلهن ، ويحرّكن مرافقهن أثناء الرقص .

وصل إلى المسامع صوت الاوكورديون . وشرع العازف يعزف لحن رقصة قوزاقية . وانطلقت صيحة : «حلقة! شكّلوا حلقة!» .

وتوسّل بيوتر ، دافعاً بطون النساء : «تراصفن قليلاً!» .

وأيقظ غريغوري نفسه ، وغمز لناتاليا :

ـ سيرقص بيوتر رقصة القوزاق . راقبيه .

ـ مع من ؟

ـ ألا ترين ؟ مع أمّك .

تحَضّرت ماريّا لوكينيشنا ، مسندة يديها إلى ردفيها ، ومنديلها بيدها اليسرى ، وتقدّم بيوتر بخطوات متبخترة ، وقفز بخفّة ومهارة ، ثمّ تراجع إلى مكانه . رفعت لوكينيشنا تنورتها ، كما لو أرادت أن تعبر بركة ماء ، والتقطت الإيقاع بأصابع قدمها ، ورقصت وسط هدير من الاستحسان ، مشمّرة ساقيها كما يفعل الرجال .

نثر عازف الاوكورديون رقرقة من النغمات الناعمة دفعت بيوتر الى الحركة ، ثمّ هبط صائحاً في وضع قرفصي ، وجعل يرقص بشكل دائري ، ضارباً رقبتي جزمته براحتي يديه ، وقاضماً طرف شاربه في زاوية فمه . وراح يحرّك قدميه إلى الداخل والخارج ، بسرعة كبيرة ، وتواثبت خصلته على جبينه ، إلا أنّها لم تستطع أن تلحق بوثبات قدميه .

وكان الحشد عند الباب قد حجب الرؤية عن غريغوري . فلم يعد يسمع سوى صيحات الضيوف السكارى وضربات الكعوب الحديدية ، مثل طقطقة لوح صنوبر محترق .

ثم رقص ميرون غريغوريتش مع ايلينشنا . كان يرقص بطريقة جدّية رزينة على عادته في أداء كل شيء . ووقف بانتلاي بروكوفتش فوق مقعد يراقبهما ، مدلياً ساقه العرجاء ومطقطقاً بلسانه . وتراقصت شفتاه وقرطه بدلاً من ساقيه .

والتقط الرقصة خبراؤها ، كما التقطها من لم يستطع أن يثني ساقيه بصورة لائقة . وانطلقت صيحات صوب الجميع :

ـ الهبوها!

ـ خطوات أقصر! آه ، يا!...
ـ ساقاه خفيفتان بما فيه الكفاية ، لكنّ مؤخرته تعيق حركته .
ـ آه ، امضي بها!
ـ إن جانبنا يربح .
ـ هيّا!
ـ تعبان ، أليس كذلك ؟ لسوف أكسر قنينة على رأسك إن لم ترقص!
كان الجد غريشاكا قد استبد به السكر كلّياً فاحتضن ظهر جاره العريض على المصطبة ، وطن في أذنه طنين البعوض :
ـ أية سنة ذهبت للخدمة العسكرية لأوّل مرة ؟
فأجابه جاره ، وهوعجوز منحني الظهر كشجرة بلوط عتيقة :
ـ ١٨٣٩ ، يابني!
فأصاخ غريشاكا السمع وهو يمسك بطرف أذنه : «متى ؟»
ـ قلت لك ١٨٣٩ .
ـ ما اسمك ؟ في أي كتيبة خدمت ؟
ـ مكسيم بوكاتير يوف . كنت نائب عريف في كتيبة باكلانوف . أنا من قرية«الوهدة الحمراء» .
ـ أنت قريب لآل ميليخوف ؟
ـ ماذا ؟
ـ سألتك ، هل أنت قريب للعائلة ؟
ـ أي أي! أنا جد العريس ، من ناحية أمّه .
ـ قلت في كتيبة باكلانوف ؟
فنظر الشيخ إلى غريشاكا بعينين ذابلتين ، وهو يحاول عبثاً أن يمضغ قطعة من الخبز بلثّته عديمة الأسنان ، وهز رأسه بالإيجاب .
ـ إذن ، فلا بد أنّك كنت في الحملة القفقاسية ؟
ـ أنا خدمت تحت أمرة باكلانوف نفسه ، رحمة الله عليه ، وساهمت

في غزو القفقاس . كان في كتيبتنا قوزاق بارزون . كانوا طوالاً كالحرس ، وإن لم يكونوا منتصبي القامة مثلهم . رجال ضخام ، طوال الأذرع ، عراض المناكب ، ليسوا كقوزاق هذه الأيام . هكذا كان رجالنا ، ياابني! كان فخامة الجنرال الراحل يجلدني بنفسه...

ـ أمّا أنا فقد شهدت الحملة التركية ، هه ؟ أجل شهدتها .

ونفخ غريشاكا صدره الهزيل مجلجلاً بالميداليات .

ـ استولينا على قرية عند الفجر ، وعند الظهر أطلق البوقي الإنذار .

ـ نحن أيضاً تسنّى لنا أن نخدم قيصرنا . كنّا نقاتل بالقرب من روشيتش وكانت كتيبتنا ، كتيبة قوزاق الدون الثانية عشرة ، ملتحمة مع الأتراك .

ـ أطلق البوقي الإنذار... ـ استطرد بوكاتيريوف العجوز دون أن يصغي الى غريشاكا .

وقد بدأ غريشاكا يشعر بالضيق وهو يلوّح بيده مغضباً :

ـ أي نعم . يخدم الانكشاريون الأتراك قيصرهم ويضعون على رؤوسهم أكياساً بيضاء . ها ؟ أكياساً بيضاء على رؤوسهم .

ـ وأطلق البوقي الانذار ، وقلت لرفيقي : علينا أن نتراجع يا تيموفي ، ولكن علينا أن ننتزع تلك السجادة من الحائط أولاً سنلفّها لفّة... .

ـ لقد كوفئت بوسامين من أوسمة القديس غيورغي تقديراً لبطولتي في القتال . أسرت مقدّماً تركيّاً وهو حي .

وشرع الجد غريشاكا يبكي ويضرب بقبضته الذابلة على العمود الفقري لجاره . لكن الأخير غمس قطعة من الدجاج في مربّى الكرز بدلاً من الخردل ، وحدّق ببلاهة في خوان المائدة المتسخ ، ودمدم والطعام في فمه الخاسف : « حسبك أن تتأمّل أية خطيئة ساقتني إليها الروح الشريرة ، يا بني! » وحدقت عينا الشيخ بثبات على ثنيات الخوان البيضاء ، وكأنهما لا تنظران الى خوان غارق بالفودكا والحساء ، ولكن إلى الشعاب الثلجية في جبال القفقاس . « أنا

لم آخذ في حياتي شيئاً لا يخصّني ، استولينا على القرى الشركسية في كل بيت ثروة ، ولكنني لم أرد أن آخذ شيئاً لأن السرقة من أفعال الشيطان وهذه المرّة ما أن رأيت تلك السجادة ، حتّى قلت في نفسي : تصلح هذه مرشحة سرج جيدة .

ـ لقد رأيت تلك البقاع بنفسي . ورحلت الى بلاد عبر البحار أيضاً . ـ

وحاول غريشاكا أن ينظر في عيني جاره ، لكن المقلتين العميقتين كانتا مغلقتين بطبقة كثيفة شعثاء من شعر الحاجبين واللحية . كان يريد أن يستأثر باهتمام جاره لسماع ذروة قصّته ، فلجأ إلى المكر واندفع إلى وسطها دونّما مقدّمات :

«ويصدر الرئيس الأمر : «الى الأمام خبباً!» .

رفع قوزاقي كتيبة باكلانوف العجوز رأسه ، كما يفعل حصان الهجوم على صوت النفير ، وأسقط قبضته على المائدة هامساً : «أعدّوا الرماح! استلّوا السيوف ، يارجال باكلانوف!» واشتد صوته على حين غرة ، وتلامعت عيناه الذابلتان وأومضتا : «يارجال باكلانوف! ياللشطّار!» ، وزأر فاغراً فكّيه الأصفرين عديمي الأسنان : «اهجموا... إلى الأمام!» .

وصوب الى غريشاكا نظرة فتية ذكيّة ، وترك الدموع متلألئة على لحيته تتساقط دون أن يمسحها بكمه المتسخ .

وتحمّس غريشاكا هو الآخر :

ـ أعطانا هذا الأمر ، ولوّح بسيفه . فاندفعنا مسرعين إلى الأمام وكان الأتراك متجمعين بهذه الصورة ـ ، ورسم مربعاً على خوان المائدة بإصبع مرتعشة ، ـ وكانوا يطلقون ناراً علينا . غرنا عليهم مرتين . وفي كل مرّة كانوا يردوننا إلى موضعنا . كلّما حاولنا ، انطلق فرسانهم من غابة صغيرة لتحمي جناحهم . ولهذا أصدر آمر رعيلنا الأمر وتحوّلنا باتجاههم ومضينا . سحقناهم بخيلنا . هزمناهم . أي فرسان في العالم يستطيعون الصمود أمام القوزاق ؟ فرّوا الى الغابة صائحين . رأيت ضابطهم أمامي مباشرة راكباً

حصاناً كميتاً . ضابط وسيم الطلعة ، كان له شاربان أسودان . نظر إليّ ملتفتاً إلى الوراء وسحب مسدّسه من جراب مربوط بسرجه . طاق! لكنّه أخطأني . همزت حصاني ولحقت به . كنت على وشك أن أشطره نصفين ، لكنني فكّرت فيما هو أفضل . فقد كان ، على أيّة حال ، إنساناً مثلي . فطوّقت خصره بذراعي الأيمن . فطار عن سرجه . ثم عض ذراعي ، لكنني أسرته رغم ذلك .

نظر غريشاكا في زهو المنتصر الى جاره ، لكن رأس الشيخ الكبير المدبب كان قد هوى على صدره ، وكان يشخر في دعة .

الجزء الثاني

١

يستطيع سيرغي بلاتونوفتش موخوف أن يتتبع سلالته إلى مدى بعيد .

أثناء حكم بطرس الأول ، كانت جنيبة شحن حكومية تمخر في الدون متجهة الى بحر آزوف بحمولة من البقسماط والبارود ، فهاجمها ليلاً قوزاق بلدة تشكوناكي القائمة على ضفّة الدون الاعلى ، وقتلوا حرّاسها الناعسين ، ونهبوا البقسماط والبارود وأغرقوا الجنيبة .

فأرسل القيصر جنوداً من فورونيج ، وأحرقوا بلدة تشكوناكي عن آخرها ، وهزموا القوزاق المذنبين بلا رحمة ، وعلّقوا ضابطهم وأربعين آخرين على مشانق عائمة أرسلت بجثثها المعلقة حدر الدون عبرة للقرى العاصية .

وبعد زهاء عشر سنوات بدأت البقعة ، التي شهدت بالأمس دخان المواقد يتصاعد من أكواخ تشكوناكي ، تعمر من جديد بالمستوطنين القوزاق وبأولئك الذين نجوا من المذبحة ، بدأت القصبة تتنامى من جديد وقد أحيطت بالأسوار . وفي الوقت نفسه أُرسل من فورونيج الى تشيكوناكي مخبر سرّي من وكلاء القيصر ، كان فلاحاً روسياً يدعى موخوف . واتجر هذا بمقابض السكاكين ، والتبغ ، وأحجار الصوّان والمتفرقات الأخرى اللازمة في

حياة القوزاق اليومية . وكان يشتري ويبيع الحاجات المسروقة ، ويسافر مرتين في العام إلى فورونيج ، متظاهراً بالسعي إلى استكمال بضائعه ، وهو يرمي إلى إبلاغ السلطات بأن القصبة كانت ، آنئذ ، هادئة وبأن القوزاق لم يكونوا بصدد تدبير أي اعتداء جديد .

من هذا الفلاح الروسي ، نيكيتا موخوف ، انحدرت عائلة التجار آل موخوف ، عمقت جذورهم في أرض القوزاق ، وتكاثروا وانتشروا في المنطقة مثل الدغل البري الصلب ، محافظين بإجلال على أوراق الاعتماد نصف المتعفنة التي منحها حاكم فورونيج الى سلفهم . وكان يمكن أن تكون هذه الأوراق محفوظة حتّى يومنا هذا لولا أنّ ناراً أتت عليها في حقتها الخشبية وراء الأيقونة أثناء حريق كبير وقع في حياة جد سيرغي موخوف . وقد سبق لهذا الموخوف أن ألقى بنفسه في هاوية الإفلاس بلعب الورق ، لكنّه شرع ينهض من كبوته مرة أخرى حينما أتت النارعلى كل شيء . وصار على سيرغي أن يبدأ من جديد وهو يملك القليل من المال . بعد أن دفن أباه المشلول ، بدأ شراء الريش وشعر الخنزير . وظل خمسة أعوام يعيش في بؤس ، يغش قوزاق المنطقة ويعتصر منهم كل كوبك . ثم قفز اسمه على حين غرّه من «سيريوجكا البائع المتجوّل» إلى «سيرغي بلاتونوفتش» وفتح حانوتاً صغيراً لبيع الخردوات ، وتزوّج من ابنة قس نصف مجنون ، وتلقّى معها صداقاً كبيراً ، وأصبح صاحباً لمتجر الاقمشة . وقد شرع سيرغي بلاتونوفتش في تجارة الأقمشة في الوقت المناسب ، اذ كان القوزاق يهاجرون في ذلك الحين ، بناء على تعليمات من سلطات الجيش ، بكامل قراهم من الضفّة اليسرى للدون ، حيث الأرض رملية جدباء ، إلى الضفّة اليمنى ، وظهرت إلى الوجود أبنية حول قصبة كراسنوكتسكايا الفتية ، وانبعثت قرى جديدة على حدود الاقطاعات السابقة ، وعلى ضفاف أنهر «تشير»و«تشورنايا» و«فرولوفكا» ، وفوق وديان السهب وشعابه ، بجانب القرى الأوكرانية . وهكذا وجد هؤلاء القوزاق أن باستطاعتهم أن

يتبضعوا من حانوت سيرغي موخوف ، حيث تمتلىء رفوفه بأقمشة جذّابة في متناول أيديهم ، بدلاً من أن يقطعوا خمسين فرستا أو أكثر . ووسع سيرغي بلاتونوفتش أعماله ، كما يتوسّع أوكورديون كبير ، وجعل يتاجر بكل ماهو ضروري من حياة القرية البسيطة - كجلود الحيوانات ، والملح ، والنفط ، وشتّى السلع الرخيصة حتّى أنّه شرع بتجهيز الماكنات الزراعية ، فعرضت خارج الحانوت حاصدات ، وباذرات ، ومحاريث ، ودارسات ، في صف واحد ، تحفظها من قيظ الصيف حجب الحانوت الخضر باردة الظلال . من الصعب أن يعد المرء ما في حافظة نقود امرئٍ آخر ، ولكن يبدو أن تجارة سيرغي الماهر درّت عليه ربحاً كبيراً ، فأقام صومعة لخزن الحبوب في غضون ثلاث سنوات ، وبدأ في العام الذي تلا وفاة زوجته الأولى ببناء طاحونة بخاريّة . ووقعت القرية تتارسكي والقرى المجاورة شر وقعة في قبضته السمراء ذات الشعر الأسود الأملس المتباعد . ولم يعد ثمّة بيت غير مدين لسيرغي بلاتونوفتش فهذه قصاصة خضراء اللون ذات حافة برتقالية تفيد أن حاصدة قد بيعت بالدين إلى فلان ، وهذا جهاز عرس لابنة شخص آخر يشتريه من موخوف بالدين ، فقد حان ميعاد زواج البنت ، بيد أن الأسعار التي تدفعها صومعة الحبوب في بارومونوفو قد هبطت ، فيلجأ أبو العروس الى سيرغي بلاتونوفتش قائلاً : «ضع ثمن جهاز العروس على حسابي ، ياسيرغي بلاتونوفتش » وهكذا مضت الحال على هذا المنوال . واستخدم موخوف تسعة عمّال في الطاحونة ، وسبعة في الحانوت ، وأربعة خدم في البيت : أي كان ثمّة عشرون فماً يأكل خبز التاجر . وكان لديه طفلان من زوجته الأولى : البنت ليزا ، وولد أصغر منها بعامين ، هو فلاديمير الفاتر المزاج المصاب بسل الغدّة اللمفية . أمّا زوجته الثانية ، آنا ، المخلوقة اليابسة ذات الأنف المدبب ، فكانت عاقراً ، وصبّت على الطفلين مزيجاً من حنان العاقر للأطفال وحقد العانس المتراكم (فهي لم تتزوّج إلا في الرابعة والثلاثين) وظهر الأثر السيئ لمزاجها العصبي عليهما ، ولم يعد أبوهما يعيرهما من الاهتمام أكثر

مما يعيره لعامل الاصطبل أو الطبّاخ ، فقدَ شغلته أعماله التجارية طيلة الوقت ، ونشأ الطفلان بلا رادع يردعهما ، ولم تبذل زوجته القاسية أي مسعى لتفهم الطفلين وإدراك حاجاتهما النفسية ، فقد أخذت أشغال المنزل الكثير من وقتها ، فترعرع الأخ والأخت غريبين عن بعضهما ، متباينين في الأخلاق ، وكأنّما لم تجمع بينهما أية رابطة فشب فلاديمير كئيباً ، خاملاً ، ذا نظرة خبيثة ونزوع إلى الجد ليس من سمات عمره . وعاشت ليزا في مجمع الخادمة والطاهية ، وكانت الأخيرة امرأة ماجنة ذات تجارب كثيرة جداً ولهذا أطلعت ليزا على الجانب الخفي من الحياة ، وهي لما تزل صغيرة . وأثارت فيها المرأتان فضولاً سيئاً فشبّت ليزا وحشية ، كما تشب زهرة الحب الصافي في الغابة ، بالرغم من أنّها لم تزل مراهقة خجولاً نحيلة .

مضت السنون المتباطئات .

وصار الكبير أكبر . وأينع الصغير .

وذات مساء نظر سيرغي موخوف إلى ابنته على مائدة الشاي . فأصابته الدهشة . ها قد أصبحت ليزا فتاة هيفاء وسيمة ، وكانت قد أتمّت في التو دراستها الثانوية . نظر إليها ، وارتجف في يده الصحن المملوء شاياً بلون العنبر .«ما أشد شبهها بأمها الراحلة! يا إلهي ، صورة طبق الأصل!» «ليزا أديري رأسك جانباً» لم يكن قد لاحظ في أي يوم مضى ذلك الشبه المذهل بين ابنته وأمها .

كان فلاديمير موخوف يتمشّى في فناء الطاحونة ، وهو الآن صبي في الصف الخامس ، نحيف الصدر ، يعلوه اصفرار المرض . وكان هو وأخته قد عادا مؤخراً لقضاء عطلتهما الصيفية ، فذهب هو كعادته ليلقي نظرة على الطاحونة ، ويتدافع بين المتزاحمين الذين يعلوهم الطحين ، وليستمع إلى الإرعاد الرتيب للدواليب المسننة ، وإلى فحيح الأحزمة الدوارة . كان مما يشبع غروره أن يستمع الى همهمة الاحترام من الزبائن القوزاق :

ـ هو ذا وريث السيد .

وصل فلاديمير إلى البوابة متلمساً طريقة بحذر بين العربات وأكوام الروث . ثمّ تذكّر أنه لم يذهب الى غرفة الماكنة ، فقفل راجعاً .

وعلى مقربة من صهريج الزيت المطلي باللون الأحمر ، عند مدخل غرفة الماكنة ، كان عامل الطاحونة تيموفي ، وقباني يكنّى بـ «الولد » ومساعدهم دافيد ذو أسنان بيضاء يعجنون قرصاً كبيراً من الطين بأقدامهم العارية ، وقد طويت سراويلهم الى مافوق الركبة .

وحيّاة القباني هازئاً : «آه! ... السيد!» .

ـ مرحباً!

ـ مرحباً يافلاديمير سيرغيفتش!

ـ ما الذي تفعلان ؟

فقال دافيد بابتسامة خبيثة جاراً قدميه من الكتلة المتماسكة التي فاحت منها رائحة الروث :

ـ نحن نعجن الطين . إن أباك ضنين بالروبلات ، فهو لا يستأجر النساء ليقمن بهذ العمل . ويجبرنا على العمل ـ وأضاف وهو ينقل قدميه مبقبقاً : ـ إن أباك بخيل ، أجل فهذه حقيقته .

فاحمر وجه فلاديمير مغضباً . وشعر بكراهية عارمة لدافيد ذي الابتسامة المستديمة واللهجة الساخرة ، وكره حتى أسنانه البيض .

ـ ماذا تعني بـ«بخيل» ؟

فأوضح دافيد مبتسماً :

ـ إنّه حقير بصورة فظيعة ، مستعد لأن يأكل غائطه لو كان ذلك يدر عليه مالاً .

فضحك«الولد » وتيموفي مستحسنين . وأحس فلاديمير بكل ما في الإهانة من قساوة . فحملق في دافيد ببرود وقال :

ـ أنت إذن... غير راض ؟

فأجاب دافيد :

ـ تعال إلى هذا الطين ، واعجنه بنفسك وستعرف أي أحمق يمكن أن يرضى به ؟ إن عملاً كهذا قد يفيد أباك نوعاً ما ويخلصه من بعض شحمه .

ومضى دافيد متمايلاً يدوس بقوة قرص الطين وهو يرفع قدميه عالياً ، وقد علت وجهه الآن ابتسامة مرحة . أمّا فلاديمير فقد نقّب مسبقاً في ذهنه عن رد مناسب ، وهو يتحسس منذ الآن حلاوة الانتقام . فقال متباطئاً :

ـ طيب! سأخبر بابا بأنّك غير راضٍ عن عملك .

ونظر من زاويه عينه إلى وجه الرجل ، وأدهشه الأثر الذي سببه فيه . اذ انثنت شفتا دافيد بابتسامة مغتصبة ، وغامت وجوه الأخرين . وواصل الثلاثة عجنهم بصمت بعض الوقت ، ثمّ انتزع دافيد عينيه من قدميه الموحلتين وقال بلهجة حانقة متملقة :

ـ كنت أمزح لا غير يا فولوديا .

ـ سأخبر بابا بما قلت .

ثمّ مضى فلاديمير مبتعداً ، وقد اغرورقت عيناه بدموع الألم من أجل أبيه ومن أجله ، وبسبب ابتسامة دافيد البائسة .

فصاح دافيد فزعاً : «فولوديا! فلاديمير سيرغيفتش!» وخطا خارجاً من الطين ، تاركاً سرواله ينزل على ساقيه الموحلتين .

توقّف فلاديمير وركض دافيد نحوه مبهور النفس .

ـ لا تخبر أباك . سامحني ، فأنا أحمق . صدقني والله ، أنا لم أقل ذلك عن نيّة مبيتة ، عن قصد .

فأجاب فلاديمير مقطباً : «حسناً لن أخبره» ومضى نحو البوابة . وانتصرت الشفقة في قلبه من أجل دافيد . وراح يمشي إلى جانب السور الأبيض متنفساً الصعداء . وتناهى إلى سمعه قرع المطرقة المرح من الكورة في زاوية فناء الطاحونة ، تارةً ناعماً خفيفاً حين تضرب الحديد ، وتارة رناناً قوياً ، حين تنزل في ضربة مزدوجة على السندان .

ثمّ تناهى إلى سمعه صوت«الولد » العميق :

ـ لمَ أردت أن تقول ذلك ؟ لاتثر الروث حتّى لاتفوح رائحته الكريهة .

فقال فلاديمير في نفسه ساخطاً : «الخنزير! إذن فهو يجرؤ على الكلام... هل سأخبر أبي أم لا ؟» .

ونظر خلفه فرأى دافيد قد ارتسمت على وجهه ابتسامته المستديمة فقر قرار فلاديمير : «لسوف أخبره!» .

كانت ثمّة عربة ربط حصانها الى عمود خارج الحانوت ، وأطفال يهشون سرباً رمادياً من العصافير الخفّاقة من على اطفائية حريق . وانبعث من الشرفة الصوت الجهير الطنّان للتلميذ بوياريشكين ، وصوت آخر مشروخ أجش .

ارتقى فلاديمير درجات العتبة إلى البيت . وكانت أوراق الكروم البرّية تتمايل فوقه ، مرصعة الدرجات والشرفة ، متدلية طرّات مزبدة خضراً من رفارف السطح المنحوتة ذات الطلاء الأزرق .

كان بوياريشكين يهز رأسه الحليق ويخاطب المعلّم بالاندا ، وهو شاب ملتح رغم صغر سنّه :

ـ حينما أقرأ كتاباته أشعر بالعطف الشديد إزاء ذلك القطاع المتلاشي من المجتمع على الرغم من حقيقة كوني ابناً لقوزاقي كادح ، أي كارهاً ، بالسليقة ، لكل الطبقات المميّزة ، وحسبك أن تتصوّر ذلك . وأكاد أصبح ، أنا نفسي نبيلاً ومالكاً للأرض ، وإذ أفكّر في امرأتهم النموذجية . أشعر باللهفة إليها ، حتّى أنني احتضن مصالحهم في طيّات قلبي ، اللعنة! أجل ياصديقي ، ذلك ما يستطيع عبقري أن يفعله . إنّه يستطيع حتّى أن يبدّل عقيدتك .

فعبث بالاندا بشرابة حزامه الحريري ، وتفحّص التطريز الأحمر في طرف قميصه ، وهو يبتسم متهكماً ، وتمددت ليزا إلى الوراء على الكرسي الهزّاز ، إذ كان واضحاً أن الحديث لم يكن يلاقي أي هوى في نفسها . وجعلت عيناها ، اللتان تبدوان وكأنهما تبحثان أبداً عن شيء ما قد ضيعتاه ،

تحملقان ساهمتين في رأس بوياريشكين الأزرق المصاب بجرح من الموس .

أدّى فلاديمير انحناءة التحية لهم ومضى الى غرفة أبيه الخاصة ودق على الباب . كان سيرغي بلاتونوفتش جالساً على مقعد جلدي بارد ، يقلّب صفحات عدد حزيران لمجلة «روسكويه بوكاتستفو» . وكانت ثمّة مقطاعة ورق عظميّة مصفرة ، ملقاة عند قدميه .

ـ حسناً ، ماذا تريد ؟

فرفع فلاديمير كتفيه قليلاً وقوّم طيّات قميصه في عصبية ، وطفق يتكلّم متردّداً : «بينما كنت عائداً من الطاحونة» ، ثمّ تذكّر ابتسامة دافيد المتلامعة الساخرة ، فاستطرد بعزم ، شاخصاً الى كرش أبيه المنتفخ داخل صدريته المصنوعة من الحرير الهندي : «سمعت دافيد عامل الطاحونة يقول...» .

وأصغى سيرغي بلاتونوفتش بانتباه الى قصة ابنه ، ثم قال : «سأطرده . يمكنك أن تذهب» . ثم انحنى متأوهاً ليلتقط مقطاعة الورق .

في الأماسي ، اعتاد مثقفو القرية أن يجتمعوا في بيت سيرغي بلاتونوفتش . كان هناك بوياريشكين ، التلميذ في مدرسة موسكو التكنيكية ، وبالاندا ، المعلّم القميء الذي أكله الغرور والسل ، وخليلته المعلمة مارفا غيراسيموفنا ، ذات الوجه المستدير والقميص الداخلي الظاهر للعيان على الدوام بلا حياء ، والتي لايبدو عليها الكبر قط ، وهناك مأمور البريد ، وهو أعزب ، غريب الأطوار يفوح منه عطر رخيص ورائحة شمع الأختام ، ومن حين لآخر ، كان يأتي إليهم الملازم الأول الشاب يفغيني ليستنتسكي الذي أمضى عطلته في ضيعة أبيه . فتجلس الجماعة مساء تشرب الشاي في الشرفة ، وتتبادل حديثاً لاهدف له ، وحينما تسود فترة صمت يقوم أحد الضيوف فيدير حاكي رب البيت الثمين المطعّم .

وفي مناسبات نادرة ، أثناء الأعياد الكبرى ، كان سيرغي بلاتونوفتش تحدوه الرغبة في أن يبهر أبصارالآخرين فيدعو الضيوف ليتحفهم بالأنبذة

الغالية ، والكافيار الطازج المستورد من مدينة باتايسك لتلك المناسبة ، وأفخر المقبلات . وفيما عدا ذلك ، كان يعيش عيشة اعتدال واقتصاد . إلا أن الشيء الوحيد الذي لم يقتر فيه كان شراء الكتب ، فقد أحب القراءة ، وأراد أن يسبر غور الأشياء بعقله الذي كان سريع الالتقاط ، مثل نبات متسلّق .

أمّا شريكه ، يمليان كونستانتينوفتش اتيوبين ، وهو رجل أشقر الشعر ذو لحيه مدببة وعينين غائرتين ، فإنّه لم يكن يزور موخوف إلا لماماً . إذ كان متزوجاً من راهبة سابقة ، أنجبت له ثمانية أطفال في خمس عشرة سنة من عمر زواجهما ، ويقضي أغلب الوقت في بيته . وكان قد بدأ عمله كاتباً في الجيش ، فتفشت روح التعلّق والتذلل التي جلبها من هناك في عائلته أيضاً . فكان أطفاله يمشون على رؤوس أصابعهم في حضوره ، ويتكلمون همساً ، وكانوا يصطفون ، كل صباح بعد الاغتسال ، تحت صندوق الساعة الكبيرة الأسود المعلّق في غرفة الطعام ، وتقف أمهم وراءهم ، وما أن تطرق أسماعهم السعلة الجافة المنبعثة من غرفة النوم حتى يسرعوا في أصوات متنافرة بتلاوة «أبانا الذي» وصلوات أخر .

آنذاك ، يكون يمليان كونستانتينوفتش قد انهى ارتداء ملابسه فيبرز من غرفة النوم لحظة انتهاء الصلوات . ويضيّق عينيه الخضراوين الضئيلتين ويمد يده اللحيمة ، كما لو كان أسقفاً ، بينما يتقدّم صوبه الأطفال في صف واحد لتقبيلها ، ثمّ يقبّل كونستانتينوفتش زوجته في خدها ، ويسألها لاثغاً :

ـ بوليا ، هل الشاي جاهز ؟

ـ أجل ، يايمليان كونستانتينوفتش .

ـ صبّي لي شيئاً من الشاي القوي .

كان يمليان محاسب الحانوت . وكان يملأ الصفحات تحت العنوانين البارزين «الدائن» و«المدين» ، بخط زخرفي . وكان يقرأ نشرة «أخبار البورصة» ، مزيناً أنفه الضخم بعوينات ذهبية الإطار معلقة عليه دون أن يكون في حاجة إليها . وكان يعامل مستخدميه بأدب :

ـ إيفان بتروفتش ، من فضلك أر الزبون قماش توريدا .

أمّا قسيسا القرية ، الأب فيساريون والأب الفضيل بانكراتي ، فإنهما لم يكونا على وفاق مع سيرغي بلاتونوفتش . إذ كان لهما خصام طويل الأمد معه . ولم يكونا على وفاق مع بعضهما أيضاً .

فكان الأب بانكراتي الشكس الدساس ماهراً في خلق المتاعب لجيرانه . أمّا الأب الأرمل فيساريون ، ذو الخنة السفلسية التي تنم عن طبيعته الماجنة ، والذي عاش مع مدبرة منزل أوكرانية ، فقد نأى بنفسه عن الأخرين ، ولم يكن يحب الأب بانكراتي لغروره المفرط وطبعه الدساس .

كان للجميع ، فيما عدا بالاندا ، دور يمتلكونها . ويقع بيت موخوف ، ذو الجدران المصنوعة من ألواح الخشب المعقودة والطلاء الأزرق ، في ساحة القرية ، ويقرفص إزاءه تماماً ، في وسط الساحة ، حانوته ذو الباب الزجاجي واللافتة الباهتة : «**متجر موخوف واتيوبين**»

وتمتد لصق الحانوت سقيفة طويلة منخفضة ذات قبو ، وعلى مبعدة مائة خطوة يرتفع الحائط الطابوقي لفناء الكنيسة ، ثمّ الكنيسة نفسها بقبّتها التي تشبه بصلة خضراء ناضجة . وتأتي بعد الكنيسة حيطان المدرسة ، بيضاء نظيفة ، وذات جهامة رسمية ، ثمّ منزلان أنيقان ، أحدهما أزرق اللون ، صبغت أسيجته بطلاء أزرق ، يعود للأب بانكراتي ، والآخر بني اللون (لتفادي أي تشابه مع المنزل الأول) وله سياج حفرت عليه نقوش ، وشرفة واسعة ، ويشغله الأب فيساريون . ويليه بيت اتيوبين الغريب المظهر والمؤلف من طابقين ، ثمّ دائرة البريد ، ودور القوزاق المغطّاة بالقش والمسقوفة بالحديد ، وأخيراً تأتي مؤخرة الطاحونة المنحدرة وعلى سطحها ديوك من الصفيح الصدىء .

ويعيش سكان القرية خلف نوافذهم بصفاقات خارجية وداخلية مغلقة بالمزالج ، منقطعين عن بقية العالم ، وفي كل مساء ، إن لم تكن ثمّة زيارة

لجار ، فإن كل عائلة تقفل صفاقاتها ، وتطلق كلابها من سلاسلها في الأقنية ، ولا يعكّر الصمت إلا صوت اللسان الخشبي لمطرقة الحارس الليلي .

٢

حدث ذات يوم ، في أواخر آب ، أن التقى ميتكا كورشونوف بليزا ابنة موخوف عند النهر . وكان قد جذف لتوه عبر النهر من الجانب الآخر ، وشرع يربط قاربه حينما رأى زورقاً ذا لون بهيج يكشط سطح التيار وهو يتجه صوب المرسى من ناحية الجبل . وكان الذي يجذفه هو التلميذ بوياريشكين ، وقد تلألأ رأسه الحليق بالعرق ، وبرزت عروق جبهته وصدغيه .

في البدء ، لم يتبين ميتكا ليزا في الزورق فقد كانت على رأسها قبعة من القش ، ووجهها في الظل ، وكانت يداها الملفوحتان تضمّان الى صدرها باقة من زنابق الماء الصفر .

صاحت ، هازة رأسها صوب ميتكا :

ـ كورشونوف! لقد خدعتني .

ـ خدعتك ؟

ـ ألا تذكر ، فقد وعدت أن تأخذني لصيد السمك ؟

ألقى بوياريشكين المجذافين ، وأقام ظهره . وغرز الزورق مقدمته في الشاطىء محدثاً خشخشة .

ـ ألا تذكر ؟ ـ وتضاحكت ليزا وقفزت الى الشاطىء ، فقال ميتكا معتذراً وتقاطعت أنفاسه فيما تقدّمت الفتاة منه :

ـ لم يكن لي متسع من الوقت ، لكثرة أشغالي .

فقاطعهما بوياريشكين :

القيام بهذه الخدمة! تصوّري مدى المسافة التي قطعناها فوق هذا الماء اللعين! امتلأت يداي نفطات* . هاتي أرضاً يابسة .

وغرس بوياريشكين قدماً حافية طويلة على الشاطىء الحصباوي ، ومسح جبهته برفرف قبعته المدرسية المدعوكة . ومن غير أن تجيبه ليزا مضت نحو ميتكا الذي صافح بحركة خرقاء يدها التي مدّتها اليه .

وسألته وهي تلقي برأسها الى الوراء وتضيّق حدقتيها :

ـ حسناً ، إذن متى نذهب للصيد ؟

ـ غداً ، إن شئت . لقد أنهينا درس الحبوب ، وصار لدي متسع من الوقت .

ـ لعلّك لاتخدعني هذه المرّة ؟

ـ لا ، لا أخدعك .

ـ هل ستأتي مبكّراً ؟

ـ عند الفجر .

ـ سأكون بانتظارك .

ـ سآتيك ، بشرفي سآتيك .

ـ لعلّك لم تنس النافذة ؟

ـ سأجد طريقي اليها . ـ وابتسم ميتكا .

ـ أتوقع أنني سأرحل عما قريب . وبودّي أن أذهب الى الصيد قبل ذلك .

وعبث ميتكا وهو صامت بمفتاح قفل القارب الصدئ ، وحدّق مباشرة في شفتيها .

تساءل بوياريشكين وهو يتفحّص قوقعة في راحته : «هل ستنتهين عمّا قريب ؟» .

---

* مفردها نفطة وهي بثور ملأى بالماء تظهر على اليد بسبب العمل اليدوي . المترجمون .

ـ لحظة واحدة .

ولبثت ساكنة بعضاً من الوقت ، ثمّ تساءلت وهي تبتسم لسبب ما .

ـ لقد احتفلتم بزفاف أحد أفراد عائلتكم ، أليس كذلك ؟

ـ أجل ، زفاف أختي .

ـ ممن تزوّجت ؟

ودون أن تنتظر إجابته ، تبسّمت من جديد في غموض وعجالة ، وقالت : «تعال ، بالله عليك ، لاتنس!»

ومرة أخرى ، لسعته ابتسامتها ، كالشوكة ، تماماً كما لسعته في شرفة منزل موخوف .

ظل يراقبها حتّى بلغت الزورق . فدفعه بوياريشكين الى الماء مباعداً قدميه ، بينما تبسّمت ليزا عبر رأسه الى ميتكا ، الذي كان لايزال يعبث بالمفتاح ، وهزّت رأسها مودّعة .

وحينما ابتعد الزورق ، سمع ميتكا بوياريشكين يسألها بصوت خفيض : «من هذا الفتى ؟» .

ـ أحد معارفي .

ـ ليس شأناً من شؤون القلب ؟

ولم تبلغ إجابتها أذني ميتكا خلال صرير حلقتي المجذاف . ورأى بوياريشكين يرتمي الى الخلف ضاحكاً وهو يجذف ، لكنّه لم يستطع أن يرى وجه ليزا ، إذ كانت جالسة مديرة ظهرها له . وكان شريط قبعتها البنفسجي يتطاير خفيفاً مع النسيم ويلاطف منحدر كتفها العاري برقة متناهية أثارت نظرة ميتكا الغائمة .

لم يحدث أن استعد ميتكا لمناسبة صيد بمثل حماسة ذلك المساء وهو الذي نادراً ماكان يخرج للصيد بالعصا والخيط . فأعد قطعاً من الجل ، وغلى الذرة على النار في مزرعة الخضار ، ثم جدد الخيوط المهترئة بسرعة .

سأله ميخي الذي كان يراقبه :

ـ خذني معك ، يا ميتكا . لن تقدر أن تدبّر الصيد لوحدك .

ـ سأدبره .

فتأوه ميخي :

ـ لقد مضى زمن طويل منذ أن خرجنا معاً آخر مرة . كم تحدوني الرغبة في التمتع بسحب شبّوط يزن نصف بود* .

فقطب ميتكا وهو ينحني فوق عمود البخار الحار المتصاعد من القدر ، ولم يجب بشيء . وحينما انتهى من ذلك مضى الى البيت . كان الجد غريشاكا جالساً الى جانب النافذة ، وعلى أنفه عوينات مستديرة ذات إطار نحاسي ، وهو يقرأ في الانجيل .

وقال ميتكا متكئاً بظهره على اطار الباب : «جدّي!» .

فنظر اليه الشيخ من فوق عويناته :

ـ ها ؟

ـ أيقظني مع صياح الديك الأول .

ـ أين تقصد في هذا الوقت المبكّر ؟

ـ لصيد السمك .

كان الشيخ محبّاً للسمك ، لكنّه تظاهر بمعارضة مشروع ميتكا .

ـ قال أبوك يجب أن يُضرب القنب في الغد . وليس هناك مجال للتسكّع ولصيد السمك!

فتحرّك ميتكا عن الباب ولجأ الى المناورة .

ـ يستوي الأمر عندي . لقد أردت أن أقدّم لك وجبة فاخرة ، ولكن طالما كان علينا أن نضرب القنّب ، فلن أذهب .

فجفل الشيخ ونزع عويناته :

ـ قف . أين تراك ذاهباً ؟ سوف أكلّم والدك بالأمر . تستطيع أن

* بود مقياس وزن روسي قديم يساوي ١٦,٨ كغ . الناشر .

تذهب . غداً الأربعاء ، وستكون قطعة من السمك المملح مناسبة . طيب ، سأوقظك . امض ، أيها الأحمق ، ماالذي يجعلك تبتسم ؟

وعند منتصف الليل ، هبط الشيخ ممسكاً بسرواله الكتاني بيد وعصاه بالأخرى درجات المدخل متلمساً الطريق . وسرى مثل شبح مرتعش ، عبر الحوش صوب مخزن الحبوب ، فدلف إليه وراح يغرز عكازته في جسم ميتكا النائم . كانت رائحة الحبوب المدروسة حديثاً وذرق الفئران تختلط بالهواء العفن المفعم بنسيج العنكبوت لغرفة متروكة .

كان ميتكا نائماً على بساط بجانب مستودع القمح ، فلكزه غريشاكا بعصاه ، دون أن يستطيع إيقاظه لفترة من الوقت . شرع في البدء يلكزه برفق ، هامساً«ميتكا . ميتكا . هي ، ميتكا! هي يا سافل!» .

لكن ميتكا لم يزد على أن شخر وعقف ساقيه الى الأعلى . فأمسى غريشاكا أقل تحفظاً ، وراح يغرز العصا في بطن ميتكا . فأمسك ميتكا بطرف العصا وهو يتأوه واستيقظ فجأة .

استاء الشيخ : «ياله من نوم! نوم الحجر حقاً!» .

فتمتم ميتكا وسنان وهو يتلمّس جزمته : «هدوءاً ، يا جدّي . لا تطنطن!» .

اتخذ الفتى طريقه الى ساحة القرية . كانت الديوك قد شرعت بصياحها للمرّة الثانية . وبينما كان يمر بمنزل الأب فيساريون سمع ديكاً يخفق بجناحيه في خم الدجاج ، ويطلق صيحة قوية جديرة برئيس شمامسة الكنيسة ، بينما قوقأت الدجاجات مذعورات .

كان هناك حارس ليلي نائم على درجات عتبة الحانوت ، وأنفه مدسوس في دفء ياقته المصنوعة من جلد الغنم .

وصل ميتكا الى سور بيت موخوف ، فوضع عدة الصيد والسلة على الأرض ، وصعد درجات الشرفة على أطراف أصابعه كي لا يوقظ الكلاب . وراح يعالج سقاطة الباب الحديدية . كان الباب محكم الإغلاق . فتسلق

سياج الشرفة ومضى الى النافذة . كانت نصف مغلقة . ومن خلل الفرجة السوداء انبعثت رائحة عذبة لجسد فتاة نائم دافئ ، وفاح عطر ذكي غريب .

ـ يليزافيتا سيرغيفنا!

وخيّل لميتكا أن نداءه كان عالياً جداً . فانتظر . صمت سادر . فكّر ميتكا في نفسه وهو يمسك بإطار النافذة : «ماذا لو انني قد أخطأت النافذة ؟ ماذا لو أن موخوف نائم هنا ؟ ياللورطة! سيقتلني ببندقيته! » .

ـ يليزافيتا سيرغيفنا ، أتأتين للصيد ؟

وفكّر في نفسه من جديد : «اذا أخطأت النافذة حصلت على جزائي! » .

وقال متضايقاً :

ـ أتراك تنهضين ؟

ودس رأسه خلال فتحة النافذة .

فرن صوت خفيض مذعور في الظلام : «من هناك ؟ » .

ـ هذا أنا ، كورشونوف . أتأتين للصيد ؟

ـ آه! لحظة فقط!

كانت هناك حركة في الداخل . بدا صوتها النعسان الدافئ كأنّه يفوح برائحة النعناع . ورأى ميتكا أن شيئاً أبيض ذا حفيف يتحرّك في أرجاء الغرفة .

وقال لنفسه ورائحة غرفة النوم في منخريه : «انني أفضّل أن أنام معها على الخروج الى الصيد والجلوس في البرد » .

وبعد فترة ، ظهر وجهها الباسم عند النافذة مؤطراً بعصابة رأس بيضاء .

ـ سأخرج من هنا . اعطني يدك .

وبينما كان يساعدها على النزول ، نظرت في عينيه عن كثب .

ـ لم أتأخر عليك ، أليس كذلك ؟

ـ لا ضير ، فسنصل في الوقت المناسب .

وراحا ينزلان حدر الدون . دعكت عينيها المتورمتين من أثر النعاس بيد وردية .

ـ كنت نائمة نوماً بديعاً . وكان في مقدوري أن أظل نائمة . الوقت مبكّر للذهاب .

ـ سنصل في الوقت المناسب بالضبط .

ومضيا في أول زقاق يتفرع من الساحة متجهاً صوب النهر . وكان ماء النهرقد ارتفع خلال الليل فرفع القارب من موضعه العالي اليابس حيث ترك في المساء السابق ، وصار الآن يتمايل في الماء على مبعدة قليلة من الشاطىء .

فقالت متنهدة وهي تقيس المسافة الى القارب بعينيها :

ـ سيتعيّن عليّ أن أخلع حذائي .

فاقترح عليها ميتكا :

ـ دعيني أحملك .

ـ لا ، أفضّل أن أخلع حذائي .

ـ حملك أسهل .

فأجابت ، وكان ثمّة حرج في صوتها :

ـ أفضّل الا تفعل ذلك .

فاحتضن ميتكا ساقيها فيما فوق الركبتين ، بذراعه اليسرى ، ورفعها في يسر وخوّض في الماء . فتشبّثت ، بحركة لاإرادية ، بعمود رقبته الراسخ الأسمر ، وتضاحكت بنعومة عذبة .

لو لم يتعثّر ميتكا بحجركانت نساء القرية يستعملنه عند غسل الملابس ، لما كان هناك مجال لقبلة وجيزة عابرة . فأصدرت آهة وضغطت وجهها على شفتي ميتكا الصلبتين المتشققتين ، فتوقّف قبل القارب بخطوتين . وراح الماء يدوم فوق رقبتي جزمته مشيعاً البرودة في قدميه .

حل القارب ، ودفعة بقوّة عن الشاطئ ، ثمّ قفز اليه . وصار يجذف وهو واقف . وجعل الماء يحف تحت المؤخرة وينوح . ومضى القارب يناحر التيار

برقة ، ميمماً صوب الضفة المقابلة . وتقافزت عصي الصيد وطقطقت في قعر القارب .

وتساءلت وهي تلقي نظرة سريعة الى الخلف :

ـ أين تراك تأخذني ؟

ـ الى الجانب الآخر .

احتك بريم القارب بالشاطىء الرملي . وبلا استئذان ، التقط ميتكا الفتاة بذراعيه ، وحملها الى دغل من نبات الزعرور البرّي فجعلت تعض وجهه ، وتخمشه ، ثمّ ندّت عنها صرخة مكتومة أو صرختان ، ولمّا شعرت بقواها تخور ، بكت مغضبة ، ولكن بلا دموع...

عادا حوالي التاسعة . كانت السماءملفعة بغشاوة مخضبة صفراء ، وثمة نسيم قوي يتراقص فوق النهر ، معابثاً الأمواج . ومضى القارب يتراقص على الأمواج ، والرذاذ المزبد البارد يتلألأ على وجه ليزا الشاحب ويعلق بأهدابها وخصلات شعرها .

خاوصت عينيها الخابيتين بإعياء ، وهي تدعك بأصابعها وردة كانت قد سقطت في القارب . وكان ميتكا يجذف دون أن ينظر اليها . وعند قدميه استلقى شبّوط صغير وشلبة تفتّح فمها الجامد وتبحلق بعينين ارجوانيتين . ارتسم على وجه ميتكا تعبير اختلط فيه الاثم بالرضا والقلق .

قال لها وهو يدير القارب مع التيار :

ـ سآخذك الى مرسى سيمونوف . سيكون ذلك أقرب لك .

فهمست :

ـ لابأس .

وعلى امتداد الشاطئ المهجور ، كانت الاسيجة الصفصافية تتأوه مع الريح الحارة ، مضمّخة الهواء برائحة الدغل المحروق ، وتيجان عبّاد الشمس

الناضجة الثقيلة التي نقرتها العصافير ، قد تقوّست سيقانها كثيراً وصارت تنثر بذوراً وبرية على الأرض . وبدت أرض المروج زمرّدية بالحشيش الجديد النابت في أعقاب الحصاد . ومن بعيد كانت مهار الخيل تتواثب مرحة والريح الجنوبية الحارة تحمل صدى ضحك الأجراس المعقودة حول رقابها .

وبينما كانت ليزا تترك القارب ، التقط ميتكا سمكة ومدّها اليها قائلاً :

« هاك ، خذي الصيد » .

فرقّت أهدابها في ذعر ، لكنّها أخذت السمكة .

ـ حسناً ، انني ذاهبة .

ـ طيّب .

وامسكت بغصن اسفندان علق ميتكا عليه السمكة من خياشيمها وتولّت عنه مبتئسة . لقد خلفت وراءها عند دغل الزعرور البرّي كل اعتدادها ومرحها السابقين .

ـ ليزا!

واستدارت ، وقطبت حاجبيها في ضيق واستغراب .

ـ ارجعي ، لحظة .

وحين اقتربت ، قال وقد ضاق ذرعاً بارتباكه :

ـ كنّا مهملين قليلاً . ثوبك من الخلف... عليه بقعة . صغيرة جداً .

وغمر وجهها ورقبتها احمرار حار . وبعد لحظة صمت ، نصحها ميتكا :

ـ عودي من الطريق الخلفية .

فقالت همساً وهي تنظر الى ميتكا في ندم وكراهية مفاجئة :

ـ سيتعيّن عليّ أن أعبر الساحة ، على أية حال... كم وددت أن أرتدي تنورتي السوداء .

فاقترح ميتكا ببساطة وقد دهش لمرأى الدموع تشرق في عينيها :

ـ دعيني أخضرها قليلاً بورقة شجرة .

... كحفيف نسمة صيفية هامسة ، طار النبأ في القرية : «قضى ميتكا كورشونوف ليلة بكاملها في الخارج مع ابنة سيرغي بلاتونوفتش» . تحدّثت عنه النساء وهن يسقن ماشيتهن للالتحاق بقطيع القرية في الصباح ، أو هنّ واقفات في الظل اليسير لرافعة البئر والغبار يدوم حولهن والماء يقطر من دلائهن ، أو هنّ يضربن غسيلهن على الصخور المستوية بجانب النهر .

ـ السبب هو أن أمها متوفّاة .

ـ وليس لأبيها لحظة فراغ ، أمّا زوجة أبيها فلا تبالي .

ـ يقول الحارس أنّه رأى رجلاً ينقر على الشبّاك الاخير في منتصف الليل . ظن بادئ الأمر أن شخصاً ما يحاول الانسلال الى البيت . وهرع ليتبين من هو ، وليناديَ الشرطي ، فوجد أنّه ميتكا .

ـ بنات هذه الأيام ، لاأدري الى أي مصير يسرن . ليأخذهن الشيطان!

ـ قال ميتكا لابني نيكيتا انه سيتزوجها .

ـ خير له أن يمسح مخاطه أولاً .

ـ يقولون أنّه أكرهها على ذلك .

ـ يا...

وانسابت الشائعات في شوارع القرية ، ملطخة اسم الفتاة كما يلطّخ قطران كثيف بوابة نظيفة...

ونزلت الشائعات على رأس موخوف الاشيب نفسه وسحقته على الأرض . ظل يومين لايذهب الى الحانوت أو الى الطاحونة .

ولم يصعد الى خدمه ، الذين يعيشون في الطابق الأسفل ، الا وقت الطعام . وفي اليوم الثالث ، أمر سيرغي بلاتونوفتش أن يشد جواده الرمادي الأرقط الى عربته الخفيفة ، ومضى بها الى القصبة ، وهو ينحني ، ساهماً ، للقوزاق الذين صادفوه في الطريق . ومضت وراءه عربة حديثة الدهان مرقت خارجة من الفناء يجرها حصانان ادهمان متوثّبان ، وهزّ يميليان ، الحوذي ، حرير الأعنّة الأزرق ، وهو يمصمص غليونه ، الذي أصبح ملازماً على الدوام

للحيته الشائبة ، وانطلق الحصانان الأدهمان يتواثبان في الشارع . وكان بالإمكان أن يرى المرء ليزا تجلس ، شاحبة الوجه ، أمام ظهر يميليان الجلمودي ، وحقيبة خفيفة بين يديها ، وابتسامة حزينة على فمها ، لوّحت بقفازها لفلاديمير وزوجة أبيها الواقفين عند البوابة . وصادف أن كان بانتلاي بروكوفتش يعرج خارجاً من الحانوت في تلك اللحظة ، فتوقّف وسأل البوّاب نيكيتا : «أين تذهب ابنة السيد ؟» فأجاب نيكيتا ، وهو يرضخ لإرادة الضعف الإنساني الساذج : «الى موسكو ، للدراسة» .

وفي اليوم التالي ، وقع حادث ظل زمناً طويلاً مدار الحديث عند النهر وتحت ظل رافعة البئر ، وحين تساق الماشية للرعي......

فقبيل حلول الليل (وكان قطيع القرية قد عاد من السهب توّاً) ذهب ميتكا لرؤية سيرغي بلاتونوفتش . وقد انتظر حتّى المساء لكي يتجنّب ملاقاة أي إنسان ، لأنّه لم يأت لمجرّد زيارة ، بل ليطلب يد ابنة موخوف ، ليزا .

لقد التقى بها أربع مرّات ، لاأكثر . وفي اللقاء الأخير جرى الحديث بينهما على هذه الصورة :

ـ ليزا هل تتزوجيني ؟

ـ هراء ؟

ـ سأرعاك ، سأحبّك . لدينا أناس يعملون بدلاً عنّا ، وستجلسين الى الشبّاك وتقرأين كتبك .

ـ أنت أحمق!

فاستاء ميتكا ولم يزد . وعاد الى البيت مبكّراً ذلك المساء ، وفي الصباح اذهل أباه قائلاً :

ـ أبي ، أعد العدّة لزواجي .

ـ لاتكن أحمق .

ـ صدّقني ياأبي ، لست مازحاً .

ـ مستعجل ، أليس كذلك ؟

ـ حان الوقت .

ـ بمن ابتليت... بمارفا المجنونة ؟

ـ ابعث بالخاطبين الى سيرغي بلاتونوفتش .

فوضع ميرون غريغوريتش بهدوء أدوات السكافة التي كان يصلح بها عناناً ، وزأر بالضحك .

ـ إنّك ذو مزاج مرح اليوم ، ياولدي .

لكن ميتكا أصر على رأيه ، فانفجر أبوه غاضباً :

ـ أيها الأحمق! إن لدى سيرغي بلاتونوفتش رأس مال يبلغ أكثر من مائة ألف روبل . إنّه تاجر ، فمن أنت ؟ اغرب عن وجهي ، والا جلدتك بهذا العنان .

ـ ونحن أيضاً لدينا أربعة عشر زوجاً من الثيران ، ولنا أرض انظر ما أكبرها . ثم أنّه ليس من أصل رفيع بينما نحن قوزاق .

فقال ميرون غريغوريتش باقتضاب ، اذ لم يكن يميل الى النقاش الطويل : «اغرب عن وجهي!» .

لم يجد ميتكا له مستمعاً متعاطفاً معه غير جده . واتجه العجوز الى ولده وهو يعرج وينقر بعصاه الارض .

ـ ها ؟

ـ لم تعارض ؟ مادام الولد مصرّاً على مانوى عليه...

ـ ياأبي ، أنت طفل كبير ، وحق الله أنّك كذلك . إن ميتكا غبي بما فيه الكفاية ، أمّا أنت ف...

ـ امسك لسانك! ـ وضرب العجوز الأرض بعصاه . ـ ألسنا أنداداً لهم ؟ ينبغي أن يعتبر زواج ابن قوزاقي من ابنته شرفاً له . إنّه سيرضخ ، وعن طيب خاطر أيضاً . فنحن معروفون في كل أنحاء الريف . لسنا فقراء بل نملك ثروة . اذهب واطلب يد ابنته ياميرون . ماالذي يمنعك ؟ وليعطنا طاحونته صداقاً . اطلب منه .

فزنخر ميرون غريغوريتش وخرج الى الفناء . وهكذا انتظر ميتكا حتّى حلول المساء ، ثمّ ذهب الى موخوف نفسه . كان يعلم بأن عناد أبيه مثل شجرة دردار راسخة الجذور قد تستطيع أن تحنيها ، ولكنّك لن تقدر أن تكسرها أبداً . فلا جدوى من المحاولة .

مضى يصفر الى أن وصل باب بيت موخوف الامامي ، ثم صار يتهيّب . تلكّأ قليلاً ، وأخيراً مضى عبر الفناء الى الباب الجانبي . وعلى درجات العتبة ، سأل خادمة تخشخش بمئزرها المنشّى : «هل السيد في البيت ؟» فأجابت : «يشرب الشاي . انتظر» .

وجلس ميتكا وراح ينتظر . أشعل سيكارة ، دخّنها ، وأطفأها بأصابعه المبللة باللعاب ، ثم سحق عقبها على الأرض .

خرج موخوف وهو يزيل فتات البسكويت من على صدريته . وحين رأى ميتكا ، تجهّم وجهه ، ولكنّه قال له : «ادخل» .

فدخل ميتكا الى غرفة موخوف الخاصة الباردة ، التي تنبعث منها رائحة التبغ والكتب ، وهو يشعر بأن الشجاعة التي أبداها حتّى ذلك الحين لم تكن إلا بالقدر الذي يتلاشى عند باب المكتب . مضى التاجر الى منضدته ، واستدار على عقبهِ بصرير : «حسناً ؟» . كانت أصابعه تخربش سطح المنضدة وراء ظهره .

ـ لقد جئت لأعرف... ـ وغاص ميتكا على الدبق البارد في عيني موخوف النفاذتين ، فاقشعر بدنه : ـ ربّما ستعطيني ليزا ؟

وتحالف اليأس ، والغضب ، والخوف ليملأ وجه ميتكا بحبّات العرق الصغيرة كالندى أيام الجدب .

ارتعش حاجب موخوف الأيسر ، وانثنت شفته العليا عن اللثة . واشرأب بعنقه وأمال جسمه برمّته الى الأمام .

ـ ماذا ؟ ماذ... .ذ... .ذا ؟ أيها الوغد! اخرج! سأجرّك الى الاتمان! ياابن العاهرة! ياوغد!

وبعث صياح موخوف الشجاعة في ميتكا ، فجعل يراقب الدم الرمادي المزرق يفيض من وجنتي موخوف .

ـ لا تعتبر ذلك إهانة . أنا لم أرد سوى أن أعوّض عمّا فعلت .

فرفع موخوف الى أعلى عينيه المنتفختين بالدمع والدم ، وألقى منفضة سكائر معدنية عند قدمي ميتكا ، فقفزت من على الأرض وارتطمت بركبته . لكنّه تحمّل الألم برباطة جأش ، وفتح الباب بقوّة ، وصاح مكشّراً عن أسنانه بغيظ وألم :

ـ كما تشاء ياسيرغي بلاتونوفتش ، كما تشاء ، لكنني عنيت ماقلت... لعمري من ذا يريدها الآن ؟ ظننت أنني سأستر عارها . أمّا الآن... . فحتّى الكلب لن يمس عظمة مقضومة .

انطلق موخوف في أعقاب ميتكا وهو يضغط منديلاً مدعوكاً على شفتيه ، وسد عليه الطريق الى الباب الرئيسي فجرى ميتكا صوب الفناء . وهنا لم يكن من السيد سوى أن غمز للحوذي يميليان ، وبينما كان ميتكا يعالج مزلاج البوابة الضخم ، انطلقت أربعة كلاب مطلقة الاسار تنبح من وراء زاوية مخزن الحبوب . وحينما وقع نظرها على الغريب ، اسرعت نحوه رأساً متوثّبة عبر الفناء المكنوس .

في عام ١٩١٠ ، عاد سيرغي بلاتونوفتش بزوج من الجراء السود ذات الشعر المجعّد ، من المعرض في نيجني نوفغورود . وخلال عام من الزمن شبّ هذان الجروان الاسودان الأجعدان ذوا الفم الكبير ، كما تشبّ العجول الحولية . كانا في البدء ، يتخاطفان تنورات النساء اللواتي يمررن بفناء موخوف ، ثم تعلّما جر النساء الى الأرض وعض سيقانهن ، ولم يأمر سيرغي بلاتونوفتش بتقييدهما بالسلاسل الا بعد أن قتلا عجل الأب بانكراتي وزوجاً من خنازير اتيوبين . أمّا الآن فلم يطلق الكلبين من قيودهما إلا أثناء الليل ، ومرّة كل ربيع للتناسل .

قبل أن يستطيع الالتفات كان أول الكلاب قد قفز الى كتفيه ، واسنانه

مغروسة في سترته . وتناهشته الكلاب السود المهتاجة وراحت تمزّقه ، فجعل ميتكا يصدّها عنه بضراوة محاولاً الحفاظ على توازنه . ورأى يميليان يختفي داخل المطبخ ، وغليونه ينثر الشرر ، وسمع الباب ينصفق وراءه .

وعند الدرجات ، وقف سيرغي بلاتونوفتش ، وظهر مسند على انبوب تصريف الماء ، وقد تقلّصت قبضتاه البيضاوان المشعرتان . أمّا ميتكا فقد ظل يتمايل ويترنّح حتّى استطاع أن يفتح البوابة ، جاراً خلفه ثلة الكلاب المزمجرة لاهبة الأنفاس وهي تتدافع على ساقيه النازفتين . فأمسك أحدها من بلعومه وخنقه . واستطاع قوزاق عابرون أن يطردوا البقية بشق الأنفس .

٣

انسجمت ناتاليا مع أهل زوجها خير انسجام . فقد ربّى أبوها أبناءه على العمل ، بالرغم من أنّه كان موسراً ويستخدم عمّالاً . وسرعان ماكسبت ناتاليا المجتهدة قلب والدي زوجها ، ومالت اليها الينيشنا منذ البداية ، وهي التي كانت في دخيلتها لا تحب كنّتها الكبرى ، داريا الشغوفة بالملابس .

وقد تدمدم على ناتاليا برقة ، وهي تشاغل نفسها في المطبخ واقفة على ساقيها الضخمتين : «نامي ، نامي أيتها الصغيرة! فيم تخرجين في هذا الوقت المبكّر ؟ عودي الى الى الفراش ، وسندبّر الأمور بدونك» .

وتعود ناتاليا ، التي استيقظت منذ الفجر لتعين الآخرين في المطبخ ، فتمضي الى حجرتها لتستأنف نومها .

حتّى بانتلاي بروكوفتش ، الصارم عادة فيما يتعلّق بشؤون المنزل ، كان يقول لزوجته : «اسمعي ، ياامرأة ، لا توقظي ناتاليا . فهي بدون ذلك تكدح بما فيه الكفاية وستذهب اليوم مع غريشا للحراثة . ولكن استعجلي داريا تلك . فهي امرأة كسول وسيئة ، تطلي وجهها وتزجج حاجبيها ، العاهرة» .

ـ لنجعل أعباءها خفيفة خلال العام الأول ـ وتنهدت ايلينشنا متذكرة حياتها التي قصمت ظهرها بالعمل المرهق .

بدأ غريغوري يألف وضع الزواج الجديد ، لكن ما أن مضى اسبوعان أو ثلاثة حتّى أدرك ، بخوف وحقد ، أنّه لم يبرأ تماماً من حب اكسينيا . كان ثمّة شيء قد تخلّف في قلبه ، كالشوكة ، وما كان للألم أن يزول بسرعة ، والشعور ، الذي أزاحه في فورة الزواج بتلويحة لامبالية من يده ، كان شعوراً عميق الجذور . لقد ظنّ أنّه قادر على نسيانه ، لكنّه أبى أن يغيّبه النسيان ، وظل الجرح ينزف دماً . وحتّى قبل الزفاف ، سأله بيوتر وهما يدرسان الحبوب سويّة :

ـ ولكن ، ياغريشا ، ماذا عن اكسينيا ؟

ـ حسناً ، ماذا عنها ؟

ـ ألن تأسف لهجرها ؟

فأجاب غريغوري ضاحكاً : «سيلتقطها رجل آخر» .

فقال بيوتر وهو يقضم ذؤابة شاربه التي كان يلوكها : «طيب ، أنت أحسن العارفين» وأضاف : «قد تندم بعد زواجك» .

فأجاب غريغوري مازحاً : «يشيخ الغرام وتبرد الأجسام» .

لكن الأمور لم تجر على هذا النهج . فبينما كان يلاطف في الليالي زوجته كما يجب على زوج ، محاولاً أن يلهبها بحيويته الفتية هو ، لم يكن يلقى الا بروداً واستسلاماً مرتبكاً من جانبها . كانت ناتاليا تنفر من الملذات الجسدية ، فقد ورثت بعضاً من دم أمّها البارد البطيء ، وكان غريغوري يتنهّد كلّما يتذكّر شبق اكسينيا اللهّاب .

ـ لابد أن اباك ياناتاليا أحبل بك أمّك على الثلج . إنّ في جسمك من البرودة ما يكفي ويزيد .

واذا التقى باكسينيا ، تبسمت له بغموض وادلهمّ بؤبؤ عينها ، وعلقت كلماتها به كما يعلق الطين في قاع جدول .

ـ مرحباً ، غريشا! كيف هو الحب مع زوجتك الشابة ؟

فيجيبها غريغوري متملصاً : «لابأس» ، ويهرب من نظرتها المغازلة بأسرع مايستطيع .

صار واضحاً أن ستيبان قد سوّى خلافه مع زوجته ، فقد قلّ تردده على الحانة ، واقترح ذات مساء ، وهو يذري الحبوب على ساحة الدرس ، وذلك لأوّل مرّة منذ بدأت المشاكل : «لنغن أغنية ، يا اكسينيا!» فجلسا ، وظهراهما الى كومة من القمح المدروس المغبّر ، وبدأ ستيبان نشيداً عسكرياً ، واشتركت معه اكسينيا بملء صوتها الخفيض . غنيا معاً بصورة حسنة ، كما كانا يفعلان في السنين الأولى لحياتهما الزوجية ، حينما اعتادا أن يرجعا من الحقول ، تحت الذؤابة القرمزيّة لوهج الغروب ، فيجلس ستيبان على الحمولة يغنّي أغنية قديمة ، طويلة حزينة كذلك الطريق الموحش المهجور عبر السهب . فتلتقط اكسينيا اللحن ، ورأسها مستكين على الثنيات المنتفخة في صدر زوجها . وتمضي الخيل تجر العربة الصارة ، ويتراقص العريش صاعداً هابطاً . ومن بعيد يصغي شيوخ القرية الى الأغنية .

ـ إن لها صوتاً بديعاً ، زوجة ستيبان تلك .

ـ أي نعم ، غناء جميل .

ـ أي صوت هو صوت ستيبان ، صافٍ كالجرس .

وبينما كان الشيوخ يجلسون على المصطبات بالقرب من بيوتهم مراقبين الغروب القرمزي المغبر ، مضوا يتبادلون عبر الشارع تعليقاتهم حول الأغنية ، وأصلها وأولئك الذين أحبّوها من قبل .

سمع غريغوري الزوجين استاخوف يغنيان ، وبينما كان يدرس الحبوب (وساحتا درس الحبوب متلاصقتان) استطاع أن يرى اكسينيا معتدّة بنفسها كما كانت في السابق ، متظاهرة بالسعادة ، أو هكذا بدت الحال له .

لم يكن ستيبان يتبادل التحية مع آل ميليخوف . فظل يعمل في ساحة

الدرس مؤرجحاً كتفيه الجسيمين المتهدلين ، ملقياً لزوجته أحياناً تعليقاً هزليّاً ، فتستجيب له مبتسمة وعيناها السوداوان تومضان . وما فتئت تنورتها الخضراء تحوم أمام عيني غريغوري المغمضتين ، ورقبته تنثني بفعل قوة غريبة تدير رأسه في اتجاه فناء ستيبان . ولم يلاحظ أن ناتاليا ، التي كانت آنذاك تساعد بانتلاي بروكوفتش في نشر الحزم تمهيداً لدرسها ، كانت تقتنص كل رمقة نظر لاإرادية بنظرتها المتشوقة الغيور ، ولم ير بيوتر ، الذي كان يقود الخيل في ساحة الدرس وقد تجعّد وجهه بابتسامة صغيرة فيما كان يراقب أخاه .

وتأوهت الأرض تحت الثقل المرهق للدرّاسات الحجرية ، وحاول غريغوري ، أثناء هذا الضجيج أن يتلمّس ، في عقله نتف الأفكار التي انزلقت ، زائغة ، من مجال وعيه ، لكنّه لم يفلح .

من ساحات الدرس القريبة أو البعيدة انبعثت جلبة الدرس : صيحات سائقي الخيل ، صفير السياط ، وخشخشة الغرابيل ، واستلقت القرية تتشمّس في دفء أيلول المعتدل ، وقد أسمنها الحصاد ، وارتخت على امتداد الدون ، مثل ثعبان ملقى عبر الطريق . وفي كل فناء ، بسياجه المصنوع من أغصان الاسفندان ، وتحت كل سقف قوزاقي دارت حياة ، حافلة بالحلاوة والمرارة تدوم وتدوم منفردة ومنعزلة عن الآخرين . غريشاكا العجوز أصابه برد وكان يعاني من أسنانه ، وموخوف ينشب أظفاره في لحيته ، وقد سحقه عاره ، يبكي في وحدته ويصرف بأسنانه ، وستيبان يهدهد في قلبه حقده على غريغوري ويمزّق في نومه لحافه بأصابعه الحديدية ، وتجري ناتاليا الى السقيفة ، وترمي نفسها على كومة جل البقر تهتز وتتكوّر ، وهي تبكي سعادتها المدنّسة ، وكريستونيا الذي كان قد باع عجلاً في المعرض ، وصرف ثمنه على الشراب يعذّبه ضميره ، وغريغوري يتأوّه تحت عبء توجّس وألم متجدّد ، واكسينيا تغرق كراهيتها الأبدية لزوجها في دموعها كلّما لاطفته .

وكان دافيد قد فصل من الطاحونة وصار يجلس ، ليلة تلو ليلة ، مع«الولد » في مأوى سائقي العربات ، فيما كان«الولد » يعلن ، وعيناه الغاضبتان تومضان بالشرر :

ـ حسبك أن تنتظر! ستقطع رقابهم عمّا قريب . إن ثورة واحدة لم تكن كافية . انتظر حتّى تكون لنا ١٩٠٥ أخرى ، وآنئذ سنسوّي الحساب! ـ ويهز أصبعه الاندب متوعداً ، وبهزّة من كتفيه يصلح من وضع سترته الملقاة عليهما .

وتمر الأيام سراعاً على القرية ، والليالي ، وتنساب الاسابيع ، وتزحف الشهور ، وتولول الريح فوق التل منذرة بأنواء سيئة قادمة ، وينساب الدون ، الى البحر من غير ماكتراث وقد صقلته زرقة الخريف المخضوضرة الرائقة .

٤

ذات أحد في أواخر تشرين الاول ، ركب فيدوت بودوفوسكوف عربته الى القصبة .

وأخذ معه ثماني من البط السمين وباعها في السوق ، فابتاع لزوجته شيئاً من القماش القطني المطبوع ، واذ همّ بالعودة (وكان يشد مقود الرقبة وقد وضع قدماً على العجلة) تقدّم اليه غريب يبدو عليه أنّه ليس من تلك الديار .

حيّا فيدوت واضعاً يداً ملفوحة على حافة قبعته السوداء قائلاً : « مرحباً » .

فقال فيدوت : « مرحباً » وتمهّل مستفهماً وهو يضيّق عينيه الكالميكيتين .

ـ من أين أنت ؟

ـ من قرية من القرى .

ـ وأي قرية تراها قريتك ؟

ـ تاتارسكي .

أخرج الغريب علبة سكائر فضّية من جيبه (وعلى غطائها نقش زورق) وقدّم سيكارة لفيدوت واستطرد يلقي أسئلته :

ـ وهل قريتك كبيرة ؟

ـ لا ، شكراً ، دخّنت واحدة تواً . قريتنا كبيرة جداً ثلاثمائة عائلة ، أو حوالي ذلك .

ـ وهل توجد فيها كنيسة ؟

ـ بلا ريب .

ـ وهل ثمّة حدّادون فيها ؟

ـ نعم ، يوجد محل حدادة .

ـ وهل هناك ورشة في الطاحونة ؟

شد فيدوت العنان الى لجام الحصان ، ونظر بريبة الى قبعة الرجل السوداء والى تجاعيد وجهه الأبيض العريض تحف به لحية سوداء قصيرة .

ـ ماذا تريد أن تعرف ؟

ـ أنا قادم للعيش في قريتكم . كنت للتو عند أتمان المنطقة . أعائد أنت لقريتك فارغ العربة ؟

ـ أي .

ـ هل تأخذني معك ؟ لست وحدي . فلي زوجتي وصندوقان كبيران .

ـ بوسعي أن آخذك .

وبعد أن اتفقا على الأجرة . ركبا الى فروسكا الخباز حيث نزل المسافر عنده ، واخذوا زوجة الرجل الشقراء النحيفة ، ووضعوا الصندوقين في الخلف ، وانطلقوا في رحلة العودة . وجعل فيدوت يلوي رأسه النحيل مستديراً من حين لآخر ، وهويطقطق بلسانه للحصان ويلسع بالأعنّة المضفورة ، كان الفضول يمزّقه . أمّا المسافران فقد جلسا وراءه هادئين ، وفي البدء طلب فيدوت سيكارة ، ثم تساءل :

ـ من أين أنت ؟

ـ من روستوف .

ـ واحد منهم .

ـ ماذا قلت ؟

ـ هل ولدت هناك ؟

ـ م... م... نعم .

وجعّد فيدوت خدّيه البرونزيين وشخص ببصره الى الأجمات البعيدة لحشيش السهب . وبدأ الطريق يرتفع ، وعلى مبعدة نصف فرست منه ، وفي الدغل الرمادي الاشمر عند قمة المرتفع ، شخصت عينا فيدوت المجربتان الى حركات رؤوس طيور الحباري التي لاتكاد ترى .

فتنهد مؤشراً باصبعه : «وا أسفاه ، ليست معي بندقية ، وإلا لمضيت لصيد الحباري . هاهي تتحرّك » .

فأجاب مسافره وهو يطرف بعينيه عن قصر نظر : «أنا لا أرى شيئاً » .

راقب فيدوت الحباري تهبط في وهدة ، ثمّ ثنى نفسه مستديراً ليتفحّص مسافريه عن كثب أكثر . كان الرجل متوسّط الطول ، إلا أنه نحيل ، وكان في عينيه المتقاربتين بريق دهاء ، وكثيراً ما كان يبتسم أثناء كلامه . أمّا زوجته فقد تلفّعت بشال محاك وغلبها النعاس فلم يستطع فيدوت أن يرى وجهها .

ـ ما الذي يدعوك الى الإقامة في قريتنا ؟

ـ انني ميكانيكي . وأنا أنوي فتح ورشة . واستطيع أن أقوم بأعمال النجارة أيضاً .

فحملق فيدوت مرتاباً في كفّي الرجل الضخمتين ، وأضاف الغريب لما لحظ نظرته : «أنا وكيل شركة« سنجر » لماكينات الخياطة ، أيضاً » .

فسأله فيدوت : «وما اسمك ؟ »

ـ شتوكمان .

ـ لست روسيّاً ، اذن ؟

ـ بلى ، أنا روسي . لكن جدّي كان لتوانياً بالمولد .

وسرعان ماعرف فيدوت أن أوسيب دافيدوفتش شتوكمان قد اشتغل في السابق في مصنع ، ثمّ في مكان ما في الكوبان* ، ثمّ في معامل سكّة الحديد الجنوبية الشرقية . واستدر فيدوت الفضولي عدداً كبيراً من الحقائق تتعلّق بحياة الغريب .

وبعد فترة من الزمن ، فتر الحديث . ثمّ أورد فيدوت حصانه العرق من نبع على جانب الطريق ، وبدأ ينعس من أثر الرحلة وخضّات العربة . ولم تبق إلا مسافة قصيرة حتّى يصلوا القرية . فلف فيدوت الأعنّة حول يده ، واضطجع وقدماه متدليتان . لكنّه لم يجد فرصة للنوم اذ سأله شتوكمان ، وهو يرتجّ ويتمايل مع حركة العربة :

- كيف هي الحياة في دياركم ؟

- ليست رديئة جداً . لابأس .

- والقوزاق عموماً ، هل هم راضون عن حياتهم ؟

- بعضهم راض ، وبعضهم غير راض . لن تستطيع أن ترضي كل الناس .

فقال الرجل موافقاً : « هذا صحيح » واستأنف اسئلته الماكرة المكنونة .

- تقول إنكم تعيشون عيشة طيبة ؟

- عيشة طيبة .

- لابد أن التدريب العسكري السنوي يزعجكم ؟ هه ؟

- التدريب العسكري ؟ لقد اعتدنا عليه . لاشيء يقلقك حينما تكون في الجيش .

- ولكن من الصعب عليكم ، وأنتم القوزاق ، أن تجهزوا كل عدتكم .

- صحيح ، اولاد الخنازير .

قال ذلك فيدوت بحماس مفاجىء ، ونظر قلقاً في زاوية عينيه الى المرأة ، فحوّلت عينيها عنه .

---

* الكوبان : إحدى المناطق القوزاقية . المترجمون

ـ إن سلطاتنا شرذمة دنيئة... . حينما ذهبت لأداء خدمتي العسكرية بعت ثيراني واشتريت حصاناً ، ولكنهم رفضوه .

فقال الغريب في دهشة مفتعلة : «رفضوه ؟»

ـ رفضوه بالمرة . قالوا أن سيقانه غير صالحة . ناقشتهم وحاولت كل ما في وسعي . قلت لهم : ـ«إن له سيقان جواد سباق لكن مشيته تشبه مشية الديك» . إلا أنهم لم يقبلوا به . إن هذا كفيل بخراب بيتك .

واستمر الحديث حاراً . وقفز فيدوت من العربة وشرع يتحدّث عن حياة القرية بانطلاق . فلعن أتمان القرية لطريقة تقسيمه الضيزى لأرض المروج ، وامتدح مجرى الأمور في بولنده حيث عسكرت كتيبته . ومضى شتوكمان يدخن سكائر خفيفة التبغ بمبسم سكائر عظمي ذي حلقات ، وهو يلقي نظرات سريعة حادة الى فيدوت من عينيه الضيقتين ويبتسم مراراً ، لكن اخدود التقطيب في جبهته المائلة البيضاء كان يتحرّك ببطء وثقل ، وكأن أفكاراً خفيّة تحرّكه .

وصلوا القرية في المساء المبكّر . وبناء على نصيحة من فيدوت ذهب شتوكمان الى الأرملة لوكيشكا واستأجر منها غرفتين .

وسألت النساء فيدوت فيما كان يصل بعربته الى بوابته : «من ذا الذي جئت به ؟»

ـ وكيل .

ـ أي نوع من الوكلاء ؟

ـ أنتن حمقاوات ، هذه لعمري حقيقتكن ، قلت ، وكيل ، يبيع الماكينات . إنّه يهبها الى الجميلات ، أمّا لمن كان على شاكلتك ، أيتها العمة ماريا ، فإنّه يبيعها بثمن .

ـ انظر الى نفسك ، أيها الشيطان . إن خرطومك الكالميكي قبيح بما يكفي لبث الرعب في حصان!

فتملّص فيدوت قائلاً : «الكالميكيون والتتار كانوا أوّل من قدم الى السهب ، فلا تستهزئي بهم» . نزل الميكانيكي شتوكمان عند لوكيشكا

الحولاء ذات اللسان الطويل . ولم تكن الليلة تمضي حتّى كانت جميع ألسنة النساء في القرية تتلمّظ بالنبأ .

ـ هل سمعت الخبر ، ياجارتي ؟

ـ أي خبر ؟

ـ فيدوت الكالميكي جاء بأجنبي الى القرية .

ـ حقّاً ؟

ـ فليعنّي الله . إنّه يرتدي قبعة ، واسمه شتوبل أو شتوكال... .

ـ لعلّه من رجال الشرطة ؟

ـ لا ، إنّه جابي ضرائب .

ـ كلها أكاذيب ، ياعزيزتي . إنّه كاتب حسابات ، مثل ابن الأب بانكراتي تماماً .

ـ باشكا ، ياحمامتي ، اجري الى لوكيشكا واسأليها بهدوء «من ذا الذي ينزل لديك ياعمّتي ؟ »

ـ اجري سريعاً ، ياعزيزتي!

في اليوم التالي ذهب شتوكمان الى اتمان القرية . فقلب فيدور مانيتسكوف ، الذي كان أتماناً للعام الثالث ، جواز مرور القادم الجديد مرة أخرى ، ثم سلّمه الى الكاتب الذي جعل يقلبه ، هو الآخر ، مرة أخرى ، تبادلا النظرات ، ثم هزّ الاتمان ، الذي كان رئيساً للعرفاء ذات يوم ، يده في حركة متعالية .

ـ بوسعك أن تقيم .

فانحنى القادم الجديد وغادر الغرفة . وبقي اسبوعاً لايطل بأنفه خارج منزل لوكيشكا ، مثلما ينزوي سنجاب برّي في جحره . وكان بالإمكان سماع ضربات فأسه وهو يعد ورشة في المطبخ الخارجي الصيفي المتداعي . ثمّ تلاشى اهتمام النساء به ، الا الأطفال ، فقد كانوا يقضون النهار بطوله يسترقون النظر من على السياج ويراقبون الغريب بفضول غير متهيّب .

٥

قبل عيد الشفاعة بثلاثة أيام خرج غريغوري وزوجته في العربة الى السهب للحراثة . كان بانتلاي بروكوفتش متوعك الصحة ، فناء بكلكله على عصاه في الحوش ليودعهما وهو يئن من جراء ألم في ظهره .

ـ احرث الرقعتين الواقعتين على الجانب الآخر من الأرض المشاعة ، قرب«الأخدود الاحمر» ، ياغريشا .

فتساءل غريغوري في همس مبحوح ، إذ أصابه برد أثناء الصيد ، وقد لف بلعومة بقطعة قماش :

ـ طيّب وماذا عن الرقعة الواقعة الى جانب «ضفّة الصفصاف» ؟

ـ يمكن لهذه أن تنتظر الى مابعد العيد . سيكون لك ما يكفيك من العمل في الوقت الحاضر ، فلا تكن طمّاعاً .

ـ وهل سيأتي بيوتر لمساعدتي ؟

ـ إنّه ذاهب الى الطاحونة مع داريا . نريد أن ننتهي من الطحن قبل أن تتزاحم الجموع .

وهمست ايلينشنا وهي تضع الفطائر الطازجة في سترة ناتاليا :

ـ ربّما تريدين أن تصحبي دونيا معكما لتقود الثيران ؟

ـ اثنان يكفيان .

ـ طيب ياعزيزتي . ليكن المسيح في عونكما .

ومرت دونيا في طريقها الى الدون لشطف الملابس . وقوامها النحيف ينوء تحت الحمل الثقيل للغسيل المبلل ، وبينما كانت تمر صاحت على ناتاليا :

ـ ناتاليا ياعزيزتي ، هناك الكثير من نبات الحمّيض في«الأخدود الأحمر» . اقلعي بعضاً منه ، واجلبيه لنا .

ـ بالطبع .

فقال بانتلاي بروكوفتش وهو يهز عصاه نحو دونيا :

ـ هيّا ، امضي من هنا ، ياثرثارة!

سحبت ستة ثيران المحراث المقلوب خارج الفناء ، وهي تحفر الأرض التي تصلّبت من الجدب الخريفي . ومضى غريغوري يسير على امتداد جانب الطريق وهو يسعل ، ومافتىء يعدل منديل رقبته . ومشت ناتاليا الى جانبه ، وعلى ظهرها يتأرجح كيس وضع فيه طعام .

تلفّع السهب بسكون بلوري . وكانت التربة ، وراء الأرض المشاعة ، على الجانب الآخر من التل المحدودب ، لقد مشطتها المحاريث ، وكان السواق يصفرون ، ولكن على امتداد الطريق لم يكن ثمة سوى زرقة شهباء لنبات شيح قميء ، وبرسيم بريّ قضمته الأغنام ، تعلوه سماء باردة صافية مرنانة ، تتقاطع عليها خيوط متطايرة لنسيج عنكبوت متلامع .

وحين ابتعد الحارثان الماضيان الى السهب ، استعد بيوتر وداريا للذهاب الى الطاحونة . فغربل بيوتر الحنطة في مخزن الغلال ، وعبأتها داريا في زكائب حملتها الى العربة . وشدّ بانتلاي بروكوفتش الخيل مسوّياً الاعنّة باعتناء .

ـ هل ستبطئ كثيراً ؟

فأجاب بيوتر من المخزن : «ها أنا قادم» .

* * *

حينما وصلا الطاحونة وجدا الفناء مزدحماً بالعربات وكان القبّان محاطاً بجمع حاشد . فألقى بيوتر الأعنّة الى داريا وقفز من العربة . وسأل الولد ، القبّاني :

ـ هل سيأتي دوري عمّا قريب ؟

ـ سيأتي .

ـ دور من ، الآن ؟

ـ رقم ثمانية وثلاثين .

واستدار بيوتر ليأتي بزكائبه . وبينما كان يفعل ذلك سمع سباباً وراءه . ونبح صوت أجش مغضب : «أنت تستغرق في النوم أكثر مما يجب ، ثم تريد أن تسبق دورك . تنح ، ياخوخول* ، والا سألقّنك درساً » .

وتبين بيوتر صوت ياكوف نعل الحصان** فتوقّف لينصت . علا الصياح في غرفة القبّان . ثم انبعثت طقة لطمة حادة ، وإذا بأوكراني كهل ملتح يطير الى الخارج من خلال المدخل ، وقد خبطت قبعته على مؤخرة رأسه .

وصاح ممسكاً بخدّه : «لم هذا ؟ »

ـ سألوي رقبتك!

ـ لكن ، اسمع.... .

ـ ميكيفور ، النجدة!

أمّا ياكوف نعل الحصان ، وهو مدفعي قوي البنية . اكتسب كنيته هذه لما تركته رفسة حصان من أثر على وجهه ، فقد اندفع خارجاً من غرفة القبّان وهو يثني أكمامه الى الأعلى . وتبعه أوكراني طويل ، يرتدي قميصاً ورديّاً ، وهوى بضربة ثقيلة عليه . لكن ياكوف صمد على قدميه ، وصرخ :

ـ ايها الاخوان ، إنهم يضربون القوزاق!

فجاء عدد ضخم من القوزاق والاوكرانيين من الطاحونة يركضون من كل صوب الى الفناء المزدحم بالعربات . وبدأت معركة قرب المدخل الرئيسي ، فانخلع الباب تحت ضغط الأجسام المتقاتلة . وألقى بيوتر زكيبته عنه وانطلق بخفة صوب الطاحونة . ورأته داريا ، وهي منتصبة على العربة ، يندفع الى وسط المعركة ، دافعاً الآخرين جانباً . وتأوهت حين رأته يُحمل الى حائط

---

* خوخول ؛ اصطلاح يقال للأوكراني يراد بها الإهانه . المترجمون

** نعل الحصان ؛ كنية ياكوف ، كما أن« الولد » كنية دافيد . المترجمون

الطاحونة ويطرح أرضاً ويداس تحت الأقدام . وجاء ميتكا من حجرة الماكنة متوثباً حول الزاوية ملوّحاً بقضيب حديدي . وانطلق الاوكراني ، الذي ضرب ياكوف من الخلف خارجاً من الحشد المقاتل ، وكمه الوردي الممزّق يخفق وراءه كجناح طير مهيض . فانثنى على نفسه حتى لامست يداه الأرض وجرى الى أقرب العربات وانتزع محوراً منها كما لو كان عود ثقاب . وجلجلت صرخات مبحوحة فوق الفناء . صوت تهشيم . ضربات . أنين . زئير صياح مستديم .

وجاء الأخوان شوميلين الثلاثة راكضين من دارهم . وتعثرت قدم اليكسي الأقطع بزوج من الأعنّة كان ملقىً على الأرض ، فوقع ارضاً بالقرب من البوابة . ثم قفز واقفاً . ومضى ينط عبر محاور العربات المصفوفة ، ضاغطاً كمه الأيسر الخالي من الذراع على معدته . وانحنى أخوه مارتن ليدس ساق بنطلونه الذي خرج من جوربه الأبيض . وارتفع الصياح في الطاحونة بالغاً أوجه... وأطلق أحدهم صرخة علت فوق سقف الطاحونة مثل خيط عنكبوت في مهب الريح ، واستقام مارتن وراء أخيه .

وقفت داريا تراقب المعركة من العربة ، وهي تلهث وتعصر يديها ، ومن حولها كانت نسوة ينحن ويزعقن ، والخيل تنصب آذانها مضطربة ، والثيران تخور وتتدافع على العربات . ومر موخوف وهو يمشي الهوينا ، زاماً شفتيه ، شاحب الوجه ، وكرشه يتأرجح ، صاعداً هابطاً ، وكأن بيضة وضعت فوق صديريته . ورأت داريا الاوكراني ذا القميص الممزّق يهوي بالمحور على ميتكا كورشونوف بضربة قاصرة ، وفي اللحظات التالية كان هو نفسه قد تلقى لكمة مسددة من قبضة اليكسي الحديدية طرحته أرضاً . ومرّت المشاهد أمام عيني داريا مثل نتف من سجادة ملوّنة . ثم رأت ميتكا الجاثي ، دون أن تأخذها الدهشة ، يحصد ساقي موخوف من تحته بالقضيب الحديدي ، ففرد موخوف ذراعيه وزحف ، مثل السرطان ، الى سقيفة القبّان حيث رفسته الأقدام وداست عليه... فضحكت داريا بصورة

هستيريّة حتّى تشرّخ القوسان الأسودان لحاجبيها المزججين . لكنّها توقفت فجأة حينما وقع نظرها على بيوتر . كان قد أفلح في الخروج مترنّحاً من بين الغوغاء المتدافعين الزاعقين ، وكان مستلقياً تحت عربة يبصق دماً . فهرعت اليه داريا صارخة . ومن القرية جاء القوزاق مسرعين يحملون العصي ، وكان أحدهم يلوح بعتلة في يده واتّسع القتال الى حد يفوق التصوّر ، فلم يعد مجرّد مشاجرة في حانة أو نزال القبضات الذي يقام في عيد المرفع بين القرى . فعند باب سقيفة القبّان تمدّد أوكراني يافع برأس مكسور في بركة من الدم ، تحرّكت قدماه ، وتدلّت على وجهه خصلات مدمّاة . لقد انتهى كما يبدو طريقه في هذه الأرض الزرقاء المرحة...

دفعوا الاوكرانيين مثل قطيع الأغنام الى سقيفة التفريغ . وكان ممكناً أن تتخذ الأمورشكلاً اسوأ لولا أن أوكرانيّاًعجوزاً خطرت له فكرة فمرق الى داخل السقيفة ، وجرّ عموداً ملتهباً من الأتون وجرى ناحية السقيفة حيث خزنت الحبوب : الف بود واكثر من الطحين . وانساب الدخان فوق كتفه مثل قماش الموسلين ، وشرر يكسفه ضوء النهار ، يتطاير حوله .

وصرخ ، وهو يرفع الشعلة المطقطقة صوب السقف المغطى بالقش : «سأحرقه!» .

تلكأ القوزاق ثم توقفوا . كانت ثمة ريح عاصفة جافة تهب من الشرق حاملة الدخان بعيدا عن سطح السقيفة صوب رهط الاوكرانيين . كان يكفي ان تندلع شرارة مناسبة واحدة في حلفاء السقف لتلتهم النار القرية عن آخرها...

ندت همهمة خفيضة عن القوزاق . وبدأ بعضهم يتراجع ناحية الطاحونة بينما صاح العجوز وهو يلوح بالشعلة فوق رأسه ويرسل نثارة من النار : «سأحرقه! سأحرقه اخرجو من الفناء!» .

كان ياكوف نعل الحصان ، الرجل الذي بدأ المعركة ، اول من غادر الفناء وعلى وجهه النديب رضات حمر مزرقة . وجرى القوزاق الآخرون وراءه

مسرعين . فأسرع الاوكرانيون بالقاء زكائبهم على عرباتهم وشدوا خيلهم وانطلقوا ينهبون أرض الفناء مبتعدين عن القرية وهم واقفون في عرباتهم ويلوحون بذوائب اعنتهم الجلدية حول رؤوسهم ويلفحون خيلهم بسياطهم في جنون .

انتصب اليكسي الاقطع وسط الفناء ، وكمه الفارغ المعقود يتوثب فوق بطنه الخاسف ، وعينه وخده يختلجان كعادتهما :

ـ الى الخيل ، أيها القوزاق!

ـ في أعقابهم!

ـ لن يبتعدوا!

وتهيأ ميتكا كورشونوف ، ليندفع خارج الفناء . وسرت موجة اضطراب جديدة فوق حشد القوزاق المتجمعين حول الطاحونة . على ان شخصا غير مألوف يرتدي قبعة سوداء ظهر في تلك اللحظة من غرفة الماكنة وتقدم بخطى عجلى من الحشد ، ولم يلحظه أحد من قبل وقد ضاقت عيناه النفاذتان حتى غدتا خطين طويلين مرقا فوق الحشد فيما رفع يده وصاح :

ـ قفوا!

فتسائل ياكوف مقطبا حاجبيه :

ـ من أنت ؟

ـ من أين ظهر ؟

ـ اضربوه!

ـ قفوا ، أيها القرويون!

ـ من أنت حتى تدعونا قرويين ، يا ذيلاً أبتر!

ـ يا للسافل!

ـ هذا الريفي القذر!

ـ لقنه درساً ، يا ياكوف .

ـ صحيح ، سود له عينه!

فابتسم الرجل بتواضع ، دون أن تبدو عليه بادرة خوف . خلع قبعته ومسح جبينه بحركة تنم عن منتهى البساطة . وجردت ابتسامة الاخرين من سلاحهم كلياً .

وتساءل وهو يشير بقبعته المطوية الى الدماء عند باب سقيفة القبان : «ماذا حدث ؟» .

فاجاب اليكسي ذو الذراع الواحدة بلهجة مسالمة ، وعينه وخده يختلجان : «كنا نضربهم» .

ـ ولكن لم ؟

فأوضح ياكوف نعل الحصان وهو يتقدم ماسحاً بذراعه كتلة من الدم عن أنفه :

ـ أرادوا تجاوز دورهم .

ـ أعطيناهم ما سوف يتذكروننا به .

ـ من المؤسف أننا لم نطاردهم... فليس في السهب ما يستطيعون إضرام النار فيه .

ـ أصابنا الذعر ، فما كان ليجرؤ على إضرام النار في السقف .

ـ بل كان سيفعل ذلك ، إذ كان متهوراً .

وقال افونكا اوزيروف مبتسما : «ان الخوخول قوم سيئو الطبع جداً» .

فلوح الرجل بقبعته في اتجاه اوزيروف : «ومن أنت ؟» .

بصق اوزيروف باحتقار من بين اسنانه المتباعدة ، وهو يراقب طيران البصاق ، وركز قدميه مباعداً بينهما :

ـ أنا قوزاقي . ولكن... من انت ، غجري ؟

ـ أنا وأنت كلانا روسيان .

فقال افونكا مقطعاً كلماته :

ـ أنت تكذب .

ـ ينحدر القوزاق من أصل روسي . أتعرف هذا ؟

ـ وأنا أقول لك إن القوزاق هم أبناء القوزاق .

فأوضح الرجل :

ـ منذ زمن بعيد ، هرب الاقنان من مالكي الارض واستوطنوا على امتداد الدون . ثم عرفوا باسم القوزاق .

فقال اليكسي في غيظ مكظوم وهو يشد على قبضته الثقيلة ويطرف تباعا : «اذهب الى حال سبيلك ، يا رجل!» .

ـ هذا الخنزير يريد أن يجعل منا فلاحين!

ـ من هو يا افاناسي ؟

ـ انه القادم الجديد الذي يسكن عند لوكيشكا الحولاء .

وهكذا مرت فرصة تعقب أثر الأوكرانيين . وتفرق القوزاق ، وهم يتناقشون حول المعركة بحماس .

* * *

وفي تلك الليلة . في السهب ، وعلى مبعدة حوالي ثمانية فرستات من القرية ، قال غريغوري لناتاليا بكآبة وهو يلف نفسه بفروته الشائكة الثخينة :

ـ أنت غريبة ، نوعاً ما! أنت كذلك القمر ، لا تبعثين البرودة ولا الدفء في الرجل . انا لا أحبك يا ناتاليا ، ويجب ألا تغضبي . أنا لم أرد إثارة الموضوع ، لكن هو ذا يطرح نفسه . نحن لا نستطيع ان نستمر على هذه الحال . انني حزين عليك . لقد بدا في الايام الأخيرة كما لو كنا نقترب من بعضنا أكثر من ذي قبل ، لكنني لا أستطيع تحسس اي شيء في قلبي . إنه فارغ تماماً . مثل هذا السهب...

تطلعت ناتاليا الى النجوم السارحة المنيعة ، والى عباءة الغيوم السارية فوقها والظليلة كالاشباح ، ولم تنبس بشيء . ومن مكان ما في الفلاة السوداء المائلة الى الزرقة ، في الأعالي ، تنادى سرب متأخر من طيور الغرانيق بأصوات مثل أجراس فضية صغيرة .

كان للعشب الذاوي رائحة كئيبة موات . وعلى رابية هناك خفق وهج خضيب من نار احد مضارب الحارثين...

استيقظ غريغوري قبيل الفجر . كانت فروته مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج . وكان السهب مختفياً تحت الزرقة العذراء باهتة الألق للثلج الجديد . وارتسمت ، على مقربة من الموضع الذي استلقى فيه غريغوري ، آثار واضحة لأقدام أرنب بري كان قد قفز على أول نثة ثلج .

٦

عندما كان القوزاقي يسافر بمفرده في الطريق الى ميليروفو ويلتقي بالاوكرانيين ، (وكانت القرى الآوكرانية تبدأ في قرية يابلونوفسكي السفلى وتمتد مسافة خمسة وسبعين فرستا حتى ميليروفو) ، كان عليه ان يفسح لهم الطريق وإلا هاجموه . هكذا جرت الحال منذ زمن بعيد . ولذلك اعتاد القوزاق أن يذهبوا بالعربات الى محطة القطار جماعات ، فلا يخشون عندئذ ملاقاة الاوكرانيين في السهب وتبادل السباب :

ـ أنت يا خوخول! افسح لنا الطريق! أتظن أنك تستطيع أن تحيا على أرض القوزاق ، ياخنزير ، ولا تدعهم يمرون!

ولم يكن الاوكرانيون ، الذين كانوا يضطرون لنقل حبوبهم بالعربات الى سايلو الحبوب في بارامونوفو على الدون ، في حال يحسدون عليها . اذ كانت المعارك تنشب لا لشيء إلا لأنهم «خوخول» ، ومتى ماكان الرجل «خوخول» صار من الواجب إشباعه ضرباً .

فمنذ عدة قرون ، بذرت يد ماهرة بذور الحقد الطائفي في أرض القوزاق ، وتعهدتها بعناية ، وأنتجت البذرة ثماراً كبيرة . وسالت الأرض بالدم المسفوك في هذه المعارك بين القوزاق والقادمين الجدد من أوكرانيا وروسيا .

بعد حوالي أسبوعين من معركة الطاجونة وصل الى القرية ضابط شرطة المنطقة يصحبه مفتش . كان شتوكمان أول من استجوب . فسأله المفتش ، وهو موظف شاب من نبلاء القوزاق ، فيما كان ينبش في حقيبته اليدوية :

ـ اين كنت تعيش قبل مجيئك هنا ؟

ـ في روستوف .

ـ لماذا سجنت عام ١٩٠٧ ؟

فانحدرت عينا شتوكمان عبر حقيبة المفتش ورأسه المنحني ذي مفرق الشعر المتقشر .

ـ للإخلال بالنظام .

ـ هِهم... اين كنت تعمل آنذاك ؟

ـ في ورشة السكة الحديد .

ـ أي عمل ؟

ـ ميكانيكي .

ـ لست يهودياً ، أليس كذلك ؟ أم يهودي متنصر ؟

ـ كلا . فأنا أعتقد...

ـ لا يهمني ما تعتقد . هل كنت في المنفى ؟

ـ نعم كنت .

رفع المفتش رأسه ، وعض شفتيه عديمتي الشارب كثيرتي البثور وقال :

ـ أنصحك بمغادرة هذه المنطقة ـ ثم أضاف قائلاً لنفسه : ـ سأقوم بهذه المهمة أنا نفسي على كل حال .

ـ لماذا ، أيها المفتش ؟

وكان الجواب سؤالاً آخر :

ـ ماذا قلت للقوزاق يوم معركة الطاحونة ؟

ـ حسناً...

ـ طيب ، يمكنك ان تذهب .

خرج شتوكمان الى شرفة بيت موخوف (اذ كانت السلطات تتخذ من بيت موخوف مقراً لها على الدوام) والقى نظرة سريعة على الأبواب المزدوجة المطلية ، وهز كتفيه .

٧

جاء الشتاء وئيداً . وذاب الثلج بعد عيد الشفاعة وأخرجت القطعان الى المراعي من جديد . وظلت ريح جنوبية تهب طوال أسبوع ، فأشاعت الدفء في الأرض ، وانبعث من خضرة متأخرة قميئة آخر وميض لامع في السهب .

واستمر الذوبان حتى عيد القديس ميخائيل ، ثم عاد الصقيع ، وسقط ثلج غزير ، وصار الصقيع يزداد قوة ، وطبقة الثلج سماكة يوماً بعد يوم وتركت أقدام الأرانب آثاراً متقاطعة على حقول الخضار الفارغة الى جانب الدون حيث تكوم الثلج حتى أعالي الأسيجة . وأصبحت الشوارع مقفرة .

علق الدخان ، المنبعث من الجل ، خفيضاً فوق القرية ، ومضت طيور الزاغ تنقر في كومات الرماد المبعثرة على جانب الطريق . وتلوى خلال القرية أثر الزحافات الناعم على شكل شريط أزرق رمادي باهت .

كان هناك اجتماع عقدته القرية لتنظيم توزيع الدغل وقطعه . فاحتشد القوزاق حول درجات عتبة إدارة القرية وهم في فرواتهم ومعاطفهم الثقيلة وجزماتهم اللبادية تصر في الثلج ، الى أن دفعهم البرد الى الداخل . وتجمع شيوخ القرية الوجهاء بلحاهم الفضية خلف المنضدة ، والى جانب الاتمان والكاتب . أما القوزاق الشبان ، ذوو اللحى المخالفة الألوان ، والحليقون ، فقد تحلقوا جماعات ، وجعل الواحد يتمتم للآخر من وراء ياقات معاطفهم الدافئة . وكان الكاتب يملأ الصفحة تلو الصفحة بكتابة متلاصقة ، فيما كان الاتمان يراقبه عبر كتفه ، وثمة طنين مكتوم يملأ الغرفة الباردة .

ـ كان العشب هذا العام...
ـ اي نعم ، عشب المروج جيد ، لكن عشب السهب كله برسيم .
ـ في الأيام الخوالي كانوا يرعون في السهب حتى حلول عيد الميلاد .
ـ كان ذلك حسناً بالنسبة للكالميكيين .
ندّ سعال مبحوح .
ـ إن للأتمان رقبة كرقبة الذئب ، سمينة بحيث لا يستطيع أن يدير رأسه .
ـ يطعم نفسه كالخنزير ، هذا الشيطان!
ـ أيها الجد ، تحاول أن تهزم الشتاء عنك ؟ يالها من فروة هذه التي عليك!
ـ آن الأوان لكي يبيع الغجري معطفه عما قريب .
ـ هل سمعت بحكاية الصبي الغجري الذي قضى ليلة في السهب دون ان يكون عليه غطاء سوى شبكة صيد ؟ وحينما بدأ البرد يزحف حول مصارينه ، استيقظ ، ودفع أصبعه في ثقب الشبكة وقال لأمه ـ «اذن فمن هنا يأتي التيار . ظننت أن الدنيا باردة» .
ـ أخشى أن تحل علينا بضعة أيام زلقة عما قريب .
ـ يحسن أن أنعل الثيران .
ـ كنت أقطع أشجار الصفصاف في «أخدود الشيطان» . شيء نفيس . هناك .
ـ زرر سروالك ، يا زاخار . لئن أصاب الصقيع... ما خلفه ، فستقذف بك زوجتك خارج الدار .
ـ ما هذا الذي أسمعه ، يا افدييتش ، من انك ستضع يدك على واحد من الثيران المشاعة ؟ »*

---

* الثيران المشاعة : لعل المقصود بذلك ثيران السفاد وهي الثيران الأكثر فحولة التي تربى للتناسل . المترجمون

ـ قررت ألا أفعل ذلك . فتلك المرأة ، بارشا ، ستتعهده بعنايتها . قالت لي : «انني أرملة ، وكلما كثرت الثيران كثر المرح» . وأنا قلت لها : «حسناً ، لعله يضيف فرداً جديداً الى العائلة»...

ـ ها ـ ها ـ ها!

ـ والآن ، أيها السادة الشيوخ! ماذا عن قطع الخشب ؟ هدوءاً يا من هناك!

ـ قلت لها نعم ، لئن أضفته الى عائلتك فستحتاجين الى اشبين...

ـ قليلاً من الهدوء ، رجاء!

وبدأ الاجتماع . تلا الأتمان الأسماء ، وهو يعبث بعصاه الرسمية ويقطف خيوط الجليد المدلاة من لحيته بإصبعه الصغير ويتصاعد البخار منه . ومن حين لآخر كان الباب يصفق في مؤخرة الغرفة فينحشر الناس وسط سحائب من الهواء البارد . وتتناهى أصوات تمخط الأنوف .

وقال إيفان توميلين محاولاً أن يطغى بصياحه على صوت الاتمان : «لا يمكنك أن تحدد يوم الخميس لقطع الأخشاب!» ودعك أذنيه الأرجوانيتين ، مائلاً رأسه الذي انداحت عنه قبعة المدفعية الزرقاء .

ـ لم لا ؟

فصاح أحدهم :

ـ ستخلع أذنيك ، أيها المدفعي!

ـ سنخيط له أذني ثور!

ـ يوم الخميس سيخرج نصف القرية لجلب التبن . إن هذا لعمري أسلوب طيب لتنظيم الأمور...

ـ يمكنك أن تؤجل ذلك الى يوم الأحد!

ـ أيها السادة الشيوخ!

ـ ماذا ، الآن ؟

ـ حظاً سعيداً له!

وارتفعت صيحة استهزاء من الجمع .

فانحنى العجوز ماتفي كاشولين عبر المنضدة المتداعية ، ونعق هائجاً وهو يشير ناحية توميلين بعصاه الملساء المقتطعة من شجرة الردار .

ـ يستطيع التبن أن ينتظر! القرار لمجتمع القرية . إنك دائماً ضد جميع الآخرين . أنت أحمق صغير ، ياولدي! وهذا هو كل ما هناك!

فتدخل أليكسي الأقطع وخده المشوه يختلج وطرف بعينه ورفع رأسه بين الصفوف الخلفية ، قائلاً : «لا عقل لك تتباهى به ، على أية حال ، وأنت عجوز» .

منذ ست سنوات وهو يتخاصم مع كاشولين على قطعة من أرض ، وفي كل ربيع كان يضربه ضرباً موجعاً ، بالرغم من أن القطعة لم تكن بأية حال لتتسع الأرجحة قطة .

ـ صه ، يا ذا الوجه الهلامي!

فتهدده أليكسي :

ـ من المؤسف أنك أبعد من متناول يدي ، والا أدميت لك أنفك!

ـ آه ، يا أرعص الوجه يا أبتر!

ـ والآن ، كفى تنابزاً .

تعالوا الى الخارج إن كنتم تريدون تجربة قوتكم .

ـ كفى يا أليكسي . ألا ترى العجوز قد انتصب شعر رأسه ذعراً ، ستسقط عنه قبعته بعد دقيقة .

ـ ضعهما في زنزانة البوليس إن لم يسلكا سلوكاً حسناً .

وأنّت المنضدة حينما هوى عليها الأتمان بقبضته .

ـ صه! سأنادي الحارس في الحال إن لم يعم السكوت . وبعد أن عادت الأمور الى نصابها ، أضاف :

ـ البدء في قطع الأخشاب فجر يوم الخميس .

ـ حسناً ، ما قولكم ، أيها السادة الشيوخ ؟

ـ حظاً سعيداً!

ـ على بركة الله!

ـ إنهم لا يصغون الى الشيوخ ، هذه الأيام!

ـ سوف يصغون ، على أية حال . أيظنون أنهم قادرون على اتيان ما يريدون ؟ فهذا الكساندر ، ابني ، حينما أعطيته حصته أراد أن يشرع بالعراك عليها ، وتجاسر عليّ بالضرب ، أي نعم . لكنني أعدت إليه صوابه . قلت له «سوف أذهب الى الاتمان والشيوخ في الحال ، وأجعلهم يجلدونك» . كان هذا كفيلاً بتهدئته .

ورفع أتمان القرية صوته ولوى رقبته ، إذ كانت ياقة بزته الصلبة تحز ذقنه .

ـ لقد حصلنا أيها السادة الشيوخ على أمر أتمان المنطقة ، على الشباب أن يذهبوا يوم السبت القادم الى دائرة أتمان المنطقة ، لأداء القسم . عليهم أن يكونوا هناك بعد الظهر .

كان بانتلاي بروكوفتش يقف عند أقرب نافذة الى الباب ، رافعاً ساقه العرجاء كطير الغرانيق ، والى جانبه كان ميرون غريغوريتش قاعداً على إفريز النافذة وهو يبتسم تحت لحيته الحمراء ، وكانت فروته مفتوحة . وأهدابه الشقر القصيرة يشوبها صقيع أبيض ، ونمشه الأسمر الكبير قد حال لونه رمادياً من أثر البرد . وتجمع قربهما شباب القوزاق يتغامزون ويبتسمون فيما بينهم ووقف وسط الجمع افدييتش سينيلين متمايلاً على أصابع قدميه . وكانت قبعته ، ذات السطح الأزرق وشرائط فضية مسرّحة الى الوراء فوق رأسه الأصلع الأملس ، ووجهه الذي لا يشيخ متورداً أبداً . كأنه تفاحة شتوية حمراء . كان افدييتش وبانتلاي بروكوفتش في سن واحدة .

كان افدييتش قد خدم في حرس الاتمان الخاص ، وعاد يحمل كنية «الكذوب» . وكان أول من اختير من القرية لكتيبة الاتمان* . كان في فتوته لا

* وهو الحرس القيصري . اذ كان الاتمان من ألقاب القيصر . المترجمون

يتميز عن الفتيان الآخرين سوى أن عقله كان غريب الأطوار توعاً ما ، فقد وقع له شيء غريب أثناء الخدمة الفعلية . ومنذ يوم عودته شرع في رواية قصص مذهلة عن خدمته في البلاط ومغامراته العجيبة في بطرسبرغ . وقد صدقه سامعوه المندهشون في البداية ، وهم يكرعون حكاياته بأفواه فاغرة ، ثم اكتشفوا أن افدييتش كان أكبر كذاب ولدته القرية في تاريخها ، وصاروا يضحكون منه صراحة . لكنه لم يكن ليستحيي (وإن كان أحمر الوجه دائماً بحيث لا يستطيع المرء أن يتبين إن كان أحمر خجلاً أم لا) ولم يتخل عن الكذب . وحينما تقدمت به السن صار يتضايق إذا ما انفضحت كذبة له ، فيلجأ الى استعمال قبضتيه . أما إذا ضحك سامعوه ولم يقولوا شيئاً توسع أكثر فأكثر في رواية قصصه .

أما من ناحية عمله في الحقل ، فقد كان قوزاقياً نشطاً مجدا ، يتصرف في كل الأمور بصورة معقولة ، وأحياناً بدهاء ، ولكن ما إن يعرج الموضوع على خدمته في الحرس حتى ينشر كل إمرىء ذراعيه ويقعد القرفصاء من الضحك .

وقف افدييتش وسط الجماعة متمايلاً وعلق ، وهو يجيل بصره في القوزاق المجتمعين ، بصوته الخفيض الغليظ قائلاً :

- بالمناسبة ، القوزاق في هذه الأيام ليسوا كما كانوا من قبل قط . ليسوا سوى روبيان قميء لا تكاد العين تراه . تستطيع أن تشق أياً منهم الى نصفين بمجرد أن تعطس عليه . لكنني... - بصق على الأرض وابتسم بازدراء - رأيت بعض هياكل عظمية لقوزاق ، ذات مرة . آه! كان القوزاق قوزاقاً في تلك الأيام!

فسأله انيكوشكا ذو الوجه الناعم وهو يلكز جاره :

- وأين نبشت تلك الهياكل العظمية ، يا افدييتش ؟

وقال بانتلاي بروكوفتش ، مجعداً أنفه وشاداً على قرطه :

«لا تبدأ برواية إحدى أكاذيبك ، يا افدييتش ويوم العيد المقدس على الأبواب» ، إذ لم يكن يحب عادة افدييتش في المبالغة .

فأجاب افدييتش برزانة ، وهو يحملق مستغربا في انيكوشكا الذي كان يرتعش كما لو أصابته حمى :

ـ ليس من طبيعتي الكذب ، أيها الأخ . رأيت تلك الهياكل حينما كنا نبني داراً لزوج أختي . اذ بينما كنا نحفر الأساس وصلنا الى قبر . لا بد ان مقبرة كانت هناك في الأيام الغوابر ، بجانب الكنيسة ، على ضفة الدون .

فتساءل بانتلاي بروكوفتش بلهجة تنم عن عدم رضى وهو يتهيأ للذهاب : «طيب وكيف كانت الهياكل ؟» .

فقال افدييتش ناشراً كل ذراعيه الشبيهتين بالمجرفة : «الاذرع ، بهذا الطول . الرأس بحجم القزان . كلامي صحيح كحقيقة وجودي حياً!» .

فاقترح ميرون وهو يقوم من افريز النافذة ويزرر فروته : «خير لك أن تخبر الشباب كيف قبضت على لص في سانت بطرسبرغ» .

فأجاب افدييتش وقد اعترته موجة مفاجئة من التواضع : «ليس هناك ما يستحق الرواية» .

ـ أخبرنا يا افدييتش!

ـ نرجوك يا افدييتش!

ـ شرفنا بحكايتك!

ـ حسناً ، كان الأمر كالآتي ، ـ ونظف افدييتش بلعومه وأخرج كيس تبغه من جيب بنطلونه . وأعاد قطعتي النقود النحاسيتين اللتين سقطتا من الكيس ، وصب قبضة من التبغ في راحته ، وأجال عيناً متألقة في سامعيه . ـ كان أحد الأوغاد قد فر من السجن . بحثوا عنه في كل أرجاء المنطقة . ولكن أتظنون أنهم استطاعوا أن يجدوه ؟ لا ، لم يقدروا . وباءت السلطات جميعاً بالفشل . حسناً ، ذات ليلة ، يدعوني ضابط الحرس بغتة ويقول : «اذهب الى القصر الامبراطوري . فالقيصر نفسه يدعوك» . فذهبت متهيباً . وقفت للامبراطور وقفة استعداد ، فإذا به يربت على كتفي ويقول : «اسمع يا إيفان افدييتش ، لقد فر وغد من مملكتنا . اعثر عليه ، حتى لو اضطررت

الى الوقوف على رأسك في سبيل ذلك . ولا تدعني أراك حتى تكون قد أنجزت مهمتك!» فقلت له : «سمعاً وطاعة ، يا صاحب الجلالة الامبراطور!» اجل ، ياأولاد ، تلك كانت قضية عسيرة... وعلى ذلك أخذت ثلاثة من أحسن ما في اصطبلات القيصر من خيل ، وانطلقت . ـ تفحص افدييتش رؤوس مستمعيه المطأطئة وهو يشعل سيكارة ، وانطلق هادراً وسط سحابة الدخان التي كانت تغلف وجهه وقد ازداد حماسه : ـ مضيت على صهوة الجواد طوال النهار ، طوال الليل ، حتى التقيت في اليوم الثالث بالوغد على مقربة من موسكو . اقتنصت ذلك الطير وقذفت به داخل عربتي ، وجررته عائداً الى سانت بطرسبرغ . وصلت في منتصف الليل ، وأنا مغمور بالوحل ، ذهبت مباشرة الى صاحب الجلالة الامبراطور نفسه . حاول كل أصناف الأمراء والكونتات أن يمنعوني ، لكنني مضيت ، أي نعم... طيب ، طرقت الباب . «هل لي أن أدخل ياصاحب الجلالة الامبراطور ؟» . «من أنت ؟» . «هو أنا ، إيفان افدييتش سينيلين» فسمعت ضجة في الغرفة ، وسمعت جلالته نفسه يصرخ : «ماريا فيودوروفنا! ماريا فيودوروفنا! انهضي بسرعة وأعدي سماورا ، فقد وصل إيفان افدييتش» .

انبعث زئير من الضحك من القوزاق السامعين ، وتوقف الكاتب في منتصف جملة ، وكان يقرأ آنذاك إعلاناً عن الماشية السائبة ، ومد الاتمان رقبته كأوزة ، وحملق مغضباً في المجمع المقهقه . غام وجه افدييتش ، وسحب بطرف قبعته ، وجالت عيناه بحيرة في الوجوه الماثلة أمامه ، وقال : «انتظروا لحظة!» .

ـ ها ـ ها ـ ها!

ـ أوه ، إنه سيميتنا!

ـ اواه يا افدييتش! اواه يا ابن الكلب!

ـ «أعدي سماوراً ، فقد وصل افدييتش!» ها ـ ها ـ ها!

بدأ الاجتماع ينفض . وارتفع صرير مستديم من الدرجات المتجمدة

لمنزل الإدارة . وعلى الثلج الذي وطأته الأقدام في الخارج ، كان ستيبان استاخوف وقوزاقي طويل القامة والساقين ، وهو صاحب الطاحونة الهوائية ، يتصارعان ليدفئا نفسيهما . فتحلق القوزاق حولهما يسدون لهما الإرشادات بجلبة وصياح .

ـ اطرحه أرضاً ، هذا الزنديق! اقلع أحشاءه ، ياستيبان!

وصاح كاشولين العجوز وهو يتوائب هنا وهناك كالعصفور : «لا تمسكه من هناك! أتظن أنك فطين!» وفي غمرة حماسة ، فاته ان يلحظ قطرة كبيرة لامعة ، تتدلى باستحياء من ذؤابة أنفه المزرق .

٨

حينما عاد بانتلاي بروكوفتش من الاجتماع ذهب في الحال الى الغرفة التي يشغلها هو وزوجته ، فايلينشنا متوعكة منذ بضعة أيام ، ويعكس وجهها المتورم كلالها وألمها . كانت مستلقية على فراش ريشي سميك وقد أسند ظهرها بوسادة لينتصب مستقيماً . وحينما سمعت وقع أقدام بنتلاي بروكوفتش أدارت رأسها نحوه ، فاستقرت عيناها على لحيته التي رطبتها أنفاسه ، وعلى شاربيه المتلبدين ، وغشيت نظرها قساوة صارت عادة ملازمة لها ، واختلج منخراها . لكن الشيخ لم تنبعث منه سوى رائحة الصقيع والفروة الحامزة ، فقالت لنفسها : «انه صاح اليوم» ، وهي تستشعر الرضا ووضعت على بطنها السمين إبرة الحياكة والجورب الذي لم تنجز حياكته .

ـ حسناً ، ماذا عن قطع الأخشاب ؟

ـ قرروا أن يبدأ يوم الخميس ـ ومسد شاربه ، وكرر وهو يجلس فوق صندوق الى جانب السرير : «في يوم الخميس صباحاً» ثم أضاف : «أتشعرين بأي تحسن ؟» .

غام وجه ايلينشنا وقالت :

ـ كالسابق . آلام قاتلة في كل مفاصلي .

استاء بانتلاي بروكوفتش وهو يرسم بعصاه دوائر واسعة على الأرض :

ـ قلت لك ألا تدخلي في الماء يا حمقاء . وفي الخريف أيضاً! كنت تعرفين ما سيصيبك . كان هناك العديد من النساء بوسعهن أن ينقعن ذلك القنب عليه اللعنة... على جميعه اللعنة! أواه يا رب!

ـ لم يكن بوسعي أن أدع القنب يتلف . لم يكن هناك نساء . فغريشا كان يحرث مع امرأته ، وبيوتر وداريا خرجا الى مكان ما .

فنفخ العجوز في كفيه المضمومتين على شكل قدح ، ومال على السرير .

ـ وكيف حال ناتاليا ؟

وحين أجابت ايلينشنا كان ثمة نبرة قلق في صوتها :

ـ لا أدري ما العمل . عادت تبكي من جديد قبل أيام . خرجت الى الفناء فوجدت أن أحدهم ترك باب المخزن مفتوحاً على مصراعيه . مضيت لأغلقه ، فوجدتها واقفة الى جانب مستودع الدخن . سألتها عما حدث ، بيد أنها قالت إنها تشعر بالصداع وحسب . أنا لا أستطيع أن أقف على الحقيقة منها .

ـ لعلها مريضة ؟

ـ كلا . سألتها . إما أنها أصيبت بالعين . أو اختلفت مع غريشا...

ـ لعله لم يستأنف علاقته بتلك المرأة بشكل من الأشكال ؟

فهتفت ايلينشنا وهي تلوح بذراعيها في ذعر :

ـ يا إلهي ، لا! ما هذا الذي تقول ؟ ماذا تظن ستيبان... أحمق ؟ كلا ، أنا لم ألاحظ شيئاً من هذا القبيل .

جلس العجوز الى زوجته قليلاً ، ثم خرج .

كان غريغوري في غرفته يسن صنارات الصيد بمبرد . وكانت ناتاليا تدهنها بشحم الخنزير وتلف كل واحدة منها في خرقة بعناية . وحينما مر

بانتلاي بروكوفتش بها وهو يعرج ، حدجها متفحصاً . كان خداها الشاحبان متوردين كورقة خريفية . لقد أمست أكثر نحولاً ، بصورة جلية ، خلال الشهر الأخير ، وكانت في عينيها نظرة بائسة لم يألفها من قبل ، فتمهل العجوز عند الباب ، وقال لنفسه فيما نظر وراءه الى رأس ناتاليا الناعم المنحني فوق المصطبة : «إنه يقتل البنت!» .

كان غريغوري جالساً على مقربة من الشباك ، وكانت ناصية شعره الشعثاء السوداء تهتز لكل شحذة مبرد .

صاح العجوز وقد قتم وجهه بسورة غضب مفاجىء : «دع هذا ، ليأخذ الشيطان روحك!» وشد على عصاه لكي لايضرب ابنه فاهتز غريغوري ورفع نظره مندهشاً .

ـ لدي سنّان آخران أشحذهما ، يا أبتاه .

ـ دعه ، قلت لك! استعد لقطع الأخشاب .

ـ حالاً .

ثم أضاف العجوز بلهجة أهدأ :

ـ الزحافات غير معدة مطلقاً ، وأنت جالس تسن الصنارات . ـ وتلكأ عند الباب إذ كان واضحاً أنه يريد أن يقول شيئاً آخر . لكنه خرج . وسمعه غريغوري ينفث بقية غضبه على بيوتر .

بينما غريغوري يرتدي معطفه سمع أباه يصيح في الحوش :

ـ ألم تروى الماشية بعد ، أيتها الكسول! ومن عبث بكومة التبن بجانب السياج ؟ ألم أقل ألا تمسوها ؟ ستأتون على كل التبن الجديد ، لعنة الله عليكم ، فماذا ستطعمون الثيران في الربيع أثناء الحراثة ؟

في يوم الخميس ، وقبل ساعتين من بزوغ الفجر ، أيقظت ايلينشنا داريا : «انهضي! حان وقت إشعال النار!» .

فجرت داريا في قميص نومها الى الموقد ، ووجدت بعض عيدان الثقاب ، وأشعلت واحدة .

استحث بيوتر زوجته ساعلاً وهو يشعل سيكارة : «تحركي!»

فحمحمت داريا بامتعاض وهي لما تزل نصف مستيقظة : «لا يذهبون لإيقاظ ناتاليا تلك . يشفقون عليها بينما هي نائمة بلا حياء . هل ينبغي عليّ أن أقطع نفسي نصفين ؟» فنصحها بيوتر : «اذهبي وأيقظيها بنفسك» . لكن النصيحة كانت غير ضرورية ، إذ أن ناتاليا قد استيقظت سلفاً ، وخرجت لتحضر الوقود للنار وهي ترتدي بلوزتها .

فقالت عديلتها آمرة : «اجلبي بعض الحطيبات» .

وصاحت ايلينشنا بصوت مبحوح وهي تمشي في المطبخ ذهاباً وإياباً بمشقة : «أخبري دونيا أن تجلب الماء ، يا داريا ، أتسمعين ؟» .

وانبعثت من المطبخ رائحة حشائش الدينار الجديدة ، وعدة الخيل ودفء الأجسام البشرية . وتنقلت داريا هنا وهناك بجزمتها اللبادية . وهي تطقطق بالأواني ، ونهداها الصغيران يرتعشان تحت قميصها الوردي بأكمامه المشمرة ، إذ لم تفسد جسمها الحياة الزوجية ولا أذبلته . وكانت تبدو كفتاة يافعة ، طويلة ، هيفاء ، لدنة كعود الصفصاف . كانت تمشي هازة كتفيها ، وتضحك من صياح زوجها ، فيتكشف صف راسخ من الأسنان المتراصة تحت الحافة الرقيقة لشفتيها الشرهتين .

ودمدمت ايلينشنا بامتعاض : «كان عليك أن تجلبي خشباً للوقود قبل ليلة ، إذن لكانت قد جفت في الموقد» .

فأجابت داريا : «نسيت يا أماه . لا حيلة لي في ذلك» .

تنفس الفجر أثناء إعداد الطعام ، فأسرع بانتلاي بروكوفتش في إفطاره وهو ينفخ في العصيدة . وأكل غريغوري العابس ببطء واكتئاب ، وعضلات فكيه تختلج صاعدة هابطة ، وتسلى بيوتر ، دون أن يلاحظه أبوه ، بإغاظة دونيا التي كانت تعاني من وجع الأسنان وقد ربطت وجهها برباط .

كان صوت مزالق الزحافات يصل من الشارع . وكانت زحافات الثيران تمضي نازلة الى النهر في الفجر الرمادي . خرج غريغوري وبيوتر لشد الخيل

الى زحافتيهما . وفيما كان غريغوري خارجاً لف حول رقبته لفاحاً ناعماً ، وهو هدية عروسته قبل الزواج ، وكان يتنفس بنهم في الهواء الزمهرير الجاف . وطار غراب فوق الفناء مطلقاً صرخة قوية . وكان بالامكان سماع حفيف جناحيه الخافقين على مهل ، بصورة واضحة خلل السكون الصقيعي . راقب بيوتر طيرانه وعلق قائلاً : « يطير الى الجنوب ، الى الدفء » .

ومن وراء غيمة وردية صغيرة ، مرحة كابتسامة صبية ، تلألأت بخفوت شقفة صغيرة من القمر . وارتفع الدخان من المداخن ، أعمدة مستقيمة منطلقة من صوب النصل الذهبي المدبب ، النائي المنيع ، للقمر الأفل .

لم يكن النهر متجمداً تماماً قبالة دار ميليخوف . وعلى امتداد حافتي المجرى كان الجليد قوياً أخضر تحت الثلج المنجرف . وتحت الجليد تقبقب وتتفقأ الفقاقيع ، ولكن ماوراء الوسط حيث انسابت العيون بالقرب من الضفة اليسرى ، كانت ثمة ثغرة فاغرة فاها ، مرعبة داكنة وسط البياض المتآكل . وكان الماء مرقطاً بالبط البري الذي يقضي شتاءه هناك .

بدأ الطريق الى النهر من ميدان القرية . مضى بانتلاي بروكوفتش أولاً بالثورين الكبيرين تاركاً ولديه ليلحقا به فيما بعد . وعلى المنحدر ، عند تقاطع النهر ، لحق بيوتر وغريغوري بأنيكوشكا الذي كان يمشي الى جانب ثيرانه ، ومقبض فأس جديدة يبرز من زحافته ، وكان مرتدياً نطاقاً عريضاً أخضر ، بينما كانت زوجته القميئة المعلولة تمسك بالأعنة . صاح بيوتر عليه من بعيد :

ـ أيها الجار ، لا بد أنك أخذت امرأتك معك ؟

فابتسم انيكوشكا ، وهو يتوثب ليحتفظ بدفئه ، ومضى الى الأخوين .

ـ أخذتها لكي تدفئني

ـ لن تكسب منها دفئاً ، فهي هزيلة جداً .

ـ هذا صحيح . أنا أطعمها الشوفان ، ومع ذلك فهي لا تسمن!

وتساءل غريغوري قافزا من الزحافة :

ـ هل ستقطع الخشب في الموضع نفسه ؟
ـ أجل ، إذا أعطيتني سيكارة .
ـ لقد كنت طول عمرك تحب العيش على حساب الآخرين .
فقهقه انيكوشكا قائلاً ، مجهداً وجهه الأنثوي الحليق بابتسامة :
ـ أحلى الأشياء في الحياة مايسرق ويُستجدى .

ومضى الثلاثة معاً . كانت الغابة موشاة بالصقيع الناصع ، وذات بياض عذري . ركب انيكوشكا في المقدمة ضارباً بسوطه الأغصان فوقه فراحت بلورات الثلج المدببة تزخ على رأس زوجته .

فصاحت به وهي تنفض الثلج عنها : «لا تعبث ، أيها الشيطان!» .

فقال بيوتر ناصحاً ، وهو يحاول أن يوصل سوطه الى ما تحت بطن الثور ليستحث الخطى : «ألقها في الثلج» .

التقوا بستيبان استاخوف ، عند أحد منحنيات الطريق ، وهو يسوق ثورين مشدودين الى نير ، عائداً الى القرية . وكان النعلان الجلديان في جزمته اللبادية يصرفان على الثلج فيما كان يمشي بخطوات واسعة وخصلته المجعدة مدلاة تحت قبعة الفرو المائلة الى جانب كعنقود من العنب الأبيض .

صاح انيكوشكا ، أثناء مروره :
ـ هي ، ستيبان ، أضللت طريقك ؟
ـ اللعنة على ضلال الطريق! اصطدمت العربة بجذع شجرة فانشطر حديد الزحافة الى نصفين . ولذا يتعين عليّ أن أعود .

وصب ستيبان سيلاً من السباب البذيء ، وضاقت عيناه الفاتحتان الشقيتان حينما مر بيوتر .

فسأله انيكوشكا متلفتاً : «خلفت زحافتك وراءك ؟»

فتجاهل ستيبان السؤال ملوحاً بيده ، ثم رفع سوطه على الثيران التي كانت تحيد عن الممشى ، ورمق غريغوري بنظرة طويلة حينما مر به . وعلى مبعدة قليلة وصلت الجماعة الى زحافة متروكة في وسط الطريق . وكانت

اكسينيا تقف الى جانبها ، تشخص ببصرها على امتداد الطريق في اتجاههم ، وهي تمسك طرف فروتها بيدها اليسرى .

فزأر انيكوشكا :

ـ تنحي عن الطريق وإلا سحقتك . ها ـ ها ، أنت التي تصلحين زوجة لي!

فتنحت اكسينيا جانباً وهي تبتسم ، واقتعدت فوق الزحافة المكسورة .

ـ ها هي زوجتك تجلس معك .

ـ أجل إنها تلتصق بي مثلما تلتصق شوكة بذيل خنزير ، والا لأوصلتك .

ـ شكراً جزيلاً ،

وحينما وصل بيوتر اليها ألقى نظرة سريعة الى الوراء نحو غريغوري . أما غريغوري فكان يبتسم متردداً ، والاضطراب والترقب ظاهران في كل حركاته . حياها بيوتر وهو يمس قبعته بقفازه غير المصبع :

ـ أتمنى أن تكون صحتك طيبة ، أيتها الجارة .

ـ الحمد لله .

وسألها بيوتر :

– ماذا ، الزحافة مكسورة ؟

فأجابت ببطء دون أن تنظر الى بيوتر : «نعم ، إنها كذلك»

واستدارت صوب غريغوري وهي تنهض على قدميها وقالت حينما اقترب منها : «غريغوري بانتلاييفش ، لي كلمة معك» .

إستدار غريغوري إليها قائلاً لبيوتر :

ـ راقب ثيراني .

ـ ها ـ ضحك بيوتر ضحكة ذات مغزى ، ومضى وهو يعض على طرف شاربه المرير الطعم من دخان التبغ .

وقف الاثنان في صمت أحدهما قبالة الآخر . تلفتت اكسينيا حولها بقلق ثم أدارت عينيها الشفافتين السوداوين نحو وجه غريغوري من جديد .

كان الخجل والفرح يلتهبان في خديها وقد أيبسا شفتيها . وصارت أنفاسها شهقات حادة .

وعند أحد منحنيات الطريق ، اختفى بيوتر وانيكوشكا وراء جذوع البلوط البنية اللون . نظر غريغوري مباشرة في عيني اكسينيا ورأى فيهما شرارة داعبة جريئة .

وقالت بثبات :

ـ حسناً ياغريشا ، افعل ما تشاء ولكنني لا أستطيع الحياة بدونك ، ـ وضغطت شفتيها معاً منتظرة جوابه .

لم يجب غريغوري . كان الصمت مطبقاً على الغابة . ورن فراغ زجاجي في أذنيه . سطح الطريق اللامع الصقيل بفعل مزالق الزحافات ، خرقة السماء الرمادية ، الغابة ، خرساء ، وسنانة ، موات... وانبعثت صرخة مفاجئة لغراب قريب بدت كأنها أيقظت غريغوري من سباته الطارىء . فرفع رأسه وراقب الطير الأسود المزرق يخفق بجناحيه مودعاً مبتعداً في طيران صامت . وأصابته الدهشة حين سمع نفسه يقول : «سيصبح الجو دافئاً . إنه يطير صوب الدفء» . وبدا كأنه ينفض نفسه ، فضحك بصوت أجش . «حسناً» . وأدار عينيه الثملتين خلسة الى اكسينيا ، وفجأة جذبها إليه .

٩

في أمسيات الشتاء اعتادت جماعة صغيرة من القرويين أن تلتئم في غرفة شتوكمان بمنزل لوكيشكا . كان بينهم كريستونيا ، و«ولد» الطاحونة وقد تدلت سترة ملطخة بالدهان على كتفيه ، ودافيد دائم الابتسام (الذي أمضى حتى الآن ثلاثة أشهر في التسكع) ، ومشغل الماكنة ، إيفان كوتلياروف ، وأحياناً فيلكا الاسكافي ، ودائماً ميشا كوشيفوي وهو قوزاقي شاب لم يؤد بعد خدمته العسكرية النظامية

في البدء ، كانت الجماعة تلعب الورق . ثم أحضر شتوكمان عن غير طريق المصادفة كتاباً يضم شعراً لنيكراسوف . وبدأوا يقرأون الكتاب بصوت مسموع ، وأحبوه . ثم انتقلوا الى نيكيتين ، وقبل عيد الميلاد اقترح شتوكمان قراءة كتيب مثنى الزوايا ، غير مجلد . فنظر كوشيفوي باحتقار الى الصفحات المدهنة ، وكان قد تخرج من مدرسة الكنيسة وفي مقدوره أن يقرأ بصوت عال . وقال :

ـ تستطيع أن تصنع منه شعرية ، إنه مدهن جداً .

فزأر كريستونيا بالضحك ، وابتسم دافيد ابتسامة مشرقة لكن شتوكمان انتظر حتى خبا المرح ، ثم قال :

ـ إقرأه ، ياميشا . إنه ممتع . كله عن القوزاق .

فأمال كوشيفوي رأسه بذؤابته الشقراء فوق المنضدة وقرأ مقطّعاً الكلمات : «موجز تاريخ قوزاق الدون» ، ثم أجال بصره على الجميع مضيقاً عينيه في انتظار . وقال له إيفان الكسييفتش : «اقرأ» . وانكبوا على الكتاب ثلاث أمسيات ، يقرأون عن الحياة الطليقة في الماضي ، عن بوكاتشوف وستنكا رازين وكوندراتي بولافين وأخيراً وصلوا الى العصور المتأخرة . وصب المؤلف المجهول ازدراء على حياة القوزاق البائسة ، وسخر من السلطات والنظام القائم ، وحكومة القيصر ، ومن النظام القوزاقي نفسه الذي الذي جعل من القوزاق مسخرين تابعين للملوك . فسرت في السامعين موجة انفعال وجعلوا يتجادلون فيما بينهم . وتكلم كريستونيا بصوته الهادر ، ورأسه يلامس عمود السقف ، بينما جلس شتوكمان قرب الباب يدخن سيكارته بمبسم من العظم وعيناه تبتسمان .

انفجر كريستونيا :

ـ إنه على حق! كله صحيح!

ـ ليس ذنبنا إن ينزل هذا العار على القوزاق . ـ ونشر كوشيفوي ذراعيه في حيرة ، وجعد وجهه الوسيم ذا العينين الداكنتين . كان مكتنز البدن ،

عريض المنكبين والردفين ، يكاد يكون مربع الشكل . ومن قاعدة جسده الحديدية ارتفعت رقبة راسخة حمراء بلون الطابوق ، بدا عليها رأسه الصغير المهيب غريباً عما يحيط به ، بوجنتيه الناعمتين الانثويتين ، وفمه الصغير العنيد ، وعينيه الداكنتين تحت الواجهة الذهبية لشعره المجعد . أما مشغل الماكنة كوتلياروف ، وهو قوزاقي نحيل طويل ، فقد كان غارقاً حتى العظم في تقاليد القوزاق ، وكانت عيناه الجاحظتان المستديرتان تومضان وهو يدافع عن القوزاق في نقاش عنيف مع كريستونيا :

ـ أنت تميل الى الفلاح ، ياكريستونيا ، وليس لديك سوى قطرة واحدة من الدم القوزاقي مقابل دلو من الماء . لقد تزوجت أمك فلاحاً من فورونيج .

فهدر كريستونيا :

ـ أنت أحمق ، أحمق ، أيها الأخ! أنا أدافع عن الحقيقة .

فقال كوتلياروف متخابثاً :

ـ لم أكن في الحرس الملكي . فكل من هناك أحمق .

ـ وهناك أشخاص ميؤوس منهم ، في بقية الجيش ، أيضاً .

ـ صه يافلاح!

ـ أليس الفلاحون رجالاً بقدر ماأنت رجل ؟

ـ إنهم مصنوعون من قشور الأشجار ومحشوون بالدغل .

فقال كريستونيا ، ولهجته الجنوبية تبرز بقوة :

ـ حيمنا كنت في بطرسبرغ ، أيها الأخ ، رأيت أشياء عديدة . حدث ذات مرة أن كنا في نوبة حراسة في قصر القيصر ، من الداخل والخارج . اعتدنا أن نمضي على خيلنا حول القصر ، اثنين من هنا ، واثنين من هناك . وحين كنا نلتقي ، اعتدنا أن نسأل : «أكل شيء هادئ» ، لا اضطراب في أي مكان ؟» ثم نمضي . لم يكن يسمح لنا بالتوقف والكلام . لقد اختارونا بسبب من ملامحنا . وحين كان علينا أن نأخذ نوبة حراستنا عند الأبواب

كانوا يختارون كل زوج منا بحيث يتشابهان في الوجه والقوام والشعر . حتى أن الحلاق اضطر ذات مرة أن يصبغ لحيتي بسبب هذه الحماقة . كان عليّ أن آخذ نوبة حراستي مع قوزاقي في سريتنا ، له لحية بلون الحصان الأحمر ، نوعاً ما . ليحل بي الطاعون إن كنت أدري من أين جاء بمثل تلك اللحية ، لابد أن ناراً لفحتها أو شيئاً من هذا القبيل . بحثوا في كل الكتيبة ولم يكن ثمة من يشبهه . وهكذا أرسلني آمر الرعيل الى الحلاق ليصبغ لي لحيتي وشاربي . ولما نظرت الى نفسي في المرآة فيما بعد ، كاد قلبي أن ينفطر . كنت أبدو كما كانت النار تلتهمني . صدقوني . كان لمس لحيتي كفيلاً بسلق أصابعي!

فقاطعه كوتلياروف :

ـ ها إنه يخرج عن الصدد ، هذا المهذار العتيق ، ولكن عم كنا نتكلم ؟

ـ عن الناس .

ـ طيب فأخبرنا عنهم . ماذا ، بحق الجحيم ، عسانا نريد من سماعك أن تتحدث عن لحيتك!

ـ حسناً ، وكما كنت على وشك أن أقول . كان عليّ ذات مرة أن آخذ نوبة حراسة خارج القصر . كنا راكبين ، أنا ورفيقي ، حينما جاء غوغاء من الطلاب يركضون من منعطف القصر . كانوا محتشدين كأنهم ذباب! وحالما رأونا زأروا : هاه! مرة أخرى : هاه! وقبل أن ندرك ما العمل أحاطوا بنا وسألنا أحدهم : « ماذا تفعلون ايها القوزاق ؟ » فقلت « نقوم بالحراسة ، وأنت أيها الفتى ، ارفع يدك عن الاعنة » ، وصفقت يدي على سيفي . فقال : « لا تسيء فهمي ، أيها القوزاقي ، فأنا أيضاً من منطقة كامنسكايا ، أدرس في الجامعة ، أو الجومعة » ، أو أي اسم تطلقون عليها . تهيأنا للمضي ، فإذا بأحدهم ، كان ذا أنف كبير يخرج قطعة من فئة العشرة روبلات ويقول : « اشربا نخب صحة والدي الميت » . ثم أخرج صورة من جيبه وقال : « انظر ، هو ذا أبي . خذها تذكاراً » . حسناً ، أخذناها ، لم نستطع أن نرفض . ثم ابتعدوا وزأروا من جديد هاه! واتجهوا نحو شارع

نيفسكي . وفي تلك اللحظة ، جاء ملازم أول خارجاً من بوابات القصر الخلفية على حصانه يصحبه رعيل من الرجال . صاح : « ماذا حدث ؟ » فأخبرته أن طلاباً قد أتوا وأحاطوا بنا وشرعوا يتحدثون الينا ، وإننا أردنا أن نضربهم بالسيف حسب التعليمات ، ولكن بما أنهم تركونا فقد مضينا في طريقنا . وحينما أنهينا واجبنا فيما بعد ، أخبرنا نائب العريف أننا قد حصلنا على عشرة روبلات ونريد أن نشرب بها في ذكرى الرجل العجوز ، وأريناه الصورة . وفي المساء ، جاء نائب العريف بشيء من الفودكا ، فقضينا وقتاً طيباً طيلة يومين . لكننا اكتشفنا فيما بعد أين كانت الخدعة . إذ تبين أن هذا الطالب ، هذا السافل ، كان قد أعطانا صورة أكبر مثير للاضطرابات في ألمانيا . صدقته وعلقت الصورة فوق سريري للذكرى . كانت له لحية شهباء ، ويبدو رجلاً معتبراً . وأغلب الظن أنه من التجار . لكن الملازم الأول حين رآها سأل : « من أين حصلت على هذه الصورة ، ياابن الحلال ؟ » فاخبرته ، فإذا به يسبني ويلكمني على وجهي : « أتعرف من هذا ؟ إنه أتمانهم كارل . » . اللعنة ، لقد نسيت اسمه ، هيا ، ما كان اسمه ؟...

فقال شتوكمان مبتسماً : « كارل ماركس ؟ »

فصاح كريستونيا جذلاً :

ـ هو ذاك ، كارل ماركس . لقد سبب لي متاعب ، حقاً . كان حتى ولي العهد اليكسي ومعلموه قد اعتادوا أن يدخلوا غرفة الحرس . فكان من المحتمل أن يروها . ماذا كان يمكن أن يحدث ؟

فقهقه كوتلياروف :

ـ وتظل تمتدح الفلاحين ، كانوا سيشبعونك ضرباً .

ـ لكننا شربنا بالعشرة روبلات . ولو نخب كارل الملتحي ولكن شربنا!

فابتسم شتوكمان وهو يعبث بمبسم سيكارته وقال :

ـ يستحق الشرب نخبه .

فتساءل كوشيفوي :

ـ لماذا ، أي خير فعل ؟

ـ سأخبرك في مناسبة أخرى ، فالوقت متأخر الآن .

وأمسك شتوكمان المبسم بين أصابعه ، وقذف عقب السيكارة المطفأ بضربة من يده الأخرى .

بعد غربلة واختيار طويلين ، بدأت جماعة صغيرة قوامها عشرة قوزاق تجتمع بانتظام في ورشة شتوكمان . كان شتوكمان قلب الجماعة وروحها ، وراح يعمل بعناد في اتجاه هدف لم يدركه أحد غيره . كان ينخر في المدركات والمفاهيم البسيطة كما تنخر دودة في الخشب ، يبث النفور والكراهية ضد النظام القائم . ووجد نفسه في البداية يواجه فولاذ الشك البارد ، ولكن عزيمته لم تكن لتثبط فحتى الشك يمكن أن يزال .

١٠

على المنحدر الرملي للضفة اليسرى للدون تقع قصبة فيشنسكايا ، أقدم قصبة في الدون الأعلى . كانت في الأصل تدعى تشيكوناتسكي ، ثم نقلت الى موضع جديد بعد أن دمرت أثناء حكم بطرس الأول ، وسميت فيشنسكايا . وكانت في السابق همزة وصل مهمة على الطريق المائي العظيم بين فورونيج وآزوف .

مقابل فيشتسكايا ينحني الدون كقوس تتاري ، وينعطف بحدة إلى اليمين ، وإلى جانب قرية بازكي الصغيرة يعود فيستقيم في جلال وروعة ، حاملاً ماءه الأزرق المخضوضر مروراً بالشعب الطباشيرية للتلال القائمة على الضفة اليمنى ، ثم يمضي ، وعلى يمناه قرى متراصة ، وعلى يسراه قصبات متباعدة ، منحدراً نحو البحر ، نحو بحر آزوف الأزرق .

وفي اوست ـ خوبيرسكايا ، ينضم إليه رافده خوبر ، وفي أوست ـ مدفديتسكايا الرافد مدفيتسا ، ثم ينساب عميقاً غزيراً بين كثرة غير منتظمة من القرى والقصبات الكثيفة السكان ، تقع قصبة فيشنسكايا بين

كثبان رملية صفراء وهي مكان أجرد بائس لا بساتين فيه ، تقوم في ساحتها كنيسة قديمة ، رمادية من القدم ، وتمتد من الساحة ستة شوارع في خطوط موازية للنهر . وحيث ينحني الدون صوب بازكي تتفرع بحيرة بسعة الدون أيام الصيهود ، متوغلة في أجمة من شجر الحور . وينحدر طرف فيشنسكايا الى هذه البحيرة ، وفي ساحة أصغر تغطيها أشواك ناتئة ذهبية ، تقوم كنيسة ثانية ، ذات قباب خضر وسقف أخضر ينسجم مع اخضرار أشجار الحور في الجانب الآخر من البحيرة .

ويمتد وراء القرية ، شمالاً ، قفر زعفراني من الرمال ، ومزرعة صنوبر واطىء ، ومنخفضات ماؤها وردي بسبب من التربة الطينية الحمراء . وتنتشر هنا وهناك في الفلاة الرملية قرى كالواحات النادرة ، ومروج ونجيل صدىء من الصفصاف .

ذات يوم أحد في كانون الأول ، تجمع في الساحة خارج الكنيسة القديمة حشد كثيف قوامه خمسمائة شاب قوزاقي جاؤوا من جميع قرى المنطقة . انتهى القداس وأخذت الأجراس ترن ، وأصدر العريف الأقدم أمره ، وهو قوزاقي عجوز شجاع يحمل نياشين خدمة طويلة ، فانتظم الشباب صفين طويلين ملتويين . وتراكض العرفاء جيئة وذهاباً لتنظيم اصطفافهم .

وهدر العريف «مراتب!» ، ثم صاح وهو يحرك يده بصورة مبهمة : «تجمع في أربع!»

ثم دخل الاتمان الى فناء الكنيسة مرتدياً بزة المناسبة ومعطف ضباط جديد ، ومهمازاه يجلجلان ، يتبعه شرطي عسكري .

كان غريغوري ميليخوف واقفاً الى جانب ميتكا كورشونوف ، وسمعه يقول بصوت خافت :

ـ جزمتي تضغط على قدمي . لا أستطيع صبراً .

ـ أثبت ، انهم سيجعلونك اتماناً .

ـ سوف نمضي عما قريب .

وكمـا لو تأكـد ظنه ، فقـد ارتـد العـريف الأقـدم خطوة أو خطـوتين ، واستدارعلى عقبيه بحدة ، وصاح :

ـ الى اليمين ، در...

وصلت الى المسامع طقطقة أقدام خمسمئة شخص يستديرون بدفعة واحدة الى اليمين .

ـ الى الأمام ، سر!

ومضى الطابور خلال البوابة المفتوحة للكنيسة ، والتمعت القبعات وهي تخلع عن الرؤوس وتردد صدى وقع الأقدام في أنحاء الكنيسة حتى القبة .

لم يعر غريغوري أي اهتمام لكلمات يمين الولاء الذي تلاه القس . كان ينظر الى ميتكا كورشونوف الذي يحرك قدمه ووجهه يتلوى ألماً من جزمته الجديدة الضيقة . وأخذت ذراع غريغوري المرفوعة تخدر ، وخليط مؤلم من الأفكار يدور في ذهنه . وحينما وصل الى الصليب وقبل فضته ، تذكر أكسينيا ، وزوجته . وبفجاءة وميض البرق المتشعب ، لاحت له صورة الغابة ، وجذوعها وأغصانها البنية يغطيها زغب أبيض ، والبريق المخضل لعيني أكسينيا السوداوين تحت عصابة رأسها...

وحينما انتهى الاحتفال سيقوا الى الساحة ، واصطفوا من جديد ، تمخط العريف ومسح أصابعه خلسة ببطانة معطفه ، وخاطبهم :

ـ إنكم لم تعودوا صبية الآن ، لقد غدوتم قوزاقاً . لقد أقسمتم اليمين ، وعليكم أن تفهموا ما يعني ذلك ، لقد صرتم قوزاقاً وعليكم أن تحافظوا على شرفكم ، أن تطيعوا آباءكم وأمهاتكم وما الى ذلك . كنتم صبية ذات مرة ، وكان لكم هزلكم وألعابكم ـ أظن أنكم اعتدتم أن تلعبوا «الحاح»* في

* الحاح : مصطلح عراقي للعبة الاطفال التي يرفع فيها وتد خشبي صغير يوضع على الأرض بضربه بطرف عصا ، فإذا ماارتفع قليلاً ضرب بالعصا في الهواء . المترجمون

الدروب ـ لكن الآن عليكم أن تفكروا بخدمتكم العسكرية القادمة . وبعد عام من الزمن سيستدعونكم للجيش...

هنا تمخط العريف مرة أخرى ، ونفض يده لينظفها من المخاط ، وختم خطبته وهو يلبس قفازيه المصنوعين من فراء الأرنب :

ـ يجب على آبائكم وأمهاتكم أن يفكروا بإعداد تجهيزاتكم . يجب أن يزودوكم بحصان للجيش ، و ، ، والآن ، إذهبوا الى بيوتكم ، والله معكم ، يا أولادي .

بالقرب من الجسر انتظر غريغوري وميتكا بقية أولاد قريتهما ، وانطلقوا إليها سوية . عادوا سيراً على امتداد الدون . كان دخان مواقد الأكواخ ينعقد حزماً فوق قرية بازكي ، وكانت ثمة أجراس كنيسة تدق ضعيفة . وكان ميتكا يحجل وراء الآخرين متكئاً على عصا معقدة اقتطعها من سياج .

نصحه أحد الأولاد :

ـ اخلع جزمتك .

فأجاب ميتكا مترددا :

ـ ستصاب قدمي بضربة صقيع .

ـ تستطيع أن تظل بجوربك .

فجلس ميتكا على الثلج ونزع جزمته بجهد . ثم استأنف سيره ، وهو يخطو بتثاقل على قدمه المجوربة . وكان جوربه المحاك السميك يترك اثرا حادا على الثلج الهش .

تساءل اليكسي بيشنياك القمىء :

ـ أي طريق سنسلك ؟

فاجاب غريغوري عن الجميع :

ـ على امتداد الدون .

ومضوا ، يتحدثون وأحدهم يدفع الاخر خارج الطريق أو يوقعه أرضاً ،

فيتكوم عليه الآخرون . وبين بازكي وكرومكوفسكي كان ميتكا أول من شخص ذئباً يعبر الدون .

ـ انظروا ، ياأولاد . ذاك ذئب !

فشرع القوزاق الشباب يصرخون ويزعقون . فابتعد الذئب ببطء ، ثم توقف في وضع جانبي ليس بعيداً عن الضفة المقابلة .

ـ أمسكه !

ـ حقاً !

ـ ليأخذك الشيطان !

ـ إنه ينظر اليك ، ياميتكا ، أنت تمشي في جوربك .

ـ يقف في وضع جانبي لأن رقبته لاتسمح له بالاستدارة !

ـ يالرقبته الغليظة !

ـ انظر ، هو ذا يذهب !

وقف الهيكل الرمادي منتصباً لحظة ، كما لو كان منحوتاً من حجر الصوان وذيله مرتفع ، ثم قفز قفزة عجلى وانسل مبتعدًا داخل الصفصاف المؤطر للشاطىء .

وصلوا القرية في الغسق . فاتخذ غريغوري طريقه على امتداد الجليد الى الممشى الصاعد الى داره .كانت ثمة زحافة مهملة في الفناء ، وكانت العصافير ترفرف على كومة من الدغل ملقاة على مقربة من السياج . واستشعر رائحة المنزل ، والهباب المحروق ، ورائحة الاصطبلات الوخمة .

صعد غريغوري درجات الدار ونظر الى الداخل خلال النافذة . كان المصباح المدلى ينشر ضوءاً اصفر باهتاً في المطبخ . وكان بيوتر واقفاً في الضوء وظهره الى النافذة . فنفض غريغوري الثلج من جزمته بالمقشة عند الباب ، ودلف الى المطبخ وسط عصفة من البخار .

ـ حسنا ، هاأنذا قد عدت . مساء الخير !

فأجاب بيوتر بلهجة مضطربة مستعجلة :

ـ لقد عدت بسرعة . أحسب أنك متجمد .

كان بانتلاي بروكوفتش جالسا ورأسه بين يديه ، ومرفقاه على ركبتيه . وكانت داريا تغزل على الدولاب الطنان وناتاليا تقف الى المائدة وظهرها الى غريغوري ، ولم تستدر لدى دخوله . وأجال غريغوري نظره في أرجاء المطبخ ثم ثبت عينيه على بيوتر . ونمّ وجه أخيه المترقب عن حدوث شيء سيء .

ـ هل أقسمت اليمين ؟

ـ نعم .

خلع غريغوري ملابسه ببطء ، محاولاً كسب الوقت وهو يقلب بسرعة في ذهنه كل الاحتمالات التي تكون قد أدت الى هذا الاستقبال البارد الصامت .

وخرجت ايلينشنا من غرفة الزوار بوجه يعبر عن قلقها .

وحدث غريغوري نفسه فيما هو يجلس الى المصطبة الى جانب أبيه : «إنها نتاليا !»

وقالت أمه لداريا وهي تشير بعينيها الى غريغوري : «أحضري له بعض العشاء» فتوقفت داريا عن أغنية غزلها ، ومضت الى الموقد وقوامها الفتي يتمايل عند الخصر وهي تحرك بكتفيها . كان الصمت مطبقاً على المطبخ ، لا يقطعه سوى تنفس ثقيل لعنزة ووليدها الجديد التي تتدفأ بالقرب من الموقد .

وبينما كان غريغوري يرتشف حساءه ، اختلس النظر الى ناتاليا بيد أنه لم يستطع أن يرى وجهها ، اذ كانت تجلس منحرفة عنه ، ورأسها محني على إبر حياكتها . وكان بانتلاي بروكوفتش أول من استفزه الصمت الشامل ليتكلم فتنحنح بافتعال ، وقال :

ـ إن ناتاليا تتحدث عن عودتها الى والديها .

ضغط غريغوري بيده على بعض فتات الخبز وكوره ، ولم يقل شيئاً .

فتساءل أبوه وشفته السفلى ترتعش ، وهذه أولى علامات النذير بانفجار جنوني مقبل :

ـ ولم هذا ؟

فأجاب غريغوري وهو ينهض ويرسم علامة الصليب عليه ، ثم ضيق عينيه وأبعد قصعته :

ـ لست أدري .

فرفع أبوه صوته :

ـ لكنني أدري!

فتدخلت ايلينشنا :

ـ لا تصرخ ، لاتصرخ!

ـ لكنني أدري!

وتقدم بيوتر من النافذة الى وسط الغرفة وقال :

ـ ليس هناك مايدعو للصراخ . الأمر متروك لها . إذا أرادت البقاء يمكنها أن تبقى ، وإذا لم ترد ، حسناً... فليكن الله معها!

ـ إنني لا ألومها . لا شك أنه عار وخطيئة أمام الله أن تترك زوجها ، لكنني لا ألومها . ليس الخطأ خطأها ، لكن خطأ ابن القحبة هذا .

وأشار الى غريغوري الذي كان متكئاً بظهره على الموقد .

فتساءل غريغوري :

ـ لمن أسأت ؟

ـ ألا تعرف ؟ ألا تعرف ، ياشيطان ؟

ـ كلا لا أعرف .

فقفز بانتلاي بروكوفتش ، قالباً المصطبة ، ومضى لصق غريغوري . وأسقطت ناتاليا جوربها ، وندّ صوت عن الابر الساقطة على الارض . وعلى الصوت نطت قطيطة من الموقد وبدأت تطبطب كرة الصوف باتجاه الصندوق ، وقد مال رأسها الى جانب وتقوس مخلبها .

وبدأ العجوز يتكلم مسيطراً على نفسه ومقطعاً كلماته :

ـ ما أريد أن أقوله لك هو : إذا لم تعش مع ناتاليا ، فبوسعك ان تجلو عن هذه الدار وتذهب حيثما تحملك قدماك . هذا ما أقوله لك . اذهب حيثما تحملك قدماك . ـ كرر العجوز ذلك في صوت هادىء ، عادي ، ثم استدار وعدّل المصطبة .

كانت دونيا جالسة على الفراش وعيناها المستديرتان المذعورتان تمرقان من واحد الى آخر .

وانبعث صوت غريغوري خاوياً في نبرته :

ـ إن ما أقوله ياأبتاه ، ليس لإثارة غضبك . أنا لم أتزوج باختياري ، أنت الذي زوجتني . أما بشأن ناتاليا فلست أقف في طريقها . تستطيع ان تذهب الى أبيها إذا شاءت .

ـ أخرج من هنا !

ـ سأفعل !

ـ اذهب الى الشيطان !

ـ انا ذاهب ، انا ذاهب ، لاتستعجل .

ومد غريغوري يده الى كم سترته الفرو ، الموضوعة على السرير ، وتوسع منخراه ، وكل بدنه يرتجف غضباً فائراً كأبيه تماماً . ففي عروقهما جرى ذات المزيج من الدم التركي والقوزاقي ، كان تشابههما في تلك اللحظة خارقاً للعادة .

وتأوهت ايلينشنا وهي تمسك بذراع غريغوري : «أين ذاهب ؟» لكنه دفعها عنه بقوة ، وأمسك بقبعته التي كانت تسقط عن السرير .

فأرعد العجوز دافعاً الباب على مصراعيه :

ـ دعيه يذهب ، هذا الخنزير الأثيم! دعيه يذهب ، عليه اللعنة! امض ، امض ، اخرج .

فجرى غريغوري الى درجات العتبة ، وكان آخر صوت سمعه ، بكاء ناتاليا المرتفع المتفجر .

أطبقت الليلة الزمهرية قبضتها على القرية ، وكان هناك ثلج إبري سقط من السماء السوداء ، وتشقق الجليد على الدون مرسلاً صدى كطلقات مدفع . ركض غريغوري لاهثاً خارج البوابة . وفي طرف القرية البعيد كانت الكلاب تنبح متنافرة ، ونقاط من الضوء صفر ، تشع خلال الغبش الصقيعي .

سار في الشارع بلا هدف . كان سواد نوافذ استاخوف يتلألأ في لمعان ماسي .

وتناهت الى سمعه صرخة ناتاليا اللهفى من البوابة : «غريشا!»

ـ اذهبي الى الجحيم ، لم أعد أحبك! ـ وصر غريغوري على أسنانه واستحث خطاه .

ـ عد ، ياغريشا!

ودلف ، متعثراً كالسكران ، في أول تقاطع طريق ، وتناهت إليه للمرة الأخيرة صرختها النائية الملتاعة :

ـ غريشا ، يا حبيبي...

اجتاز الساحة مسرعاً ، ثم توقف عند مفترق طريق ، مفكراً عند من يقضي الليلة . واستقر رأيه على ميشا كوشيفوي . كان يعيش مع أمه وأخته وأخويه الصغيرين في دار منفردة مسقوفة بالقش تقع الى جانب التل مباشرة . دخل غريغوري إلى حوشهم ونقر على النافذة الصغيرة...

ـ من هناك ؟

ـ هل ميشا هنا ؟

ـ نعم ، من يريده ؟

ـ أنا ، غريغوري ميليخوف .

وبعد لحظة فتح ميشا الباب وقد أوقظ من بداية نومه العميق :

ـ أهذا هو أنت ، غريشا ؟

ـ هو أنا .

ـ ماذا تريد في هذا الوقت من الليل ؟

ـ دعني أدخل ، وسنتحدث في الداخل .

وفي الممر ، أمسك غريغوري بمرفق ميشا ، وهمس وهو يلعن نفسه لأنه لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة :

ـ أريد أن أقضي الليلة عندك . لقد تعاركت مع أهلي . ألديك مكان لي ؟ أي مكان سيكون صالحاً .

ـ سنجد لك مكاناً . وعلام تعاركت ؟

ـ سأخبرك فيما بعد... أين الباب ؟ هنا ؟ أنا لا أستطيع أن أراه .

أعدوا فراشاً لغريغوري على المصطبة . فاستلقى ، ورأسه مدسوس تحت فروته لكي لا يسمع همس أم ميشا التي كانت تنام مع ابنتها في فراش واحد . ساءل نفسه عما عسى أن يحدث في البيت آنذاك ؟ هل ستعود ناتاليا الى أبيها أم لا ؟ حسناً ، لقد اتخذت الحياة منحى جديداً . أين عليه أن يذهب ؟ وجاءه الجواب سريعاً . سيستدعي أكسينيا في الغد ، ويذهب معها الى الكوبان ، بعيداً من هنا... بعيداً ، بعيداً جداً...

طافت أمام عيني غريغوري المغمضتين سهوب متموجة ، قرى ، قصبات مجهولة لا يشعر نحوها بحب . وراء التلال المتموجة ، وراء الدرب الرمادي الطويل ، تمتد أرض ذات سماوات زرق ، ترحب به ، أرض أسطورية ، مصحوبة بحب أكسينيا ، بكل عنفوانه المتمرد والمتفتح في وقت متأخر ، ليضفي عليها فتنة أشد .

أقض المستقبل المجهول مضجعه . وقبل أن يغفو في النهاية ، حاول جاهداً أن يتذكر ما كان يضايقه . كانت أفكاره ، وهو وسنان تنساب بسهولة ويسر ، كما ينساب زورق مع التيار ، ثم ترتطم فجأة بشيء ما ، كما يرتطم الزورق بضفة رملية ، فيتقلب من جنب الى جنب شاعراً بضغط على صدره وساءل نفسه . ترى ، ماكان ذلك الشيء الذي اعترض دربه ؟

استيقظ في الصباح وتذكر في الحال ماهو ـ إنه الخدمة العسكرية! كيف

يستطيع أن يرحل مع أكسينيا ؟ فثمة في الربيع معسكر التدريب ، وفي الخريف تجنيده في الجيش . ذلك هو العائق في دربه .

تناول بعض الإفطار ، ثم نادى ميشا إلى الممر ، وقال له :

ـ ميشا ، اذهب الى دار استاخوف من أجلي ، رجاء ؟ قل لاكسينيا أن توافيني عند الطاحونة الهوائية هذا المساء بعد حلول الظلام .

فقال ميشا متردداً :

ـ ولكن ماذا عن ستيبان ؟

ـ قل إنك جئت لأمر أو لآخر .

ـ حسناً ، سأذهب .

ـ أخبرها أن لا بد من المجيء .

ـ حسناً .

وفي المساء ، ذهب غريغوري الى الطاحونة وجلس هناك يدخن ، وهو يخبيء سيكارته بكمه ، كانت الريح تتعثر ، وراء الطاحونة بعيدان الذرة الذاوية . وخفقت خرقة ممزقة من الجنفاص على شراع الطاحونة الساكن المقيد . وبدا لغريغوري كأن طائراً كبيراً يرفرف فوقه ، دون أن يقوى على الطيران . لم تظهر أكسينيا . كانت الشمس قد غابت في المغرب بلون بنفسجي مذهب ذاو ، ومن الشرق شرعت الريح تهب منعشة . وكانت الظلمة تستبق القمر المضفور بين أوراق الصفصاف . وفوق الطاحونة ، كانت السماء المخضبة ، ذات الخطوط الزرق ، مظلمة كالموت . وحومت على القرية آخر أصوات النهار المليء بالعمل .

دخن ثلاث سكاير متوالية ، ودس العقب الأخير في الثلج الذي وطأته الأقدام ، وتفرس حوله بحقد وقلق . وبدت في الثلج آثار دكناء نصف مذابة لعربات مرت من هناك . لم يكن ثمة إنسان على مرمى البصر . قام ، وتمطى ، وتحرك صوب الضياء المتلألىء في نافذة ميشا الذي كان يدعوه إليه . وكان يتقدم ناحية الحوش ، وهو يصفر بين أسنانه ، فاذا به يصطدم

باكسينيا وجهاً لوجه . يبدو أنها كانت تجري أو كانت تمشي بسرعة ، إذ كانت مبهورة النفس ، تنبعث من فمها البارد المنعش نفحة من ريح الشتاء أو ربما رائحة عشب السهب النضر .

ـ انتظرت وانتظرت حتى ظننت أنك لن تأتي .

ـ كان عليّ أن أتخلص من ستيبان .

ـ لقد تجمدت بسببك أيتها البائسة!

ـ أنا دافئة ، سأدفئك .

ونشرت معطفها المبطن بالصوف ، ولفت نفسها حول غريغوري كما يلتف نبات متسلق على شجرة بلوط .

ـ لماذا أرسلت إلي ؟

ـ ارفعي ذراعيك عني ، فقد يمر شخص من هنا .

ـ لعلك تعاركت مع أهلك ، أليس كذلك ؟

ـ لقد تركتهم . قضيت الليلة عند ميشا . وأنا الآن كلب ضال .

ـ وما الذي ستفعل الآن ؟

وأرخت اكسينيا ذراعيها ، وسحبت معطفها بإحكام وهي ترتعش برداً .

ـ لنذهب الى السياج ، ياغريشا . لا نستطيع أن نظل واقفين هنا في وسط الطريق .

وانعطفا عن الطريق ، واستند غريغوري الى سياج من الاسفندان ، صقيعي مطقطق ، وهو يشق طريقه في الثلج المكتوم .

ـ هل ذهبت ناتاليا الى أهلها أم لا ؟

ـ لاأعرف... وأتوقع أن تذهب . كيف يمكنها أن تبقى هناك ؟

ودس غريغوري يد اكسينيا المتجمدة في كم معطفه ، وقال وهو يعتصر رسغها النحيف :

ـ وماذا بشأننا ؟

ـ لاأدري ، ياعزيزي . الرأي ماترتأي .

ـ هل تتركين ستيبان ؟

ـ بلا آهة ندم . هذا المساء ، إن شئت .

ـ وسنجد عملاً في مكان ما ، وسوف نعيش بشكل من الأشكال .

ـ عسى أن يشدني الى عريش العربة ، مادمت معك ، ياغريشا . أرضى بأي شيء في سبيل أن أبقى معك .

وقفا متلاصقين ، يدفيء أحدهما الآخر . لم يشأ غريغوري أن يذهب ، كان يقف مواجهاً الريح ، ومنخراه يرتعشان ، وجفناه مطبقان وجعلت أكسينيا ، وجهها في ابطه ، تتنسم رائحة عرقه المألوفة المسكرة ، وعلى شفتيها الشرهتين بلا حياء ، ارتعشت ابتسامة جذلى بسعادة متحققة أخفتها عن عيني غريغوري .

وقال غريغوري وهو يغير موضع قبضته على رسغ اكسينيا الذي صار رطباً بالعرق تحت أصابعه :

ـ سأذهب في الغد لأرى موخوف . قد يستطيع أن يسند إليّ عملاً .

لم تتكلم اكسينيا أو ترفع وجهها . وانداحت الابتسامة من وجهها كريح تتبدد . وأضفى على عينيها المتسعتين القلق والخوف الكامنان فيهما ، صورة حيوان مذعور . وقالت لنفسها حينما تذكرت بأنها حبلى : «هل أخبره أم لا ؟» وقررت : «يجب أن أخبره» لكنها ، في الحال أبعدت الخاطر الفظيع وهي ترتعش خوفاً . فقد تحسست بغريزة المرأة بأن هذه ليست اللحظة المناسبة لإخباره ، وأدركت أنها قد تفقد غريغوري الى الأبد . وأدخلت في حسابها أنها غير متأكدة ما إذا كان الجنين المتوثب تحت فؤادها ابن غريغوري أو ستيبان ، فراوغت ضميرها ولم تخبره .

سألها غريغوري وهو يلف معطفه حولها : ـ لم ترتعشين ؟ أنت بردانة ؟

ـ قليلاً... ويجب أن أذهب ، ياغريشا . سيعود ستيبان ولا يجدني .

ـ أين ذهب ؟

ـ الى بيت انيكاي ليلعب الورق . أرغمته على ذلك .

وافترقا . وبقيت نفحة شفتيها المثيرة على شفتي غريغوري... نغمة الريح الشتائية ، أو ربما تلك الرائحة النائية التي تنبعث من العشب عقب زخة مطر ربيعية على السهب .

انعطفت اكسينيا في درب جانبي ، ومضت ، منحنية بشدة وهي تكاد تعدو . وبالقرب من بئر ، حيث كانت القطعان قد خلطت الوحل الخريفي ، تعثرت بارتباك وزلت قدمها فوق كتلة متجمدة ، فأحست بألم حاد في بطنها وتعلقت بالسياج . ثم تلاشى الألم ، لكن في جنبها كان ثمة شيء ما ، حي مختلج ، يدفر ، بغضب وقوة ، مرة تلو الأخرى .

١١

في الصباح التالي ، ذهب غريغوري ليرى موخوف . وكان موخوف قد عاد لتوه من الحانوت ، وكان يجلس مع اتيوبين في غرفة الطعام ، ذات الحيطان المغطاة بورق نفيس بلوطي اللون ، وهو يرتشف شاياً ثقيلاً ، بنفسجياً محمراً ترك غريغوري قبعته في الردهة ودخل .

ـ لي كلمة معك ، يا سيرغي بلاتونوفتش .

ـ اه ، ابن بانتلاي ميليخوف ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ ماذا تريد ؟

ـ جئت أسألك ان كنت تستطيع أن تسند لي عملاً .

وبينما كان غريغوري يتكلم ، صر الباب فادار رأسه ورأى ضابطاً شاباً يرتدي سترة عسكرية خاكية وعلى كتفه شارات ملازم أول وفي يده جريدة مطوية . وتبين غريغوري فيه ليستنتسكي الشاب الذي غلبه ميتكا كورشونوف في سباق الخيل في الصيف الماضي . فقدم موخوف كرسياً للضابط ، والتفت ثانية الى غريغوري ، وتساءل :

ـ هل جارت الدنيا على أبيك ليدفع ابنه للعمل ؟
ـ أنا لم أعد أعيش معه .
ـ تركته ؟
ـ نعم .
ـ حسناً ، كان بودي لو آخذك . انني أعرف أن عائلتك أناس مجدون لكنني أخشى أن ليس لدي أي عمل لك .
فتساءل ليستنتسكي جالساً وناظراً الى غريغوري :
ـ ماالأمر ؟
ـ هذا الفتى يبحث عن عمل .
فسأل الضابط وهو يحرك ملعقته في فنجانه :
ـ أتستطيع أن تعنى بالخيل ؟ أتستطيع أن تقودها مشدودة على العربة ؟
ـ أستطيع . فقد كنت أعنى بخيولنا الست .
ـ أريد حوذياً . ماهي شروطك ؟
ـ لاأطمع بالكثير .
ـ في هذه الحالة ، تعال الى والدي في ضيعتنا غداً . أتعرف البيت ؟
ـ أجل ، أعرف ذلك .
ـ حوالي اثني عشر فرسخاً من هنا . إذن ، تعال غداً صباحاً وسنسوي الأمر .
مضى غريغوري الى الباب . وفيما أدار المقبض ، تردد ، وقال :
ـ بودي أن أسر إليك بشيء فيما بيننا ، ياصاحب السعادة .
فتبع ليستنتسكي غريغوري خارجاً من الممر المعتم . كان ثمة ضياء وردي يترشح باهتاً خلال الزجاج الفينيسي في الباب المؤدي الى الشرفة .
ـ حسنا ، ماذا تريد ؟
ـ لست وحدي... . ـ واحمر وجه غريغوري بشدة ـ معي امرأة... . ربما تستطيع ان تجد شيئا تعمله ؟

فاستفهم ليستنتسكي مبتسماً ورافعاً حاجبيه اللذين صبغهما الضوء الوردي .

ـ زوجتك ؟

ـ زوجة شخص آخر… .

ـ اوه ، هكذا . حسناً ، سنجعلها طاهية للخدم . ولكن أين زوجها ؟

ـ هنا في القرية .

ـ إذن فقد سرقت زوجة رجل آخر ؟

ـ هي أرادت أن تأتي .

ـ قصة غرام! حسناً ، تعال غداً . تستطيع أن تذهب الآن .

وصل غريغوري الى ضيعة ياغودنويه حوالي الساعة الثامنة صباح اليوم التالي .

وكان الفناء الكبير محاطاً بحائط من طابوق متقشر تناثرت عليه مختلف البنايات . كان هناك جناح ذو سقف قرميدي ، سجل تاريخ ١٩١٠على قرميدة من لون آخر فيه ، وهناك جناح للخدم ، وحمام ، واصطبلات ، وبيت للدجاج وحظيرة للماشية ، ومخزن طويل للحبوب ومأوى للعربات . كان البيت واسعاً وقديماً ، وقد استقر وسط بستان . وراء البيت ارتفع جدار رمادي من أشجار الحور الجرد وصفصاف المروج ، تتأرجح من قممها البنية أعشاش زاغ فارغة .

ما أن دخل غريغوري الى الفناء حتى استقبله حشد من الكلاب السوداء القرمية* . وكانت ثمة كلبة عجوز ، دبقة العينين ، عرجاء أول من تشممته وتبعته مدلاة الرأس . وفي جناح الخدم كانت طباخة تتشاجر مع خادمة نمشاء شابة . وكان يجلس على عتبة الباب عجوز ريفي غليظ الشفتين ، تلفه سحابة من دخان التبغ . قادت الخادمة غريغوري الى البيت . وفاح البهو

---

* كلاب صيد روسية يؤتى بها من شبه جزيرة القرم . المترجمون

برائحة الكلاب والفراء الرطب . وعلى منضدة هناك كانت حقيبة بندقية ذات ماسورتين وحقيبة صيد ذات كشكش حريري أخضر تآكلت أطرافه .

قالت الخادمة لغريغوري خلال باب جانبي : «السيد الشاب يدعوك للدخول» .

فنظر غريغوري بقلق الى جزمته الموحلة ، ودخل . كان ليستنتسكي مستلقياً على سرير الى جانب النافذة . وكانت على اللحاف المحشو بريش البط القطبي ، علبة تحتوي تبغاً وأدوات تدخين . أعد الضابط سيكارة له ، وزرر ياقة قميصه الأبيض ، وقال :

ـ جئت قبل الموعد . انتظر فسيراك أبي هنا خلال دقيقة . وقف غريغوري بجانب الباب . وسرعان ما سمع وقع أقدام في غرفة الانتظار وصوتاً عميقاً يتساءل خلال الباب : «أنائم أنت ، يا يفغيني ؟»

ـ ادخل .

ودخل عجوز يرتدي حذاء لبادياً أسود قفقاسياً ، فرمقه غريغوري بنظرة جانبية . وسرعان ما اصطدم بالأنف المعقوف الأقنى ، والقوس الأبيض لشاربه ذي البقعة الصفراء تحت الأنف من أثر التبغ . كان ليستنتسكي العجوز طويلاً . عريض المنكبين . إلا أنه ضامر . كان يرتدي قمصلة طويلة من وبر الجمال ، تدلت في انسياب ، وياقتها تلتف كالأنشوطة على رقبته المجعدة السمراء . وكانت عيناه الذابلتان قريبتين إلى جسر أنفه .

ـ بابا ، ها هو الحوذي الذي حدثتك عنه . الفتى من عائلة محترمة .

فتساءل العجوز بصوت هادر :

ـ ابن من هو ؟

ـ ابن ميليخوف .

ـ أي ميليخوف .

ـ ابن بانتلاي ميليخوف .

ـ كنت أعرف بروكوفي . وأتذكر بانتلاي أيضاً . أعرج ، أليس كذلك ؟

فأجاب غريغوري ، وهو ينتصب كوتر .

ـ أجل ، يا صاحب المعالي .

واستعاد غريغوري حكايات أبيه عن الجنرال المتقاعد ليستنتسكي ، أحد أبطال الحرب الروسية التركية .

تساءل العجوز :

ـ لماذا تبحث عن عمل ؟

ـ أنا لا أعيش مع أبي ، يا صاحب المعالي .

ـ أي قوزاقي ستكون إذا أجرت نفسك للغير ؟ ألم يزودك أبوك بشيء حينما تركته ؟

ـ لا ، يا صاحب المعالي .

ـ هذا أمر آخر . تريد عملا لزوجتك كذلك ؟

صر سرير ليستنتسكي الشاب بقوة ، فنظر غريغوري باتجاهه ورأى الضابط يغمز له ، ويحرك رأسه بالإيجاب .

ـ هذا صحيح ، يا صاحب المعالي .

ـ بلا «معاليك» هذه ، أنا لا أحبها . ستكون أجرتكما ثمانية روبلات شهرياً ، ستطهو زوجتك الطعام للخدم والشغيلة الموسميين . أيرضيك هذا ؟

ـ نعم .

ـ انتقل الى هنا صباح الغد . ستشغلان جناح الحوذي السابق .

وسأل ليستنتسكي أباه ، وهو ينزل قدميه الضيقتين الى السجادة :

ـ كيف كان الصيد يوم أمس ؟

ـ بدأنا بمطاردة ثعلب وطاردناه الى الغابة ، لكنه كان عجوزاً واستطاع أن يخدع الكلاب .

ـ أما يزال كازبك يحجل ؟

ـ لا بد أن عظام قدمه قد انخلعت . هيا ، يفغيني ، الفطور سيبرد .

واستدار العجوز نحو غريغوري وطق أصابعه الهزيلة .
ـ عادة سر! كن هنا في الثامنة .
وخرج غريغوري . في الطرف البعيد لمخزن الحبوب ، كانت كلاب الصيد تتشمس على رقعة من الأرض عارية من الثلج . وجاءت الكلبة العجوز تخب نحو غريغوري ، فتشممته من الخلف وتبعته قليلاً ورأسها ما يزال مدلى بشكل يدعو للأسى ، ثم قفلت عائدة .

١٢

فرغت اكسينيا من المطبخ مبكرة . جرفت الجمر وأغلقت المدخنة وغسلت الصحون ، وألقت نظرة عجلى خلال الشباك المطل على الحوش . كان ستيبان يقف الى جانب كومة الخشب الملاصقة للسياج الذي يفصل حوشهم عن حوش ميليخوف ، وقد تدلت من زاوية شفتيه الصارمتين سيكارة دخنت الى النصف . كانت زاوية الحظيرة اليسرى قد تهدمت ، وكان يجب وضع عمودين متينين .
عملت اكسينيا ذلك الصباح ووجنتاها موردتان وفي عينيها بريق فتي . ولاحظ ستيبان التحول عليها ، ولم يستطع أثناء فطوره ، إلا أن يتساءل : « ماذا بك ؟ »
فرجعت اكسينيا صداه ، متوردة الوجه « ماذا بي ؟ »
ـ إن وجهك يتلامع وكأنك لطخته بالدهن .
ـ إنها حرارة النار .
وأشاحت وجهها عنه واختلست نظرة عبر الشباك لترى إن كانت أخت ميشا كوشيفوي قادمة .
لكن الفتاة لم تصل إلا عند الغروب . وكان الانتظار قد أمض اكسينيا ، فابتدرتها قائلة :
ـ أتريدينني ، يا ماشوتكا ؟

ـ تعالي لحظة .

كان ستيبان واقفاً أمام قطعة مرآة مثبتة على الموقد المبيض بالجبس يمشط خصلته وشاربه الكستنائي بمشط قصير مصنوع من قرن الثور . نظرت اكسينيا نحوه في قلق .

ـ أتريد أن تخرج ؟

لم يجب في الحال ، بل وضع المشط في جيب بنطلونه ، والتقط علبة ورق وكيس تبغه اللذين كانا ملقيين على حافة الموقد . ثم قال :

ـ أنا ذاهب الى انيكوشكا لبعض الوقت .

ـ ومتى بقيت في البيت ؟ أنت تقضي كل ليلة في لعب القمار ، وطوال الليل ، أيضاً . حتى صياح الديوك .

ـ حسناً ، لقد سمعت هذا الكلام من قبل .

ـ هل ستلعب البونثون من جديد ؟

ـ اوه ، كفى ، اكسينيا ، انظري ، ثمة من جاء ليراك .

فتراجعت اكسينيا الى الممر . حيتها ماشوتكا ذات الوجه الوردي وهي تبتسم .

ـ عاد غريشا .

ـ طيب ؟

ـ طلب مني أن أبلغك بالحضور الى منزلنا حالما يحل الظلام .

فأمسكت اكسينيا يد الفتاة وسحبتها صوب الباب الخارجي وقالت :

ـ على مهلك ، على مهلك ، ياعزيزتي! هل طلب أن تقولي شيئاً آخر ؟

ـ قال أن عليك أن تجمعي حوائجك ، وتأخذيها معك .

فألقت اكسينيا نظرة سريعة ناحية باب المطبخ وهي تلتهب وترتعد دون أن تستطيع تثبيت قدميها على الأرض .

ـ ياإلهي ، كيف يمكنني أن... بهذه السرعة ؟ طيب... اسمعي . أخبريه أنني سأحضر حالما أستطيع . ولكن أين سيلقاني ؟

ـ عليك أن تأتي الى منزلنا .

ـ أوه ، لا!

–حسناً ، سأخبره أن يخرج وينتظرك .

كان ستيبان قد ارتدى سترته حينما دخلت اكسينيا ، ومد جسمه الى مصباح متدل من السقف ليشعل سيكارته ، فسألها بين نفثتين من سيكارته :

ـ ماذا تريد ؟

ـ من ؟

ـ ابنة كوشيفوي .

– اوه ، جاءت تسألني أن أفصل لها تنورة .

اتجه ستيبان الى الباب وهو ينفض سيكارته . وقال فيما مضى خارجاً : «لا تنتظري رجوعي ونامي» .

جرت اكسينيا الى النافذة المغطاة بالجمد وجثت على ركبتيها أمام المصطبة . خشخشت أقدام ستيبان على الممشى المسحوق بالأقدام وهو يتجه الى البوابة . وحملت الريح شرارة من سيكارته وعادت بها الى النافذة . واختطفت اكسينيا نظرة في ضوء سيكارته الى قبعته الفرو ومخطط وجنته السمراء ، خلال دائرة على الزجاج ذاب عنها الجمد .

وبحركة محمومة أخرجت السترات والتنورات وعصابات الرأس ـ أي جهاز عرسها ـ من الصندوق الكبير وألقت بالجميع في شال واسع . وعبرت خلال المطبخ للمرة الأخيرة ، لاهثة ، متوحشة العينين ، ظهر شخص ما من بيت ميليخوف ليرى الماشية . فتريثت حتى تلاشى وقع أقدامه ، وقيدت الباب بالسلسلة ، ثم جرت هابطة الى الدون . ونفرت خصلات ملفوفة من شعرها من عصابة رأسها وجعلت تدغدغ وجنتها ، وبينما كانت تلمس دربها عبر أزقة جانبية نحو كوخ كوشيفوي ، ممسكة بصرة حوائجها ، اضمحلت قواها وصارت قدماها تشحطان ثقيلتين كالرصاص . كان غريغوري ينتظرها عند البوابة . أخذ الصرة ومضى بها نحو السهب ، صامتاً .

بعد ساحة درس الحبوب ، أبطأت اكسينيا خطاها وجذبت غريغوري وقالت : «انتظر لحظة» .

ـ لماذا ؟ سيتأخر القمر الليلة ، يجب أن نسرع .

ـ انتظر ، غريشا!

وتوقفت ، وهي تتلوى من الألم . فاستدار غريغوري نحوها .

ـ مابك ؟

ـ شيء ما... في أحشائي . لابد أنني رفعت شيئاً ثقيلاً .

لعقت شفتيها الجافتين ، وهي تضيق عينيها من الألم وكأنها ترى إبراً من النار ، وأطبقت يديها على بطنها . ووقفت لحظة ، مقوسة وبائسة ، ثم استأنفت سيرها وهي تدس شعرها تحت عصابتها .

ـ حالتي حسنة الآن ، هيا بنا .

ـ لم تسألي إلى أين أنا ماض بك . ربما أقودك الى أقرب منحدر لألقيك من فوقه .

ـ سيان لدي الآن . انتهت لعبتي .

وكان صوتها يرتعش بضحكة بائسة .

في تلك الليلة عاد ستيبان في منتصف الليل كعادته . ذهب بادىء الأمر الى الاصطبل ، وأعاد التبن المتناثر الى المعلف ، وحل مقود الحصان ، ثم مضى الى الدار . وقال في نفسه وهو يحل السلسلة : «لا بد أنها خرجت لتزجية المساء» . دخل المطبخ وأغلق الباب بإحكام ، وأشعل عود ثقاب . كان حظه في اللعب مؤاتياً ذلك المساء ، ولهذا كان هادئاً نعسان . أضاء المصباح ، وفغر فاه إزاء اضطراب المطبخ ، دون أن يخمن السبب . وبشيء من الاستغراب ، مضى الى حجرة كبيرة . كان الصندوق المفتوح متثائباً وأعماقه سوداً ، وعلى الأرض سترة عتيقة نسيتها اكسينيا في غمرة استعجالها . نزع ستيبان فروته عنه وركض الى المطبخ ليحضر الفانوس . حملق ببصره في أرجاء الغرفة ، وأخيراً أدرك ماحدث . ألقى الفانوس من

يده ، ومن غير أن يعي مايفعل ، انتزع سيفه من الحائط ، وضغط على مقبضه حتى انتفخت العروق في أصابعه ورفع على نصله سترة اكسينيا الزرقاء والصفراء ، وطوح بها في الهواء ، وبأرجحة قصيرة من سيفه شطرها نصفين أثناء سقوطها .

وفي غمرة حزنه الذئبي الذي أحال ملامحه رمادية ، متوحشة قذف شقتي السترة العتيقة الى السقف مرة بعد مرة ، والفولاذ الحاد يصفر وهو يمزقها في الهواء .

ثم مزق شرابة السيف وألقى به الى الزاوية ، ومضى الى المطبخ ، وجلس الى المائدة منكس الرأس ، وبأصابع حديدية مرتجفة جعل يخط على وجه المائدة المتسخ .

١٣

إن المتاعب لا تأتي فرادى أبداً . ففي الصباح الذي تلا رحيل غريغوري ، مزق ثور ميرون غريغوريتش الأصيل بقرنيه بلعوم أحسن فرس لديه ، بسبب من إهمال هيت ـ بابا . فهرع هذا راكضاً الى البيت ، شاحباً ، مذهولاً مرتعداً :

ـ مصيبة ، ياسيدي! الثور ، عليه اللعنة ، الثور الملعون...

فتساءل ميرون غريغوريتش فزعاً :

ـ طيب . ماذا عن الثور ؟

ـ قتل الفرس . نطحها...

فجرى ميرون غريغوريتش ، الى الفناء دون أن يكمل ارتداء ملابسه . كان ميتكا الى جوار البئر يضرب العجل ابن الخمس سنوات بعصا . وكان الثور منكس الرأس يجر جلد رقبته المتغضن على الثلج ، وهو يدفر الثلج باظلافه ناثراً مسحوقاً فضياً على ذيله المرفوع ، ولم يحاول أن يتحاشى

الضرب . كان يخور بين الفينة والفينة بصوت أبح قصير . ويركز قدميه الخلفيتين كما لو أنه سيقفز .

كان خواره على وشك أن يتحول الى زئير مدو . ضربه ميتكا على أنفه وجبينه ، وهو يسب طوال الوقت ، غير عابىء بميخي الذي كان يحاول جره الى الوراء من نطاقه .

ـ ابتعد ، يا ميتكا... لخاطر الله ، سيبقرك! ياسيدي . ماذا تنتظر ؟

ركض ميرون الى البئر . كانت الفرس واقفة الى جانب السياج ورأسها مدلى بشكل يستدعي الأسى وكان جنباها المعتمان بالعرق يرفعان ويهبطان ، والدم ينهمر من رقبتها على صدرها . وكان ظهرها الفاقع وجنباها يرتجف مسبباً رعشات قوية في حقوها

جرى ميرون غريغوريتش ليرى رقبتها ، كان ثمة جرح فاغر في رقبتها ، وردي اللون ، يسع يد إنسان ، ويكشف عن قصبتها الهوائية . أمسكها ميرون غريغوريتش من ناصيتها ورفع رأسها ، فثبتت الفرس عينيها البنفسجيتين اللامعتين في سيدها وكأنها تسأله في خرس : «ماذا بعد ؟» وصاح ميرون غريغوريتش وكأنه يرد على سؤالها : «اجر وقل لأحدهم أن يسلق شيئاً من لحاء البلوط . أسرع!»

فركض هيت ـ بابا ، وجوزة عنقه ترتجف في رقبته القذرة ، ليكشط بعض اللحاء من شجرة ، ومضى ميتكا صوب أبيه ، وإحدى عينيه مثبتة على الثور ، وهو يدور ويخور في أرجاء الفناء .

أمره أبوه : «أمسك الفرس من ناصيتها . ليركض شخص فيجلب خيطاً من القنب بسرعة! أم تراكم تريدون صفعة على وجوهكم ؟»

ربطوا الخيط بإحكام حول شفة الفرس العليا ، المخملية ذات الشعر القليل ، لكي لا تشعر بالألم .

وجاء غريشاكا العجوز يحجل . وجيء بمحلول ، بلون ثمر البلوط في طاس مصبوغ .

ـ دعوه يبرد . إنه شديد الحرارة ، أليس كذلك ؟ ميرون ، أتسمعني ؟

ـ ادخل ، يا أبتاه . سيصيبك البرد هنا .

ـ أقول لك دعه يبرد . أتريد أن تقتل الفرس ؟

غسلوا الجرح . وبأصابع متجمدة ، نظم ميرون غريغوريتش خيطاً من القنب الخام في إبرة للرتق ، ودرز الحواف ، بشكل نظيف ، وما كاد يخطو عدة خطوات مبتعداً من البئر حتى جاءت زوجته تعدو من البيت ، والذعر بارز على خديها المترهلين الشاحبين .

ودعته وانتحت به جانباً .

ـ ميرون ، ناتاليا هنا... آه ، ياربي!

فتساءل ميرون غريغوريتش شاحب الوجه :

ـ والآن ، ماذا حدث ؟

ـ إنه غريغوري... لقد ترك بيته!

ونشرت لوكينشنا ذراعيها كزاغ يتهيأ للطيران وصفقت يديها على تنورتها ، وانفجرت تعول :

ـ يالفضيحتنا أمام القرية كلها! ياإلهي ، أية نازلة! آه!...

وجد ميرون غريغوريتش ناتاليا واقفة وسط المطبخ ، وعليها شال ومعطف شتائي قصير ، وفي عينيها نبعت دمعتان ، وكان خداها متوردين بلون عميق .

قال أبوها معتدأ وهو يجري الى الغرفة :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ هل ضربك زوجك ؟ ألا تستطيعان العيش معاً!

ـ رحل!

وأنّت ناتاليا ، وهي تبلع دمعات جافة ، وترنحت وارتمت على ركبتيها أمام أبيها

ـ أبي ، حياتي تهدمت... أعدني إليك... غريغوري رحل مع تلك المرأة . . هجرني . أبي ، سحقني في التراب!

تمتمت بسرعة ، وهي تحدق في لحية أبيها الحمراء في الأعلى متضرعة .

ـ مهلاً ، مهلاً ، الآن...

ـ ليس ثمة لي ماأعيش من أجله هناك . أعدني إليك!

وزحفت على ركبتيها الى الصندوق وألقت رأسها على ذراعيها . وسرحت عصابتها عن رأسها فسقط شعرها الأسود السبط الأملس فوق أذنيها الشاحبتين ، والدموع في مثل هذه الحالات كالمطر في جدب أيار . ضغطت الأم رأس ابنتها على بطنها الخاسفة ، هامسة بكلمات أمومية حمقاء للتهدئة ، لكن ميرون غريغوريتش جرى هائجاً ، الى درجات العتبة ، وصاح :

ـ أعدوا زحافتين!

وكان ثمة ديك على الدرجات قد حط ، منكباً ، على ظهر دجاجة ، فطار على الصيحة وقفز مبتعداً ، وسار نحو مخزن الحبوب وهو يصيح في سخط .

ـ أعدوا زحافتين!

وجعل ميرون غريغوريتش يرفس مرة وأخرى على الدرابزين المنقوش لسلم الباب حتى هشمه بصورة بائسة . ولم يعد الى البيت الا بعد أن هرع هيت ـ بابا خارجاً من الاصطبلات بزوج من الخيل وهو يعدهما أثناء عدوه .

ركب ميتكا وهيت ـ بابا عربة الى آل ميليخوف لإحضار ما يخص ناتالي . وأطار هيت ـ بابا في شروده خنزيراً صغيراً في الطريق . وكان يقول لنفسه : «ربما سينسى السيد كل شيء حول الفرس ، وهو الآن مهتم بأمر ابنته» ، وأرخى العنان في بهجة ثم تجهم وجهه وتلوت شفته حين تغير مجرى أفكاره : «لكنه شيطان عجوز لن ينسى» . وحث الخيل بصياحه وحاول أن يصفع بسوطه أرق أجزاء بطن الحصان .

١٤

كان يفغيني ليستنتسكي يشغل رتبة ملازم أول في كتيبة حرس الاتمان الخاص . وحينما كبا أثناء سباق الموانع للضباط وكسرت ذراعه اليسرى ، أخذ إجازة طويلة بعد خروجه من المستشفى وذهب ليقيم مع أبيه مدة ستة أسابيع .

وكان الجنرال العجوز يعيش بمفرده في ياغودنويه ، وكان قد فقد زوجته أثناء ركوبها عربتهما في ضواحي وارشو في ثمانينات القرن التاسع عشر ، إذ لم تصبه الطلقات التي وجهت إليه ، إنما اخترقت العربة وصرعت زوجته والحوذي وبقي ليستنتسكي وابنه يفغيني ابن العامين على قيد الحياة . وسرعان ما اعتزل الجنرال منصبه بعد هذا الحادث . وهجر ضيعته في اقليم ساراتوف ، وكانت قد منحت لجده الأكبر مكافأة لخدماته أثناء حرب عام ١٨١٢ ، وانتقل الى ياغودنويه حيث عاش حياة متقشفة صارمة .

أرسل ابنه يفغيني الى الكلية العسكرية وهو في سن المراهقة ، وأشغل نفسه بشؤون المزرعة . فابتاع خيولاً أصائل من الاصطبلات الإمبراطورية ، وهجنها بأحسن الجياد المستوردة من انكلترا ومن اصطبلات بروفالسكي المشهورة ، وربى سلالة جديدة . وجعل يربي ماشية وقطعاناً على أرضه الخاصة وعلى الأرض التي اشتراها ، ويبذر الحبوب مستخدماً عمالاً أجراءويذهب للصيد مع كلابه في الخريف والشتاء ، ومن حين لآخر يغلق على نفسه القاعة البيضاء ويظل يشرب عدة أسابيع بلا انقطاع . وكان يكدره ألم في معدته ، فمنعه طبيبه منعاً باتاً من ابتلاع أي شيء صلب ، فكان عليه أن يمتص الخلاصة من طعامه مضغاً ، ثم يبصق الفضلات على طبق فضي يمسكه خادمه الخاص فينيامين الواقف الى جانبه دائماً .

وكان فينيامين فلاحاً أسمر متوسط الذكاء ، ذا شعر أسود غزير منفوش ، عمل في خدمة ليستنتسكي ست سنوات ، وفي البداية كان عليه

أن يقف فوق الجنرال وفي يده صحن فضي ، كان يشعر بالتقزز كلما رأى العجوز يبصق الطعام الممضوغ . لكنه اعتاد ذلك بمرور الزمن .

أما قاطنو الضيعة الآخرون فهم لوكيريا الطاهية ، وساشكا ، سائس الخيل الهرم ، والراعي تيخون وغريغوري الذي أخذ يشتغل حوذيا ، واكسينيا . ومنذ اليوم الأول ، لم تكن لوكيريا ذات الوجه المجدور التي بدت بعجيزتها الكبيرة مثل قرص من العجين المفروش ، لتسمح لاكسينيا بالاقتراب من الموقد .

ـ يمكنك أن تطبخي حينما يستخدم السيد عمالاً إضافيين في الصيف . أما الآن فأستطيع أن أدبر الأمور بنفسي .

انطلقت اكسينيا في عملها ، تغسل أرضيات البيت ثلاث مرات في الأسبوع ، وتطعم العدد الذي لا يحصى من الدواجن ، وتنظف بيت الدجاج . كانت تعمل دؤوبة ، وتحاول إرضاء الجميع ، بمن فيهم الطاهية ، أما غريغوري فكان يقضي جزءاً كبيراً من وقته مع السائس ساشكا ، في الاصطبلات الفسيحة المبنية من جذوع الخشب . وكان العجوز كتلة من الشعر الأشيب ، لكن الجميع ظلوا ينادونه بألفة : «ساشكا» . ولم يخاطبه أحد باسمه الكامل واسم أبيه كما يتطلب الاحترام . أما لقبه فربما ليستنتسكي العجوز نفسه ، الذي اشتغل ساشكا عنده أكثر من عشرين عاماً ، كان قد نسيه . وكان ساشكا قد عمل في شبابه حوذيا ، ولكن ما إن تقدمت به السن ووهت قواه وأمسى بصره ضعيفاً ، حتى صار سائساً . وهو الآن قصير القامة ، يغطي جسمه شعر أشيب مخضوضر (حتى شعر يديه كان أشيب) ، وله أنف قد فرطحته هراوة في شبابه ، وكانت له ابتسامة طفولية خالدة ، ناظراً الى العالم بعينين ساذجتين تطرفان على الدوام . وكان التعبير الملائكي المرتسم على وجهه يشوه أنفه المكسور وشفته السفلى المدلاة المشقوقة . حينما كان ساشكا في الجيش ، ثمل ذات مرة وأخذ جرعة من «الماء الملكي» بدلاً من الفودكا ، فلحم السائل المحرق شفته السفلى

بذقنه ، مخلفاً ندبة ملتوية ذات وهج وردي كما لو أن وحشاً مجهولاً لحس ذقن ساشكا بلسانه الرقيق اللاذع . كان ساشكا مغرماً بالفودكا ، فإذا انتشى راح يتبختر في أرجاء الحوش كما لو كان سيداً . فيدق قدمه على الأرض ويقف تحت نوافذ غرفة نوم ليستنتسكي العجوز ويصيح بصوت عال ، وفي تجهم وهو يحرك سبابته أمام أنفه :

ـ ميكولاي ليكسييتش*!

ـ ميكولاي ليكسييتش!

فإذا كان ليستنتسكي العجوز في غرفة نومه مصادفة أتى الى النافذة وأرعد صائحاً :

ـ أنت سكران ، يا عديم النفع!

فيشيل ساشكا بنطاله الى أعلى ، ويغمز ويبتسم في مكر . وتتراقص ابتسامة منحرفة عبرَ وجهه ، ومن عينه اليسرى المغمضة ، الى الندبة الوردية اللون الممتدة من زاوية فمه اليمنى ، كانت ابتسامة عوجاء الا أنها بهيجة .

ويهز إصبعه القذر النحيل متوعداً وهو يقفز في مكانه :

ـ ميكولاي ليكسييتش ، يا صاحب المعالي ، إنني أعرفك!

فيبتسم سيده مهدئاً ، وهو يفتل شاربه المتدلي بكل أصابعه الخمس التي بقعها النيكوتين :

ـ اذهب وأغرق سكرك في النوم!

فيضحك السائس ، وهو يتقدم حتى سكة السياج :

ـ لن تستطع أن تخدعني! ميكولاي ليكسيتش ، أنت وأنا ـ يعرف أحدنا الآخر كما تعرف السمكة الماء . أنت وأنا ، نحن أغنياء . وأي غنى! ـ وهنا ، يبسط ذراعيه على امتدادهما ليصور مقدار غناهما . ـ نحن ، كما يعرفنا الجميع ، في كل أرجاء منطقة الدون ، نحن... ـ ويمسي صوت ساشكا

---

* يقصد نيكولاي اليكسييتش . المترجمون

على حين غرة مستكيناً أسيان : ـ أنا وأنت ـ ياصاحب المعالي ، كل شيء حسن سوى أن لكلينا أنفاً متعفناً!

فيسأله سيده رافعاً شاربه ، وقد استحال وجهه قرمزياً من شدة الضحك :

ـ ولم ذلك ؟

فيقول ساشكا مقطعاً الكلمات ، وهو يطرف بعينه بسرعة ويلعق لعابه الذي ينزل على ندبته :

ـ بسبب الفودكا! لاتشرب ، ياميكولاي ليكسييتش ، وإلا انتهينا الى الافلاس ـ أنت وأنا . سنضيع كل ما لدينا على الشراب!

ـ رح واشرب بهذه عن آخرها! ـ ويلقي إليه ليستنتسكي العجوز بقطعة من فئة العشرين كوبيكا ، فيلتقطها ساشكا ويخفيها في قبعته ، ويقول منتهداً :

ـ حسناً ، مع السلامة ، ياجنرال .

فيسأله سيده مبتسماً ، وهو يعرف ما سيلي ذلك :

ـ هل أوردت الخيل ؟

ـ آه ، أيها الشيطان القذر! يابن الخنزير! ـ ويستحيل وجه ساشكا أزرق ، ويقرقع صوته مغضياً : ـ أينسى ساشكا أن يورد الخيل ؟ حتى لو كنت ميتاً ، سأزحف أتلمس سطلاً من الماء لأورد الخيل . ويتصور أنني...

ويمضي السائس مغتاظاً من اللوم الذي لا يستحقه ، وهو يصب اللعنات ملوحاً بقبضته . كان كل ما يفعله ساشكا يقابل بالغفران ، حتى إدمانه على الشرب وزوال الكلفة بينه وبين سيده . فقد كان سائساً لا يمكن الاستغناء عنه . وكان ينام في الاصطبل صيفاً وشتاءً ، في معلف فارغ . لم يكن أحد يضاهيه في عمله كان سائساً وبيطاراً للخيل معاً ، يجمع العقاقير لها في الربيع ، وينقب عن الجذور الطبية في السهب والوديان . وكانت حزم الأعشاب معلقة في أعالي جدران الاصطبل : فثمة الحزنبل لشفاء لهاث الخيل ، وحشيشة عين الحية كترياق لعضة الأفاعي السامة ، والورق الأسود

للحوافر ، وعشب صغير أبيض ينمو قرب جذور الصفصاف لعلاج القرح ، والعديد من العقاقير الأخرى التي لا يعرفها الا القليل من الناس يستعملها لعلاج جميع مايصيب الخيل من أوجاع وأمراض .

وفي الصيف والشتاء ، ثمة فوق المعلف الذي ينام فيه ساشكا رائحة نفاذة ذكية ، تدغدغ البلعوم ، معلقة كنسيج عنكبوت ذي غزل رقيق . وهناك قش مضغوط ، كاللوح في صلابته ، تغطيه مرشحة حصان ، ومعطف ساشكا الذي تفوح منه رائحة عرق الخيل ، اتخذهما حشية وفراشاً لسريره العاري ، وكان المعطف والفروة هما كل ما يملك العجوز من متاع الدنيا .

أما تيخون ، وهو قوزاقي بليد ضخم ، فقد كان يعيش مع لوكيريا ، ويضمر في دخليته غيرة عليها من ساشكا ، لا مبرر لها إطلاقاً . وكان يقود العجوز ، مرة كل شهر ، من زر قميصه المدهون الى ما وراء الفناء .

ـ أيها العجوز ، لا تحاول أن تستميل امرأتي .

فيغمز ساشكا غمزة ذات مغزى :

ـ إن ذلك يتوقف على...

فيرجوه تيخون :

ـ ابتعد عنها!

ـ إني أحبهن مجدورات ، أيها الصبي . لن أحتاج الى الفودكا إذا استطعت أن تهبني بنتاً مجدورة . كلما ازدادت بثور الجدري عليهن ازددن شغفاً بنا نحن معشر الرجال . أولاء السفيهات!

ـ يجدر أن تخجل من نفسك في سنك هذه... عيب عليك... هذا وأنت رجل طيب : تعنى بالخيل ، وتعرف جميع الأسرار .

فأصر ساشكا :

ـ أنا قادر على كل أنواع التطبيب .

ـ ابتعد عنها ، ياجد . إنها لخطيئة .

ـ سأستحوذ على تلك اللوكيريا يوماً من الأيام ، أيها الصبي ،

وسأمتلكها ، يا ولدي . يمكنك أن تقول مع السلامة للوكيريا ، فإنني سأنتزعها منك . إنها مثل فطيرة الزبيب ، سوى أن الزبيب منتزع منها . إنها الصنف الذي اشتهيه!

فيقول تيخون متنهداً وهو يخرج بعض قطع النقود النحاسية من كيس النقود : «خذ هذه ، ولا تدعني أقبض عليك والا قتلتك! »

وهذا ما كان يحدث كل شهر .

كانت الحياة تبلى أوراقها في خدر ناعس في ياغودنويه . اذ كانت الضيعة تقع في واد ناء عن جميع الدروب المطروقة ، ومنذ الخريف تنقطع كافة المواصلات مع القرى المجاورة . وفي ليالي الشتاء تخرج قطعان الذئاب من مرابضها في الغابة لتشيع الفزع في الخيل بعوائها . وقد اعتاد تيخون أن يذهب الى المرج ليخيفها ببندقية سيده ذات الماسورتين ، فتظل لوكيريا ، وهي تلف عجيزتها الضخمة ببطانيتها الخشنة ، تنتظر مترقبة صوت الإطلاقات ، وعيناها الصغيرتان المختفيتان في وجنتيها المجدورتين المدهونتين تتطلعان في الظلام . وفي مثل تلك الأوقات ، اعتاد خيالها أن يجعل من تيخون القبيح الأصلع ، شاباً وسيماً جريئاً ، وحينما ينصفق باب جناح الخدم ويدخل تيخون في سحابة من البخار ، تفسح له المجال على السرير ، وتحتضن عشيرها المتجمد ، بدفء وهي تناغيه في وله .

وفي الصيف ، تظل ياغودنويه تطن بأصوات العمال الى وقت متأخر من الليل . فقد زرع السيد أربعين دسياتينا بشتى الحاصلات ، وكان يؤجر عمالاً لحصدها . ومن حين لآخر كان يفغيني يأتي صيفاً الى الضيعة ، وقد يروح يتمشى خلال البستان وعلى المروج ، فيصيبه الملل . وكان يقضي الصباح في صيد السمك في البركة . وكان ذا صدر ممتلىء متوسط الطول ، يصفف شعره على الطريقة القوزاقية فيجعل له خصلة على الجانب الأيمن لرأسه . أما سترته العسكرية فقد اتسقت عليه بشكل أنيق .

خلال الأيام الأولى من حياة غريغوري مع اكسينيا في الضيعة ، وكان يأتي في كثير من الأحيان يتردد على جناح السيد الشاب . كان فينيامين يأتي مبتسماً الى جناح الخدم ويقول لغريغوري ، وهو يحني رأسه الأشعث :

ـ السيد الابن يريدك ، ياغريغوري .

فكان غريغوري يذهب الى غرفة يفغيني ، ويقف عند الباب . فيشير السيد الى كرسي مبتسماً كاشفاً عن أسنانه النادرة العريضة ، ويجلس غريغوري على حافته تماماً .

ـ كيف تجد خيلنا ؟

ـ خيل جيدة . والأشهب بديع .

ـ عليك بتمرينه كثيراً ، ولكن لا تجعله يجري سريعاً .

ـ هذا ما أخبرني به الجد ساشكا .

ـ وماذا عن «همام» ؟

ـ الكميت ؟ إنه حصان بديع على أن نعله مقلقل ، وسيتعين عليّ أن أبدله بنعل آخر .

ثم قال السيد الابن وهو يخاوص عينيه الرماديتين النفاذتين :

ـ عليك أن تذهب الى معسكر التدريب في أيار أليس كذلك ؟

ـ أجل .

ـ سأكلم الأتمان في ذلك . لن تضطر الى الذهاب .

ـ شكراً لك ، سيدي .

ران الصمت لحظة . فك السيد أزرار ياقة بزته وجعل يحك صدره الأنثوي الأبيض .

ـ ألا تخشى أن يأخذ اكسينيا زوجها منك ؟

ـ لقد تخلى عنها ، لن يستعيدها .

ـ وكيف تعرف ذلك ؟

ـ رأيت رجلاً من القرية قبل أيام حينما ذهبت الى هناك طلباً

للمسامير . أخبرني أن ستيبان يسرف بالشراب . ويقول إنه لم يعد يريد اكسينيا ، ويتصور أنه سيجد امرأة أخرى أكثر حرارة .

فعلق ليستنتسكي متفكراً ، وهو يحدق عبر رأس غريغوري وفي ابتسامته شيء من التهتك :

ـ اكسينيا امرأة جميلة .

فقال غريغوري موافقاً : «لا بأس بها» ، وغام وجهه .

أوشكت إجازة يفغيني على الانتهاء ، فلم يعد يحمل ذراعه على حمالة وصار بإمكانه أن يثنيها مثلما يشاء .

وفي خلال الأيام القليلة الأخيرة من بقائه ، كان يقضي وقتاً طويلاً في حجرة غريغوري . وكانت اكسينيا قد بيضت الحيطان القذرة وجلت أطر النافذة وحكت الأرضية بكسرة من الطابوق . فكان ثمة دفء وأناقة نسائيان في الحجرة الخالية البهيجة وكان الموقد يبث الدفء . وكان الضابط يختار لزيارته أوقاتاً يكون غريغوري خلالها مشغولاً بالخيل . فيذهب في بادىء الأمر الى المطبخ ، وسترته القصيرة الزرقاء ملقاة على كتفيه ، ويلبث يمازح لوكيريا دقيقة أو دقيقتين ، ثم يذهب الى الغرفة الأخرى ، فيجلس على مقعد بلا مسند بالقرب من الموقد محدباً كتفيه ، ويركز على اكسينيا نظرة مبتسمة بلا حياء . فتتحرج اكسينيا من وجوده ، وترتعش الحياكة في أصابعها .

ويسألها ، وهو ينفض دخان سيكارته حتى تمتلئ الغرفة بدخان أزرق :

ـ كيف حالك ياعزيزتي اكسينيا ؟

ـ حسناً جداً ، أشكرك .

وترفع اكسينيا عينيها فتلتقي بنظرة الملازم النفاذة الفاضحة رغبته في صمت ، ويستحيل لونها قرمزياً . فقد كانت نظرته تلك كريهة ومزعجة . وكانت تجيب على أسئلته بشكل غير مترابط ، متحاشية عينيه ومتحينة الفرصة لترك الحجرة .

ـ عليّ أن أذهب لأطعم البط ، الآن .

ـ لاداعي للعجلة . عندك متسع من الوقت .

وابتسم ، وارتجفت ساقاه في سروال ركوب الخيل الضيق ، ومضى في إلحافه عليها بالأسئلة التي تخص حياتها الماضية وهو يضرب على أوتار صوته العميق الذي يشبه صوت أبيه ، ويسعى الى استمالتها في مجون بعينيه الصافيتين كالبلور .

وحين دخل غريغوري ، انطفأت النار في عيني يفغيني نيكولايتش ، فقدم له سيكارة ، ومالبث أن ترك الغرفة . فسأل غريغوري بصوت أجش اكسينيا دون أن ينظر اليها :

ـ ماذا أراد ؟

ـ كيف لي أن أعرف ؟ ـ وإذ تذكرت نظرة الضابط ضحكت بافتعال وأضافت : ـ دخل وقعد ، هنا بلا سبب ، ياغريشا ـ وأرته كيف كان الضابط جالساً محدودب الظهر ، ـ قعد حتى استبد بي الضيق منه . وهز ركبته الحادة .

فضاقت عيني غريغوري غضباً :

ـ هل دعوته للدخول ؟

ـ وما حاجتي إليه ؟

ـ حاذري ، وإلا سأركله يوماً من أعلى السلم .

فحدقت اكسينيا في غريغوري بشفتين مبتسمتين ، دون أن تتبيّن ما إذا كان هازلاً أم جاداً .

١٥

انقضى الشتاء في الأسبوع الرابع من الصوم الكبير . وبدأت المياه الخالية من الجليد تطرز حوافي الدون ، واستحال لون الجليد الذائب من القمم رمادياً

وانتفخ كالاسفنج . وفي المساء ، كانت دمدمة خفيضة تُسمع من التلال ، تشير ـ كما كان الشيوخ يقولون ـ الى سقوط الصقيع أما الواقع فكان ذوبان الجليد على الأبواب . في الصباح يرن الهواء بفعل الصقيع الخفيف ، ولكن ما إن يحل الظهر حتى تصبح الأرض جرداء مبقعة ، وتنفذ الى الأنوف الرائحة الزكية لشهر آذار ولحاء أشجار الكرز المتجمد والقش المتعفن .

أعد ميرون غريغوريتش عدته للحراثة على مهله وهو يقضي الأيام المستطيلة في المأوى يشحذ أسنان المسالف ويصلح عجلات العربة . وكان غريشكا العجوز يصوم في الأسبوع الرابع من الصوم الكبير ، فيعود من الكنيسة ، أزرق من البرد ، ويشتكي لكنته لوكينشنا :

ـ إن ذلك القس يرهقني . لاخير فيه فهو بطيء في قداسه كمن يدفع عربة مليئة بالبيض .

ـ لو صمتَّ خلال أسبوع الآلام لكنت أكثر حكمة . كان الجو أدفأ آنئذ .

فأجاب :

ـ نادي ناتاليا . سأجعلها تصنع لي زوجاً من الجوارب أكثر دفئاً .

كانت ناتاليا لا تزال تعيش على أمل أن يعود إليها غريغوري ، وكان قلبها يتشوق إليه وينتظر رجوعه ، غير آبهة لهمسة التحذير التي يسديها العقل الواعي ، فراحت تقضي لياليها في حنين مرهق ، متقلبة على فراشها ، وقد سحقها عار غير متوقع لم تكن تستحقه . وحلت بها مصيبة فوق مصيبتها الأولى ، فجعلت تنتظر مآلها في رعب بارد ، وهي تخفق في غرفة صباها كطير زقزاق جريح ملقى على درب غابة . فمنذ الأيام الأولى من عودتها ، بدأ أخوها ميتكا يرميها بنظرات غريبة ، وسألها ذات يوم وهو يمسك بها في سقيفة الباب :

ـ مازلت تواقة لغريشا ؟

ـ وما دخلك أنت ؟

ـ أريد أن أؤنسك .

ونظرت ناتاليا الى عينيه وأرعبها مارأت فيهما . إذ التمعت عينا ميتكا الخضراوان ، الشبيهتان بعيني القط ، وومضت فتحتاهما بلزوجة في ضوء السقيفة الخافت . فصفقت ناتاليا الباب ومضت الى غرفة جدها ، حيث وقفت فترة طويلة تتسمع الى ضربات قلبها العنيفة . وفي اليوم التالي جاءها ميتكا الى الفناء . كان يقلب تبناً جديداً للماشية ، وقد تدلت من شعره السبط وقبعته الفرو عيدان خضر من العشب . وكانت ناتاليا آنذاك تطرد الكلاب من معلف الخنازير .

ـ لا ترهقي نفسك ، يا ناتاليا...

فصرخت ، رافعة يديها لتحمي نفسها :

ـ سأخبر أبي .

ـ أنت بلهاء!

ـ لا تقترب ، أيها الوحش!

ـ لماذا تصيحين ؟

ـ ابتعد ياميتكا! سأذهب في الحال لأخبر أبي . كيف تجرؤ على النظر إليّ هكذا ؟ ألا تخجل ؟ أعجب أن الأرض لا تنشق وتبتلعك .

ـ إنها لا تنشق! ـ وضرب ميتكا الأرض بجزمته ليؤكد قوله ، ووضع يديه على خصره .

ـ لا تقترب مني ، ياميتكا!

ـ لن أفعل الآن ، لكنني سآتي في الليل . والله ، سآتي!

فتركت ناتاليا الفناء وهي ترتجف . وفي ذلك المساء اتخذت من الصندوق سريراً لها ، وأخذت أختها الصغرى لتنام معها . وظلت طوال الليل تتقلب باضطراب ، وعيناها الملتهبتان تحاولان اختراق الظلمة ، وأذناها مرهفتان لأصغر نأمة ، وهي متحفزة لتملأ البيت صراخاً . لكن شيئاً لم يمزق الصمت سوى شخير جدها النائم في الغرفة المجاورة ، ودمدمة تند من أختها بين حين وآخر .

ومضى عقد الأيام ينفرط مع ذلك الحزن المقيم الذي لا عزاء فيه ، والذي لا تعرفه الا النساء .

لم يكن ميتكا قد تغلب على الخزي الذي سببته له محاولة الزواج الأخيرة ، وصار مهموماً سيئ الطبع ، يخرج كل مساء ولا يعود الى البيت قبل الفجر إلا لماماً . أقام له علاقات مع نسوة غادر أزواجهن الى الجندية ، وذهب الى دار ستيبان استاخوف ليراهن بلعب الورق . وكان أبوه يراقب سلوكه ، إلا أنه لم يقل له شيئاً في ذلك الوقت .

قبيل عيد الفصح التقت ناتاليا ببانتلاي بروكوفتش خارج حانوت موخوف . فناداها :

ـ انتظري لحظة!

فتوقفت . وأحست بقلبها يغص بالحنين وهي ترى الى وجه حميها ، الذي يذكرها بغريغوري . سألها العجوز ، وهو يرمقها بنظرة سريعة في ارتباك ، كما لو كان هو نفسه قد اقترف إساءة ضدها :

ـ لم لا تأتين أحياناً لزيارتنا ، نحن العجوزين ؟ الزوجة تفتقدك... حسناً ، كيف حالك ؟

وأفاقت ناتاليا من اضطرابها وقالت :

ـ شكراً لك...

وبعد لحظة من التردد ، إذ أرادت أن تقول : «يا أبتاه!» أضافت :

ـ يا بانتلاي بروكوفتش ، لقد كنت مشغولة جداً في المنزل .

فهز العجوز رأسه بمرارة :

ـ إن ابننا غريشا... آه! خدعنا ، السافل . لكم كنا نعيش معاً على خير مايرام .

فأجابت ناتاليا متحشرجة وفي صوتها غصة :

ـ اوه ، ياأبتاه . أظن أن ذلك لم يكن مقدراً له إن يدوم .

فتململ بانتلاي بروكوفيتش حينما رأى عيني ناتاليا تمتلئان بالدموع ،

وهي تزم شفتيها محاولة حبس دموعها . وقال لها :

ـ مع السلامة ، ياعزيزتي ، لاتحزني عليه ، ابن العاهرة! إنه لا يستحق ظفراً من اصبعك الصغير . لعله سيعود . ليتني أراه ليتني أمسك به .

وابتعدت ناتاليا ورأسها غارق في صدرها . ووقف بانتلاي بركوفتش يحجل من قدم الى آخر وكأنه على وشك أن ينطلق راكضاً . وحينما انعطفت ناتاليا عند زاوية الشارع ، نظرت الى الخلف . كان العجوز يعرج عبر الساحة ، وهو يتكئ بتثاقل على عصاه .

١٦

عندما دنا الربيع قلّت الاجتماعات في ورشة شتوكمان ، إذ كان القرويون يتهيأون للعمل في الحقول ، فلم يأت من الطاحونة سوى ايفان اليكسيفتش الميكانيكي و«الولد» ، مصطحبين معهما دافيد . وفي خميس أسبوع الآلام اجتمعوا في الورشة في المساء الباكر . كان شتوكمان جالساً على منضدة البرادة يبرد حلقة فضية منحوتة من قطعة نقدية من فئة الخمسين كوبيكا . انسلت حزمة من أشعة الشمس الغاربة خلل النافذة ، تاركة بقعة غبراء من الضوء الوردي المصفار على الأرض . وتناول الميكانيكي كماشة وقلبها بيده وقال :

ـ منذ أيام ذهبت الى صاحب الطاحونة لأكلمه عن مكبس . أرى أنه لا معدى من أخذه الى ميليروفو ، فلا يمكننا إصلاحه هنا . إن به صدعاً هذا طوله .

وقاسه ايفان اليكسييفتش بخنصره .

فقال شتوكمان وهو ينثر غباراً فضياً رقيقاً يتطاير من القطعة النقدية التي يبردها :

ـ توجد ورشة في ميليروفو ، أليس كذلك ؟

ـ مصهر فولاذ . كان علي أن أقضي بضعة أيام هناك في العام الماضي .

ـ عمال كثيرون ؟

ـ أستطيع أن أقول أربعمائة أو نحو ذلك .

فتساءل شتوكمان بلهجة متأنية وهو يهز رأسه في اتساق مع حركاته :

ـ وكيف يبدون ؟

ـ إنهم في وضع حسن . ولكنهم ليسوا من جماعتك البروليتاريين ، إنهم حثالة .

فقال «الولد» الجالس الى جانب شتوكمان وشابكاً أصابعه القصيرة الغليظة تحت ركبته :

ـ ولم ذلك ؟

كان دافيد عامل الطاحونة يمشي ذهاباً وإياباً في الورشة بشعره الذي غدا أشهب بفعل نثار الطحين ، ويتسمع جذلاً الى خشخشة النشارة التي كان يحركها بجزمته . وتصور أنه كان يسير فوق هوة كستها طبقة كثيفة من أوراق قرمزية ، وكانت الأوراق اللينة تندعك تحت قدميه بخفة مختبئة تحت التربة الرطبة المرنة .

ـ لأنهم على أحسن حال . فلكل منهم بيته الصغير ، وزوجته ، وكل وسائل الراحة . ومعظمهم معمدانيون علاوة على ذلك . والأسطة نفسه هو الذي يعظهم ، ولكنهم ينهشون بعضهم بعضاً ، أما القذارة التي تعلوهم فهي من السمك بحيث من الصعب أن تكشطها بمعزقة .

فانبرى دافيد وقد انقض على الكلمة الغريبة :

ـ ومن يكون هؤلاء المعمدانيون ، ياايفان اليكسييفتش ؟

ـ معمدانيون ؟ إنهم يعبدون الله على طريقتهم الخاصة . شيعة ما ، مثلهم كمثل «المؤمنين القدامى» .

وعلق «الولد» :

ـ الجنون فنون .

ثم واصل ايفان اليكسييتش حكايته :

ـ لقد ذهبت لرؤية سيرغي بلاتونوفتش ، كما قلت . ولكن أتيوبين كان هناك ، فطلب مني الانتظار في الممر . فجلست أنتظر وأستمع الى حديثهم عبر الباب . كان موخوف يقول ستندلع حرب ضد الألمان قريباً جداً ، لقد قرأ ذلك في كتاب . غير أن اتيوبين قال إنه لن تكون حرب بين المانيا وروسيا .

كان ايفان اليكسييتش يقلد لثغة اتيوبين بمهارة جعلت دافيد يطلق ضحكة قصيرة ، ولكنه توقف في الحال عندما لمح إمارات السخرية على وجه «الولد» .

ومضى ايفان اليكسييتش ينقل الحديث الذي سمعه :

ـ «لن تكون هناك حرب ضد المانيا ، لأن المانيا تقتات من حبوبنا» ثم سمعت صوتاً ثالثاً ، لم أميز صاحبه ، اتضح بعد ذلك ، إنه الضابط ، ابن العجوز ليستنتسكي . قال : «سوف تندلع حرب بين ألمانيا وفرنسا من أجل حقول الكروم ، ولكن لا علاقة لها بنا» .

فتساءل الميكانيكي وقد التفت الى شتوكمان :

ـ ماذا تظن يا اوسب دافيدوفتش ؟

فأجاب شتوكمان وهو يحدق بنظرة ثابتة في الحلقة التي أمسكتها يده المبسوطة :

ـ أنا لا أحسن النبوءات .

فقال «الولد» :

ـ سنجد أنفسنا في وسط المعمعة حالما يبدأونها . وسواء شئنا أم أبينا ، فسوف يجروننا اليها من شعورنا .

فقال شتوكمان وهو يتناول الكماشة من يد الميكانيكي برفق :

ـ سأحدثكم أيها الأولاد كيف هو الأمر...

وراح يتكلم بجد وهو يسعى لشرح المسألة بالتفصيل . واسترخى

«الولد» في جلسته على منضدة البرادة بينما فغر دافيد فاه مكشراً عن أسنانه الحادة . ولخص شتوكمان بأسلوبه المركز المشوق الصراع بين الدول الرأسمالية حول الأسواق والمستعمرات . وعندما فرغ من حديثه ، قال ايفان اليكسييفتش مغضباً :

ـ ولكن ما دخلنا نحن في ذلك ؟

فابتسم شتوكمان :

ـ سوف يصيب رؤوسكم الصداع جراء عربدة الآخرين .

وقال «الولد» متهكماً :

ـ لا تتكلم مثل الأطفال ، لعلك سمعت بهذا المثل : «عندما يتشاجر السادة ، ترتج نواصي الفلاحين» .

ـ أف!

قال ذلك ايفان اليكسييفتش مقطباً كمن يحاول اجتلاء كتلة هائلة مستعصية من الأفكار .

وتساءل دافيد :

ـ لماذا يتردد ليستنتسكي ذاك دائماً على موخوف ؟ أتراه يسعى وراء ابنته ؟ هاه ؟

فاعترض «الولد» بخبث :

ـ لقد كان لابن كوروشونوف اللعين شأن هناك من قبل .

فكرر دافيد :

ـ ألم تسمع ايفان اليكسييفتش ؟ لأيما غاية يتردد الضابط الى هناك ؟

فجفل ايفان اليكسييتش متسائلاً وكأنه لفح بسوط في قفا ركبتيه :

ـ ايه ؟ ماذا كنت تقول ؟

ـ لقد أخذته سنة من النوم! كنا نتكلم عن لستنتسكي .

ـ كان في طريقه الى المحطة . نعم ، وهاكم المزيد من الأخبار ، عندما خرجت من الدار شاهدت... من تظنون ؟ غريغوري ميليخوف! كان واقفاً في

الخارج وبيده سوط . قلت له «ماذا تفعل هنا يا غريغوري ؟» فأجاب «أوصل السيد ليستنتسكي الى محطة ميليروفو» .

وأوضح دافيد :

ـ إنه حوذي ليستنتسكي .

ـ يلتقط الفتات من موائد الأغنياء .

ـ إنك أشبه بكلب مربوط يا «ولد» ، تنبح على كل إنسان .

ثم فتر النقاش ، ونهض ايفان اليكسييتش ليغادر المحل .

فنهش «الولد» نهشة أخيرة :

ـ مستعجل للصلاة ؟

ـ إني أتعبد كثيراً كل يوم .

ورافق شتوكمان ضيوفه الى الباب ، ثم أغلق الورشة ودلف الى البيت .

كانت السماء في الليلة السابقة لأحد الفصح قد غشيتها كتل من الغيوم السود ، وبدأ المطر يتساقط . وأناخت عتمة رطبة على القرية . وعند الغسق بدأ الجليد على الدون يتصدع بأنين مضطرب طويل . واذ تراصت كتل الجليد المتكسر انطلقت من الماء أولى الطوافي . فتصدع الجليد دفعة واحدة على مدى أربعة فرستات ، وانجرف مع التيار . وتلاطمت الطوافي مع بعضها وارتطمت بالضفتين ، ومن بعيد كان ناقوس الكنيسة يقرع للصلاة بانتظام . وفي العطفة الأولى ، حيث ينحدر الدون الى اليسار ، تراكم الجليد ، وكان هدير الطوافي واحتكاكها يسمع في القرية . وفي ساحة الكنيسة التي انتشرت فيها البرك كان عدد من الفتيان مجتمعين ، وكان صوت الصلاة الخفيض يتناهى الى الأسماع خلل الأبواب المفتوحة . وسطعت الأنوار تتراقص اشعاعاتها على النوافذ المشبكة ، بينما كان الصبية يعابثون الفتيات الصائحات بصوت مكتوم ويقبلونهن ، ويتهامسون معهن بحكايات ماجنة .

وكان منزل قيم الكنيسة مزدحماً بالقوزاق القادمين من شتى قرى المنطقة لحضور صلاة العيد . ونام الناس على المقاعد وعلى الأرض بعد أن

هدهم التعب والازدحام في الغرفة .

جلس الرجال على الدرجات المتداعية ، وهم يدخنون ويتحدثون عن الطقس ومحاصيل الشتاء .

ـ متى ستخرج جماعتك الى الحقول ؟

ـ ينبغي أن نبدأ في الأسبوع الأول بعد الفصح ، كما أحسب .

ـ هذا حسن . تربتكم رملية .

ـ نعم ، وفي الجهة القريبة من الأخدود يوجد مستنقع مالح .

ـ ستكسب الأرض كثيراً من الندى الآن .

ـ عندما حرثنا السنة الماضية كانت مثل الغضروف ، صلبة وجافة في كل مكان .

وصاح صوت عالي الدرجة من جهة المنزل :

ـ أين أنت يادونيا ؟

ومن باب باحة الكنيسة سمع صوت جهوري غليظ يجأر :

ـ خير مكان للقبل ، يا... اخرجوا من هنا ، أيها الصبية القذرون . يالها من بدعة!

فانبرى صوت راعش يقول عبر الظلام :

ـ ألا تستطيع أن تجد لنفسك رفيقة ؟ اذهب وقبل الكلبة في زريبتنا .

ـ كلبة ؟! سوف أعلمك .

ثم سمع وقع خافت لأقدام تهرول ، وحفيف تنورات .

وتساقط الماء من السقف بجرس بلوري ، وهدر ثانية الصوت البطيء اللزج كأنه التربة الطينية السوداء :

ـ كنت أسعى لشراء محراث بروخر ، كنت مستعداً لدفع اثني عشر روبلاً له ولكنه لا يرضى بها . ذلك الرجل لا يبيع الأشياء رخيصة...

يسمع من الدون حفيف وجلبة ، لكأنه غانية طروب قد خطرت بحلتها القشيبة وقوامها الذي يضاهي شجر الحور وخلّفت تنورتها حفيفاً مثيراً .

وفي منتصف الليل ، مر ميتكا مخبا على فرس حاسر الظهر في العتمة الدبقة متجهاً صوب الكنيسة . فأوثق العنان بعرف الفرس الجامح ، وصفعها على خاصرتها وأصاخ الى وقع الحوافر هنيهة ، ثم سوى حزامه ، ومضى الى الكنيسة . وعند المدخل رفع قبعته ، وأحنى رأسه بورع ، ونحى عن طريقه النساء ومضى الى المذبح . كان القوزاق محتشدين في كتلة سوداء الى اليسار ، والى اليمين كان ثمة حشد نسائي يزخر بالالوان . ووجد ميتكا أباه في الصف الأمامي ، فأمسك بمرفقه وهو على وشك أن يرسم علامة الصليب وهمس بأذنه :

ـ ابتي ، تعال الى الخارج لحظة واحدة .

وارتعش منخرا ميتكا ، فيما أفسح لنفسه المجال للخروج من الكنيسة بين ستار كثيف من خليط الروائح . وضاق بدخان الشمع المشتعل ، ورائحة أجساد النساء العرقة ، وروائح الملابس الكريهة النتنة التي لاتُرتدى إلا في أعياد الميلاد والفصح ، ورائحة الأحذية الرطبة ، والنفتالين ، ورياح البطون التي أجاعها الصيام .

وفي المدخل ضم ميتكا صدره الى كتف أبيه وقال : «ناتاليا تحتضر» .

١٧

عاد غريغوري في عيد أحد الشعانين من رحلته الى المحطة ، فوجد الثلوج قد تآكلها الذوبان ، وقد انقطع الطريق من يومين .

وفي إحدى القرى الأوكرانية على مبعدة خمسة وعشرين فرستا من المحطة كاد أن يفقد الحصانين وهو يعبر نهراً . لقد وصل القرية في المساء الباكر وكان الجليد في الليلة الفائتة قد تكسر وبدأ يتحرك ، وكان النهر الهادر المزبد بالماء الطيني الخابط يهدد الشوارع .

كان النزل الذي توقف عنده ليعلف الحصانين في ذهابه يقع على الجانب

الآخر من النهر . وكان من المحتمل أن يرتفع الماء أثناء الليل ، ولهذا قرر غريغوري عبوره دونما انتظار .

فساق العربة الى النقطة التي شق طريقه منها فوق الجليد عند الذهاب ، فوجد النهر قد طغى على ضفتيه . وكان جزء من سياج ونصف عجلة من عجلات العربات يدوران في دوامة عكرة في الوسط . وكانت هناك آثار حديثة لمزالق زحافات على الرمل الأجرد في الجرف . فكبح الحصانين اللذين كانا يرشحان من العرق ، وقفز مترجلاً ليتفحص الآثار عن كثب . كانت الآثار تتجه قليلاً الى اليسار عند حافة الماء وتختفي في مجرى النهر . قاس المسافة الى الجانب الآخر بعينيه : خمسون خطوة على أكبر تقدير . ثم عاد الى الحصانين ليتفحص العدة . وفي تلك اللحظة اقترب منه عجوز أوكراني قادم من أقرب كوخ وعلى رأسه قبعة من فرو الثعلب . فسأله غريغوري ، ملوحاً بعنانه نحو الماء الخابط الهادر :

ـ هل يوجد مكان صالح للعبور من هنا ؟

ـ بعض الناس عبر من هنا هذا الصباح .

ـ أهو عميق ؟

ـ كلا . ولكن قد يغمر عربتك .

فسحب غريغوري العنان ولوح بسوطه ، وجعل يحث الحصانين ويستفزهما بنبرات صارمة . فتحركا مرغمين ، وجعلا ينخران ويتشممان الماء . ولفح غريغوري الهواء بسوطه ، ورفع جسمه قليلاً من على المقعد .

نفر الكميت المربوط الى اليسار برأسه وسحب سيور الجلد على حين غفلة . والقى غريغوري بنظرة إلى قدميه ، فوجد الماء يدوم فوق مقدمة العربة . كان الحصانان في بادئ الأمر يخوضان الى ركبتيهما ، ولكن سرعان ما إرتفع التيار الى صدريهما . فحاول غريغوري أن ينكص بهما الى الوراء بيد أنهما لم يستجيبا للعنان وجعلا يسبحان . ودارت مؤخرة العربة بفعل التيار ، في حين كان الحصانان يبذلان جهدهما للإرتفاع برأسيهما عن

التيار . وجرت أمواج المياه فوق ظهريهما ، وأخذت العربة تتمايل ويسحبها التيار الى الخلف بقوة .

فصاح الأوكراني وهو يهرول على الضفة ويلوح بقبعته الفرو :

ـ آ... آ...

ومضى غريغوري يصرخ بغضب جامح ويحث الحصانين . كان الماء يزيد بدواماته خلف المركبة الغائرة . اصطدم المزلاقان بركام ناتيء من بقايا الجسر الذي اكتسحته المياه ، وانقلبت المركبة بسهولة عجيبة . فغطس رأس غريغوري في الحال وهو يتأوه ، ولكن العنان لم يفلت من يده . وفيما كانت المركبة تتأرجح راح الماء يجذبه من ساقيه وذيل فروته جذباً هيناً ويجعله يدور . أفلح في أن يمسك بمزلاق ، وترك العنان وأخذ يضع يداً فوق الأخرى لاهثاً ، متجهاً صوب عريش العربة وقد أوشك أن يمسك بنهايته الحديدية ، وأصابته رفسة في ركبته من الكميت الذي كان يقاوم التيار ، فمد غريغوري يديه ، وهو يغص بالماء ، وأمسك بأسارالعربة . ولم يجد نفسه الا وقد ابتعد عن الحصانين ، وارتخت قبضته . وكانت عضلات جسمه ترتعد من البرد ، ولكنه أفلح في الوصول الى رأس الحصان ، فسلط الحيوان عليه نظرة مجنونة مفعمة بالفزع من الموت ، تشع من عينيه الدمويتين .

وبين لحظة وأخرى كان يمسك بالعنان الجلدي اللزج ، ولكنه ظل يفلت من بين أصابعه ، وبطريقة ما استطاع أن يمسك به آخر الأمر . وعلى حين غرة وجد ساقيه تحكان القاع . اندفع الى الأمام بكل قواه يحث الحصانين بصراخه فأطاح به صدر الحصان وهو في طريقه الى الشاطيء خلل الماء الضحل .

جر الحصانان العربة من الماء بعنف وهما يدوسان عليه ، ثم وقفا على بعد بضع خطوات منه . وكان البخار يتصاعد منهما وهما يرتعشان وقد أضناهما التعب .

استوى غريغوري على قدميه ، وهو لا يكاد يشعر بالألم ، لقد لفه البرد

وكأنه وضع في عجينة ساخنة لاتحتمل . وكان يرتجف أكثر من الحصانين ، وأحس بضعف في ساقيه مثل رضيع لم يبلغ الفطام . واستعاد صوابه شيئاً فشيئاً ، فقلب العربة على مزلاقيها ، وساق الحصانين في عدو سريع ليبعث فيهما الدفء . وطار في شارع القرية وكأنه يغير على عدو ، وانعطف نحو أول بوابة مفتوحة دون أن يخفف من سرعته .

برهن المضيف على أريحية ، فقد أرسل ابنه ليعتني بالحصانين بينما ساعد هو غريغوري في خلع ملابسه . وبلهجة لا تتحمل الرفض طلب من زوجته أن تشعل الموقد . فتمدد غريغوري فوق الموقد بسروال رب المنزل فيما كانت ملابسه تجف . وبعد أن تناول عشاء من حساء الكرنب الخالي من اللحم استغرق في النوم .

ثم انطلق ثانية قبل الفجر بوقت طويل . لقد بقيت أمامه مسافة تربو على المائة والخمسة والثلاثين فرستاً ، لذا كانت لكل دقيقة قيمتها . وأمام ناظريه سهب ضاعت معالم طرقه بفعل فيضان الربيع ، وقد أحال الثلج الذائب كل وهدة صغيرة أو أخدود الى سيل متدفق هادر .

انهك الطريق الأجرد المعتم الحصانين . ومضى يسير على أديم تصلب بفعل صقيع الصباح الباكر ، حتى وصل قرية تبعد أربعة فرستات عن طريقه ، وتوقف عند مفترق طرق . كان العرق يتبخر من الحصانين ، وخلفه يلوح أثر مزلاقي العربة اللامع على الأرض . ترك العربة ثم انطلق ثانية ، ممتطياً صهوة جواد حاسر الظهر ويقود الجواد الآخر من عنانه . فبلغ ياغودنويه صباح عيد أحد الشعانين .

أنصت ليستنتسكي العجوز باهتمام الى وقائع رحلته ، وذهب ليرى الحصانين . كان ساشكا يقودهما جيئة وذهاباً في الساحة ، وينظر بغضب الى خواصرهما الغائرة .

سأله السيد :

ـ كيف هما ؟

فأجاب ساشكا دون أن يوقف الحصانين ويهز لحيته الشيباء :

ـ لا بأس .

ـ هل أنهكمهما ؟

ـ كلا . الكميت مصاب بحكة في صدره من احتكاك رقابيته ، ولكنها ليست ذات أهمية .

فأومأ ليستنتسكي بيده لغريغوري :

ـ اذهب لتستريح .

فذهب غريغوري الى غرفته ، ولكنه لم يسترح سوى ليلة واحدة . فقد دخل فينيامين الغرفة في الصباح التالي بقميص جديد من الساتان الأزرق ، ووجهه سمين متألق ، واستدعاه :

ـ السيد يريدك يا غريغوري في الحال .

كان الجنرال يتمشى في الصالة بخفين من اللباد . ولم يلتفت الا بعد أن تنحنح غريغوري مرتين مراوحاً قرب الباب :

ـ ماذا تريد ؟

ـ لقد أرسلت في طلبي .

ـ آه ، نعم! اذهب وأسرج الفرس وكريبيش . وقل للوكيريا الا تطعم الكلاب . فسوف نأخذها للصيد .

استدار غريغوري ليترك الغرفة . بيد أن سيده أوقفه هاتفاً :

ـ أسمعت ؟ وسوف تذهب أنت معي .

دست اكسينيا قطعة من الفطيرة في جيب غريغوري وتمتمت :

ـ إنه لا يدع المرء يتناول حتى طعامه ، فليأخذه الشيطان ، تلفع بلفافك على الأقل ياغريشا .

قاد غريغوري الحصانين المسرجين الى السياج ، وصفر للكلاب . وخرج ليستنتسكي مرتدياً سترة قصيرة زرقاء بنطاق جلدي مزخرف . وقد تدلت من ظهره قارورة معدنية موضوعة في حافظة من الفلين ، وخلفه سوط مدلى من يده مثل الحية .

أمسك غريغوري باللجام ودهش لما رأى ليستنتسكي العجوز ينهض بجسمه العظمي بسهولة على السرج . وأمر الجنرال باقتضاب ، وهو يمسك العنان بيد مقفزة :

ـ كن قريباً ورائي .

وامتطى غريغوري الجواد الفتي المضطرب الذي رفع رأسه الى الأعلى . لم يكن حافراه الخلفيان قد نعلا ، فكان يتزحلق ويقعي على مؤخرتيه كلما يطأ بقعاً من الجليد . أما الجنرال فقد استوى محدودباً ، ولكنه ثابت في سرجه فوق ظهر حصانه العريض . لحق غريغوري الجنرال وسأله :

ـ الى أين نذهب ؟

ـ الى وادي أولشانسكي ـ أجاب ذاك بصوت عميق .

كان الحصانان يخبان بخطى معتدلة . شد الجواد على اللجام وقوس رقبته القصيرة ، وازور نحو راكبه وحاول أن يعض ركبته . وعندما بلغا أعلى المرتفع ، حث ليستنتسكي فرسه على العدو السريع . فتبعت سلسلة كلاب الصيد غريغوري ، وكانت الكلبة السوداء تركض وقد لامس خطمها أسفل ذيل الجواد . فحاول الجواد أن يبلغها عندما أقعي الى الوراء بساقيه الخلفيتين ، غير أن الكلبة صدت عنه الى الخلف وصعّدت الى غريغوري عندما التفت الى الوراء نظرات مستجدية كأنها امرأة عجوز .

بلغا وادي أولشانسكي ، بعد نصف ساعة . ومضى ليستنتسكي بين الأحراش على امتداد حافة المنحدر ، بينما انحدر غريغوري الى قاع الوادي المغسول بالمطر ، متحاشياً الحفر العديدة بحذر . وجعل ينظر الى الأعلى بين لحظة وأخرى ، فرأى هيئة ليستنتسكي الظاهرة بدقة من خلل الزرقة الفولاذية لغيضة بيلسان جرداء مضللة . وعندما انحنى العجوز الى الأمام ، ونهض على الركاب ، تجعدت من الخلف سترته الزرقاء ذات النطاق . كانت الكلاب تعدو على حافة الوادي في جماعة متراصة . اجتاز غريغوري حفرة عميقة ومال جسمه الى جانب .

وقال في ذات نفسه : «بوسعي أن أدبر حالي بسيكارة . سأطلق العنان وأتناول كيس تبغي» . ونزع قفازه وجعل يبحث عن ورق اللف .

ندت صرخة من الجانب الآخر للشفير كأنها طلقة مسدس :

ـ تعقبه!

رفع غريغوري رأسه بحدة الى الأعلى ، فرأى ليستنتسكي يخب صعد السفح ملوحاً بسوطه...

ـ تعقبه!

كان ثمة ذئب أغبر ساقط الشعر يعدو بسرعة خاطفة مارقاً عبر قعر الوادي الذي يتخلله أسل المستنقعات والقصب ، حتى ليكاد يلامس جسمه الأرض . وعندما نط عبر أحد الأخاديد ، توقف والتفت بسرعة ، فلمح الكلاب . كانت تتعقبه على هيئة حذوة الفرس لتقطع عليه طريق الغابة في نهاية الوادي .

وقفز الذئب بظفر الى تلة صغيرة واتجه صوب الغابة . ولكن الكلبة العجوز كانت تقطع عليه الطريق مضاعفة بأسها بخطوات قصيرة . وكان كلب آخر يدعى بالصقر ، وهو من أجود وأشرس الكلاب يتعقبه من الوراء . فتلكأ الذئب لحظة ، واختفى من بصر غريغوري عندما اجتاز غريغوري الوادي صعداً . وعندما أشرف ثانية على منظر لاحب من التلة كان الذئب قد ابتعد في السهب مندفعاً الى واد مجاور . واستطاع أن يرى الكلاب السوداء تعدو خلل الأعشاب الجافة خلف الذئب ، وليستنتسكي العجوز يستحث حصانه بعقب سوطه ملتفاً حول الوادي . وبدأت الكلاب تدرك الذئب عندما بلغ الوادي ، ولاح الصقر كخرقة ضاربة الى البياض مدلاة من حقوي الذئب .

هبت الصيحة على أذني غريغوري :

ـ تعقبه!

فهذب غريغوري بجواده باذلاً جهده بلا طائل ليرى ما يجري أمامه . كانت عيناه تسحان بالدموع ، وأذناه قد أصمهما عزيف الريح . لقد ألهبه

حماس الصيد . فانحنى على رقبة الجواد ، وطار يعدو عدواً جنونياً . وعندما بلغ الوادي ، لم ير الذئب ولا الكلاب . وبعد لحظة لحق به ليستنتسكي . وصاح وهو يكبح فرسه بشدة :

ـ أين ذهب ؟

ـ الى الوادي كما أعتقد .

ـ الحق به من اليسار . تعقبه!

ونخس العجوز خاصرتي الفرس ومضى نحو اليمين . هبط غريغوري في الوادي مشدأ عنانه ، صرخ وصعد الى الجانب الآخر من الوادي . فالحف على حصانه المتصبب عرقاً بالسوط والصياح ، وقطع مقدار فرست ونصف . فكانت التربة الرطبة اللزجة تتطاير تحت الحوافر وتلطمه على وجهه . انعطف الوادي الطويل الى اليمين وتشعب الى ثلاثة فروع ، ولما اجتاز غريغوري الفرع الأول لمح السلسلة الداكنة من الكلاب تطارد الذئب عبر السهب . كان الحيوان قد جوبه من قلب الوادي المكتظ بأشجار البلوط والحور ، فاندفع الى وهدة يكتنفها دغل جاف ونبات شائك .

راح غريغوري يراقب الكلاب والطريدة وهو يستوي واقفاً على الركابين ويمسح بكمه الدموع من عينيه الملفوحتين بالريح . وأدرك وهو ينظر بين لحظة وأخرى صوب اليسار ، إنه في السهب القريب من قريته . وقطعة الأرض غير المستوية التي حرثها مع ناتاليا في الخريف ليست بعيدة . فقاد الجواد عن قصد عبر الأرض المحروثة ، وفتر حماسه للصيد ، عندما كان الحيوان يتعثر أثناء ذلك وتزل حوافره فوق الطين . وأخذ يحث الجواد المتعسر الأنفاس بلا حماس ، وينظر الى سيده ، ليرى إن كان ليستنتسكي يتلفت الى الخلف ، ثم مضى يخب على مهله .

وعلى مبعدة يسيرة استطاع أن يرى مضارب الحارثين المهجورة ، وأبعد من ذلك بقليل شاهد ثلاثة أزواج من الثيران تجر محراثاً فوق التربة المخملية الغضة .

« إنهم من قريتنا ، بلا شك . ولكنها أرض من ياترى ؟ إنها لانيكوشكا كما أعتقد » وخاوص غريغوري عينيه محاولاً تمييز الرجل الذي يتعقب المحراث . في تلك اللحظة سمع غريغوري صوت ليستنتسكي يصرخ :

ـ أمسكوه .

فرأى قوزاقيين اثنين يتركان المحراث ويهرعان ليقطعا الطريق على الذئب المندفع نحو الوهدة . كان أحدهما يرتدي قبعة مدببة ذات شريط أحمر ، وقد شد سيرها الى ذقنه ، يلوح بعصا حديدية . وعلى حين غرة أقعى الذئب في أخدود حراثة عميق . فقفز الصقر فوقه وهوى وقد انثنت قادمتاه تحته ، وحاولت الكلبة العجوز المقتفية أثره التوقف فجرفت قائمتاها الخلفيتان التربة الطينية المحروثة ، وتكومت على الذئب فاقدة توازنها . فجعل الحيوان الطريد يهز رأسه بعنف . فارتدت عنه الكلبة . فحاقت كتلة الكلاب بالذئب ، وراحت جميعها تجرجر بالحيوان بضع خطوات على الأرض المحروثة . ترجل غريغوري من على جواده قبل سيده بنصف دقيقة . وجثا على ركبتيه ممسكاً بيده سكينة الصيد .

صاح القوزاقي ذو العصا الحديدية بصوت يعرفه غريغوري كل المعرفة : :

ـ هيا! من بلعومه! ـ وحط وهو يلهث لهاثاً شديداً الى جانب غريغوري ، وقبض على قادمتي الذئب بيد واحدة ، وهو يجر الكلب الذي تمكن من بطن الفريسة . وتحسس غريغوري قصبته الهوائية من تحت فرائه الخشن ، وحزه بالسكين .

فزعق ليستنتسكي العجوز المزرق الوجه وهو يهبط من السرج

ـ الكلاب! الكلاب! اطردها .

واستطاع غريغوري أن ينحني الكلاب بعد لأي ، ثم دنا من سيده .

على مقربة منهما كان ستيبان استاخوف واقفاً بقبعة شد سيرها الى ذقنه . كان يقلب العصا الحديدية بيديه وقد اختلج وجهه على نحو غريب .

التفت ليستننتسكي نحو ستيبان وقال :

ـ من أين أنت ، ياصاحبي ؟

فأجابه ستيبان بعد لحظة تلكؤ ، وقد اقترب خطوة نحو غريغوري :

ـ من تاتارسكي .

سأله ليستننتسكي :

ـ وما اسمك ؟

ـ استاخوف .

ـ ومتى تعود الى قريتك ؟

ـ الليلة .

فأشار ليستننتسكي بقدمه الى الذئب . كان فكا الحيوان يختلجان واهنين اختلاجة الموت ، وتشنجت الى الأعلى إحدى ساقيه الخلفيتين وارتفعت وقد علقت بها خصلة رمادية من الفرو . وقال :

ـ اجلب لنا الجثة . سوف أدفع لك .

ومسح العرق من وجهه الأرجواني بوشاحه ، واستدار ، وأنزل من كتفه السير الضيق المشدود الى القارورة .

مضى غريغوري الى جواده . وعندما وضع قدمه في الركاب ، رنا الى الخلف . فرأى ستيبان قادماً نحوه يختض بصورة لا إرادية ، وقد شد قبضته الضخمتين على صدره .

١٨

تجمعت النسوة مساء الجمعة الحزينة في دار بيلاغيا مايدانيكوفا المجاور لدار كورشونوف ، للمسامرة . وكان زوجها غافريلا قد كتب اليها من لودز يخبرها أنه يسعى للحصول على إجازة بمناسبة عيد الفصح . فبيضت بيلاغيا الجدران ورتبت الكوخ منذ الاثنين السابق لعيد الفصح ، ولبثت

تنتظر بترقب منذ يوم الخميس ، وتهرع الى الباب لتقف أمام السياج حاسرة الرأس شاحبة وقد بدت على وجهها امارات الحمل . وتتطلع الى الطريق واضعة كفها فوق عينيها علها ترى بعلها قادماً . كانت حاملاً من زوجها الشرعي الذي عاد من كتيبته في صيف العام الماضي وجلب معه قماشاً بولنديا هدية لها . وقضى معها أربع ليال ، وفي الخامسة سكر ، وجعل يسب بالبولندية والألمانية ، وجلس يغني والدموع تترقرق في مآقية ، أغنية قوزاقية قديمة عن بولندا ، تعود الى عام ١٨٣١ . جاء أصدقاؤه وأخوته لتوديعه وجلسوا معه يغنون ويشربون الفودكا قبل الغداء .

يقولون ان بولندا بلاد غنية جداً ،
لكننا وجدناها فقيرة كمن نزلت عليهم اللعنة .
وفي بولندا هذه يوجد نزل ،
نزل بولندي ، يعود لملك بولندا .
وفي هذا النزل كان ثلاثة فتيان يشربون ،
بروسي ، وبولندي ، وروسي من قوزاق الدون .
شرب البروسي الفودكا ودفع ما عليه .
وشرب البولندي الفودكا ودفع أكثر بقليل .
وشرب القوزاقي ، فعاد النزل فقيراً كما كان .
ثم جعل يتخطى فيسمع صليل مهمازيه
ورأت ساقية المقصف عينيه مسمرتين في عينيها .
«آه ، ياسيدتي العزيزة ، تعالي لتعيشي معي ،
تعالي لتعيشي معي في الدون الهادى»
فالناس في الدون لا يحبون حياتكم ،
لا ينسجون ، لا يغزلون ، لا يبذرون ، لا يحصدون ،
لا يبذرون ، ولا يحصدون ، ولكنهم يرتدون ملابس أنيقة جداً»

وبعد الغذاء ودع غافريلا عائلته ومضى راكباً . وشرعت بيلاغيا من يومها ذاك ترقب بطنها .

شرحت لناتاليا كورشونوفا كيف حملت . وقالت : لقد شاهدت حلماً قبل وصول زوجي بيوم أو بيومين ، كنت أسير خلال المرج ، فرأيت بقرتنا العجوز قبالتي ، بقرتنا التي بعناها في الصيف الماضي . كانت تسير والحليب يقطر من حلمات ضرعها . فقلت في ذات نفسي «ياالهي ، أتراني لم أحسن حلبها» . وفي اليوم التالي جاءت دروزديخا العجوز تطلب حشيشة الدينار ، فقصصت عليها الحلم . فنصحتني بأن أقتطع قطعة من الشمع وألكها على هيئة كرة وآخذها وأدفنها في روث البقر ، لأن سوء الطالع كان مطلاً من النافذة . فهرعت لأفعل كما قالت . ولكني لم أجد الشمعة . لقد كانت لدي واحدة بالتأكيد ، ولابد أن الأطفال قد أخذوها ليصطادوا أباشبث . ثم جاء غافريلا ومعه المتاعب . وقبل ذلك كنت قد أمضيت ثلاثة أعوام بلا متاعب ، أما الآن فانظري اليّ! ـ ونخست بطنها المنتفخة .

وبرمت بيلاغيا من انتظار زوجها . لقد سئمت وحدتها ، ومن ثم دعت صديقاتها لزيارتها يوم الجمعة وقضاء الأمسية معها . وجاءت ناتاليا وبيدها جورب لم تنته بعد من حياكته ، ذلك أن الجد غريشكا اشتد عليه البرد عند حلول الربيع . وكانت مرحة على غير عادتها ، وضحكت أكثر مما ينبغي لدعابات الأخريات ، محاولة اخفاء اشتياقها لزوجها . وكانت بيلاغيا جالسة على الموقد وقد تدلت ساقاها العاريتان بعروقهما البنفسجية ، وجعلت تمازح فروسيا الشابة السليطة :

كيف ضربت زوجك يافروسيا ؟

ـ ألا تعرفين كيف ؟ على ظهره ، على رأسه ، وعلى أي مكان أستطيع أن أبلغه بيدي .

ـ لم أقصد ذلك ، انما كنت أتساءل كيف حصل ذلك .

فأجابت فروسيا برمة :

ـ لقد حصل وحسب .

فعلقت امرأة نحيلة طويلة قائلة بتأن :

ـ ولكن هل سيهدأ لسانك اذا ما كبست زوجك مع امرأة أخرى ؟

ـ حدثينا عن كل ذلك يافروسيا .

ـ ليس لدي ما أقوله...

ـ أوه ، هيا فكلنا هنا صديقات .

فتبسمت فروسيا قائلة وهي تتفل قشور عباد الشمس في كفها :

ـ حسناً ، لقد لاحظت نزواته منذ وقت طويل ، ثم أخبرتني إحداهن أنه كان يتردد على الطاحونة مع فاجرة تأتي من الجانب الآخر من الدون . فذهبت ووجدتهما في الطاحونة .

فقاطعتها المرأة الناحلة ملتفتة الى ناتاليا :

ـ هل من أخبار عن رجلك يا ناتاليا ؟

فأجابت هامسة :

ـ إنه في ياغودنويه .

ـ وهل تفكرين في العيش معه ؟

فتدخلت مضيفتهن :

ـ قد تفكر في ذلك ، ولكنه لا يفعل .

فأحست ناتاليا بالدم الحار يفور في وجهها . وأحنت رأسها فوق جوربها وجعلت تنظر الى النسوة من تحت أهدابها . واذ أيقنت أنها لا تستطيع أن تخفي عنهن حميا خجلها ، أسقطت كرة الصوف عن عمد وبارتباك فطن له الجميع . فتدحرجت من حضنها ثم انحنت وراحت تتلمس بأصابعها أرض الحجرة الباردة .

فنصحتها امرأة بنبرة رثاء ظاهر :

ـ ابصقي عليه ، أيتها المرأة! سوف تجدين لك نيراً آخر مادامت لك رقبة .

واختفت حيوية ناتاليا المصطنعة كما تتوارى الشرارة في الريح . وانتقل حديث النسوة الى الثرثرة والقال والقيل . ومضت ناتاليا تحيك بصمت . وأجبرت نفسها على الجلوس حتى انفرط عقد السامرات ، ثم ذهبت أخيراً الى البيت وفي ذهنها قرار لم يختمر تماماً . فقد دفعها الخزي من مصيرها المجهول الى خطوة أخرى . ذلك انها مازالت لا تريد أن تصدق أن غريغوري قد هجرها الى الأبد ، وهي مستعدة لأن تغفر له وتستعيده . لقد قررت أن ترسل له خطاباً بصورة خفية ، لتتأكد ما إذا كان قد هجرها الى الأبد أو أنه قد يغير رأيه . وعندما عادت الى البيت في ساعة متأخرة وجدت غريشاكا العجوز جالساً في غرفته الصغيرة يقرأ في نسخة قديمة بالية من الانجيل مجلدة بجلد مدهون . وكان أبوها في المطبخ يصلح شبكة لصيد الأسماك ويصغي الى قصة يرويها ميخاي عن جريمة قتل قديمة . وكانت والدتها قد أرقدت الطفلتين في الفراش ونامت على حافة الموقد ، وقد واجه عقبا قدميها المسودان الباب . فخلعت ناتاليا سترتها وجالت في الغرف دونما هدف .

وفي احدى أركان الغرفة الكبيرة كان ثمة كومة من القنب المعد للبذر ، وكان بالوسع سماع الفئران تتراكض وتصيء .

توقفت هنيهة في غرفة جدها بالقرب من طاولة صغيرة وهي تتفرس باكتئاب في كومة الكتب الدينية تحت الايقونات .

ـ جدي ، هل لديك شيء من الورق ؟

فتساءل الجد مقطب الجبين ناظراً اليها فوق النظارة : ـ أي صنف من الورق ؟

ـ ورق للكتابة .

فتلمس العجوز كتاباً للتراتيل وجر منه طبقة مدعوكة من الورق انبعث منها رائحة البخور القوية .

ـ وقلم ؟

ـ اسألي أباك . ابتعدي ياعزيزتي ، ولا تزعجيني .

وحصلت على عقب قلم من أبيهـا ، وجلست الى المنضدة تتصارع في ذهنها الأفكار التي سـامتـهـا العـذاب ردحـاً طويلاً من الزمن ، الأفكـار التي أهاجت ألما يحذّر قلبها ويتأكله .

ومضت تكتب :

«غريغوري بانتلاييش !

قل لي كيف لي أن أعيش ، وهل ضاعت حياتي أم لا . لقد رحلت دون أن تقول لي كلمة واحدة . لم أقترف ذنباً بحقك ، ولقد لبثت انتظرك لكي تطلق أساري ، لكي تقول أنك رحلت الى غير رجعة ، ولكنك مضيت عني وها أنت صامت لا تريم كالقبر .

ظننت أنك رحلت في لحظة انفعال ، وانتظرت عودتك ، ولكنني لا أريد أن أحشـر نفسي بينكما . أن يسحق انسـان واحد في الأرض خيـر من أن يسحق اثنان . ارحمني لآخر مرة واكتب . وسأعلم آنذاك ما هو مصيري ، فأنا الآن أقف في منتصف الطريق .

لا تغضب مني ، ياغريشا ، بحب المسيح .

ناتاليا »

وفي الصباح التالي ، وعدت هيت ـ بابا أن تعطيه فودكا وأقنعته بالشخوص الى ياغودنويه حاملاً الرسالة . فقاد هيت ـ بابا حصاناً الى ساحة درس الحبوب ، وقد استبد به ترقبه لنوبة السكر وانطلق على الحصان غير المسرج الى ياغودنويه دون أن يخبر سيده بذلك . كان يبدو أخرق فوق حصانه ، كأي غريب بين فرسان قوزاق . كان مرفقاه الممزقان يرتجان أثناء خببه . وكان أطفال القوزاق الذين يلعبون في الشارع يلاحقونه بصيحات السخرية :

ـ الاوكراني القذر !

ـ حاذر ألا تقع !

ـ كأنه كلب على سور !

وعاد عشية الليل ، وقد جلب معه ورقة زرقاء مما يلف به السكر القند ، وغمز لناتاليا وهو يخرج الورقة :

ـ كان الطريق فظيعاً . لقد رجني حتى كاد أن يخلع كبدي .

قرأت ناتاليا الجواب واستحال وجهها قاتماً . لقد نفذت الكلمات الأربع المخربشة على الورقة الى قلبها كأسنان حادة... .

«عيشي وحيدة . غريغوري ميليخوف» .

وبسرعة ، كما لو لم تكن لتثق بقواها ، مضت ناتاليا الى البيت وارتمت على سريرها . كانت أمها تشعل الموقد استعداداً لتلك الليلة ، لكي تطبخ في بكرة صباح أحد الفصح ولتكون كعكة العيد جاهزة في الوقت المناسب .

نادت على ناتاليا :

ـ ناتاليا تعالي ساعديني .

ـ ألم بي صداع ، ياماما . سأضطجع قليلاً .

فأطلت أمها برأسها خلال الباب وقالت :

ـ اشربي شيئاً من ماء الكامخ . وسيشفيك في الحال . فلعقت ناتاليا شفتيها بلسانها الجاف ولم تجب .

لبثت مستلقية حتى المساء ، ورأسها مغطى بشال صوفي دافئ وجسمها المكتوم يهتز بقشعريرة خفيفة . وكان ميرون غريغوريتش وغريشاكا على وشك أن يمضيا الى الكنيسة حينما نهضت وذهبت الى المطبخ . كانت حبات العرق تلمع على صدغيها تحت شعرها الناعم السبط وقد ترقرقت عيناها بغشاوة لزجة غير طبيعية .

وبينما كان ميرون غريغوريتش يشد أزراره الكثيرة على سرواله العريض رنا الى ابنته وقال :

ـ وقت غير مناسب لمرضك ، أيتها البنت . تعالي معنا الى القداس .

ـ اذهبوا ، وسآتي فيما بعد .

ـ لعلك ستأتين حينما نكون على أهبة الرجوع ؟

ـ لا ، سآتي حينما أتم ارتداء ملابسي .

فخرج الرجلان ، وتركا لوكينشنا وناتاليا في البيت . وجعلت ناتاليا في البيت تروح وتغدو على غير هدى بين الصندوق والسرير ، وتحملق بعينين شاردتين في كومة الملابس المبعثرة في الصندوق ، وتند عن شفتيها همهمة ، وتدور في ذهنها نفس الأفكار الموجعة . وظنت لوكينشنا أن ناتاليا لم تستطع أن تقرر أي لباس تلبس ، فاقترحت عليها بحنان أمومي : «ارتدى تنورتي الزرقاء ياعزيزتي . ستناسبك تماماً . أتريدين أن أحضرها لك ؟» .

لم يكن لدى ناتاليا ملابس جديدة لعيد الفصح ، وحين تذكرت لوكينشنا كيف كانت ابنتها قبل زواجها تحب في الأعياد أن ترتدي تنورتها الضيقة ذات اللون الأزرق الغامق ، الحت عليها أن تأخذها وهي تعزو قلقها الى حيرتها حول ما سترتديه .

ـ كلا ، سأمضي بهذه ! ـ واخرجت ناتاليا بعناية تنورتها الخضراء ، وتذكرت فجأة انها كانت ترتديها يوم زارها غريغوري أول مرة كعريسها المقبل ، وحين أخجلها بتلك القبلة الطائرة الأولى قرب مخزن الحبوب . وانكفأت على غطاء الصندوق المرفوع وهي تختض بالنشيج .

فصاحت أمها ضاربة يداً بيد :

ـ ناتاليا ، ما خطبك ؟

فخنقت ناتاليا رغبتها في العياط ، واستعادت سيطرتها على نفسها وأطلقت ضحكة غليظة متخشبة .

ـ لا أدري ما ألم بي اليوم... .

ـ آه ، ناتاليا ، لقد لاحظت... .

فصرخت بغيظ مفاجئ . وهي تدعك تنورتها الخضراء بأصابعها :

ـ حسناً ، وماذا لاحظت ، ياماما ؟

ـ أنت لا تستطيعين المضي على هذا المنوال ، أنت بحاجة الى زوج .

ـ كفاني ما لقيت من زوج واحد !

ومضت الى غرفتها ، وبسرعة عادت الى المطبخ مرتدية ملابسها ، نحيفة كالفتيات الصغيرات ، وعلى وجنتيها الشاحبتين تورد أسيان قاتم .

فقالت لها أمها :

ـ امضي قبلي ، فلست مستعدة بعد .

فدست ناتاليا منديلاً في كمها وخرجت ، وحملت الريح اليها هدير الجليد الطافي والمذاق الدبق لرطوبة الذوبان . ومضت رافعة تنورتها قليلاً بيدها اليسرى متلمسة طريقها عبر البرك الزرق اللؤلوية حتى وصلت الكنيسة . وكانت خلال الطريق تحاول أن تستعيد هدوءها النسبي السابق بالتفكير في العيد ، وفي كل شيء بشكل مبهم وخاطف . غير أن أفكارها ارتدت بعناد الى قطعة الورق المخبأة في صدرها ، والى غريغوري والمرأة السعيدة التي كانت آنئذ تضحك منها ملء قلبها ، ولربما في اشفاق عليها... .

وحينما دلفت الى باحة الكنيسة اعترض طريقها بعض الفتيان ، فمالت عنهم وتناهى الهمس الى أذنها :

ـ من تكون ؟ أرأيتها ؟

ـ ناتاليا كورشونوفا .

ـ يقولون انها مفتوقة . ولهذا هجرها زوجها .

ـ غير صحيح . كانت تعبث مع حميها ، بانتلاي الأعرج .

ـ ها ، هكذا ! ولهذا هرب غريغوري من منزله ؟

ـ صحيح . وهي لا تزال على علاقتها ببانتلاي...

ووصلت الى سقيفة باب الكنيسة وهي تتعثر على حجارة الأرض الوعرة يتبعها الهمس الداعر القذر . وهأهأت الفتيات الواقفات في السقيفة حينما استدارت وغذت السير الى البوابة الأخرى . وهرعت الى البيت وهي تترنح كأنها ثملة . وعند بوابة الفناء جذبت نفساً سريعاً ثم دخلت تتعثر باذيال تنورتها وتعض على شفتيها حتى نز منهما الدم . وكان باب الحظيرة المفتوح فاغراً فاه عن سواد مظلم خلل العتمة البنفسجية . وبإرادة صلبة

استجمعت بقية قواها وركضت الى الباب وخطت مسرعة عبر العتبة . كانت الحظيرة باردة جافة ، تفوح منها رائحة الجلد في عدة الخيل والتبن الزنخ . وتلمست طريقها مترنحة الى إحدى الزوايا ، من غير إحساس أو تفكير ، يستحثها تشوق مظلم انشب مخلبه في روحها اليائسة المهانة . وهناك التقطت محشاً من مقبضه ، ورفعت الشفرة ـ وكانت حركاتها تنم عن ثقة واحكام ـ والقت برأسها الى الوراء ، وفي فورة جذلى من العزم ، فجائية ، شرطت بلعومها بنصله . فهوت كما لو ضربتها ضربة وصعقها ألم وحشي لهاب ، ولما أدركت على نحو مبهم أنها لم تنجز ماعزمت عليه كل الإنجاز ، تحاملت على الأربع ، ثم على ركبتيها . وبسرعة فكت أزرار سترتها بأصابع مرتعشة ، وقد أفزعها الدم المنهمر على صدرها ، وازاحت جانباً صدرها القوي النافر ، بيد وبالأخرى سددت رأس الشفرة . وزحفت على ركبتها نحو الحائط ، ودفعت عليه الطرف غير الحاد للشفرة . وألقت ذراعيها وراء رأسها ، ودفعت صدرها بثبات الى الأمام ، الى الأمام... وشعرت وسمعت بوضوح بالحسحسة المقززة ، التي تشبه حسحسة الكرنب ، وهي تنبعث من اللحم المتمزق ، وسرت موجة متزايدة من الألم الحاد على صدرها والى بلعومها ، غارزة إبراً تطن في أذنيها...

صر باب البيت . وتلمست لوكينشنا طريقها هابطة درجات الباب ومن برج الكنيسة انبعثت دقات ناقوسها المنتظمة . وكانت الطافيات الضخمة الجامحة تنحدر على الدون ، وينبعث منها هدير كاسح مستديم . وكان النهر الفياض ، الطلق الطروب ، يحمل أصفاده الجليدية بعيداً الى بحر آزوف .

١٩

تقدم ستيبان من غريغوري ، والتصق بخاصرة الحصان الحصان العرقة وقد أمسك بركابه .

ـ كيف حالك ، يا غريغوري ؟

ـ الحمد لله!

ـ فيم تفكر ؟ ها ؟

ـ فيم عساي أن أفكر ؟

ـ لقد انتزعت زوجة رجل آخر... أتقضي وطرك منها ؟

ـ دع الركاب .

ـ لا ترتعب! لن أضربك .

فاحمر وجه غريغوري وعلا صوته :

ـ لست خائفاً . أقلع عن هذا!!

ـ لن أقاتلك اليوم . لا أريد... لكن تذكر كلماتي ياغريغوري ، لسوف أقتلك عاجلاً أم آجلاً .

ـ«سنرى!» كما يقول الأعمى!

ـ تذكر كلماتي جيداً . لقد أسأت اليّ . لقد خصيت حياتي كما يخصى خنزير . انظر هنالك...

ونشر يديه ، وراحتاه الخشنتان مبسوطتان الى أعلى . ـ أنا احرث ، ويعلم الله لأيما غاية . ألنا بحاجة الى ذلك لنفسي ؟

بوسعي أن أدبر حالي قليلاً ، وأقضي الشتاء بهذه الوسيلة . إنها الوحدة وحدها هي مايرهق كاهلي . لقد أسأت الي إساءة بالغة ، يا غريغوري .

ـ لا جدوى من شكواك اليّ . فالشيطان لا يفهم الجوعان .

فقال ستيبان موافقاً وهو يحدق في وجه غريغوري :

ـ هذا صحيح .

وعلى حين غرة انشق فمه عن ابتسامة صبيانية ساذجة ثنت زوايا عينيه الى شقوق صغيرة :

ـ إنني آسف لشيء واحد فقط ، أيها الفتى ، آسف جداً... أتذكر السنة الأخيرة ، قتال القرية في عيد المرفع ؟

ـ لا ، لا أذكر .

ـ يوم قتلوا قصار الأقمشة . وحين قاتل العزاب المتزوجين ، الا تتذكر ، هل تذكر كيف طاردتك ؟ كنت صغيراً وضعيفاً آنذاك ، كنبتة أسل خضراء بالقياس لي . تخليت عنك حينئذ ، ولو كنت قد ضربتك أثناء هربك ، لكنت قد شطرتك نصفين . عدوت بسرعة ، كأنك قطعة من المطاط . ولو كنت قد لطمتك بقوة على أضلاعك لما كنت اليوم حياً ترزق في هذه الدنيا .

ـ لا تجعل هذا يقلقك ، فلسوف نتنازل بعضنا مرة أخرى .

ومسح ستيبان جبينه كمن يحاول أن يستذكر شيئاً ما . ونادى ليستنتسكي العجوز غريغوري وهو يقود حصانه من عنانه . ومشى ستيبان الى جانب الجواد وهو مايزال ممسكاً الركاب بيده . ولبث غريغوري يراقب كل حركة تبدر منه ، ولاحظ شارب ستيبان الكستنائي المتهدل ، والدغلة الكثيفة في ذقنه الذي لم يحلق منذ أجل بعيد ، والسير الجلدي المتشقق في قبعته العسكرية . كان وجهه حزيناً غريباً بصورة مذهلة ، وقد تركت مسارب العرق البيض آثارها عليه . وفيما كان غريغوري ينظر ، أحس وكأنه يشخص من قمة تل الى السهب البعيد الملفع بضباب ممطر . كان ثمة كلال وفراغ يغشيان قسمات ستيبان الذي تخلف وراء غريغوري دون كلمة وداع ، فمضى غريغوري بحصانه متمهلاً .

ـ انتظر قليلاً . وكيف... كيف حال اكسينيا ؟

فأجاب غريغوري وهو يضرب بسوطه كتلة من التراب من على جزمته :

ـ لا بأس .

ثم أوقف الجواد ونظر خلفه . كان ستيبان واقفاً وقدماه منفرجتان عن بعضهما كثيراً ، يلوك عوداً بين أسنانه . وأحس غريغوري على حين غرة بإشفاق عليه لاحد له ، وما هي الا لحظة حتى طغت الغيرة عليه . فصاح وهو يستدير على سرجه :

ـ إنها لا تفتقدك ، فلا تقلق ؟

ـ أهو كذلك ؟

وهوى غريغوري بسوطه على الجواد فيما بين أذنيه وابتعد يجري به دون أن يجيب .

٢٠

لم تبح اكسينيا بحملها لغريغوري الا في الشهر السادس ، حينما لم يعد في مقدورها أن تخفيه عنه . لقد ظلت صامتة طيلة ذلك الوقت لأنها كانت تخشى الا يصدق بأن الجنين الذي تحمله هو ابنه . كان تتريث كما لو تنتظر شيئاً وكان قلبها ينقبض من نوبات الأسى والرعب .

وخلال الأشهر الأولى كان الغثيان ينتابها من اللحم دون أن يلحظ غريغوري ، وحتى لو لحظة لما قدّر بواعثه .

واعتمل النبأ في سريرتها ذات مساء فأخبرته به ، وهي تتفرس قلقة في وجهه طيلة الوقت تتلمس أي تبدل في قسماته . غير أنه استدار نحو النافذة وتنحنح متضايقاً .

ـ لم تخبريني من قبل ؟

ـ كنت خائفة ، ياغريشا . ظننت أنك قد تلفظني...

فسأل وهو ينقر بأصابعه على ظهر السرير :

ـ أسيكون ذلك قريباً ؟

ـ بداية آب ، على ماأظن .

ـ أهو ابن ستيبان ؟

ـ كلا ، إنه ابنك!

ـ هكذا تزعمين ؟

ـ فلتقدر أنت بنفسك . إنه يوم قطع الأخشاب...

ـ لا تصطنعي الأشياء يااكسينيا! حتى لو كان ابن ستيبان ، فما عساك أن تفعلي ؟ إن ما أريد هو جواب صادق :

فجلست اكسينيا على المصطبة وهي تذرف دموعاً مغضبة ، وانفجرت في همس ضار :

ـ لقد عشت معه سنين عديدة ، ولم يحصل شيء أبداً! فكر بنفسك! إنني لم أكن امرأة عليلة... لابد أنه جاءني منك... وها إنك...

لم يتحدث غريغوري بأكثر من ذلك عن الموضوع . وطرأ على موقفه من اكسينيا خيط جديد من الترفع الحذر والشفقة المشوبة بشيء من السخرية ، فانطوت على نفسها لا تسأله معروفاً . وفي أشهر الصيف فقدت ملامحها الجميلة ، لكن الحمل لم يؤثر على قوامها البديع الا قليلاً ، فقد اخفى امتلاؤها العام وضعها الجديد ، وبالرغم مما بدا على وجهها من نحول فقد اكتسب جمالاً جديداً بعينيها المتألقتين بدفء . واستطاعت أن تدبر بسهولة عملها ، كطاهية ، لا سيما وان عدد العمال الذين استخدموا في الضيعة كان أقل من السابق .

صار ساشكا العجوز مولعاً باكسينيا ، ذلك الولع المتقلب الذي يميز الشيخوخة . ربما لأنها كانت ترعاه كما ترعى البنت أباها ، فكانت تغسل له أغطيته ، وترتق قمصانه وتمنحه لقماً سهلة المضغ على المائدة . وكان ساشكا حينما ينتهي من رعاية الخيل ، يذهب الى المطبخ ، ليجلب الماء ويعصد البطاطة للخنازير ، ويقوم بشتى الأعمال الصغيرة متوثباً حولها وملوحاً بيديه وهو يكشف عن لثته الجرداء ويقول :

ـ أنت تحسنين اليّ ، ولسوف أكافئك . سأفعل أي شيء من أجلك ، يا أكسينيا . لقد تلفت حياتي من غير امرأة تعنى بي ، كان القمل يلتهمني . لو احتجت الى أي شيء ، فما عليك الا أن تسأليني .

كان يفغيني نيكولاييفتش قد رتب أمر اعفاء حوذيه من معسكر التدريب الربيعي . فعمل غريغوري في الحش ، ومن حين لآخر كان يوصل ليستنتسكي العجوز بمركبة الى مركز المنطقة ، ويمضي بقية وقته مع سيده في صيد طيور الحباري . وبدأت الحياة السهلة الرضية تفسد طباعه ، فأمسى

كسولاً بديناً ، وبدا أكبر سناً من حقيقة عمره . وكان الشيء الوحيد الذي يسبب له القلق هو التفكير بخدمته العسكرية المقبلة ، فلم يكن لديه حصان ولا عدة ، ولم يكن ليأمل أن يحصل على أي شيء من أبيه . فجعل يدخر الأجر الذي يستلمه عن عمله وعمل اكسينيا ، حتى حرم نفسه التبغ آملاً أن يستطيع ابتياع حصان دون اضطراره الى الاستجداء من أبيه . وكان ليستنتسكي العجوز قد وعده خيراً كذلك . وسرعان ما تحقق هاجس غريغوري بأن أباه لن يعطيه شيئاً . ففي أواخر حزيران جاء بيوتر لزيارة أخيه ، وذكر في مجرى الحديث أن أباه لم يزل غاضباً كالسابق ، وإنه أعلن الا يساعده في الحصول على حصان ، وقال : «فليذهب الى القيادة المحلية ليحصل على حصان» .

فقال غريغوري :

ـ ليس ثمة مايدعوه للقلق ، فسأذهب لاداء خدمتي العسكرية على حصاني الخاص ، ـ وشدد على كلمة «الخاص» .

فسأله بيوتر مبتسماً وهو يلوك شاربه :

ـ وكيف ستحصل عليه ؟ هل ستشتغل راقصاً للحصول على ثمنه ؟

ـ سأرقص من أجله ، أو استجدي ، واذا لم أستطع الحصول عليه بهذه الوسيلة فسوف أسرقه .

ـ يا للفتى الشاطر!

فقال غريغوري بلهجة أكثر جدية :

ـ سأبتاع حصاناً بأجوري .

ومضى بيوتر في جلسته على درجات العتبة يسأل غريغوري عن عمله وطعامه وأجوره ، وهو يلوك شاربه ويهز رأسه استحساناً ، وبعد أن أتم استفساراته قال لأخيه وهو يستدير لينصرف :

ـ خير لك أن تعود ، فلا جدوى من عنادك . أتحسب أنك ستحصل على أجر أعلى بهذه الطريقة ؟

ـ لا ، لا أظن .

ـ أتنوي البقاء معها ؟

ـ مع من ؟

ـ مع هذه المرأة ؟

ـ أجل . ولم لا ؟

ـ أوه ، كنت أتساءل وحسب .

وبينما مضى غريغوري ليودع أخاه ، سأله أخيراً :

ـ وكيف الأحوال في البيت ؟

فتضاحك بيوتر فيما كان يحل فرسه من درابزين الدرجات ، وقال :

ـ لك بيوت بقدر ما للأرنب من جحور! كل شيء على مايرام . أمي تفتقدك . وقد حششنا ثلاثة أحمال من التبن .

وتفرس غريغوري بانفعال في الفرس العجوز التي كان يمتطيها أخوه :

ـ ألم تلد مهراً هذا العام ؟

ـ كلا ، أيها الأخ ، فهي عاقر . ولكن الكميت التي اشتريناها من كريستوينا ولدت .

ـ ووليدها .

ـ فحل جيد طويل الساق قوي الرسغ ، وذو صدر متين . وسيغدو جواداً جيداً .

فتنهد غريغوري ، وقال :

ـ إنني أفتقد القرية يا بيوتر . أفتقد الدون . فلست تجد ماء يجري هنا . إنه جحر موحش!

فأجاب بيوتر وهو يلقي بطنه على ظهر الفرس الهزيل :

ـ تعال زرنا .

ـ يوماً ما .

ـ حسناً . مع السلامة .

ـ رحلة طيبة .

وكان بيوتر قد ابتعد عن الفناء حينما تذكر شيئاً وصاح على غريغوري الذي كان لايزال واقفاً على الدرجات :

ـ ناتاليا... لقد نسيت... شيء فظيع...

لكن الريح التي كانت تحوم فوق الفناء مثل النسر حملت نهاية الجملة بعيداً عن أذني غريغوري . وتلفع بيوتر وفرسه بغبار مخملي ، فلوح غريغوري بيده ومضى الى الاصطبلات .

كان الصيف جافاً كالعظام . ثم سقط مطر قليل فنضج القمح مبكراً . وما إن تم خزن الذرة ، حتى نضج الشعير واصفر لونه ، فخرج غريغوري والعمال المياومون الأربعة لحصاده .

وكانت اكسينيا قد انهت عملها مبكرة ذلك اليوم فسألت غريغوري أن يصطحبها معه . وحاول أن يثنيها عن عزمها قائلاً :

ـ الأفضل أن تبقي في البيت فما الحاجة إليك هناك ؟

ولكنها ألحت وألقت العصابة على رأسها بسرعة ، وخرجت تعدو حتى لحقت بالعربة التي ركب فيها الرجال .

وقد وقع أثناء الحصاد الحادث الذي كانت تتطلع اليه اكسينيا بتلهف ونفاد صبر مشوب بالفرح ، والذي كان غريغوري يتوقعه بخوف مبهم . واذ شعرت بالأعراض ، ألقت عنها المجرفة واستلقت تحت كومة من حزم الشعير . وسرعان ما جاءها المخاض .

فتمددت متفلطحة على الأرض وهي تعض على لسانها المسود مر بها العمال وهم على آلة الحصاد عند المنعطف ، وحثوا الخيل صارخين . وصرخ بها أحدهم ، وهو شاب تعلو أنفه دملة متقيحة وقد امتلأ وجهه الأصفر بتجاعيد لا حصر لها بدت كحفر على الخشب :

ـ هي ، أنت! انهضي وإلا ذبت!

فأناب غريغوري أحد الرجال محله على الآلة وعبر إليها .

ـ ما الخبر ؟

فقالت بصوت مبحوح وشفتاها تلتويان بغير إرادتها :

ـ جاءني المخاض...

ـ قلت لك ألا تأتي ، يا قحبة الشيطان! ما عسانا أن نفعل الآن ؟

ـ لا تغضب مني ، يا غريشا!... آه!... آه... غريشا ، شد الحصان الى العربة . لابد أن أذهب الى البيت... كيف يمكنني ، هنا... والقوزاق .

وند عنها أنين حينما اعتصرها الألم مثل طوق حديدي .

فركض غريغوري ليأتي بالحصان الذي يرعى في منخفض على بعد قليل ، وحينما عاد بالعربة . كانت اكسينيا قد زحفت جانباً وحبت على أطرافها الأربع ، وألقت برأسها في كومة من الشعير المغبر ، وجعلت تبصق السنابل الشائكة التي كانت قد مضغتها في معاناتها . وركزت عينيها المتسعتين على غريغوري في غيبوبة ، وغرزت أسنانها في صدريتها المدعوكة كي لا يسمع العمال صراخها المريع النفاذ .

ورفعها غريغوري الى العربة وساق الحصان مسرعاً صوب الضيعة . انبعث من اكسينيا صراخ فيما كان رأسها يرتطم بقاع العربة : «آه! لا تسرع... آه ، الموت! انك... ترجـ... ني» .

واعمل غريغوري السوط بصمت ، ولوح بالأعنة فوق رأسه دون أن ينظر الى الوراء ، حيث كان يزحف الى سمعه عويل مبحوح متقطع .

وجعلت اكسينيا تتوثب هنا وهناك في العربة المترنحة من جانب لآخر على الطريق غير المطروق ، والمليء بالعثرات ، وهي تضغط براحتيها على خديها ، وعيناها الجزعتان الجاحظتان تدوران في محجريهما بصورة وحشية . أبقى غريغوري الحصان على سرعته ، وقوس عريش العربة يتأرجح صاعداً هابطاً أمام عينيه ، حاجباً سحابة بيضاء ناصعة كانت تتدلى من السماء كأنها بلور مصقول . ومضت لحظة توقفت خلالها اكسينيا عن عويلها الصارخ ، فتعالت قرقعة العجلات ، ومضى رأسها يرتطم بشدة على خشبة

الأرضية . لم ينتبه غريغوري لصمتها في البداية ، لكنه عاد فنظر الى الخلف . كانت اكسينيا مستلقية ، وقد تشوه وجهها بصورة مرعبة ، وانضغط خدها بقوة ، على جانب بالعربة ، وفكاها يعتملان مثل سمكة ملقاة على الشاطئ . وكان العرق يسيل من جبينها الى محجري عينيها الغائرين . فرفع رأسها واضعاً تحته قبعته المدعوكة . فقالت وهي تنظر اليه بطرف عينيها :

ـ سأموت ، يا غريشا . وينتهي أمري!

فارتعش غريغوري ، وسرت قشعريرة باردة في جسده حتى أصابع قدميه . وراح ينقب دون جدوى عن كلمات تشجيع وطمأنينة . فالتوت شفتاه بقوة وانفجر : «كفي هراء ، أيتها الحمقاء!» ثم هز رأسه ، ومال الى الأمام وجعل يعصر قدميها المثنية : «اكسينيا يا حمامتي الصغيرة»...

خبا الألم وانجاب عن اكسينيا لحظة ، ثم عاودها بقوة مضاعفة . تقوس جسمها وإذ شعرت بشيء يمزق بطنها ، أرسلت صرخة مدوية مرعبة اخترقت أذني غريغوري . فألهب الحصان بسوطه في نوبه من جنون .

ثم تناهى إليه صوتها ضعيفاً واهناً فوق قرقعة العجلات :

غريشا .

فكبح جماح الحصان ، وأدار رأسه . كانت اكسينيا متمددة في بركة من الدم وذراعاها منشورتان ، وتحت تنورتها شيء حي يتململ ويصوص . فقفز غريغوري كالمجنون من العربة وكبا على مؤخرتها . وعندما حدق في فم اكسينيا اللاهث الملتهب استطاع أن يخمن هذه الكلمات أكثر مما سمعها :

ـ اقضم الحبل... اربطه بخيط... من قميصك .

وبأصابع مرتعشة مزق خصلاً من الخيوط من كم قميصه القطني ثم قضم حبل المشيمة ، وهو يغلق عينيه بقوة حتى آلمتاه ، وربط بعناية طرفه النازف بالخيط .

٢١

كانت ضيعة ياغودنويه ناتئة كالورم بجانب الوادي الفسيح الجاف . والريح تهب متغيرة الاتجاه ، من الشمال أو الجنوب ، وتطفو الشمس في بياض السماء الحائل الى الزرقة ، ويحل الخريف بحفيفه للأوراق الساقطة في أعقاب الصيف ، وينهال الشتاء بصقيعه وثلجه ، غير أن ياغودنويه تبقى في أحضان الملل الهامد . هكذا مرت الأيام ، واحداً تلو الآخر ، متشابهة كالتوائم ، والضيعة ترزح منقطعة عن العالم كعهدها .

ما فتىء البط الهامس الأسود ، تحيط بعيونه حلقات حمر كالعوينات ، يتهادى في أرجاء الفناء ، والدجاج الحبشي منتشراً كالمطر المنقوط ، والطواويس زاهية الريش تتصادح مبحوحة الصوت كالقطط فوق سطح الاسطبل ، كان الجنرال العجوز مولعاً بشتى أنواع الطيور ، حتى أنه يحتفظ بكركي كسيح . وفي شهر تشرين الثاني ، حين يتناهى اليه نداء الكراكي الخافت ، وهي طائرة نحو الجنوب ، يعتصر الكركي نياط القلب بصيحات الحنين النحاسية الجرس . ولكنه لم يقو على الطيران ، فقد تدلى أحد جناحيه الى جنبه دونما نفع . وفيما كان الجنرال يقف الى النافذة ويرقب الطير وهو يمد عنقه ويقفز مرفرفاً على الأرض ، يقهقه فاغراً فمه الكبير تحت شاربه المتهدل الأشيب ، وكانت نبرة ضحكاته العميقة تتجاوب في القاعة الخاوية ذات الجدران البيض .

ومضى فينيامين شامخاً برأسه الأشعث كدأبه أبداً ، ينفق أياماً بطولها وحيداً في غرفة الانتظار يلعب الورق مع نفسه . وكان تيخون كعده يغار على خليلته ذات الوجه المجدور ، من ساشكا ، والعمال المياومين ، وغريغوري ، ورب البيت ، وحتى من الكركي الذي خصته لوكيريا بالرقة التي تفيض من قلبها الأرمل . وكان ساشكا العجوز يسكر بين آونة وأخرى ، فيستجدي قطعاً من فئة العشرين كوبيكا تحت نافذة ليستنتسكي .

وطوال الوقت الذي أمضاه غريغوري في ياغودنويه لم يقع سوى حادثين اشاعا الحركة في السبات الذي ينيخ بكلكله على حياة الضيعة الرتيبة الوسنانة : مولد طفلة اكسينيا ، وفقدان ذكر الأوز النفيس . وقد ألف سكان ياغودنويه الطفلة بسرعة ، وحين عثروا على ريش الأوز في المرج ، استنتجوا أن ثعلباً قد اختطفه ، ثم مالبثوا أن استكانوا من جديد الى حياتهم الوادعة .

كان رب البيت ، حين يستيقظ صباحاً ، يستدعي فينيامين ويسأله :

- هل رأيت حلماً في الليلة الماضية ؟

- ماذا ، طبعاً رأيت حلماً رائعاً .

فيأمره ليستنتسكي باقتضاب وهو يلف لنفسه سيكارة :

- قصه عليّ .

فيروي فينيامين الحلم . وإذا ما تبين ليستنتسكي أنه غير ماتع أو مرعب ، فإن الغضب ينتابه ، ويقول :

- أيها الأبله! إن الاحلام السخيفة تأود الحمقى .

وشرع فينيامين يلفق أحلاماً مرحة ماتعة . ولكن ذلك كان عليه عسيراً . فبدأ يختلق الأحلام قبل موعدها ببضعة أيام ، جالساً على صندوقه يخلط الورق ، وكان منتفشاً دهيناً كخدي لاعبه . وكانت عيناه تحدقان ساهمتين ، فيرهق ذهنه الى حد أنه لم يعد يرى أحلاماً حقيقية على الإطلاق . وحين كان يفيق في الصباح يجهد ذاكرته في محاولة استعادة ما رآه في الحلم ، ولكنه لا يرى إلا ظلاماً ، ظلاماً دامساً . إنه لم ير حلماً ، لم ير في نومه أي وجه .

وسرعان ما نضبت جعبة فينيامين من الأكاذيب الساذجة فصار الغضب ينتاب سيده حين يمسك به متلبساً بتكرار ما رواه :

- لقد رويت لي يوم الخميس الماضي ذلك الحلم حول الحصان ، لعنة الله عليك!

فيكذب فينيامين بهدوء :

ـ لقد رأيت الحلم ثانية ، يا نيكولاي اليكسييتش! إني صادق والله ، لقد رأيته ثانية .

وفي كانون الأول استدعي غريغوري الى إدارة المنطقة في فيشينسكايا . واستلم هناك مئة روبل لشراء حصان ، وطلب اليه أن يحضر الى مركز التجنيد في قرية مانكوفو بعد عيد الميلاد بيومين .

عاد الى ياغودنويه وقد انتابه اضطراب ملحوظ . كان عيد الميلاد على الأبواب ، ولم يكن لديه شيء جاهز . فاشترى حصاناً بمئة وأربعين روبلاً من المال الذي تسلمه من السلطات إضافة الى ما ادخره . وقد اصطحب ساشكا معه فاشتريا حصاناً لا بأس بمظهره ، كميتا ، له من العمر ست سنوات ، فيه عيب خفي . ومرر ساشكا العجوز أصابعه في ثنايا لحيته وقال :

ـ لن تحصل على واحد أرخص منه ، ثم إن السلطات لن ترى العيب فيه! فليس لديهم مهارة كافية .

وعاد غريغوري الى ياغودنويه على ظهر الحصان ، فعجم عوده . وعلى غير انتظار قدم بانتلاي بروكوفتش الى ياغودنويه قبل عيد الميلاد بأسبوع . لم يدخل عربته الى الفناء ، بل ربط حصانه والعربة قرب البوابة ، ثم ظلع الى جناح الخدم ، سالخاً بلورات الثلج عن لحيته التي تدلت كالخشبة السوداء فوق ياقة معطفه . وكان غريغوري يتطلع خلال الشباك صدفة فرأى والده قادماً . فارتبك واندهش :

ـ يا للعجب... إنه أبي!

ولأمر ما ، هرعت اكسينيا الى المهد ودثرت الطفلة . دخل بانتلاي بركوفيتش الغرفة آتياً معه بنفحة من الهواء البارد . ورفع قبعته الفرو ورسم إشارة الصليب على نفسه أمام الأيقونة ، ثم أجال بنظراته في أرجاء الغرفة ببطء :

ـ صحة طيبة!

فأجابه غريغوري وهو ينهض من المصطبة ويخطو الى وسط الغرفة قائلاً : «صباح الخير ، يا أبتي» . مد بانتلاي بركوفيتش الى غريغوري يداً باردة ، وجلس على حافة المصطبة وهو يلف نفسه بالفروة ، دون أن ينظر الى اكسينيا التي وقفت قرب المهد ساكنة لا تأتي حراكاً .

ـ هل تتهيأ للجندية ؟

ـ بالطبع .

ثم صمت بروكوفتش وهو يحدق في غريغوري بنظرات متفحصة .

ـ اخلع عنك ثيابك ، يا أبتي ، لابد أنك متجمد .

ـ لا يهم ذلك .

ـ سنعد السماور .

ـ شكراً لك ـ ثم حك العجوز بظفره بقعة وحل متيبسة من معطفه ، وأضاف : ـ جلبت تجهيزاتك : معطفين ، وسرجاً وسراويل ، ستجدها كلها هناك في الزحافة .

فخرج غريغوري وحمل كيسي التجهيزات من الزحافة . وحين عاد نهض أبوه من مقعده . وسأل ابنه :

ـ متى ترحل ؟

ـ في اليوم التالي لعيد الميلاد . أتذهب الأن ياأبتي ؟

ـ أود أن أعود مبكراً .

ثم ودع غريغوري ، وهو مايزال يتحاشى النظر الى اكسينيا ، ومضى صوب الباب . وفيما هو يرفع السقاطة أدار عينيه صوب المهد وقال :

ـ أمك تخصك بالسلام : إنها تلازم الفراش لألم في ساقيها ـ ثم صمت لحظة ، وقال بتثاقل : ـ سوف أرافقك الى مانكوفو . كن على استعداد حين آتي .

خرج وهو يدس يديه في قفازين دافئين منسوجين . كانت اكسينيا شاحبة من المذلة التي عانتها ، فلم تقل شيئاً . وراح غريغوري يقطع الغرفة

ذهاباً وإياباً ، وهو ينظر الى اكسينيا من زاوية عينيه فيما كان يمر بها ويطأ ألواحاً تصرّ تحت قدميه .

ويوم عيد الميلاد ساق غريغوري العربة بسيده الى فيشينسكايا . فحضر ليستنتسكي القداس ، وتناول طعام الإفطار مع ابنة عمه ، وهي من ملاكات المنطقة ، ثم أمر غريغوري أن يعد العربة لرحلة الإياب . فنهض غريغوري في الحال رغم أنه لم ينته من تناول حساء الكرنب ولحم الخنزير الدسم . ومضى الى الإسطبل ، وأخرج منه الحصان الرمادي الأرقط الخباب معلقاً به عنانه وشده الى الزحافة الخفيفة في عجلة .

كانت الريح تنخل ندف الثلج الناعمة المرنانة ، وكان زبد فضي يرسل هسيسه خلال الفناء وقد تدلى من الأشجار خلف السياج هداب هش من الثلج الأبيض . كانت الريح تنفض هذا الهداب ، فيتناثر ، ويعكس من نور الشمس تشكيلة ثرة من الألوان القزحية . وكانت الغربان المستبردة تلغط عالياً على السطح قرب المدخنة التي كان يتصاعد منها الدخان . وإذ أفزعها وقع الأقدام طارت وحامت فوق الدار كندف رمادية ، ثم اتجهت صوب الغرب ، صوب الكنيسة ، وهي ترى واضحة أمام سماء الصباح البنفسجية .

نادى غريغوري الخادمة التي جاءت الى درج البيت :

ـ أخبري السيد أننا على استعداد .

خرج ليستنتسكي واستقل المركبة ، وقد دفن عذاريه في ياقة معطفه المصنوع من فراء حيوان الراكون . ودثر غريغوري ساقيه وعدل فروة الذئب المبطنة بالمخمل . قال ليستنتسكي وهو يلقي نظرة الى الحصان :

ـ ابعث الدفء فيه .

جلس غريغوري مائلاً الى الوراء في مقعده ، ويداه تمسكان بقوة على الأعنة الراعشة ، يراقب حفر الطريق وهو يستعيد بقلق ذكرى تلك اللكمة التي لم تكن بالواهنة يوم كالها له سيده على الأذن بسبب هفوة في سياقه المركبة في أوائل الشتاء . وحين انحدرت المركبة شطر الدون ارخى

غريغوري العنان من قبضة يده ، ودلك بقفازه خديه المتيبسين من الريح الباردة اللاذعة .

بلغا ياغودنويه في غضون ساعتين . كان ليستنتسكي صامتاً طوال الرحلة ، وبين آونة وأخرى ، يربت على ظهر غريغوري بإصبعه إشارة له بالتوقف ريثما يلف لنفسه سيكارة ويشعلها مديراً ظهره عكس الريح . ولم يتوجه إليه بالسؤال إلا وهما يهبطان التل صوب البيت .

ـ صباح غد الباكر ؟

فالتفت غريغوري جانباً في مقعده ، وجر شفتيه المتجمدتين عن بعضهما بمشقة . كان لسانه المتخشب من البرد ، يبدو وكأنه قد تورم والتصق بظهر أسنانه ، واستطاع أخيراً أن يجيب :

ـ أجل .

ـ تسلمت كل نقودك ؟

ـ أجل .

ـ لا تقلق على زوجتك ، سوف تكون بخير معنا . كن جندياً حسناً ، لقد كان جدك قوزاقياً طيباً . وينبغي لك ـ ثم خفت صوت ليستنتسكي إذ أخفى وجهه من الريح تحت ياقة معطفه : ـ ينبغي لك أن تسلك سلوكاً يليق بجدك وأبيك . لقد نال أبوك الجائزة الأولى في ألعاب الفروسية في الاستعراض الامبراطوري ، أليس كذلك ؟

ـ أجل .

ـ حسناً إذن!

هكذا ختم الشيخ كلامه بنبرة شديدة في صوته ، فكأنه يحذر غريغوري ، ثم دفن رأسه ثانية في معطف الفرو .

سلم غريغوري الحصان الى ساشكا في الفناء ، وتوجه الى جناح الخدم فصاح ساشكا وراءه :

ـ لقد جاء أبوك ـ وغطى الحصان بشرشف .

وألفى غريغوري أباه جالساً الى المائدة يتناول مرق اللحم . وحين لمح غريغوري وجه والده المحمر قرر أن والده قد «شرب قليلاً» .

ـ ها قد عدت ، يا جندي ؟

فأجابه غريغوري : «لقد تجمدت أوصالي» . وصفق يديه والتفت الى اكسينيا ، وأردف : «فكي أزرار قلنسوتي ، أصابعي متخشبة جداً» .

فحمحم والده وهو لا يتوقف عن المضغ :

ـ لابد أن الريح كانت تعاكسك .

كان أبوه ، وقد بدا هذه المرة أرق مزاجاً ، يصدر الى اكسينيا أوامره وكأنه في بيته . قال لها : «لا تبخلي هكذا بالخبز ، اقطعي المزيد منه» .

وحين فرغ من طعامه ، نهض من المائدة وتوجه الى الباب ليدخن في الفناء . وحين مر بالمهد هزه مرة أو مرتين ، متظاهراً بأن هذا حدث عرضاً ، ثم دس رأسه تحت الغطاء وسأل : «هو قوازقي ؟» .

فأجابت اكسينيا عن غريغوري : «إنها بنت» ، ولما لاحظت عدم الرضى الذي ارتسم على وجه الشيخ ، أردفت على عجل :

ـ إنها صورة لغريشا!

تفحص بانتلاي بروكوفتش باهتمام ذلك الرأس الداكن الصغير الذي كان يبرز من بين الملابس ، ثم أعلن بلهجة لا تخلو من فخر : «إنها من دمنا!... هكذا إذن!» .

سأله غريغوري :

ـ كيف جئت يا أبتي ؟

ـ بالفرس وحصان بيوتر .

ـ كان يلزمك حصان واحد ، وبإمكاننا شد حصاني في الرحلة الى مانكوفو .

ـ ليذهب خفيف الحمل . أتدري ، إنه حصان ليس بالرديء .

ـ هل رأيته ؟

ـ أجل .

كانت فكرة واحدة تضايقهما معاً ، ولكنهما تحدثا في شتى الأمور التافهة . ولم تشاركهما اكسينيا الحديث بل لبثت جالسة على السرير حزينة مكتئبة وثدياها الممتلئان قد كبرا فشدا على قميصها . لقد ازدادت إثر ولادتها اكتنازاً بشكل ملحوظ ، ودبت عليها سيماء جديدة من الثقة والسعادة .

ولم يأووا الى مضاجعهم إلا في وقت متأخر ، وحين لاذت اكسينيا بجانب غريغوري بللت قميصه بدموعها وفيض الحليب الذي ينز من ثدييها .

ـ سأذوب أسى . ماذا أفعل بدونك ؟

فدمدم غريغوري :

ـ ستكونين بخير .

ـ الليالي الطوال... وتفيق الطفلة... فكر في ذلك فقط ، يا غريشا! أربع سنوات!

ـ يقال إن الجندية في غابر الأيام كانت تستغرق خمساً وعشرين سنة .

ـ ما شأني في غابر الأيام ؟

ـ اهدئي الآن ، كفاك ذلك!

ـ أقول تباً لخدمتك العسكرية . هي تفرق بيننا!

ـ سأعود في الإجازة .

ـ في الإجازة! ـ وأنت اكسينيا ، وهي تشهق وتمسح أنفها بقميص نومها : ـ ستجري مياه كثيرة في الدون حتى ذلك الحين .

ـ كفاك نشيجاً! ما أشبهك بالمطر أيام الخريف ، إنه يرذ على الدوام .

ـ ينبغي أن تكون في مكاني .

واستسلم غريغوري للنوم قبيل الفجر . ونهضت اكسينيا فأرضعت الطفلة ، واستلقت من جديد . واتكأت على مرفقيها ، وراحت تحدق في وجه

غريغوري ، بعين لا تطرف وهي تطيل نظرة الوداع فيه . وعادت بها الذاكرة الى الليلة التي حاولت فيها إقناعه بالهرب معها الى الكوبان ، كانت أشبه بتلك الليلة ، ما خلا قمراً كان يغمر الفناء خارج النافذة بنوره الأبيض . إنها أشبه بتلك الليلة ، وغريغوري مايزال هو نفسه ، ولكنه ليس كذلك تماماً . فإن وراءهما طريقاً طويلاً مهدته الأيام العابرة .

انقلب في فراشه ، وتمتم شيئاً حول قرية أولشانسكي ، ثم صمت . وحاولت أكسينيا أن تنام ، إلا أن أفكارها بددت النوم عنها ، كما تذرو الريح القش ، ورقدت حتى انبثاق الفجر تفكر بالكلمات المتقطعة التي فاه بها في نومه عن قرية أولشانسكي ، جاهدة أن تجد لها معنى . واستيقظ بانتلاي بروكوفتش حالماً بدأ ضوء النهار الوليد يزيد على النوافذ التي علاها الجمد .

ـ غريغوري انهض ، طلع النهار .

ركعت اكسينيا على السرير وارتدت تنورتها ، وشرعت تبحث عن الثقاب مدة طويلة وهي تتنهد .

وما إن تناولا الفطور ، وحزما متاعهما ، حتى كان الفجر قد انبلج تماماً ، وكان ضوء النهار يتموج بتلاوين زرقاء ، فبدت معالم الواح السياج السود واضحة ولاح سقف الاسطبل معتماً على صفحة السماء البنفسجية الغبشاء .

وذهب بانتلاي بروكوفتش ليشد حصانيه ، فيما انتزع غريغوري نفسه من قبلات اكسينيا المحمومة اليائسة وذهب ليودع ساشكا والخدم الآخرين .

دثرت اكسينيا طفلتها ، وأخرجتها معها للوداع الأخير . فلمس غريغوري جبين ابنته الندي بشفتيه لمسة خفيفة ، ثم ذهب الى حصانه . قال أبوه وهو يحث حصانيه :

ـ ادخل الى المركبة .

ـ كلا سأمتطي حصاني .

شد غريغوري حزام سرجه ببطء متعمد ، ثم امتطى الحصان ، ولمّ العنان في يده ، فلمست اكسينيا الركاب بيدها وراحت تردد :

ـ انتظر ، يا غريشا... هناك شيء أردت أن اقوله...

وقد حاولت أن تتذكر ذلك الشيء فجعدت حاجبيها وهي ترتجف مذهولة .

ـ حسناً ، وداعاً... اعتني بالطفلة... يجب أن أمضي ، انظري كم ابتعد أبي .

ـ انتظر يا أعز حبيب!

وأمسكت اكسينيا بيسراها الركاب الحديدي البارد كالثلج ، وشدت يمناها الطفلة الى صدرها ، ولم تبق لها يد طليقة تمسح بها الدموع المتدفقة من عينيها الواسعتين المحملقتين .

وجاء فينيامين الى درج الدار وقال :

ـ غريغوري ، السيد يريدك .

فأطلق غريغوري لعنة ، ثم لوح بسوطه ، واندفع خارج الفناء . فجرت اكسينيا وراءه ، متعثرة بالثلج المتكوم ورافعة عالياً قدميها بجزمتها اللبادية .

أدرك أباه على قمة التل . والتفت ينظر وراءه بحركة لا إرادية . كانت اكسينيا واقفة عند الباب ، والطفلة ما زالت مشدودة الى صدرها ، وطرف خمارها الأحمر يرفرف في الريح .

وسار على جواده بجانب مركبة أبيه . وبعد بضع لحظات أدار الشيخ ظهره الى حصانيه وسأله :

ـ إذن أنت لا تفكر بالعودة الى زوجتك ؟

ـ القصة القديمة نفسها ؟ لقد فرغنا منها .

ـ إذن فلن تعود .

ـ كلا ، لن أعود!

ـ ألم تسمع أنها حاولت قتل نفسها ؟

ـ بلى سمعت .

ـ من قال لك ؟

ـ ذهبت مع سيدي الى مركز المنطقة والتقيت هناك صدفة برجل من القرية .

ـ وأمام الله ؟

ـ لماذا ، يا أبتي ، على كل حال... لا جدوى من البكاء على الحليب المراق .

فغضب بانتلاي بروكوفتش :

ـ لا تقل لي قول الشياطين هذا . ما أقوله لك أقوله من أجلك .

ـ لدي طفلة تركتها ورائي ، فما جدوى الكلام ؟ ليس بوسعك أن تقحم الأخرى عليّ الآن...

ـ هل أنت واثق من أنك لا تقوم بتربية طفلة رجل آخر ؟

فامتقع وجه غريغوري ، لقد نكأ أبوه جرحاً متقيحاً . فمنذ أن ولدت الطفلة اعترى الشك المرير أفكاره ، فأخفاه عن اكسينيا وعن نفسه . ففي الليل ، واكسينيا نائمة ، كان يذهب الى المهد أكثر من مرة ليتفرس في الطفلة ، متلمساً تقاطيع وجهه في وجهها الأسمر الوردي ، ويعود الى فراشه والشك ذاته يراوده . كان ستيبان ذا بشرة كستنائية تكاد تشبه بشرة غريغوري ، فأنى له أن يعرف دم من ذاك الذي يجري في عروق الطفلة ؟ كان في بعض الأحيان يحسب أن الطفلة تشبهه ولكنه يراها ، في أحيان أخر شبيهة بستيبان الى حد مؤلم . لم يكن غريغوري يشعر إزاءها بعاطفة ، اللهم الا العداء حين يذكر اللحظات التي عاناها يوم عاد باكسينيا من السهب وهي تقاسي آلام المخاض . وذات مرة ، حينما كانت اكسينيا منهمكة في المطبخ كان عليه أن يغير حضائن الطفلة المبتلة . وفيما كان يقوم بذلك

أحس بعاطفة حادة ملتهبة فانحنى على المهد خلسة وعض بأسنانه على إصبع قدم الطفلة الصغير المتصلب الأحمر .

لقد نكأ أبوه الجرح دون رحمة ، فرد عليه غريغوري ، وراحته على قربوس السرج ، قائلاً بصوت مبحوح :

ـ أياً كان أبوها ، فإني لن أتخلى عنها .

فلوح بانتلاي بروكوفتش بسوطه على الحصانين دون أن يلتفت :

ـ لقد شوهت ناتاليا جمالها . إنها تميل برأسها الى أحد الجانبين وكأنها مشلولة . يبدو أنها قطعت وتر العضلة . فالتوت رقبتها .

ثم خلد الى الصمت . كان مزلاقا الزحافة يصران خلال الثلج ، وكانت حوافر حصان غريغوري تتكتك وهي تصطفق .

سأل غريغوري وهو يلتقط بعناية خاصة من عُرف حصانه شوكة :

ـ وكيف هي الآن ؟

ـ أبلت من الجرح بشكل أو بآخر . وقد لازمت الفراش طيلة أشهر سبعة . وفي أحد الثالوث حسبنا أنها ستلفظ أنفاسها . فجاء الأب بانكراتي لتلاوة الصلوات . ولكنها بدأت تتماثل للشفاء . لقد حاولت أن توجه الضربة بالمحش الى قلبها ، ولكن يدها ارتجفت ، فأخطأت القلب قليلاً . ولولا ذلك لقضت نحبها...

ـ لنسرع في هبوط التل!

قال غريغوري ذلك ، وهو ينهض في ركابيه ويعمل بسوطه ، فبدأ الحصان يخب مرسلاً بحوافره رشاشاً من الثلج على المركبة . وحين وصل بانتلاي بروكوفتش الى محاذاته قال :

ـ إننا سنتعهد ناتاليا . فالمرأة لا تريد العيش مع أهلها . وقد رأيتها قبل أيام وقلت لها أن تأتي إلينا .

لم يجب غريغوري بشيء . وسار حتى بلغا أول قرية دون أن يتبادلا كلمة واحدة ، ولم يعد أبوه الى الموضوع .

قطعا في ذلك اليوم سبعين فرستا . وبلغا مانكوفو مساء اليوم التالي عند الغسق (الأضواء مشتعلة في البيوت) .

سأل بانتلاي بروكوفتش أول مار في الشارع :

ـ في أي حي ينزل القادمون من فيشنسكايا ؟

ـ اذهب الى الشارع الكبير .

لقد وصلا الى البيت الذي نزل فيه خمسة مجندين مع آبائهم . سأل بانتلاي بروكوفتش وهو يقود الحصانين الى سقيفة الحظيرة :

ـ من أين جئتم ؟

جاء صوت عميق من الظلام مسمياً القرى التي جاؤوا منها .

تلمس غريغوري ظهر حصانه المتصبب عرقاً بعد أن نزع السرج منه ورد ضاحكاً رداً مازحاً عن السؤال الموجه اليه من أي قرية وصل .

وفي صباح اليوم التالي اصطحب اتمان المنطقة مجندي فيشنسكايا الى اللجنة الطبية . فرأى غريغوري فتيان قريته الآخرين . وفي الصباح مر ميتكا كورشونوف متوجهاً الى البئر وممسكاً بيده اليسرى قبعته المائلة الى جانب ، على ظهر كميت طويل مجهز بسرج وعدة جديدين مزركشين زركشة بهيجة ، دون أن يقول كلمة تحية لغريغوري الذي كان واقفاً على باب الجناح .

تعاقب الرجال يخلعون ملابسهم في الغرفة الباردة الخاصة بالإدارة المحلية المدنية . وضج الكتّاب العسكريون بالحركة هنا وهناك ، وهرول مساعد رئيس الشرطة ، ومر مساعد الاتمان المحلي مسرعاً بجزمة قصيرة من الجلد اللماع . وأحد أصابعه مزدان بخاتم ذي حجر أسود وكان له وجه أبيض بعينين سوداوين جميلتين .

تناهت اليهم من الغرفة الداخلية أوامر الأطباء ، ونتف من الحديث :

ـ واحد وستون .

ونق صوت مخضل بالخمر قرب الباب :

ـ بافل ايفانوفتش ، ناولني قلماً لا يمحى أثره .
ـ عرض الصدر...
ـ أجل ، من الواضح أنه وراثي...
ـ سجل السفلس...
ـ ارفع يديك . لست فتاة .
ـ بنية سليمة .
ـ ... ينقل العدوى الى القرية برمتها . يجب اتخاذ إجراءات خاصة . لقد أخبرت صاحب السعادة بالموضوع .
ـ بافل ايفانوفتش ، انظر الى جسد هذا الرجل . يا لها من بنية!
ـ آه!

خلع غريغوري ملابسه بجانب فتى أحمر الشعر من قرية أخرى . وخرج اليهما كاتب ، فعدل كتفيه بحيث تغضنت قمصلته عند الظهر ، ثم أصدر الى غريغوري والفتى الآخر أمراً مقتضباً بأن يدخلا غرفة الفحص . فهمس ذو الشعر الأحمر في ذعر وقد تورد وجهه وكان ينزع جوربه :

ـ هيا أسرع!

دخل غريغوري ، وقد تقلص جلده من البرد . وكان جسده الأسمر بلون البلوط . وقد أحس بالحرج وهو يخفض عينيه الى ساقيه المكسوين بالشعر . وكان يقف على الميزان في الزاوية فتى عار مربوع القامة . وكان أحدهم ، يظهر أنه مساعد الطبيب ، يدفع العيار الى الأمام والى الخلف ، ثم نادى بالرقم ، وأمره بالنزول .

تضايق غريغوري من إجراءات الفحص الطبية المهينة . لقد فحصه بالسماعة طبيب أشيب الرأس يرتدي سترة بيضاء وقَلَب طبيب أصغر سناً جفون عينيه ونظر الى لسانه وانشغل وراءه ثالث يرتدي نظارة ذات إطار قرني ، وكان يفرك يديه بكميه المطويين ، وأمره ضابط :

ـ على الميزان!

فخطا غريغوري على الكفة الباردة .

ـ خمسة بودات* ونصف .

فهتف الطبيب الأشيب ، وهو يدير غريغوري من ذراعه .

ـ م... ا... ذا ، إنه ليس طويل جداً .

فقال الطبيب الأصغر سناً متلعثماً :

ـ مدهش!

وسأل ضابط يجلس عند الطاولة بعجب :

ـ كم ؟

فأجابه الطبيب الأشيب ولا يزال حاجباه مرفوعين :

ـ خمسة بودات ونصف .

فاحنى قوميسار المنطقة العسكري رأسه الأسود الاملس نحو جاره على المنضدة سائلاً :

ـ مارأيك لو يُنسَب الى الحرس الخاص ؟

ـ إن له وجه قطّاع الطرق... إنه وحشي المنظر جداً .

ـ يا أنت ، استدر! ماتلك التي على ظهرك ؟

هكذا صاح ضابط تعلو كتفه شارة عقيد ، وهو يخبط إصبعه على المنضدة بفراغ صبر . فغمغم الطبيب الأشيب بشيء ما ، وأدار غريغوري ظهره الى المنضدة ، وهو يجاهد للسيطرة على جسمه المرتجف ، ثم أجاب :

ـ أصبت ببرد في الربيع . إنها بثرة .

وحين انتهى الفحص قرر الضباط الجالسون عند الطاولة أن غريغوري ينبغي أن يعين في كتيبة اعتيادية . فقيل له : «الكتيبة الثانية عشرة ، ياميليخوف . هل سمعت ؟ » وفيما كان سائراً نحو الباب سمع همساً ينم عن اشمئزاز :

---

* البود : وحدة وزن روسية تعادل ١٦ كغ تقريباً . المترجمون

ـ هذا مستحيل . حسبك أن تتصور لو رأى الامبراطور وجهاً كهذا ؟ عيناه وحدهما...

ـ إنه هجين . من الشرق دون ريب .

ـ وجسده ليس نظيفاً . تلك البثور...

وتجمهر حوله رجال آخرون من قريته كانوا في انتظار دورهم :

ـ كيف كانت النتيجة ، يا غريشا ؟

ـ أي كتيبة ؟

ـ الحرس الخاص ، هاه ؟

ـ كم كان وزنك على الميزان ؟

وتواثب غريغوري على قدم واحدة وهو يرفع ساق بنطاله ، وقال غاضباً : «أف ، اذهبوا الى الجحيم! أي كتيبة ؟ الثانية عشرة» .

صاح الكاتب وهو يمد رأسه من الباب :

ـ كورشونوف ، ديمتري ، كارغين ايفان .

وأسرع غريغوري هابطاً الدرج وهو يحكم أزرار سترته .

كانت الريح الدافئة تعبق برطوبة ذوبان الجليد ، وكان الطريق أجرد من الثلج في بعض أجزائه والبخار يتصاعد منه . كانت الدجاجات المقوقئة ترفرف عبر الشارع ، والبط يخبط في بركة ، وتبدو أقدامه في الماء برتقالية وردية ، كأوراق الخريف التي قضى عليها الصقيع .

جرى فحص الخيل في اليوم التالي . صفت في الساحة صفاً طويلاً عند جدار الكنيسة . وانهمك الضباط رائحين غادين ، ومر بيطري ومساعده أمام صف الخيل الطويل . وكان اتمان فيشنسكايا يتراكض بين الميزان والمنضدة التي توسطت الساحة ، حيث تسجل نتائج الفحص . ومر ضابط من الانضباط العسكري ، وكان منهمكاً في الحديث مع رئيس شاب .

وحين جاء دور غريغوري قاد حصانه الى الميزان ، فقاس البيطري ومساعده كافة أجزاء بدن الحصان ، ثم وزناه . وقبل أن يساق الحصان من

على الميـزان ، أمسكه البيطري من شفـتـه العليا بمـهارة ونظر الى أسنانه ، وتحسس عضلات صدره ، ومضت أصابعه القوية تـتلمس جسم الحصان ، كالعنكبوت ، حتى وصلت الى سيقانه . ثم تحسس مفاصل الركبتين ، ودق على العصب واعتصر العظم فوق الثنية . وحين فرغ من فحصه تعداه ، ومئزره الأبيض يخفق في الريح وينشر رائحة حامض الكاربوليك .

رفض حصان غريغوري ، وثبت خطل آمال ساشكا . كان البيطري الخبير من الذكاء بحيث اكتشف العيب الخفي الذي تحدث عنه الشيخ ، وعقد غريغوري في الحال مشاورات منفعلة مع أبيه ، وما إن انقضت نصف ساعة حتى قاد حصان بيوتر الى الميزان ، فقبله البيطري دونما فحص تقريباً .

ثم عثر غريغوري على بقعة يابسة نوعاً ما ، فنشر مرشحة سرجه على الأرض ووضع عليها عدته ، وأمسك أبوه بالحصان ، وانصرف الى الحديث مع شيخ آخر جاء أيضاً ليودع ابنه .

ومر بهم جنرال مديد القامة أشيب الرأس ، يرتدي عباءة رمادية فاقعة وقبعة فضية استراخانية ، كان يعرج قليلاٍ بقدمه اليسرى ملوحاً باليد بقفاز أبيض . فلكز بانتلاي بروكوفتش غريغوري ، من الخلف وهمس :

ـ اتمان المنطقة .

ـ كأنه جنرال .

إنه أمير اللواء ماكايف . إنه شيطان صارم .

وسار خلف الاتمان حشد من الضباط من مختلف الكتائب والبطاريات . وكان مقدم مدفعي عريض المنكبين والفخذين يتحادث بصوت مرتفع مع ضابط وسيم طويل من الحرس التابع لكتيبة الاتمان :

ـ ... يا للشيطان! أتدري ، كم كان الفارق كبيراً! قرية استونية ، وغالبية الناس هناك شقر ، ولكن تلك الفتاة ، ياللغرابة! أضف الى ذلك أنها لم تكن الوحيدة! قلبنا شتى الظنون حول الموضوع ، ثم علمنا أنه قبل عشرين عاماً... ـ ثم سار الضابطان مبتعدين عن المكان حيث كان غريغوري يرتب

عدته على مرشحة السرج فحملت اليه الريح الكلمات الختامية وسط ضجة من قهقهات الضابطين : ـ ... يبدو أن سرية من حرسكم كانت معسكرة في القرية .

وجرى من أمامهم كاتب وهو يزرر سترته بأصابع مرتجفة ملطخة بالحبر ، وكان معاون رئيس شرطة المنطقة يصيح وراءه بغضب :

ـ قلت لك ثلاث نسخ . لعنة الله عليك!

راح غريغوري يتطلع بفضول الى وجه الضباط والموظفين التي لم يألفها من قبل . وقد سمر أحد المساعدين نظرة ضجرة عليه . ثم أشاح بوجهه بعد أن التقت عيناه بعيني غريغوري باديتي الاهتمام . ومر بهم رئيس عجوز وهو يكاد يركض . وقد بدا الانفعال عليه لأمر ما ، وكان يعض على شفته العليا بأسنانه الصفر . فلحظ غريغوري عرقاً ينبض فوق حاجب الرئيس ذي اللون الزنجبيلي .

نشر غريغوري على مرشحة سرجه الجديدة السرج ذا الرمانة الخضراء ، وخرجيه الأمامي والخلفي ، ومعطفين عسكريين ، وبنطالين ، وقمصلة ، وجزمتين طويلتين ، وتبديلة من الملابس الداخلية ، وكيس البقسماط ، وعلبة من لحم البقر المقدد ، وأنواع أخرى من الطعام حسب المقادير المعينة .

وكان في خرجي السرج المفتوحين أربعة من نعال الخيل ، ومسامير ملفوفة بخرقة مزيتة ، ومحفظة فيها بضع إبر وخيط ، ومناشف .

ألقى الى عدته نظرة أخيرة ثم جلس القرفصاء ليزيل بكمه بعض الوحل عن طرفي شريط الحزم . وجاءت اللجنة العسكرية من طرف الساحة تسير ببطء أمام صفوف القوزاق المصطفين وراء مراشح السروج ، وكان الضباط والاتمان يتفحصون العدد عن كثب ، رافعين أذيال معاطفهم ذات الألوان الفاتحة فيما كانوا ينحنون للبحث في زكائب السروج ، ويمعنون النظر الى محتويات المحافظ ، ويقدرون وزن أكياس البقسماط بأيديهم .

قال قوزاقي شاب يقف بجانب غريغوري ، مشيراً الى آمر انضباط المنطقة العسكري :

ـ انظروا ، ياشباب الى ذلك الطويل هناك ، إنه يخمش مثل كلب وراء ابن عرس .

ـ الق نظرة واحدة الى الشيطان . إنه يقلب الكيس على بطنه!

ـ لابد أن هناك شيئاً ليس على مايرام ، والا لما فعل ذلك .

ـ إنه بالتأكيد يعد مسامير الحذاء .

ـ يا للشيطان!

وتلاشى الكلام تدريجياً مع اقتراب اللجنة . ولم يبق إلا بضعة رجال الى أن يأتي دور غريغوري . كان اتمان المنطقة يحمل قفازاً بيسراه ويهز يمناه ، دون أن يثنيها عند المرفق . اعتدل غريغوري في وقفته . وسعل أبوه من ورائه . وحملت الريح رائحة بول الخيل والثلج الذائب في الساحة . وبدت الشمس مغتمة ، كما يشعر الإنسان بعد نوبة سكر .

توقفت ثلة الضباط عند الرجل الواقف بجانب غريغوري ثم تقدموا واحداً فواحداً .

ـ لقبك ، واسمك ؟

ـ ميليخوف ، غريغوري .

والتقط ضابط الانضباط المعطف من حزامه ، وشم البطانة وعد الأزرار باستعجال وتقدم آخر على كتفه شارة نائب ضابط ، فتلمس قماش البنطالين الجيد بين أصابعه . وتوقف ثالث وراح ينبش في الخرجين ، منحنياً الى درجة قلبت ذيل معطفه على ظهره . وراح ضابط الانضباط يبحث بإبهامه وخنصره بحذر في الخرقة التي تحوي مسامير الحذاء وكأنه يخشى أن يلفاها حارة ، وعد المسامير هامساً .

قال بغضب وهو يجر طرف الخرقة :

ـ لماذا ثلاثة وعشرون مسماراً . وما هذا ؟

ـ كلا ، يا صاحب السعادة . أربعة وعشرون ـ ماذا ، هل أنا أعمى ؟

فأسرع غريغوري يقلب زاوية ملتفة من الخرقة فكشف عن المسمار الرابع

والعشرين ، وفيما كان غريغوري يفعل ذلك لمست أصابعه الخشنة السمر يد الضابط البيضاء كالسكر لمسة خفيفة ، فنتش الضابط يده وكأن أحداً قد وخزها ، ثم مسحها بطرف معطفه ، وهو يعبس بتقزز ، ثم ارتدى قفازه .

لاحظ غريغوري حركته فاعتدل في وقفته وهو يبتسم بحنق والتقت عيناهما ، فاحمر وجه الضابط ورفع صوته :

ـ ما كل هذا ، ما كل هذا ، أيها القوزاقي ؟ لماذا لم ترتب شرائط الحزم ؟ لماذا لم تعدل الشكيمة ؟ ومامعنى هذا ؟ أنت قوزاقي أم فلاح ؟ أين أبوك ؟

جر بانتلاي بروكوفتش عنان الحصان وخطا الى الأمام خطوة ضارباً الأرض بساقه العرجاء .

ـ ألا تعرف الأنظمة القوزاقية ؟

كان الضابط سيئ المزاج صباح ذلك اليوم بسبب خسارته في القمار فأفرغ جام غضبه على بانتلاي بروكوفتش .

ثم جاء اتمان المنطقة فهدأ الضابط . دس الاتمان رأس جزمته في حشية السرج ، ثم ند عنه فواق ، ومضى الى الرجل التالي وتفحص ضابط تجنيد الكتيبة التي نسب غريغوري اليها حاجياته كلها بما فيها محتويات المحفظة بشكل مؤدب ، ثم مضى الى الرجل التالي وهو يمشي القهقرى كي يقي من الريح الثقاب الذي أشعل منه سيكارته .

وفي اليوم التالي غادر القرية قطار من الشاحنات الحمر محمل بالخيل والقوزاق والعلف الى فورونيج .

وقف غريغوري في إحداها متكئاً بظهره الى طرف المعلف الخشبي وكانت تزحف عبر الباب المفتوح مناظر غريبة لأرض مستوية ، ودوم في المدى خيط غابة رقيق أزرق ، وكانت الخيل وراءه تلوك القش وتنقل ثقلها من حافر الى آخر ، وهي تحس بحركة القاع من تحتها . كانت الشاحنات تعج برائحة الشيح ، وعرق الخيل ، وذوبان الربيع ، وثمة غابة تلوح كالخيط في الأفق ، زرقاء كئيبة ومنيعة كنجم المساء خافت الوميض .

الجزء الثالث

١

كان يوماً ربيعياً دافئاً بهيجاً من أيام آذار عام ١٩١٤ حين عادت ناتاليا الى بيت حميها . كان بانتلاي يصلح سياج الاسفندان الذي كسره الثور ، بأغصان غزيرة الوبر بلون الحمام . وكانت القطرات تتساقط من بلورات الثلج الفضية المتدلية من السقوف . وتبدو آثار المسارب القديمة وكأنها لطخات قطران سود تحت حواشي السقوف .

وراحت شمس أشد توردا ودفئا منها في آذار تداعب التلال التي يذوب من عليها الجليد . وكانت الأرض منتفخة ، وبدا العشب المبكر كمعدن المالاكيت الأخضر على الرؤوس الطباشيرية الجرد الناتئة من التلال على الشاطىء .

تقدمت ناتاليا صوب حميها من الخلف ، وقد بدت أكثر نحافة واعتراها تغير كبير وأحنت رقبتها المائلة قليلاً وقد شوهها أثر الجرح .

ـ صحة طيبة ، يا أبتي!

فهتف بانتلاي في عجلة والعيدان تسقط من يده :

ـ ناتاليوشكا! مرحباً ياعزيزتي . مرحباً! لماذا لم تأتي لزيارتنا ؟ ادخلي . ستسر الوالدة لرؤيتك كل السرور .

ـ لقد جئت ، يا أبتي... ـ ثم مدت يدها وهي غير واثقة ، وأشاحت بوجهها .

وأضافت :ـ ما لم تطردوني ، فأنا أرغب في البقاء معكم على الدوام .

ـ لم لا تبقين ، يا عزيزتي ؟ أتراك غريبة عنا ؟ انظري ، لقد كتب عنك غريغوري في رسالته . طلب منا أن نسأل عنك .

دخلا المطبخ . وراح بانتلاي يظلع هنا وهناك . وقد تملكه انفعال طروب . وبكت ايلنشنا وهي تعانق ناتاليا وهمست قائلة ، وهي تتمخط :

ـ أنت بحاجة الى طفل . إن ذلك كان سيسحره . اجلسي ، سأجلب لك بعض الفطائر ، أليس كذلك ؟

ـ حفظك الله يا أمي... لقد جئت إليكم...

وجرت دونيا الى المطبخ راكضة ، متوردة الوجه باسمة ، واحتوت ناتاليا من ركبتها . وعاتبتها قائلة : « ياللك من قليلة حياء! لقد نسيت كل شيء عنا » .

فصاح فيها أبوها بصرامة مصطنعة :

ـ كفاك ، أيتها الطائشة!

غمغمت ناتاليا وهي تنشر ذراعي دونيا وتنظر في عينيها :

ـ لشد ماكبرت .

وتحدث الكل معاً ، يقاطع بعضهم بعضاً . وأسندت ايلنشنا خدها براحة يدها ، وقد غمرها الأسى إذ تطلعت الى ناتاليا ، وقد تغيرت كثيراً عما عهدتها

أمسكت دونيا بيدي ناتاليا وسألتها قائلة :

ـ جئت لتقيمي ؟

ـ من يدري...

فقالت ايلنشنا بصورة حاسمة وهي تدفع طبقاً كبيراً من الفطائر عبر المائدة :

ـ ماذا ، في أي مكان آخر يمكن أن تعيش ؟ إنك ستبقين معنا .

جاءت ناتاليا الى أهل زوجها بعد تردد دام طويلاً . وكان أبوها قد رفض في بداية الأمر أن يسمح لها بالذهاب ، فقد صرخ في وجهها بحنق

حين اقترحت ذلك ، وجرب أن يقنعها بالعدول عن هذه الخطوة . ولكن شق عليها أن تنظر في وجوه أهلها ، فمنذ أن حاولت الانتحار وهي تشعر وكأنها غريبة بين أهلها . وكان بانتلاي ، من جهته ، يلحف عليها بالعودة طوال الوقت ، فمنذ أن ودع غريغوري الذاهب الى الجندية عقد العزم على إعادتها ومصالحة غريغوري معها .

ومنذ ذلك اليوم في آذار عاشت ناتاليا مع آل ميليخوف . كان بيوتر يقف منها موقفاً ودياً أخوياً ، ولم يبد على داريا الا قليل من عدم الرضا ، وكان مما يعوض عن نظراتها الشزر العارضة ولع دونيا بها وموقف العجوزين الأبوي منها .

وفي اليوم التالي لمجيء ناتاليا إليهم أمر بانتلاي دونيا أن تكتب الرسالة التالية الى غريغوري :

«تحية ، يا ولدنا العزيز ، غريغوري بانتلايفتش! نبعث إليك بانحناءة عميقة ، ونمنحك بركة أبوية من صميم قلب الوالد ومن أمك فاسيليسا ايلنشنا . إن أخاك بيوتر بانتلايفتش وزوجته داريا ماتفييفنا يبعثان تحياتهما لك بالعافية والرفاه ، وكذلك أختك دونيا وكل أهل البيت يحيونك ، لقد تسلمنا رسالتك المرسلة في خامس يوم من شهر شباط ، ونشكرك عليها من كل جوارحنا . أنت تقول أن الحصان تصطك ساقاه . ادهنهما ببعض السلاء ، وأنت تدري كيف تفعل ذلك ، ولا تنعل حافريه الخلفيين حيث لا زلق أو جليد أجرد . إن زوجتك ناتاليا ميرونوفنا تعيش الآن معنا ، وهي مرتاحة وبصحة جيدة . والدتك ترسل اليك بعضاً من الكرز المجفف ، وزوجا من الجوارب الصوفية ، وشيئاً من لحم الخنزير ، وأشياء أخرى . كلنا احياء بصحة جيدة . ولكن طفل داريا قد مات . قبل أيام سقفنا المأوى ، أنا وبيوتر ، وهو يأمرك بالعناية بحصانه والمحافظة على سلامته . لقد ولدت البقرات ويبدو أن الفرس ملقحة ، فقد عرضناها على

فحل من اسطبلات المنطقة . وننتظر ولادة مهرها في الأسبوع الخامس من الصوم الكبير . يسعدنا أن نسمع أخبار خدمتك العسكرية وأن الضباط راضوان عنك . فاخدم كما ينبغي . إن خدمة القيصر لا تذهب سدى . وناتاليا ستعيش معنا ، وعليك أن تفكر بالأمر جيداً . وثمة مشكلة أخرى ، لقد قضى ذئب على ثلاث شياه قبل الصوم الكبير ، والآن ، اعتن بصحتك في رعاية الله . لا تنس زوجتك ، هذا ما آمرك به . إنها امرأة طيبة وهي زوجتك الشرعية . لا تتعد الحدود ، واصغ الى ما يقوله والدك .

أبوك

العريف الأقدم بانتلاي ميليخوف»

كانت كتيبة غريغوري معسكرة في موقع صغير يدعى رازيفيلوفو على بعد أربعة فرستات عن الحدود الروسية النمساوية وكان نادراً ما يكتب الى أهله . وقد رد على الرسالة التي ذكرت أن ناتاليا تعيش معهم برسالة انتقى كلماتها بحذر ، والتمس أباه أن يحييها باسمه . ولم يلزم نفسه بشيء في كل رسائله التي كانت غامضة المعنى . وكان بانتلاي يطلب الى دونيا أو بيوتر أن يقرأها له عدة مرات ، ويتأمل الأفكار المستترة بين اسطرها . وقبل عيد الفصح بقليل كتب الى غريغوري يسأله ما إذا كان عازماً لدى عودته من الخدمة العسكرية أن يعيش مع زوجته أو مع اكسينيا كالسابق .

. تلكأ غريغوري في جوابه . فلم يتلقوا منه إلا رسالة مقتضبة بعد أن انصرم أحد الثالوث . فقرأتها دونيا بسرعة ، وهي تبتلع نهاية الكلمات ، ووجد بانتلاي مشقة في تلمس بيت القصيد بين زحام التحايا والاستفسارات . وعالج غريغوري موضوع ناتاليا في نهاية الرسالة إذ قال :

«سألتني أن أقول لك ما إذا كنت سأعيش مع ناتاليا أم لا ، ها أنا أقول لك ، يا أبتي ، إن ما انفصم لا يمكن لك أن تربطه ثانية . كيف لي أن أتصالح مع ناتاليا ، وأنت نفسك تعلم أن لدي طفلة ، وليس في مقدوري أن

أعد بشيء ، وإنه لمما يؤلمني أن أتحدث في هذا الموضوع . قبل أيام القي القبض على رجل وهو يُهرّب بضائع عبر الحدود ، وقد التقينا به صدفة ، فقال إن الحرب مع النمسا ستندلع عما قريب ، وإن قيصرهم قدم الى الحدود ليعرف من أي موقع سيشنون الهجوم ، وأي أرض يستولي عليها . وإذا اندلعت الحرب فقد لا أبقى على قيد الحياة ، وليس في الامكان أن نقرر قبل ذلك شيئاً » .

* * *

اشتغلت ناتاليا بجد للعجوزين وعاشت يحدوها أمل مقيم في عودة زوجها . لم تكتب الى غريغوري رسالة قط ، إلا أن أحداً في العائلة لم يحن الى رسالة منه بمثل ما في حنينها إليها من ألم وشوق .

جرت الحياة في القرية وفق نظامها الذي لا محيد له ، فعاد القوزاق الذين أنهوا خدمتهم العسكرية الى أهليهم . وكان الكدح الممل أيام العمل يبتلع الوقت دون أن يشعر به أحد . والقرية أيام الآحاد تتدفق الى الكنيسة ، كل عائلة بسربها : القوزاق بقمصلاتهم وبنطالات الأعياد ، والنساء بتنورات ملونة طويلة تكنس الغبار ، وقمصان مطرزة منتفخة الأكمام .

تقف في ساحة القرية عربات خاوية ترفع عرائشها في الهواء ، وتتصاهل خيولها ، ويمر الناس من مختلف النحل ذهاباً وإياباً . وكان المستوطنون البلغار يبيعون الخضر عند مأوى عربات الحريق فيعرضونها صفوفاً طويلة ، وكان الأطفال من خلفهم يتراكضون عصابات ويحملقون في الجمال الّتي جردت من عددها فراحت تشرف على ساحة السوق بشموخ . وكان ثمة حشود من الرجال بقبعات ذوات شرائط حمر في كل مكان ونسوة ارتدين عصابات زاهية . وراحت الجمال ، وقد التمعت عيونها بلون أخضر هامد ، تجتر وهي ترتاح من عنائها المستديم على النواعير .

وكانت الطرقات تئن تحت وقع الأقدام ، والأغاني ، والرقصات على

أنغام الاوكورديونات ، فلا تتلاشى آخر الأصوات في ضواحي القرية الا في وقت متأخر من الليل .

كانت ناتاليا ، التي لا تخرج الى لقاءات المساء أبداً ، يسرها أن تجلس لتصغي الى حكايات دونيا الساذجة . وكانت هذه قد شبت دون أن يشعر أحد بذلك ، فغدت فتاة جميلة القوام ، مليحة الوجه بما يلائمها . وقد نضجت قبل أوانها كتفاحة مبكرة . وفي تلك السنة تناست صديقاتها اللائي تقدمنها في السن أنهن بلغن سن المراهقة قبلها ، فأدخلنها الى حلقتهن . وكانت دونيا سمراء متينة كأبيها .

وقد بلغت آنذاك الخامسة عشرة من عمرها ، وما زالت تقاطيع بدنها صبيانية خشنة ، وكانت خليطاً ساذجاً ، يكاد يبعث على الرثاء ، من الطفولة والشباب المتفتح ، وقد تنامى ثدياها وراحا يدفعان قميصها بشكل ملحوظ ، وصار كتفاها أعرض مما كانا عليه ، وكانت عيناها السوداوان ، بشقيهما الطويلين المائلين بعض الشيء ، تتقادحان خجلاً ودعابة . كانت تعود بعد أمسياتها فتقص على ناتاليا أسرارها البريئة :

ـ ناتاليا ، حمامتي ، أريد أن أخبرك شيئاً...

ـ حسناً ، هيا ، أخبرني!

ـ البارحة جلس ميشا كوشيفوي طوال المساء معي على الجذمة عند مخازن القرية .

ـ لماذا احمر وجهك ؟

ـ اوه ، لم يحمر وجهي!

ـ انظري في المرآة ، غدوت شعلة كبيرة .

ـ حسناً ، أنت السبب .

ـ لا بأس ، استمري ، لن أقول أي شيء .

فدلكت دونيا وجنتيها اللاهبتين براحتيها السمراوين ، وشدت أصابعها على صدغيها ، ورنت ضحكاتها الفتية بدون سبب :

ـ قال إني أشبه بزهرة لازوردية صغيرة .

ـ طيب ، استمري!

شجعتها ناتاليا ، وقد سرتها سعادة فتاة أخرى ، ناسية ماضيها وسعادتها المحطمة .

ـ قلت له : «لا تكذب ، يا ميشا!» فأقسم أن ذلك صحيح .

وأرسلت دونيا ضحكاتها تجلجل في أرجاء الغرفة هازة رأسها . وراحت جدائلها الفاحمة الغليظة تنزلق على كتفيها وظهرها كالعضايات .

ـ وأي شيء آخر قاله ؟

ـ رجاني أن أعطيه منديلي تذكاراً .

ـ وهل أعطيته ؟

ـ كلا . قلت له إنني لن أفعل ذلك ، قلت له : «اذهب واطلب من امرأتك» فقد شوهد مع كنة يروفي ، وهي امرأة سيئة تعبث مع الرجال . زوجها في الجيش .

ـ خير لك أن تبتعدي عنه .

فمضت في قصتها وهي تجاهد لإخفاء ابتسامة قفزت الى شفتها :

ـ سوف أفعل هذا! وبعد ذلك ، حين كنا ثلاثتنا عائدات الى البيت ، أنا وفتاتان أخريان ، لحق بنا الجد ميخي العجوز وهو سكران ، وصاح : «قبلنني ، ياعزيزاتي ، وسأدفع لكن كوبيكين عن كل قبلة» وهجم علينا فضربته نيورا على وجهه بعسلوج ، وهربنا .

كان الصيف جافاً . وبات الدون حيث يمر بالقرية ضحلاً ، وحينما كان التيار الصاخب ينطلق متدفقاً ، لم تبق سوى مخاضة ضحلة ، حتى صار بمقدور الثيران أن تعبر الى الضفة الأخرى دون أن تبلل ظهورها ، وأثناء الليل كانت ثمة رطوبة ثقيلة خانقة تنحدر على القرية من سلسلة التلال . فتملأ الريح هواءها بالعطر النفاذ للأعشاب الملفوحة . وكانت النباتات الجافة على السهب قد اضطرمت فيها النار ، فعلق فوق المنحدرات على

جانبي الدون ضباب ذو رائحة عليلة . وفي الليالي كانت السحب تتكاثف فوق النهر وتهدر السماء بقصف الرعد المنذر ، دون أن ينزل مطر لينعش التربة الجافة ، مع أن البرق كان يمزق صفحة السماء شظايا مهلهلة دكناء .

وكانت ثمة بومة تنعب من قبة الكنيسة ليلة اثر ليلة ، فتنفذ صرخاتها المرعبة فوق القرية ، وتطير البومة الى المقبرة لتنوح فوق أكمات القبور البنية اللون التي عشش عليها الحشيش .

يتنبأ الكهول وهم يستمعون للبومة تنعب من المقبرة : «هناك متاعب تختمر» .

ـ إن الحرب على الأبواب .

ـ لقد نعبت بومة كهذه قبل الحرب التركية .

ـ لعلها الهيضة من جديد .

ـ لا تتوقع خيراً حينما تطير من الكنيسة الى حيث يرقد الأموات . ـ ارحمنا يا نيكولاي العجائبي!

وكان مارتن ، أخو اليكسي مبتور اليد ، الذي يسكن قريباً من المقبرة ، قد اضطجع الى جانب سورها مترصداً البومة اللعينة ، لكن الطائر الغامض الذي لا يرى طار فوقه دون أن يحدث صوتاً ، وحط على الصليب في الطرف الآخر للمقبرة ومضى يرسل نعيبه المرعب فوق القرية الغافية ، فهدر مارتن سباباً مقذعاً ، وأطلق النار على بطن غيمة سوداء عالقة ، وقفل راجعاً . ولدى عودته الى البيت استقبلته زوجته بالتقريع ، وهي امرأة كثيرة الهواجس ، عليلة ، ولود كأنثى الأرنب . فقالت له :

ـ أنت أحمق ، أحمق ميؤوس منه! هل تدخل الطير في شؤونك ، ها ؟ ماذا تقول لو عاقبك الله ؟ ها أنا في شهري الأخير ، وقد لا ألد بسببك أنت .

ـ صه ، يا امرأة! ستكونين بخير ، فلا تخافي مطلقاً! ماذا يفعل ذلك الطير هنا ، يبث فينا جميعاً رعدات باردات ؟ إنه يستنزل الويل علينا ، والعياذ بالله! لو انفجرت الحرب ، فسينتزعونني . حسبك أن تنظري الى هذا

الذراق الذي خلفته لي! ـ ولوح بيده صوب الزاوية حيث كان الأطفال نائمين وكان شخيرهم يمتزج مع صأصأة الفئران .

كان بانتلاي يتحدث مع الشيوخ في السوق ، فقال بوقار :

ـ كتب ابننا غريغوري يقول إن القيصر النمسوي قد قدم الى الحدود ، وأصدر أوامره لتحشيد جميع قواته في مكان واحد والزحف على موسكو وبطرسبرغ .

فاستعاد الشيوخ ذكريات الحروب الماضية وتبادلوا مخاوفهم . وقال أحدهم معترضاً :

ـ ولكن الحرب لن تنشب . انظروا الى الحاصل .

ـ لا دخل للحاصل بالحرب .

ـ هم الطلاب الذين يثيرون القلاقل ، على ما أتوقع .

ـ مهما يكن ، فسنكون نحن آخر من يسمع بها .

ـ مثلما كان في الحرب مع اليابان .

ـ وهل اشتريت الحصان لابنك ؟

ـ لاأريد أن أفعل قبل الأوان...

ـ إن هذا كله من أكاذيب!

ـ ولكن ضد من ستكون الحرب ؟

ـ ضد الأتراك . حول مشكلة البحر . لم يستطيعوا أن يتوصلوا الى اتفاق حول تقسيم البحر .

ـ وهل هذا أمر صعب ؟ ليقسموه قسمين ، كما نفعل نحن بأرض المروج .

وانقلب الحديث الى مزاح ، ثم انصرف الشيوخ الى أعمالهم .

كان عشب المرج الذي نما مبكراً ينتظر حشه . أما العشب الذابل فيما وراء الدون ، والذي لم يكن جزءاً من عشب السهب ، فقد كان ذاوياً لا رائحة له ، مع أن الأرض واحدة ، الا أن العصارات التي تمتصها الأعشاب

كانت متباينة . ففي السهب كانت التربة سوداء غنية وراسخة بحيث لا تترك القطعان عليها أثراً حينما تمر ، فكان العشب قوياً زكي الرائحة عالياً . لكن التربة على امتداد ضفتي الدون كانت رطبة متعفنة ، فنما عليها عشب هزيل قميء حتى أن الماشية لم تكن لتلتفت اليه أبداً .

كانت القرية تستعد لحش العشب : شحذ القوزاق مناجلهم وصنعوا المجارف ، أما النساء فنقعن الشراب المحلى للحصادين . وكان حش العشب على وشك أن يبدأ حينما وقعت حادثة هزت القرية من اقصاها الى أدناها . فقد وصل رئيس شرطة المنطقة يصحبه مفتش وضابط أسود الأسنان يرتدي بزة لم تر مثلها القرية من قبل . وأرسلوا في طلب اتمان القرية وجمعوا الشهود ثم مضوا مباشرة الى منزل لوكيشكا الحولاء . وساروا على ممشى جانب الشارع الذي يغمره ضياء الشمس ، واتمان القرية يهرول أمامهم مثل ديك صغير . كان المفتش يحمل بيده قبعته عليها الشارة الرسمية وسأل الاتمان ، وجزمته المتربة تصفق بقع ضياء الشمس :

ـ هل شتوكمان في المنزل ؟

ـ أجل ، يا صاحب السعادة .

ـ كيف يتكسب عيشه ؟

ـ إنه مجرد حرفي . يشتغل على منضدة عمل...

ـ ألم تلاحظ عليه أي شيء يجلب الشبهة ؟

ـ لا ، مطلقاً .

وفيما كان رئيس الشرطة يسير جعل يعتصر بثرة على جسر أنفه ويلهث داخل بزته السميكة . وكان الضابط الصغير ينظف أسنانه السود بقشة ويجعد عينيه المحمرتي الحوافي . ومد المفتش يده الى الأمام ليزيح الاتمان وواصل يسأله :

ـ هل يستقبل أي زوار ؟

ـ أجل ، يلعبون الورق أحياناً .

ـ من ؟

ـ عمال من الطاحونة في الغالب .

ـ من هم بالضبط ؟

ـ مشغل الماكنة ، والقباني ، عامل الدواسة دافيد ، وأحياناً بعض القوزاق الآخرين .

توقف المفتش ومسح بقبعته العرق على قصب أنفه وانتظر الضابط الذي كان تخلف وراءه . فقال له شيئاً ما ، وهو يلوي زراً في قمصلته ، ثم أشار الى الاتمان . فهرول هذا على أطراف أصابعه ، قاطعاً نفسه . واختلجت العروق المعقدة في رقبته وارتعشت .

ـ خذ اثنين من الحراس وألق القبض على الأشخاص الذين ذكرتهم . أحضرهم الى الإدارة ، سنكون هناك بعد دقيقة أو دقيقتين . أتفهم ؟

فشد الاتمان قامته حتى انتفخت عروقه فوق ياقته العالية ، وند عنه شيء مثل الغمغمة ، واستدار لينفذ التعليمات .

كان شتوكمان يجلس وظهره الى الباب وصدريته مفتوحة الأزرار ، وهو ينحت نموذجاً على قديدة من الخشب بمنشار رفيع .

ـ قم ، من فضلك . فأنت معتقل .

ـ لأي سبب ؟

ـ أتشغل غرفتين ؟

ـ نعم .

ـ سنفتشهما .

تعلق مهماز الضابط بممسحة الأرجل عند الباب . ومضى الى المنضدة والتقط أول كتاب وقعت عليه يده وهو مقطب الوجه .

ـ أريد مفتاح تلك الحقيبة .

ـ ما سبب زيارتكم هذه لي ؟

. ـ سيتسنى الوقت للحديث معك فيما بعد . تعال هنا يا شاهد!

ونظرت زوجة شتوكمان خلال فرجة الباب من الغرفة الأخرى ، ثم ارتدت . فتبعها المفتش وكاتبه الى الغرفة الأخرى .

وسأل الضابط شتوكمان بهدوء وهو يمسك بكتاب أصفر الغلاف :

ـ ما هذا ؟

فأجاب شتوكمان هازا كتفيه :

ـ كتاب .

ـ بوسعك أن تحتفظ بحذلقتك الى فرصة أكثر ملائمة . أجب على السؤال كما ينبغي .

فمال شتوكمان بظهره على الموقد وهو يحاول كتمان ابتسامة هازئة . ونظر رئيس شرطة المنطقة الى الكتاب عبر كتف الضابط . ثم استدار الى شتوكمان :

ـ أتدرس في هذا ؟

فأجاب شتوكمان بجفاء وهو يفرق بمشط صغير لحيته السوداء الى خصلتين متساويتين :

ـ إنني مولع بالموضوع .

ـ هكذا!

وألقى الضابط نظرة في صفحات الكتاب ثم رماه على المنضدة . ونظر في كتاب آخر ، ثم نحاه جانباً . وإذ اتم قراءة غلاف الثالث ، التفت الى شتوكمان من جديد :

ـ أين تحتفظ ببقية هذا النمط من الأدب ؟

فخاوص شتوكمان إحدى عينيه كما لو يسدد ضربة نحو هدف ما ، وأجاب :

ـ أمامك كل ما لدي .

فرد الضابط ملوحاً بالكتاب عليه :

ـ أنت تكذب .

ـ انني أطالب...

ـ فتشوا الغرفتين!

ومضى رئيس الشرطة ، ممسكاً بقبضة سيفه ، الى الحقيبة حيث كان حارس قوزاقي مجدور ينبش في الملابس والمفارش وقد ظهر عليه الرعب مما كان يحدث .

وأخيراً استطاع شتوكمان أن يقول ، وهو يضيق عينيه ويصوبهما نحو جسر أنف الضابط :

ـ إنني أطالب بمعاملة مؤدبة .

ـ اسكت ، ياهذا!

قلب الرجال كل ما كان من الممكن تقليبه . ثم جرى التفتيش في الورشة أيضاً ، حتى أن رئيس الشرطة المتحمس نقر على الجدران بعقلات أصابعه .

وحينما انتهى التفتيش . اقتيد شتوكمان الى مكتب الإدارة . فسار في وسط الطريق أمام الحارس القوزاقي ، وقد دس إحدى يديه في طية معطفه القديم ، والأخرى تتأرجح ، وكأنه ينفض وحلاً عن أصابعه . ومشى الآخرون حذاء الأسيجة على الممشى المتلامع بضياء الشمس ، ومن جديد مضى المفتش يدوس على بقع ضياء الشمس بجزمته التي أضحت الآن خضراء من الحشيش . ولم يعد حاملاً قبعته في يده ، بل شبكها بإحكام فوق أذنيه الغضروفيتين .

كان شتوكمان آخر من استجوب بين المعتقلين . وحشر الباقون معاً في غرفة الانتظار يحرسهم قوزاق ، وقد تم استجوابهم سلفاً . وكانوا : ايفان اليكسييفتش ويداه مازالتا ملطختين بالزيت ، ودافيد البسام ، و«الولد» وقد القى سترته على كتفيه ، وميشا كوشيفوي .

سأل المفتش شتوكمان وهو ينبش في محفظة أوراقه :

ـ حينما استجوبتك حول مجزرة الطاحونة لم أخفيت حقيقة كونك عضواً في حزب العمال الاشتراكي ـ الديمقراطي الروسي ؟

كان شتوكمان واقفاً الى الجانب الآخر من الطاولة وحدق بصمت فوق رأس المحقق . فصرخ الأخير وقد أغاظه سكوت السجين :

ـ إن هذا ثابت لدينا . وستلقى جزاء مناسباً لفعلك .

ـ أرجوا أن تبدأ باستجوابك . ـ قال ذلك شتوكمان بلهجة ملول ، وإذ رأى مقعداً طلب السماح له بالجلوس . فلم يجب المفتش بل ألقى نظرة شرزاء الى شتوكمان فيما كان يجلس بهدوء .

ـ متى قدمت الى هنا ؟

ـ في العام الماضي .

ـ بناء على تعليمات من منظمتك ؟

ـ بدون أية تعليمات .

ـ منذ متى وأنت عضو في حزبك ؟

ـ عم تتحدث ؟

ـ أنا أسألك ، منذ متى وأنت عضو في حزب العمال الاشتراكي ـ الديمقراطي الروسي ؟

ـ أعتقد أن...

ـ أنا لا آبه بما تعتقد ، أجب على السؤال . فالانكار لا يجدي ، بل إنه خطر . ـ وسحب المفتش وثيقة من محفظته ودبسها على المنضدة بإبهامه .

ـ لدي هنا تقرير من روستوف يؤكد عضويتك في الحزب المذكور .

فأدار شتوكمان عينيه سريعاً نحو الوثيقة وركز عليها نظره لحظة ، ثم أجاب بثبات وهو يربت على ركبته :

ـ منذ ١٩٠٧ .

ـ هكذا! أتنكر أنك قد أرسلت الى هنا من قبل حزبك ؟

ـ نعم .

ـ إذن ، ما الذي أتى بك الى هنا ؟

ـ بدا لي أن المكان هنا يفتقر الى ميكانيكيين .

ـ ولكن لم اخترت هذه المنطقة بالذات ؟
ـ لنفس السبب .
ـ ألديك الآن ، أو هل لديك في أي وقت مضى ، اتصال بمنظمتك ، أثناء فترة إقامتك هنا ؟
ـ كلا .
ـ أيعرفون أنك قد قدمت هنا ؟
ـ أظن ذلك .
فبرى المفتش قلمه بمبراة ذات مقبض لؤلؤي ، ماطاً شفتيه الى الأمام ، وتحاشى النظر الى السجين .
ـ أتراسل أياً من أعضاء حزبك ؟
ـ كلا .
ـ إذن فما قولك بالرسالة التي اكتشفناها أثناء التفتيش ؟
ـ إنها من صديق ليس له أي ارتباط مهما كان نوعه بأي منظمة ثورية .
ـ هل تلقيت أية تعليمات من روستوف ؟
ـ كلا .
ـ لم كان عمال الطاحونة يجتمعون في حجرتك ؟
فهز شتوكمان كتفيه كالمندهش من غباء السؤال :
ـ اعتادوا المجيء في أماسي الشتاء لقضاء الوقت . كنا نلعب الورق...
فأضاف المفتش :
ـ وتقرأون الكتب التي يحرمها القانون ؟
ـ كلا . فقد كانوا جميعاً أميين تقريباً .
ـ مهما يكن . فمشغل ماكنة الطاحونة والآخرون كذلك لا ينكرون هذه الحقيقة .
ـ ذلك غير صحيح .
ـ يبدو أنك لاتتمتع بأبسط عناصر الادراك بأن... ـ وابتسم شتوكمان

لذلك ، فنسي المفتش ما كان سيقوله ، وانهى كلامه بغيظ مكتوم : ـ أنت ، ببساطة لا عقل لك . إنك تصر على الانكار الذي يضر بك . فمن الواضح جداً أنك قد أرسلت الى هنا من قبل حزبك لكي تمارس نشاطات مثبطة لهمم القوزاق ، لينقلبوا ضد الحكومة . أنا عاجز عن فهم ما يحدوك الى تمثيل لعبة التضليل هذه . فهي لا تستطيع أن تمحو ذنبك...

ـ كل هذه ظنون من جانبك . أتسمح لي بالتدخين ؟ شكراً . وهي ظنون لا أساس لها البتة .

ـ هل قرأت هذا الكتاب على العمال الذين زاروا حجرتك ؟ ـ ووضع المفتش يده على كتاب صغير وغطى عنوانه . لكن اسم «بليخانوف» كان ظاهراً فوق يده .

فأجاب شتوكمان : «كنا نقرأ شعراً» ونفث سيكارته وهو يشدد قبضته على المبسم العظمي بين أصابعه . في صباح اليوم التالي الماطر خرجت عربة البريد من القرية وقد جلس شتوكمان في مقعدها الخلفي يغالبه النعاس ، ولحيته مدفونة في ياقة معطفه . وعلى كلا جانبيه انحشر على المقعد قوزاقيان تسلح كل منهما بسيف . وكان أحدهما وهو مجدور الوجه مجعد الشعر ، يقبض بقوة على مرفق شتوكمان بأصابعه المعقدة ، ويرميه بنظرات جانبية متهيبة ، مبقياً يده الأخرى على قرابه المتآكل .

ومضت العربة تقرقع مسرعة في الشارع . وكانت ثمة امرأة صغيرة تقف بجانب فناء درس الحبوب العائد لآل ميليخوف ، ملفعة بشال ، تنتظر العربة وقد اسندت ظهورها الى سياج الاسفندان .

مرت العربة مسرعة ، فألقت المرأة الصغيرة نفسها وراءها وهي تضغط بيديها على صدرها .

ـ أوسيبَ أوسيب دافيدوفتش! أه ، ما عساني أن أفعل...

فحاول شتوكمان أن يلوح لها بيده ، لكن القوزاقي المجدور قفز وأمسك بذراعه ، وصاح بصوت متوحش أجش :

ـ اجلس والا مزقتك ارباً!

فللمرة الأولى في كل حياته البسيطة ، يرى رجلاً جرؤ على أن يعمل ضد القيصر نفسه .

٢

كان الطريق الطويل من مانكوفو الى بلدة رادزيفيونو الصغيرة قد تغلف في موضع وراء غريغوري بضباب رمادي لا يميز . حاول غريغوري بين الحين والحين أن يتذكر الطريق ، غير أنه لم يستطع سوى أن يستعيد صوراً باهتة لأبنية المحطات ، وعجلات القطار تفرقع تحت أرضية الشاحنات المرتجفة ، وروائح روث الخيل والعشب ، وخيوطاً لامتناهية من خطوط السكك الحديد تحتها ، والدخان المائج من الماكنة ، والوجه الملتحي لاحد أفراد الجندرمة الواقف على رصيف محطة فورونيز أو كييف . لا يدري بالضبط أيهما .

وفي المكان حيث نزلوا من القطار ، كانت ثمة حشود من الضباط ورجال حليقو الوجه في معاطف رمادية ، يتحدثون بلغة لم يستطع فهمها . استغرق إنزال الخيل وقتاً طويلاً . وحين فرغوا من ذلك أمر مساعد قائد القدمة* بامتطاء الخيول وقاد الثلاثمائة قوزاقي ، أو أكثر ، الى المستشفى البيطري ، حيث كان ينتظرهم اجراء طويل لفحص الخيل . ثم توزيع القطعات . لغط ضباط الصف وهم يغدون ويروحون هنا وهناك ، فتكوّن الرعيل الأول من خيل سمر فواتح ، والثاني من حمر وكميت ، والثالث من سمر غامقة . وألحق غريغوري بالرابع الذي اشتمل على خيل سمر وذهبية . وتكوّن الخامس كله من خيل شقر والسادس من خيل دهم . ووضعت الرعائل تحت أمرة رؤساء عرفاء ، وألحقوها بسرايا الخيالة المعسكرة في القرى والضياع القريبة .

---

* القدمة ـ ترتيب في اصطفاف القطعات في تقسيمات متوازية مع فراغ بين كل قسم وآخر . المترجمون

مرّ أمام غريغوري رئيس عرفاء متهتك ذو عينين منتفختين على حصانه وقد حمل شارات الخدمة الطويلة ، وسأله :

ـ من أي ناحية أنت ؟

ـ فيشنسكايا .

ـ هل أنت مقصوص الذيل ؟*

فضحك القوزاق القادمون من نواح أخرى ، وازدرد غريغوري الإهانة وهو صامت .

كان الطريق الذي اتخذه رعيل غريغوري يمضي بهم على امتداد الطريق العام . وفي البداية ، كانت خيل الدون ، التي لم تر طرقاً مرصوفة من قبل ، تخطو بحذر ، وكأنها تسير على نهر متجمد السطح ، وتنصب آذانها وتنخر ، ولكنها لم تلبث أن اعتادت الطريق ومضت حوافرها ذوات الحدوات الجديدة تطرق بأصوات حادة وهي تغذ السير . وكانت الأرض البولندية غير المألوفة تقطعها شرائح من الغابات غير الكثيفة . وكان النهار دافئاً معتماً ، وبدت الشمس الحائمة خلف ستار سميك من السحب غريبة غير مألوفة هي الأخرى .

كانت ضيعة رادزيفيلوفو تبعد عن المحطة أربعة فرستات تقريباً ، فوصلوا اليها في نصف الساعة . وقد سبقهم في الطريق مساعد قائد القدمة مع مرافقه وهما يخبان خبياً .

سأل قوزاقي شاب رئيس العرفاء وهو يشير الى ذؤابات الأشجار الجرد من الحديقة :

ـ أية قرية هذه ، أيها العم ؟

ـ أية قرية ؟ عليك أن تنسى قراك القوزاقية وأنت هنا ، ياأخي ، فلست في اقليم الدون .

---

* كان لكل ناحية كنية . وكان أهل فيشنسكايا يكنون بـ«الكلاب» . (ملاحظة المؤلف)

ـ فما هي إذن ، أيها العم ؟

ـ أنا ، عمك ؟ أي ابن أخ لي أنت! تلك ، ياأخي ، هي ضيعة الأميرة يوروسوفا ، وإن سريتنا الرابعة مقرها هنا .

حدق غريغوري ، وهو يمسد بقنوط على رقبة حصانه ، في البيت ذي الطابقين والبناء الأنيق ، والسياج الخشبي ، وفي النمط غير المألوف لأبنية الضيعة . ولكن حينما مروا بالبستان تهامست الأشجار الجرد بذات اللغة التي تتهامس بها الأشجار في بلاد الدون البعيدة .

تكشفت الحياة الآن للقوزاق عن أكثر جوانبها املالاً وإرهاقاً . وإذ كان الشباب محرومين من العمل فسرعان ما أضحوا صرعى الحنين الى وطنهم ، وراحوا يقضون وقت فراغهم في الكلام . وقد انزل رعيل غريغوري في جناح كبير من البيت ، سطحه من القرميد ، ليناموا على الواح خشبية تحت النوافذ . وفي الليل كان الورق الملصق على شروخ النافذة يبعث صوتاً في مهب النسيم كبوق راع بعيد ، وإذ كان غريغوري يتسمع اليه خلال شخير النائمين تتملكه رغبة قوية لا تقاوم في أن ينهض ويذهب الى الاصطبلات ، ويسرج حصانه ويمتطيه ويمضي عليه الى أن يصل قريته من جديد . وكان قلبه ينقبض بالحنين والأسى .

نفخ بوق النهوض في الخامسة ، وكان الواجب الأول في النهار تنظيف الخيل وحسها ، وفي خلال نصف الساعة الوجيزة التي تطعم خلالها الخيل سنحت الفرصة لتبادل حديث مشتت :

ـ هذه حياة جهنمية ، يا أولاد!

ـ أنا لا أستطيع تحملها .

ـ أما رئيس العرفاء! فأي خنزير! يجعلنا نغسل حوافر الخيل!

ـ إنهم يعدون الفطائر الآن في بيوتنا... جاء عيد المرفع .

ـ حسبي أن يكون لي مكان أُقبّل فيه فتاة وأحتضنها .

ـ رأيت حلماً ليلة البارحة ، يا أولاد . حلمت بأنني وأمي نحش العشب في المرج ، وكان أهل القرية متناثرين حولنا كما تتناثر أزهار الأقحوان على ساحة درس الحبوب . ـ قال ذلك بروخور زيكوف ، هو فتى هادئ له عينان وديعتان كالعجل :

ـ ولم نفعل سوى أن مضينا نحش ونحش... مما اشاع في نفسي الحبور .

ـ أراهن أن زوجتي تقول الآن : ترى ، ماذا يعمل زوجي نيكولاي الآن ؟

ـ هو ـ هو ـ ! أغلب الظن أنها تحاكك أباك الآن!

ـ ماهذا الكلام...

ـ ليس في العالم امرأة لا تحاول مع رجل آخر في غياب زوجها .

ـ وفيم القلق ؟ ليست المرأة جرة من اللبن . سنجد ما يكفينا منهن حينما نعود .

وهنا تدخل في الحديث يغور زاركوف غامزاً ومبتسماً ابتسامة ذات مغزى . وهو أكثر الرجال مرحاً ومجوناً في السرية ، ولم يكن ليشعر إزاء أي إنسان الا باحترام قليل وحياء أقل :

ـ هذا شيء أكيد : فلن يدع أبوك زوجتك وشأنها ، إنه كلب فحل لا يكل .

وأضاف كاسحاً سامعيه بنظرته المتلامعة :

ـ سأقص عليكم حكاية . كان هناك عجوز رعديد ظل يلاحق كنته ، لا يدعها ترتاح ، لكن ابنه كان يعترض طريقه دائماً . إذن ، ماذا يعمل العجوز ؟ في الليل ذهب الى الفناء وفتح البوابة ، فخرجت جميع الماشية . ثم قال لابنه : «ماذا فعلت ، ياكسول ويا كيت وكذا ؟ لماذا لم تسد البوابة ؟ انظر ، لقد هامت جميع الماشية في الخارج . اذهب وعد بها» . فقد ظن ، كما ترون ، أنه ما إن يذهب ابنه حتى يتسنى له قضاء وطره من كنته . على

أن الابن كان كسولاً ، فهمس لزوجته : «اذهبي أنت وأرجعيها» . وهكذا خرجت ، واستلقى هو هناك يستمع . فانسل الأب نازلاً من الموقد وزحف على يديه وركبتيه صوب السرير . لكن ابنه لم يكن بالرجل الأحمق ، فقد أخذ شوبكاً من الأرض ولبث ينتظر . وما إن زحف أبوه صاعداً الى السرير ووضع يده عليه حتى هوى عليه بضربة من شوبكه أصابت رأسه الأصلع في وسطه تماماً . وصاح : «ابتعد عني ، ولا تمضغ بطانيتي ، عليك اللعنة» . لقد كان لديهم في البيت عجل من عادته أن يمضغ الأشياء ، ولهذا تظاهر الابن أنه قد ضرب العجل . أما الأب فقد أفلح في العودة الى الموقد زاحفاً وتمدد هناك وهو يتحسس بإصبعه برفق التورم الذي كان بحجم بيضة أوزة . وأخيراً قال : «ايفان . ما الذي ضربت لتوك ؟» فأجاب إيفان : «العجل ، بالطبع» فقال العجوز وهو يكاد يبكي : «أي مزارع ستكون إن كان دأبك ضرب الماشية على هذا النحو ؟»

ـ أنت كذاب كبير! أف منك يا مجدور الوجه!

فصاح رئيس العرفاء وهو يدنو منهم :

ـ ماهذا ، هل أنتم في سوق ؟ تفرقوا!

فمضى القوزاق الى خيولهم يضحكون ويهزلون . وبعد تناول الشاي مضوا لإجراء التدريب الذي يتفنن رؤوساء العرفاء خلاله في الأوامر والسباب :

ـ شد بطنك ياخنزير!

ـ الى اليسار سر!

ـ ما هذه الوقفة يا ملعون!

وقف الضباط ، خلال التدريب ، يدخنون في جانب الفناء لا يتدخلون الا من حين لآخر . وحينما كان غريغوري ينظر الى الضباط المهذبين المتأنقين في معاطفهم الرمادية الجميلة وبزاتهم اللصيقة بأبدانهم ، ، خامره شعور بأن ثمة جداراً منيعا بينه وبينهم . إذ كانت حياتهم الرغدة المنتظمة ،

والمتميزة جداً ، والتي لم تكن لتشبه بأية حال حياة القوزاق ، تنساب بهدوء لا يكدرها الوحل أو القمل أو الخوف من قبضة رئيس العرفاء .

في اليوم الثالث لوصولهم الى الضيعة وقع حادث ترك أثراً أليماً في نفس غريغوري ، وفي نفوس جميع القوزاق الشباب . كانوا يتلقون التعليمات أثناء تدريب الخيالة ، وكان الحصان الذي يركبه بروخور زيكوف ، الفتى ذو العينين الوديعتين الذي طالما حلم بقريته القوزاقية النائية ، حيواناً نافراً متوحشاً ، وحدث أن رفس هذا الحصان رئيس العرفاء أثناء مروره . لم تكن الضربة قوية جداً ، أذ كشطت الجلد في ساق الحصان الأيسر ، وحسب ، ولكن رئيس العرفاء هوى بسوطه على وجه بروخور ، وصرخ وهو يندفع صوبه على حصانه :

ـ لماذا بحق الجحيم لا تتبين طريقك ، يا ابن القحبة! سوف أريك.. سوف تقضي الأيام الثلاثة القادمة في الواجب!

وحدث أن شهد المنظر آمر السرية ، الا أنه أدار ظهره وهو يعابث عقدة سيفه بأصابعه ويتثاءب مللاً . ومسح بروخور ، وشفتاه ترتجفان ، خطا من الدم كان يسيل من وجنته المتورمة .

فنظر غريغوري الى الضباط ، وهو يجر حصانه الى الصف ، غير أنهم مضوا في حديثهم كما لوأن شيئاً أليماً لم يقع . وبعد ذلك بخمسة أيام ، أسقط غريغوري دلواً في البئر ، فانقض عليه رئيس العرفاء كالصقر ورفع قبضته .

ـ لا تلمسني . ـ قال ذلك غريغوري بصوت أجش وهو ينظر الى الماء المتماوج تحته .

ـ ماذا ؟ انزل الى البئر وأخرجه ، يا نغل! لسوف أحطم رأسك هذا!

فقال غريغوري ببطء دون أن يرفع رأسه :

ـ سأخرجه لكن لا تلمسني .

لو كان هناك أي قوزاقي الى جانب البئر ، لما تردد رئيس العرفاء لحظة في ضرب غريغوري ، لكنهم كانوا يسوسون خيولهم عندالسياج فلم يسمعوا ماكان دائراً . وتقدم رئيس العرفاء من غريغوري ، متلفتاً صوب

القوزاق ، وقد جنت عيناه بالهياج ، وقال في صوت كالفحيح :

ـ ماذا تظن نفسك ؟ كيف تجرؤ على مخاطبة رئيسك بهذه الصورة ؟

ـ لا تبحث عن المتاعب ، يا سيمون يغوروف .

ـ أتهددني ؟ سوف أ...

فقال غريغوري رافعاً رأسه من البئر :

ـ اسمع ، لئن ضربتني... فسأقتلك . أتفهم ؟

ففغر رئيس العرفاء فمه الشبيه بفم الشبوط ، منذهلاً ولكن لم يند عنه أي جواب . فقد فلتت فرصة العقاب . ولم يكن وجه غريغوري الداكن لينبئ بخير . واعترت رئيس العرفاء الحيرة ، فمشى مبتعداً عن البئر ، متزحلقاً في الوحل بالقرب من المزراب الذي كان يسيل فيه الماء الى أحواض خشبية ، وحينما أصبح على مبعدة ما استدار وهز قبضته ، وصاح :

ـ سوف أرفع تقريراً عنك الى آمر السرية . أجل سأرفع عنك تقريراً .

لأمر ما ، مع ذلك ، لم يرفع تقريره عن غريغوري . ولكنه شاكس غريغوري خلال أسبوعين وجعل يتسقط أخطاءه دائماً ويوكل اليه واجب الخفارة في غير دوره ويتحاشى أن تلتقي نظراتهما .

سحق نظام الحياة الموحش الرتيب نفسية القوزاق الشباب . كانوا يشتغلون بصورة مستديمة وحتى أفول الشمس يالتمرينات ، على الأقدام وعلى ظهور الخيل ويسوسون الخيل ويطعمونها . في الساعة العاشرة ، وبعد تلاوة وتوزيع الحرس ، كانوا يصفّونهم للصلاة ، رئيس العرفاء يرتل صلاة المولى وعيناه تجولان على المراتب الماثلة أمامه .

وفي كل صباح كانت الأمور تدور على المنوال ذاته كرّة أخرى ، وتمر الأيام متشابهة كما تتشابه حبات الحمص .

لم يكن في كل الضيعة سوى إمرأتين : زوجة الوكيل* العجوز وخادمته

---

* أي وكيل الضيعة . المترجمون

الشابة الجميلة ، فرانيا ، وهي فتاة بولندية . تثير إعجاب الجنود والضباط على السواء . وكانت كثيراً ما تجري من المنزل الى المطبخ حيث يعمل طباخ الجيش العجوز الذي لا حاجب له . فكانت الرعائل التي تتدرب في ساحة العرض تراقب كل حركة في تنورة الفتاة الرمادية أثناء هرولتها عبر الفناء ، وهم يتغامزون ويطلقون التنهدات المبالغ في علوها . وإذ كانت الفتاة تستشعر حملقة القوزاق والضباط ، راحت تسبح في جدول الشبق الذي انبعث من ثلاثمائة زوج من العيون ، ومضت تؤرجح ردفيها بشكل مثير فيما كانت تجري ذاهبة آتية بين المطبخ والمنزل ، تمنح الابتسام لكل رعيل بالتناوب ، وللضباط بصورة خاصة وبالرغم من أن الجميع ناضلوا لاجتذاب اهتمامها بهم ، إلا أن الشائعات ذهبت الى أن آمر السرية الأجعد الشعر وحده قد ظفر بها .

وذات يوم في مستهل الربيع ، كان غريغوري مكلفاً بالعمل في الاصطبلات فقضى معظم وقته في طرف واحد منها حيث شاع الهياج بين جياد الضباط لوجود فرس بينها . حان وقت الغذاء . وكان غريغوري قد أذاق حصان آمر السرية طعم السوط لتوه ، وشرع يعني بحصانه هو . فألقى هذا نظرة جانبية الى سيده ومضى يلوك التبن ، وقد رفع ساقه الخلفية المضروبة أثناء التدريب . وبينما كان غريغوري يصلح من وضع الرسن ، سمع صوت اصطراع وصرخة مكتومة ، انبعث من الزاوية الدكناء للطرف الآخر من الاصطبل . فانتابته دهشة من الصوت الغريب ، وهرع الى هناك عبر المعالف . وعلى حين غرة غشى على بصره ظلام لزج غطى على الممر فجأة وصفق أحدهم باب الاصطبل ، فسمع غريغوري صوتاً مكتوماً ينادي همساً :

ـ أسرعوا ، يا أولاد!

فأسرع غريغوري خطاه ، وصاح :

ـ من هنا... ؟

وفي اللحظة التالية إصطدم بعريف كان يتلمس طريقه الى الباب ،

فـــهـــمس هذا وهو يضع يده على كـــتف غـــريغـــوري : «أهذا أنت ، يا ميليخوف ؟» .

ـ قف! ماذا هناك ؟

فانفجر العريف في قهقهة آثمة وأمسك بكم غريغوري : «يا من... هناك ، أين ذاهب ؟» إذ كان غريغوري قد انتزع ذراعه ، وجرى ثم دفع الباب . كان ثمة في الفناء المهجور دجاجة مقصوصة الذيل ، لا تدري بما أعد الطباخ لها من خطط تتعلق بحساء الوكيل لليوم التالي ، فكانت تنبش في شيء من الروث باحثة عن موضع تضع فيه بيضتها .

أعشى الضياء غريغوري لحظة ، فظلل عينيه بيده واستدار وهو يسمع الى جلبة تتعالى في زاوية الاصطبل الدكناء . فجرى ناحية الصوت مضيقاً عينيه وإذا به يلقي زاركوف يزرر سرواله ويهز رأسه .

ـ ماذا بحق... ماذا تفعل هنا ؟

فهمس زاركوف وهو يطلق زفيراً كريهاً في وجه غريغوري : «أسرع إنه لشيء رائع... لقد جروا الفتاة فرانيا الى الداخل هنا... ومددوها!» وانقطعت قهقهته الخليعة فجأة حينما أطاح به غريغوري على حائط الاصطبل الخشبي . واعتادت عينا غريغوري الظلمة شيئاً فشيئاً وكان ثمة رعب فيهما وهو يعدو صوب الجلبة ، ووجد غريغوري في الزاوية حشداً من قوزاق الرعيل الأول . فشق طريقه بينهم بصمت . ورأى فرانيا راقدة على الأرض بلا حراك ، وقد لُفّ رأسها بمراشح الخيل ، وثوبها ممزق ومرفوع الى ما فوق ثدييها ، وساقاها الأبيضان وسط العتمة منفرجان بشكل داعر فظيع . وكان قوزاقي قد قام لتوه من فوقها ، وهو يبتسم ابتسامة معوجة ويتراجع ليفسح المجال لمن يليه ، فشق غريغوري طريقه خلال الحشد عائداً ، وركض الى الباب ينادي رئيس العرفاء . ولكن القوزاق الآخرين جروا خلفه وأمسكوا به عند الباب ، وسحبوه الى الوراء واضعين أيديهم على فمه فمزق قمصلة أحدهم من طرفها الى ياقتها وركل آخر على معدته ، ولكن الآخرين استطاعوا أن يشلوا

حركته . ومثلما فعلوا بفرانيا ، أوثقوا رأسه بمرشحة حصان وقيدوا يديه خلف ظهره ، ثم القوا به في معلف خال ، وهم صامتون لكيلا يشخصهم من أصواتهم ، وحاول أن يصيح ومرشحة الحصان تخنقه ، وجعل يرفس الفاصل في هياج . وكان يسمع الهمس يتناهى من الزاوية ، والباب يصر مع دخول القوزاق وخروجهم . ثم أطلق سراحه بعد عشرين دقيقة تقريباً . وكان رئيس العرفاء وقوزاقيان من رعيل آخر يقفون عند الباب .

قال له رئيس العرفاء ، وهو يطرف بعينه بشدة دون أن ينظر إليه :

ـ ما عليك إلا أن تقفل فمك!

وقال دوبوك مبتسماً ، وهو قوزاقي من رعيل آخر :

ـ لا تثرثر وإلا صلمنا أذنيك...

ثم رأى غريغوري قوزاقيين رفعا الكومة الساكنة التي كانت فرانيا ممدة عليها ، وقد انفرجت ساقاها بشكل متصلب تحت تنورتها ، وارتقيا معلفاً ودفعاها خلال فجوة في الحائط أحدثتها عارضة خشبية سائبة . كان الحائط يحاذي البستان . وفوق كل معلف نافذة صغيرة مسودة ، فتسلق بعض القوزاق فوق فواصل المعالف ليروا ماستفعله فرانيا ، بينما هرع آخرون خارج الاصطبلات . وتملك غريغوري فضول حيواني ، هو الآخر ، فأمسك بعارضة سقيفة ، وشد قامته الى احدى النوافذ ووجد مااعتمد عليه بقدميه وجعل ينظر من هناك . كانت عشرات من العيون تحملق خلال النوافذ الوسخة في الفتاة الراقدة تحت الجدار . كانت ممددة على ظهرها ، وساقاها يتقاطعان وينفرجان مثل شفرتي المقص ، وأصابعها تنبش في الثلج عند الجدار . لم يستطع غريغوري أن يرى وجهها لكنه سمع الأنفاس المكتومة للقوزاق الآخرين المتطلعين من النوافذ ، وخشخشة التبن الناعمة المريحة .

لبثت راقدة طويلاً ، وأخيراً همت على يديها وركبتها . وارتعشت ذراعاها ، تكادان لا تقويان على حملها . ورأى غريغوري ذلك بوضوح . ثم

قامت على قدميها وهي تترنح ، ومرت بعينيها على النوافذ بحملقة طويلة بطيئة ، وقد بدت شعثاء ، غريبة ، عدائية . ثم ابتعدت متأرجحة وهي تقبض بيد شجيرات زهر العسل وبالأخرى تتحسس الجدار .

فقفز غريغوري من الفاصل وحك بلعومه يخامره شعور بالاختناق الوشيك . وعند الباب قال له أحدهم ، لم يستطع حتى تذكره فيما بعد ، بلهجة قاطعة :

ـ لئن فهت بكلمة... قتلناك ، وحق المسيح!

وفي ساحة العرض لاحظ آمر السرية انقطاع أحد أزرار معطف غريغوري . فسأله :

ـ من كنت تصارع ؟ أي هندام يمكن أن تسمي هذا ؟

فنظر غريغوري الى الثقب الصغير المستدير الذي خلفه الزر المفقود ، وجاشت به الذكرى ، فأحس ، للمرة الاولى منذ فترة طويلة ، من الزمن بالرغبة في البكاء .

٣

انتشر فوق السهب هواء ساخن اصفر . وتعالى غبار أصفر من بحار القمح الناضج غير المحصود . واضحى معدن آلات الحصاد حاراً جداً بحيث لا تستطيع يد أن تلمسه . وصار النظر الى السماء الصفراء ـ المزرقة الملتهبة شيئاً موجعاً . وحيث انتهت حقول القمح ، بدأت حقول زعفرانية من البرسيم .

وانتقلت القرية عن بكارة أبيها الى السهب لقطع الذرة . وكانوا يختنقون بالحر والغبار الحريف ، ويرهقون الخيل وهي تجر الحاصدات . ومن حين لآخر ، كانت موجة من الهواء القادم من النهر تثير هبة من الغبار على السهب ، فتتغلف الشمس بغشاوة مخدرة .

وكان بيوتر قد شرب نصف دلو من الماء منذ الصباح الباكر حى الآن ، وهو يجرف القمح من ناحية الحاصدة . فما أن تمضي دقيقة على شربه السائل الدافىء الكريه حتى يجف ريقه من جديد . كان قميصه وسرواله مبللين كلهما ، والعرق يتصبب من وجهه ، وفي اذنيه رنين متواصل ، وكل كلمة يقولها تخربش بلعومه . وكانت داريا تجمع القمح حزماً ، وقد لفَعَت رأسها ووجهها بعصابتها ، وفكت أزرار قميصها . وانحدرت حبات رمادية كبيرة من العرق بين نهديها الاغبشين . وكانت ناتاليا تقود الخيل ، وقد التهبت وجنتاها حتى صارتا بلون البنجر ، وادمعت الشمس المتوهجة عينيها . وكان بانتلاي يروح ويغدو بين حزم القمح ، وقميصه المبتل يلسع جسده . وبدت لحيته كسيل من دهن العربات الأسود الذائب ، ينساب فوق صدره .

صاح كريستونيا من عربة عابرة :

ـ جعلوك تعرق ؟

ـ مبتل عن آخري! ـومضى بانتلاي يعرج ، ماسحاً بطنه العِرق بذيل قميصه .

وصاحت داريا :

ـ بيوترا لنتوقف .

ـ تريثي قليلاً ، سنفرغ من هذه المسافة .

ـ لننتظر حتى يبرد الجو . كفاية الى هذا الحد .

أوقفت ناتاليا الخيل ،وكان صدرها يلهث كما لو كانت هي التي تسحب الحاصدة . ومضت داريا نحوهما متلمسة طريقها في حذر بقدميها المحترقتين الداكنتين على الحنطة المحصودة .

ـ ليست بعيدة! ثلاثة فرستات أو نحوها ، لا غير!

ـ لو قمنا بغوصة واحدة فيها!

وبدأت ناتاليا تقول متنهدة :

ـ وحينما تصلين الى هناك وترجعين...

ـ لماذا ، بحق الشيطان ، علينا أن نمشي على أرجلنا! سنحل الخيل ونركبها .

فنظر بيوتر قلقاً الى أبيه الذي كان يربط حزمة ، ولوّح بيده .

ـ حسناً ، حلّوا الخيل .

فحلت داريا العدة وقفزت ببراعة على ظهر الفرس . وقادت ناتاليا حصانها الى الحاصدة ، وشفتاها المشققتان تبتسمان ، وحاولت أن تمتطيه من مقعد القيادة . فمضى اليها بيوتر وأعان ساقها على الصعود الى ظهر الحصان . ثم انطلقوا . ومضت داريا تخب في المقدمة ، وهي تركب حصانهاعلى الطريقة القوزاقية ، وقد شمرت تنورتها الى مافوق ركبتيها العاريتين ، واندفعت عصابتها الى ماوراء رأسها . ولم يستطع بيوتر أن يمنع نفسه من الصياح عليها :

ـ حاذري ألا يتقرّح ظهر الحصان!

فردت عليه داريا بصيحة غير مبالية :

ـ لا حاجة الى أن تقلق!

وبينما كانوا يعبرون طريق الحقل ، نظر بيوتر الى شماله فلاحظ غمامة صغيرة من الغبار تتحرك بسرعة على امتداد الطريق العام البعيد من القرية .

فعلق محدثاً ناتاليا ، وهو يخاوص عينيه :

ـ ثمّة خيّال قادم!

فأجابت ناتاليا دهشة :

ـ ومسرع ، أيضاً ! انظر الى الغبار!

ـ لعمري ، من عساه يكون! ـ ونادى بيوتر على زوجته : ـ داريا! شدي الزمام لحظة ، ودعينا نراقب ذلك الخيال!

هبطت غمامة الغبار في منخفض واختفت ، ثم ارتفعت من جديد على

الجانب الآخر . وصار الآن بالمستطاع رؤية شبح الخيال خلل الغبار . فلبث بيوتر يحدّق وراحته الوسخة على حافة قبعته القش .

ـ ليس من حصان يستطيع أن يتحمل هذا العدو مدة طويلة . لسوف يقتله! ـ وتجهّم وأبعد يده ، واجتاح وجهه تعبير قلق .

أصبح الآن بالامكان رؤية الخيال بجلاء تام . كان يركب حصاناً بسرعة جنونية ، ويده اليسرى تمسك بقبعته ، وفي يمناه علم أحمر صغير مغبر . مرق على الطريق على مقربة دانية منهم حتى ان بيوتر سمع انفاس الحصان اللاهثة . وصاح الرجل وهو يمر بهم :

ـ انذار!

وتطاير من الحصان نثار من زبد صابوني اصفر وتساقط على أثر حافره . وتابع بيوتر الخيال بعينيه . وانطبعت في ذاكرته نخرة الحصان القوية وصورة كفله ، مبتلاً ومتلألئاً كالفولاذ ، حينما رآه وهو يحدّق في الشبح المبتعد .

وتفرّس بيوتر ببلادة في الزبد المرتعش في الغبار ، وهو لمّا يزل عاجزاً عن ادراك طبيعة الكارثة التي حلّت بهم ، فثم أجال بصره في السهب المتموج المنحدر صوب القرية ، كان القوزاق يتراكضون من جميع الجهات فوق الصفوف الصفر لجذامة الحنطة ، متجهين صوب القرية ، وكانت ترى عبر السهب ، حتى النجد البعيد ، غمامات صغيرة من الغبار تنم عن فرسان مسرعين . وتحرّك قطار طويل من الغبار على الطريق المؤدي الى القرية . أما القوزاق الذين كانوا في قائمة الخدمة الفعلية ، فقد تركوا عملهم واخرجوا الخيل من الحاصدات وانطلقوا سراعاً الى القرية . وشاهد بيوتر كريستونيا يحل حصانه ، التابع لفصيله الحرس ، من عربة وينطلق عليه بسرعة جنونية ، وهو ينظر الى بيوتر عبر كتفه .

وقالت ناتاليا فيما يشبه العويل ، وهي تنظر الى بيوتر بذعر :

ـ «فيم كل ذلك ؟» . وحفزته نظرتها ، نظرة الأرنب الواقع في فخ ، فعاد

مسرعاً الى الحاصدة ، وقفز من حصانه قبل أن يتوقف ، وحشر ساقيه في بنطاله الذي خلعه أثناء العمل ، وانطلق ، ملوحاً بيده لأبيه ، ليضيف غمامة اخرى من الغبار الى تلك الغمامات التي تناثرت قبله فوق السهب المنبسط في وقدة القيظ .

٤

وفي ساحة القرية وجد حشداً رمادياً كثيفاً ، وقد ارتدى الكثيرون بزاتهم العسكرية وحملوا عدتهم . وكانت القبعات العسكرية الزرق لرجال كتيبة الاتمان ترتفع بمقدار رأس عن بقية القبعات ، مثل أوز هولندي بين دواجن الحقل الصغيرة .

كانت حانة القرية مغلقة . وكانت نظرة ضابط الارتباط العسكري كئيبة مثقلة بالهموم . واصطفت النساء اللواتي ارتدين ثياب الاعياد حذاء الاسيجة على امتداد الشارع . وكانت ثمة كلمة واحدة على كل شفة : «النفير» . والوجوه مأخوذة ، قلقة . وسرى القلق السائد الى الخيل ، فجعلت ترفس وتثب وتنخر غاضبة . وانتثرت في الساحة قنان فارغة وأوراق حلوى رخيصة ، وكانت غمامة من الغبار قد تعلقت في الجو منخفضة .

قاد بيوتر حصانه المسرج من عنانه . وعلى مقربة من سور الكنيسة وقف قوزاقي أسمر ضخم ، من كتيبة الاتمان ، يزرر بنطلونه الازرق ، وفمه ينفرج عن ابتسامة ناصعة الاسنان ، فيما كانت امرأة صغيرة قوية البنية ، زوجته أو حبيبته ، تتفجّر بوجهه :

ـ لسوف القنك درساً لذهابك مع تلك السفيهة!

كانت ثملة ، وقد انتثرت على شعرها الاشعث قشور بذور عباد الشمس ، وانهدلت عصابتها الزاهية ، فشد جندي الحرس نطاقه ، وانحنى ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، وساقاه طويلتان وطيات سرواله العريضة يمكن أن تمرر عجلاً حولياً دون أن يعصى فيها .

ـ ابتعدي عنّي ، ياماشكا .

ـ ياللوحش! يازير النساء!

ـ وماذا في ذلك ؟

ـ ياعديم الحياء!

وعلى مقربة منه كان رئيس عرفاء أحمر اللحية يناقش مدفعياً . وكان يؤكد له :

ـ لن يؤدي ذلك الى شيء ما! سوف نقضي هناك يوماً ، ثم نعود الى بيوتنا من جديد .

ـ ولكن لنفرض أن الحرب وقعت ؟

ـ ياه ، يا صديقي! أين هو البلد الذي يستطيع أن يصمد أمامنا ؟

وفي الحشد القريب يجري خديث لاترابط فيه وكان ثمة قوزاقي مسن وسيم يتجادل في حماس :

ـ لا مصلحة لنا فيها . فليقاتلوا هم فنحن لم نحصد قمحنا بعد .

ـ ياللمصيبة ! هانحن واقفون هنا ، بينما في الحصاد كل دقيقة لها وزنها!

ـ ستنفذ الماشية الى الحزم!

ـ قبل قليل فقط شرعنا في حصاد الشعير!

ـ يقولون ان القيصر النمسوي قد قتل .

ـ كلا ، ولي عهده .

ـ يا صديق من أي كتيبة أنت ؟

ـ ها! يا عزيزي ومن أين أنت ؟

ـ لكن الاتمان يقول إنهم استدعونا لمواجهة ما قد يحدث لا غير .

ـ انتهينا ، يا أولاد!

ـ سنة أخرى ، وأكون قد خرجت من وجبة الاحتياط الثالثة . ـ ماعساهم يريدون منك ، أيها الجد ؟

ـ لا عليك ، فما أن يشرعوا بتقتيل الرجال حتى يستدعوا الشيوخ ، أيضاً .

ـ الحانة مغلقة!

ـ وماذا ؟ في وسعنا أن نذهب الى منزل مارفوتكا ، ستبيعنا برميلاً!

ثم بدأ التفتيش . واقتاد ثلاثة من القوزاق رابعاً ، مضرجاً بالدم وفي حالة سكر تام ، الى إدارة القرية . فارتمى الى الخلف ، وشق قميصه ، وصاح وهو يجول بعينيه الصغيرتين :

ـ سأعلم الفلاحين! سأنال من دمهم! سيعلمون من هم قوزاق الدون!

فتضاحكت حلقة الرجال المحيطة به استحساناً :

ـ صحيح ، لقنهم درساً!

ـ لمَ قبضوا عليه ؟

ـ هاجم بعض الفلاحين!

ـ حسناً ، يستحقون ما فعل .

ـ سنريهم أكثر من هذا!

ـ ساهمت في قمعهم عام ١٩٠٥ . كان ذلك منظراً جديراً بالمشاهدة!

ـ ستنشب الحرب . وسيرسلوننا من جديد لقمعهم .

ـ كفى ما لاقينا . فليؤجروا لتلك المهمة ، أو فلتقم بها الشرطة . من العار علينا أن نفعل ذلك .

كان حانوت موخوف مكتظاً بالناس . وكان في وسطهم ايفان توميلين يناقش صاحبي الحانوت ، وهو سكران ، وموخوف يسعى لتهدئته . وكان شريكه اتيوبين قد ارتكن عند الباب . وقال متبرماً : «علام كل هذا ؟ في رأيي أن هذا انتهاك للحرمة! ياولد ، اجر في طلب الاتمان!»

ضغط توميلين بصدره على التاجر المتجهم ، وهو يمسح يديه المعروقتين ببنطاله ، وقال متهكماً :

ـ لقد عصرتنا وعصرتنا بالفائدة التي تفرضها علينا ، أيها الخنزير ، والآن طاش صوابك . سوف أحطم وجهك! أنت تنهب حقوقنا القوزاقية ، أيها الثعبان الغليظ!

كان اتمان القرية منهمكاً في صب سيل من الكلمات المهدئة لطمأنة القوزاق المحيطين به : «حرب ؟ كلا ، لن يكون هناك اية حرب . فقد قال سعادة آمر الانضباط العسكري أن النفير لم يكن الا من قبيل التمارين . لاحاجة للتطير» .

ـ حسناً! فلنعد الى الحقول فور عودتنا الى بيوتنا!

ـ وكيف لا! الحصاد لا ينتظر!

ـ ماذا يدور في خلد السلطات ؟ لديّ أكثر من مائة ديسياتين يتعيّن عليّ حصادها .

ـ تيموشكا! قل لأهلينا إننا سنعود غداً .

ـ يبدو أنهم علّقوا بيانا . لنذهب ونلقي نظرة عليه .

وهكذا ظلت الساحة دائبة الحركة والصخب بالحشود القلقة حتى ساعة متأخرة من الليل .

* * *

بعد أربعة أيام ، كانت الشاحنات الحمر للقطارات العسكرية تحمل كتائب وبطاريات القوزاق باتجاه الحدود الروسية ـ النمسوية .

ـ الحرب...

ومن المعالف انبعثت حمحمة الخيل ورائحة الروث الكريهة الرطبة .

وفي العربات دار نفس النمط من الحديث ، واغلب الأغاني من هذا النوع :

الدون يقظان يتململ ،
الدون الهادئ المسيحي .
اطاعة للنداء ،
نداء الملك ، يغذ الدون مسيرته .

في المحطات ، كان القوزاق يقابلون بنظرات فضولية عطوف . وكان الناس يحدقون بفضول في شرائط سروايل القوزاق ، وفي وجوههم التي لم تزل داكنة من أثر العمل الأخير في الحقول .

ـ الحرب...

وانطلقت صرخات الجرائد بالنبأ . وفي المحطات ، لوحت النساء بمناديلهن ، وابتسمن ، ونثرن السكاكر والحلوى . مرّة واحدة فقط ، قبيل أن يصل القطار فورونيج دس عامل سكك عجوز ، نصف سكران ، رأسه في الشاحنة حيث انحشر بيوتر ميليخوف مع ثلاثين قوزاقياً آخرين ، وتساءل :

ـ انتم ذاهبون ؟

فأجابه أحد القوزاق :

ـ نعم . ادخل وامض معنا ، ايها الجد .

فرد العجوز وهو يهز رأسه لائماً :

ـ يا ابني... ما أنتم إلا ثيران للذبح!

٥

خلال الاسبوع الرابع من حزيران ١٩١٤ ، نقلت هيئة اركان الفرقة كتيبة غريغوري ميليخوف الى مدينة روفنو لتشترك في المناورات . وكانت ثمة فرقتان من المشاة قد عسكرتا على مقربة من روفنو ، اضافة الى بعض وحدات الخيالة . وكان أن عسكرت السرية الرابعة في قرية فلاديسلافكا . وبعد اسبوعين ، وبينما كان غريغوري وقوزاق السرية الرابعة مضطجعين في خيامهم وقد هدت قواهم المناورات المستديمة دخل آخر السرية ، الرئيس بولوكو فينكوف على غفلة مسرعاً وعائدا من هيئة أركان الكتيبة على حصانه المغطّى بالزبد .

اضطرب القوزاق في الفناء فقال بروخور زيكوف متهكماً :

ـ «سنتحرك من جديد ، على ما أظن» . وأرهف سمعه ينتظر صوت البوق .

وغرز عريف الرعيل الابرة التي كان يرتق بها بنطلونه في بطانة قبعته ، وعلّق قائلاً :

ـ يبدو كذلك .

ـ لن يدعونا نرتاح لحظة .

ـ قال رئيس العرفاء : ان آمر اللواء سيزورنا .

في هذه اللحظة نفخ البوقي اشارة الانذار . فقفز القوزاق على اقدامهم . وصاح بروخور وهو ينقب في جنون : «اين ولّى كيس تبغي ؟ » .

ـ اسرجوا حصنكم!

وصاح غريغوري وهو يعدو الى الخارج :

ـ فليذهب كيسك الى الجحيم .

جرى رئيس العرفاء الى الفناء ، واتجه ناحية مرابط الخيل ماسكاً مقبض سيفه . وكانوا قد اسرجوا خيلهم خلال المهلة النظامية . وبينما كان غريغوري ينتزع أوتاد الخيام ، استطاع العريف أن يجمجم :

ـ انها الحرب هذه المرّة ، يابني!

ـ أنت تهزل!

ـ وحق الرب! لقد أخبرني رئيس العرفاء .

وانتظمت السرية في الشارع وعلى رأسها الآمر على صهوة حصان هائج . وحوّم ايعازه على رؤوس المراتب :

ـ ارتال ، اصطفاف!

وقرقعت الحوافر فيما مضت الخيل خارجة من القرية الى الطريق العام . ومن قرية مجاورة ظهرت للعيان السريتان الاولى والخامسة متجهتين على الخيل صوب المحطّة .

وفي اليوم التالي انزلت الكتيبة من القطار في محطة تبعد ، حوالي

خمسة وثلاثين فرستا عن الحدود النمسوية . كان الفجر ينسلخ من وراء أشجار البتولا في المحطة . وبدا الصباح مبشراً بتحسن .

ضجّت الماكنة وعجّت فوق خطوط السكك ، وتلألأت القضبان تحت دهان من الندى ، وهبطت الخيل من الشاحنات على الألواح الخشبية وهي تنخر . ومن وراء برج الماء تناهى خليط من الاصوات والاوامر .

وقاد قوزاق السرية الرابعة خيولهم من أعنتها عبر تقاطع السكك وبدت أصواتهم متطيرة في العتمة البنفسجية المتكسرة . وبزغت الوجوه وهياكل الخيل من الظلمة بشكل مبهم .

ـ أية سرية تلك ؟

ـ ومن أنت ؟ من أين أنت ؟

ـ سأريك من أنا! كيف تجرؤ على التحدث الى ضابط على هذا النحو ؟

ـ آسف ، يا صاحب السعادة ، لم أتبينكم .

ـ اذهب! اذهب!

ـ فيم تكاسلكم ؟ تحركوا . ها هو القطار قادم .

ـ أين رعيلكم الثالث ، يا رئيس العرفاء ؟

ـ سرية ، تراصفي!

همسات تتمتم في الرتل :

ـ اللعنة ، كيف نتراصف ونحن لم نعرف النوم منذ ليلتين .

ـ هات نفسا ، يا سيومكا ، لم أدخن سيكارة منذ البارحة .

ـ اذهب الى الجحيم...

ـ عض حزام سرجه ، هذا الشيطان .

ـ فقد حصاني نعلا من ساقه الامامية .

وعلى مبعدة قليلة ، كان الرعيل الرابع قد أوقف قليلاً لأن الرعيل الآخر اعترض طريقه . كانت أشباح الفرسان السود بارزة بوضوح قبالة صفحة السماء الرمادية الممزقة ، كما لو رسمت بحبر هندي . في كل صف أربعة

فرسان . تأرجحت رماحهم كعيدان عباد الشمس الجرد . ومن حين لآخر جلجل ركاب أو صرّ سرج .

ـ يا اخوان ، الى أين ذاهبون ؟

ـ الى الاشبين لحفلة التعميد!

ـ ها ـ ها ـ ها !

ـ صه! ماهذا الكلام الفارغ!

كان بروخور زيكوف راكباً الى جانب غريغوري ، حدّق بروخور في وجهه وهمس :

ـ ميليخوف ، لست خائفاً . أليس كذلك ؟

ـ ماالذي يدعو للخوف ؟

ـ قد نلتحم اليوم في المعركة .

ـ حسناً ، وما في ذلك ؟

فاعترف بروخور واصابعه تعبث بالأعنة الندية في عصبية :

ـ لكنني خائف . لم أنم طرفة عين طوال الليل .

ومرة أخرى تقدمت السرية ، وتحركت الخيل بخطى رتيبة . واهتزت الرماح وانسابت في ايقاع منتظم . فألقى غريغوري الاعنة ، وغفا . وبدا له أن الذي كان يتقدم على سيقانه الى الأمام بليونة ، فيؤرجحه على السرج ، لم يكن الحصان ، بل هو نفسه سائراً على طريق مظلم دافئ ، يمشي في يسر غريب ، وفي فرح لايقاوم ، ومضى بروخور يثرثر الى جانبه . لكن صوته اختلط بصرير السرج وقرقعة الحوافر ، فلم يكدر اغفاءته الهنية .

انعطفت السرية في طريق جانبي . وكان الصمت يرن في آذانهم ، والشوفان الناضج يتدلى على جانب الطريق ، ومن ذؤاباته يتبخر الندى . وحاولت الخيل أن تبلغ السنابل الخفيضة ، فكانت تجذب الاعنّة من أيدي راكبيها . زحف ضوء النهار اللطيف تحت جفني غريغوري المنتفخين من جراء الأرق . فرفع رأسه وسمع صوت بروخور الرتيب ، كأنه صرير عجلة في عربة .

أيقظه رعد قاصف شديد ، تماوج بغتة عبر حقول الشوفان .

ـ رمي مدافع!

كاد بروخورأن يصيح ، وغام الرعب بعينيه اللتين تشبهان عيني العجل ، فرفع غريغوري رأسه . كان أمامه المعطف الرمادي لعريف الرعيل ، يرتفع ويهبط في الوقت نفسه مع ظهر الحصان . وعلى كلا الجانبين امتدت حقول القمح غير المحصودة ، وتراقصت قبرة في السماء على علو عمود تلغراف . وهبت جميع السرية ، اذ سرى صوت الرمي خلالها سريان التيار الكهربائي . ودفع الرئيس بولوكوفنيكوف السرية الى عدو سريع ، وقد اثاره الرمي . وبعد مفترق طريق حيث قامت حانة مهجورة ، بدأوا يصادفون عربات اللاجئين ومرت بالقوزاق سرية من الفرسان المتألقين . وحدّق قائدهم ، الذي كان يمتطي حصاناً أصيلاً أشقر ، في القوزاق باحتقار وهمز حصانه . ثم التقوا ببطارية من مدافع القوس جنحت في منخفض نقع موحل . كان الراكبون يلهبون خيولهم بالسياط ، بينما يعالج المدفعيون عجلات العربة . ومر مدفعي ضخم مجدور حاملاً ضمة الواح خشبية يبدو أنه انتزعها من سياج الحانة .

وبعد ذلك بقليل لحقوا بكتيبة من المشاة . كان الجنود يمشون مسرعين وقد لفت معاطفهم فوق ظهورهم . والتمعت الشمس على صحائف طعامهم المصقولة وانسابت من حرابهم . وقذف نائب عريف قميء نشط من السرية الاخيرة بكتلة من الطين الى غريغوري وقال :

ـ هاك ، تلقف! اقذف النمسويين بها!

فرد غريغوري :

ـ لا تتعابث ، أيها الجندب! ـ وفتت كتلة الطين أثناء طيرانها بسوطه .

ـ قولوا لهم «مرحباً» على لساننا ، أيها القوزاق!

ـ ستسنح لكم الفرصة لذلك بأنفسكم .

انطلق أحدهم في بداية الرتل يردد أغنية بذيئة ، وجعل جندي ذو ردفين انثويين سمينين يمشي الى جانب الرتل وظهره الى الأمام وهو يصفع

ربلتي ساقيه القصيرتين ، فضحك الضباط ، اذ كان الاحساس القوي بالخطر قد قربهم اكثر الى الجنود وصاروا أكثر تسامحاً .

ومنذ ذلك الحين اخذ الرتل يمر باستمرار بكتائب من المشاة تتزاحف مثل دود القز ، وبطاريات مدفعية ، وعربات شحن ، وعربات الصليب الأحمر ، وشاعت في الهواء الرائحة المميتة للمعركة الوشيكة الوقوع .

بعد ذلك بقليل ، وبينما كانت السرية الرابعة تدخل إحدى القرى ، لحق بها آمر الكتيبة ، العقيد كاليدين ممشوق القد ، يصحبه معاونه . وحينما مرّا بغريغوري وسمع الأخير يقول لكاليدين باضطراب : «هذه القرية ليست مؤشرة على الخريطة ، يا فاسيلي ماكسيموفتش وقد نجد أنفسنا في موقف حرج» .

لم يتبين غريغوري رد العقيد . وانطلق المساعد يهذب حتى لحق بهما . كان حصانه يعرج على ساقه الخلفية اليسرى ، ولاحظ غريغوري بصورة آلية خصائصة البديعة . وظهرت على البعد أكواخ قرية صغيرة راقدة تحت منحدر يسير . كانت الكتيبة تعدو عدواً سريعاً . وجعلت الخيل تعرق ومسح غريغوري براحة يده على رقبة حصانه التي صارت قاتمة ، والقى النظرات فيما حوله . والى الجانب الآخر من القرية كانت ثمة غابة ، وذؤابات أشجارها الخضر تخترق قبة السماء الزرقاء . ومن وراء الغابة اختلطت انفجارات قنابل المدفعية بقرقعة طلقات البنادق المتوالية . فنصبت الخيل آذانها . وعلى مسافة بعيدة حوم في السماء دخان المنثار المتفجر ، وسرت طلقات البنادق ببطء الى يمين الغابة ، تتلاشى حيناً ، وتتعالى حيناً .

أصاخ غريغوري السمع لكل صوت ، وقد استحالت أعصابه حزماً صغيرة من الاحاسيس المتوترة . وتململ بروخور زيكوف على سرجه ، وهو يتكلم بلا انقطاع .

ـ غريغوري ، تبدو هذه الطلقات تماماً مثل أطفال يقرقعون العصي على السياج ، أليس كذلك ؟

ـ صه ، ياعقعق!

دخلت السرية القرية . كان الجنود يتدافعون هنا وهناك في الأفنية . وكان سكان الأكواخ يحزمون أمتعتهم ليلوذوا بالفرار ، وقد انطبع الجزع والحيرة على وجوههم . واذ مر غريغوري لاحظ جنوداً يضرمون النار تحت سقف احدى الحظائر ، غير أن صاحبها ، وهو بيلوروسي طويل أشيب الشعر ، قد سحقته الكارثة المفاجئة ، مرّ بهم دون أن يبدي ادنى اهتمام . وشاهد غريغوري عائلة الرجل نفسه تحمّل عربة بوسائد حمر الأغطية ، وأثاث متداعٍ . وكان الرجل نفسه يحمل باعتناء اطار عجلة مكسوراً عديم النفع ، وربما مضت عليه سنوات وهو ملقى في الفناء .

وذهل غريغوري لغباء النساء اللواتي كن يكدسن على العربات مزهريات وايقونات ، ويتركن الحاجات الغالية والضرورية وراءهن في المنزل . وفي بطن الشارع ، تطاير الريش من حشية ريشية ، مثل عاصفة ثلجية ، وكانت ثمة رائحة حريفة في الهواء لهباب محترق وسراديب زنخة . وفي طرف القرية التقوا بيهودي يهرول ناحيتهم ، وقد تمزقت فتحة فمه الضيقة عن صرخة :

ـ أيها السيد القوزاقي ، أيها السيد القوزاقي! آه ، ياالهي!

وكان ثمة قوزاقي قصير القامة مدور الرأس يخب على حصانه أمامه ، ملوحاً بسوطه دون أن يبالي به اطلاقاً .

ـ قف! ـ صاح نقيب من السرية الثالثة على القوزاقي .

فانحنى القوزاقي على رمانة سرجه وانطلق في شارع جانبي .

ـ قف ، أيها الوغد . من ايه كتيبة أنت ؟

فالتصق رأس القوزاقي الحليق برقبة الحصان ، وانطلق بسرعة جنونية نحو سياج عال فأقعى حصانه ، ثم قفز برشاقة .

فقال العريف :

ـ ان الكتيبة التاسعة معسكرة هنا ، يا صاحب السعادة . تلك هي كتيبته .

ـ ليذهب الى الشيطان ـ وعبس النقيب ، واستدار الى اليهودي الذي كان يمسك بركابه ـ ماذ أخذ منك ؟

ـ أيها السيد الضابط... ساعتي ، أيها السيد الضابط . ـ وطرف اليهودي ، مديراً وجهه الوسيم ناحية الضباط المقبلين .

حرر النقيب الرِكاب بقدمه وشرع يتقدّم . وقال مبتسماً من وراء شاربه وهو يبتعد :

ـ على ايه حال كان الالمان سيأخذونها حينمايأتون .

وقف اليهودي حائراً وسط الطريق . واعتصر التشنج وجهه . وصاح آمر السرية بقسوة وهويرفع سوطه :

ـ تنح عن الطريق ، يا حسقيل أفندي .

مضت السرية الرابعة ، وسنابك الخيل تقرقع والأسرجة تصر . وسخر القوزاق من اليهودي التائه ، وتحدثوا فيما بينهم :

ـ لا معدى لمن كان على شاكلتنا من السرقة .

ـ كل شيء يلتصق بيد القوزاقي .

ـ دعهم يكونون أكثر حرصاً على حاجياتهم!

ـ ولد ماهر ، هو ذاك!

ـ قفز عبر السياج ، كأنه كلب صيد .

تخلف رئيس العرفاء كاركين وراء السرية ، وبمصاحبة ضحكات القوزاق خفض رمحه وصاح :

ـ أجر قبل أن أغرزه فيك...

ففغر اليهودي فاه في ذعر وجرى . فلحق به رئيس العرفاء وضربه بسوطه . ورأى غريغوري اليهودي يكبو ، ثم يستدير الى رئيس العرفاء وقد غطى وجهه براحتيه . كان الدم يتلألأ خلال أصابعه الهزيلة .

وقال ناشجاً :

ـ لماذا ؟

فصاح رئيس العرفاء وعيناه النفاذتان الشبيهتان بالازرار تتبسمان بلزوجة فيما مضى مبتعداً :

ـ لا تمش حافياً ، أيها الأحمق!

ووراء القرية ، كانت جماعة من جنود الهندسة تنجز بناء قنطرة عريضة عبر منخفض تغطيه الحلفاء وزنابق الماء الصفر . وعلى بعد قريب كانت سيارة تطن وتقرقع وسائقها يضج حولها . وفي مقعدها الخلفي جنرال قوي البنية ، أشيب الشعر ذو لحية اسبانية وخدين منتفخين ، بين جالس ومضطجع . فوقف العقيد كاليدين وآمر فوج الهندسة وقفة استعداد الى جانب السيارة . وزعق على المهندس ، وهو يقبض على سير محفظة خرائطه :

ـ لقد أمرت باتمام هذا العمل أمس . اسكت! كان عليك أن تجهز المواد سلفاً . اسكت! ـ وهدر من جديد ، مع أن الضابط لم يحاول أن يفتح شفتيه المرتجفتين ـ كيف تتوقع أن أعبر الى الجانب الآخر ؟ اجبني ، أيها الرقيب . كيف لي أن أعبر ؟

وكان يجلس الى يساره جنرال شاب أسود الشارب ، ويشعل عود ثقاب ليدخن سيكارا . وانحنى الرقيب المهندس الى الأمام وأشار الى الجانب من الجسر . وعند الجسر مضت السرية نازلة في المنخفض . وغاصت الخيل حتى ركبها في الوحل الأسود الحائل ، وتناثرت فوقهم من الجسر نشارة خشب رقيقة بيضاء .

عبرت السرية الحدود النمساوية عند الظهر . وقفزت الخيل عبر العمود الاسود ـ الابيض المكسور لنقطة الحدود . ومن اليمين انبعث قصف المدافع ، ومن بعيد لاحت السقوف القرميدية لمزرعة ماتحت أشعة الشمس العمودية . وجثمت بتثاقل فوق كل شيء غمامة من الغبار مرّة المذاق . وأصدر آمر الكتيبة أوامره بافراز دوريات الاستطلاع وارسالها الى الأمام . فأرسل الرعيل الثالث من السرية الرابعة تحت قيادة الملازم الاول سيمينوف ، وتخلفت الكتيبة في ضباب رمادي ، وقد قسمت الى سرايا .

وركبت مفرزة تتكون من عشرين قوزاقياً خيلها على الطريق المحفر ، مارة بالمزرعة .

قاد الملازم دورية الاستطلاع حوالي ثلاثة فرستات ثم توقف ليدرس خريطته فتجمع القوزاق في حلقة يدخنون . وترجل غريغوري عن حصانه ليرخي السرج ، لكن رئيس العرفاء صاح به :

ـ ماذا تظنك فاعلاً ؟ عد الى حصانك .

أشعل الملازم سيكارة ، ومسح منظاره باعتناء . كان هناك واد يمتد أمامهم في قيظ الظهيرة . والى يمينهم برزت خطوط متعرجة لغابة ما يخترقها خط الطريق ، وعلى مبعدة حوالي فرست ونصف ، كانت ثمة قرية صغيرة ، وبدت بالقرب منها ضفة نهير طينية متآكلة وصفحة ملساء . فحدّق الضابط بإمعان خلال منظارته ، متفحصاً السكون الميت في شوارع القرية ولكنها كانت مهجورة كمقبرة . كان شريط الماء الأزرق وحده يومئ متحديا .

أشار الضابط الى القرية بعينيه ، وقال :

ـ لا بد أن هذه كوروليوفكا .

اقترب رئيس العرفاء بحصانه ، ولم يجب ، لكن التعبير في وجهه أفصح عن قوله : أنت تعلم خيراً مني . أنا لا أعنى الا بالقضايا الصغرى .

ثم قال الضابط متردداً ، وهو يزيح منظاره عن عينيه ويتجهم كما لو كان يعاني الماً من أسنانه :

ـ سنذهب الى هناك .

ـ قد نلتقي بهم ، ياصاحب السعادة ؟

ـ سنكون حذرين . هيا بنا .

ظل بروخور زيكوف قريباً الى غريغوري . مضوا حدر الشارع المهجور في حذر . كانت كل نافذه توحي بكمين ، وكل باب حظيرة مفتوح يستثير احساساً بالوحشة ويبعث في الظهور رعشة مزعجة . وانجذبت كل العيون الى الاسيجة والحفر ، وكأن فيها مغناطيسياً . ومضوا مثل وحوش كاسرة ،

مثل ذئاب تقترب من مساكن الناس في ليلة شتائية ـ لكن الشوارع كانت خالية . كان الصمت مذهلاً . ومن نافذة مفتوحة لأحد البيوت انبعث الصوت البريء لساعة تدق . كان وقع الضربات مثل طلقات مسدس ، ورأى غريغوري الضابط الراكب أمامه يرتعش وتنطلق يده الى مسدسه .

لم يكن في القرية كائن ما . وخاضت الدورية النهر حتى بلغ الماء بطون الخيل فغاصت فيه رضية وحاولت أن تشرب منه ، لكن فرسانها جروا الأعنة واستحثوها على المضي ، . وحدق غريغوري وهو ظمآن في الماء الكدر ، القريب والعزيز المنال . لقد جذبه اليه بصورة تكاد لا تقاوم . ولو كان ممكناً اذن لوثب من سرجه واستلقى بملابسه تحت همهمة التيار حتى يقشعر من البرد صدره وظهره العرقان .

ومن المرتفع الواقع وراء القرية شاهدوا بلدة بعيدة : مجموعة مربعة الشكل من المنازل ، أبنيــة من الطابوق ، حدائق ، وابراج كنائس ، مضى الضابط الى قمة التل ووضع منظاره على عينيه . ثم صاح واصابع يده اليسرى تتحرك بعصبية :

ـ هاهم .

فركب رئيس العرفاء الى القمة التي ألهبتها الشمس يتبعه القوزاق الآخرون فرادى ، وجعلوا يحدقون النظر ، فشاهدوا الرجال ـ الذين يبدون نقاطاً سوداء ـ يهرولون في الشوارع ، والعربات تسد الشوارع الجانبية . والخيالة يجرون رائحين غادين . واستطاع غريغوري وقد ضيق عينيه وجعل يحدّق من تحت راحته ، ان يميز لون البزات الرمادي غير المألوف . وكانت تمتد أمام البلدة خطوط سمر للخنادق التي حفرت تواً ، والرجال محتشدون حولها .

قال بروخور شاهقاً :

ـ ما أكثرهم .

وكان الآخرون صامتين ، وقد تملكهم جميعاً الاحساس ذاته . وتسمع

غريغوري الى ضربات قلبه المتوترة (كأن كائناً حياً صغيراً ثقيلاً يقفز في مكانه الايسر من صدره) وأدرك أن الشعور الذي استشعره عند مرأى هؤلاء الأجانب كان شيئاً مغايراً تماماً لما كان قد شعر به لدى مواجهة «العدو» أثناء المناورات .

قاد رئيس العرفاء القوزاق بسرعة عائداً بهم الى أسفل المرتفع وأمرهم بالترجل وارتفع الى القمة عائداً الى الملازم . ودون الملازم بعض الملاحظات بقلمه في دفتر ملاحظات الميدان ، ثم أشار الى غريغوري بإصبعه :

ـ ميليخوف .

ـ سيدي .

مضى غريغوري الى الضابط ، وقد تحجرت ساقاه بعد طول الركوب ، فناوله الضابط ورقة مطوية وقال :

ـ لديك أفضل حصان . سلم هذه الى آمر الكتيبة . اسرع .

فوضع غريغوري الورقة في جيب صدره وعاد الى حصانه وهو يدس سير قبعته تحت ذقنه فيما كان يمضي ، ولبث الضابط يراقبه حتى امتطى حصانه ثم نظر الى ساعة معصمه .

كانت الكتيبة قد بلغت قرية كوروليوفكا حينما وصل اليها غريغوري بالتقرير ، وبعد أن قرأه العقيد أصدر امره الى مساعده الذي انطلق الى السرية الاولى .

تدفقت السرية الرابعة خلال كوروليوفكا ، وانتشرت بسرعة وانتظام فوق الحقول الواقعة وراء القرية وكأنها في ساحة تدريب . ووصل الملازم سيميونوف مع رجاله .

واصطفت السرية مراتب وارجحت الخيل رؤوسها لتنفض عنها ذباب الخيل ، وكانت ثمة جلجلة متواصلة تنبعث من الألجمة .

وبدت قرقعة السرية الأولى المارة خلال القرية عنيفة في سكون الظهيرة .

ومضى النقيب بلكوفنيكوف على حصانه المتوثب الى مقدمة المراتب والقى يدا على عقدة السيف ، بينما جمع الاعنة باحكام في اليد الأخرى ، امسك غريغوري أنفاسه ولبث يترقب الايعاز . وانبعثت قرقعة سنابك من الجناح الايسر فيما كانت السرية الاولى تتخذ موقعها .

استل الضابط سيفه من غمده ، فتوهجت شفرته كضوء أزرق .

ـ سرية!

وأمال سيفه ذات اليمين ، ثم ذات الشمال ، وأخيراً خفضه أمامه ، ولبث يمسك به فوق اذني الحصان .«الى الأمام في سيل منتظم» ـ هكذا فهم غريغوري هذه الاشارة الصامتة .

ـ بالرماح ، تهيؤوا! استلوا السيوف! الى الهجوم... سر!

قال الضابط ذلك خطفاً واطلق العنان لحصانه .

وتأوهت الارض كليلة تحت الضغط الشديد لمئات الحوافر . وما كاد غريغوري ، وهو في الصف الأمامي ، يهيء رمحه استعداداً حتى انطلق حصانه ، وقد جرفة فيضان متلاطم من الخيل الآخرى ، ومضى يعدو بسرعة متناهية . وكان هيكل الضابط الآمر أمامه يتوثب صاعداً هابطاً ، وصورته بارزة ازاء خلفية الحقل الرمادية . وكان ثمة شق من الأرض المحروثة السوداء يندفع باتجاهه بشكل لا يقاوم . اطلقت السرية الاولى صيحة راعشة مائجة ، فالتقطها السرية الرابعة . بدا وكأن الخيل تطير فوق الأرض ترفع ارجلها عالياً ثم تنزلها وتستعجل الارض تحتها . واستطاع غريغوري أن يتبين صوت اطلاق النار البعيد خلال الصفير الهادر في أذنيه . وأزت الرصاصة الاولى على علو شاهق فوقهم ، لتشق قبة السماء الزجاجية . فضغط غريغوري محور رمحه الحار الى جنبه حتى آلمه وعرقت راحته . وجعله صفير الرصاص المتطاير يخفض رأسه على رقبة حصانة المبللة ، فنفذت الى منخريه رائحة عرق الحيوان الحريفة ، ورأى ، وكأنه ينظر من خلال زجاجة منظارة مضببة ، حوافي الخنادق البنية اللون ، ورجالات ببزات رمادية يهرعون هاربين الى

البلدة . وانطلقت رشاشة ترشق القوزاق بلا كلل بصلية نصف دائرية من الرصاص الصافر ، فصار الرصاص يثير كرات الغبار المتنفشة من أمامهم وتحت حوافر الخيل .

أن العضو الذي كان يزيد من سرعة جريان الدم في صدرغريغوري قبل الهجوم ، قد تحول الآن الى حجر ، ولم يكن ليستشعر سوى الرنين في أذنيه والالم في أصابع قدمه اليسرى . وتجمدت الأفكار التي أطاشها الذعر ، فأضحت كتلة ثقيلة داخل رأسه .

وكان الضابط الخيال لياخوفسكي أول من سقط من حصانه . فداسه بروخور .

نظر غريغوري وراءه ، فانطبع في ذاكرته كسرة مما رأى : كشر حصان بروخور عن اسنانه بعد أن قفز فوق الضابط الصريع ، وهوى على الأرض طاوياً رقبته . وانقذف بروخور من سرجه بدفعة قوية ومثلما تحفر ماسة على زجاج حفرت في ذاكرة غريغوري ولمدة طويلة لثة حصان بروخور الوردية المكشورة الاسنان وبروخور الراقد على بطنه وقد داسته حوافر حصان القوزاقي الذي يليه . لم يسمع غريغوري اية صرخة ، ولكنه أدرك من وجه بروخور بفمه المشوه وعينيه الشبيهتين بعيني العجل الجاحظتين من محجريهما أنه يصرخ حتماً بصورة وحشية . وهوى آخرون ، خيلاً وقوزاقاً . وحدق غريغوري أمامه ، خلال غشاوة الدموع ، التي استدرتها الريح من عينيه ، في الكتلة الرمادية الهائجة من النمساويين الهاربين من الخنادق .

اضحت السرية الآن متفرقة ومبعثرة اشتاتاً بعد أن كانت قد انطلقت من القرية في سيل منتظم . وبلغ الذين كانوا في الطليعة الخنادق ، وكان غريغوري بينهم ، أما الآخرون فقد كانوا يتلكؤون في المؤخرة .

واطلق نمساوي طويل أبيض الحاجبين ذو قبعة مسدولة فوق عينيه ، النار على غريغوري بصورة تكاد تكون أفقية . ولفحت حرارة الرصاصة خد غريغوري . فضرب برمحه ، وهو يجر الاعنّه بكل قوته في نفس الوقت .

كانت الضربة شديدة حتى أن نصف الرمح اخترق جسم النمساوي . ولم ينتزع غريغوري الرمح بالسرعة الكافية . فأحس بيده اختلاجة مرتعشة ، ورأى النمساوي يقبض على الرمح وينشب اظفاره فيه ، وقد تقوس الى الوراء تماماً حتى لم يعد يرى منه سوى ذؤابة ذقنه غير المحلوق . فأسقط غريغوري الرمح تحت ضغط جسم النمساوي وتلمس بأصابع خدرة مقبض سيفه .

فرّ النمساويون الى شوارع البلدة . ومضت خيل القوزاق تشب فوق بزاتهم الرمادية .

وفي اللحظة الأولى بعد أن أسقط غريغوري رمحه ، ادار حصانه ، دون أن يعرف لذلك سبباً ، فرأى رئيس العرفاء ماراً به وقد انفرجت شفتاه عن أسنانه المكشرة . ضرب غريغوري حصانه ببطن سيفه ، فمضى به في الشارع وقد قوس رقبته .

كان ثمة نمساوي آخر يجري حذاء السور الحديدي لإحدى الحدائق ، وهو يترنح بلا بندقية ويده متشبثة بقبعته . رأى غريغوري قفاء رأسه وياقة قمصلته المبللة . فلحق به ، ودوّم سيفه فوق رأسه وقد أهاجه جنون الموقف . كان النمساوي يجري لصق السور الحديدي على الجانب الأيسر ، فكان من العسير على غريغوري أن يصرعه بسيفه . لكنه مال فوق سرجه وأمسك سيفه بوضع مائل ، وهوى به على صدغ الرجل . وبدون أن تند عن النمساوي صرخة ، ضغط بيده على الجرح واستدار وظهره الى السور . فأجتازه غريغوري وهو يكبح حصانه ، ثم استدار ، ورجع يخب على حصانه . كان وجه النمساوي المربع المشوه بالذعر أسود كالحديد الصلب . وكانت ذراعاه مدلاتين على جانبيه ، وشفتاه الرماديتان ترتعشان . كان السيف قد هوى على صدغه بضربة مائلة وسلخ بشرته فتدلت فوق وجنتيه كخرقة قرمزية . وكان الدم يسيل على بزته .

التقت عينا غريغوري بعيني النمساوي المصعوقتين رعباً ، كان الرجل

يتهاوى ببطء على ركبتيه ، ينبعث من بلعومه انين مقرقر . فضيق غريغوري عينيه ، وهوى بسيفه . فشطرت الضربة قحف رأسه الى نصفين . فبسط الرجل ذراعيه وهوى ، وارتطمت جمجمته المهشمة بعنف على حجر الطريق . فشب حصان غريغوري وحمله الى وسط الشارع وهو ينخر .

انبعث من الشوارع صوت طلقات متفرقة . ومر بغريغوري حصان مزبد يحمل قوزاقياً ميتاً ، علقت احدى قدميه بالركاب ، والحصان يجرجر الجسد المهشم المرضوض فوق الحجارة . ولم ير غريغوري سوى الخط الاحمر على البنطلون والقمصلة الخضراء الممزقة وقد تكومت من الجر فوق رأسه .

أحس غريغوري برأسه ثقيلاً كالرصاص . فانزلق من على حصانه وهزّ رأسه بشدّة . ومرّ به قوزاق من السرية الثالثة يجرون خيولهم . وحمل رجل جريح على معطف . واقتيد جمع من الأسرى النمساويين خبباً . كان الرجال يهربون كقطيع رمادي متزاحم ، وجزمهم ذوات النعال الحديدية تقرقع باكتئاب على حجارة الشارع . فرأي غريغوري وجوههم مثل كتلة هلامية ، بلون الطين ، وتخلّى عن أعنّة حصانه ومضى لسبب ما الى الجندي النمساوي الذي صرعه . كان الرجل مستلقياً حيث هوى الى جانب نقش السور الزخرفي المصنوع من الحديد ، وقد انبسطت راحته السمراء القذرة كما لو كان يستجدي . القى غريغوري نظرة على وجهه ، فبدا صغيراً ، يكاد يكون طفولياً ، على الرغم من الشارب المتدلي وسيماء العذاب (أتراه من المعاناة البدنية أو من ماض مؤلم ؟) المرسوم على فمه الفظ المشوه .

- هي ، انت! - صاح بذلك ضابط قوزاقي غريب وهو يمضي على حصانه وسط الشارع .

رفع غريغوري بصره الى قبعته المغبرة ، ومضى متعثراً الى حصانه ، كانت خطاه ثقيلة مترنحة ، وكأنه ينوء بحمل على ظهره لا يحتمل . كان الاشمئزاز والذهول يسحقان روحه . أمسك بالركاب في يده ، لكنه لبث وقتاً طويلاً لا يستطيع أن يرفع اليه قدمه الثقيلة .

٦

قضت الوجبة الاولى من القوزاق الاحتياط من تتارسكي والقرى المجاورة الليلة الثانية غب رحيلهم في قرية صغيرة . وتجمع رجال الطرف الادنى لتتارسكي منفصلين عن رجال الطرف الاعلى ، ولهذا أوى بيوتر ميليخوف وانيكوشكا وكريستونيا وستيبان استاخوف وايفان توميلين وآخرون في بيت واحد . وكان القوزاق قد استلقوا للنوم ناشرين بطانياتهم في المطبخ والغرفة الامامية ، وكانوا يدخنون سيكارة الليل الأخيرة . وجلس رب الدار يجاذبهم اطراف الحديث ، وهو عجوز هرم طويل كان قد خدم في الحرب التركية .

ـ اذن ، فأنتم ماضون الى الحرب ، أيها الجنود ؟

ـ اجل أيها الجد ، ماضون الى الحرب .

ـ لن تكون مثلما كانت الحرب التركية ، لا ، لا أظن ذلك . فلديكم أسلحة مغايرة الآن!

فقبع توميلين مغضباً ، دون أن يعرف أحد ممن :

ـ ستكون مثلها تماماً . جهنمية كتلك تماماً . مثلما قتلوا الناس آنئذ ، سيكررون ذلك هذه المرة ، تماماً .

ـ هذا كلام أحمق ،ايها الشاب . ستكون حرباً من طراز مختلف .

فأيد ذلك كريستونيا ، متثائباً في كسل وهو يسحق سيكارة بظفره :

ـ ستكون مغايرة لاشك .

ـ سنقاتل بعض الشيء ـ وتثاءب بيوتر ميليخوف ، ورسم علامة الصليب على فمه ، وغطى رأسه بمعطفه الكبير .

فقال العجوز :

ـ اولادي ، اسألكم شيئاً واحداً . اسألكم جاداً ، ولكم أن تتذكروا ما أقول .

ازاح بيوترطرف معطفه وأرهف سمعه . استطرد العجوز يقول :

ـ تذكروا امراً واحداً : اذا اردتم أن ترجعوا من الصراع المميت أحياء وتنجوا بجلودكم ، عليكم أن تراعوا قانون الانسانية .

فتساءل ستيبان مبتسماً في ريبة : «أى قانون ؟» . وكان قد استأنف الابتسام من جديد منذ أن سمع بالحرب فقد أيقظته الحرب ، وخفف من قلقه وألمه ماكان سائداً من قلق وألم .

ـ هوذا القانون : لاتأخذوا أمتعة غيركم . هذا اولاً . وبما انكم تخافون الله ، فلا تسيؤوا الى أيه امرأة . فهذا ثانياً وبعد ذلك ، عليكم أن تعرفوا ادعية معينة .

فتململ القوزاق ، وتكلموا جميعاً في وقت واحد :

ـ الارجح أننا سنفقد حاجياتنا قبل الحصول على حاجيات الآخرين!

ـ ولم علينا الا نمس ايه امرأة ؟ أنت لاتقدر ان ترغمها ، ولكن هب أنها كانت راغبة ؟

ـ من الصعب أن أحيا بلا امرأة .

ـ كن على ثقة من ذلك!

ـ ماذا عن الادعية ؟

فركز العجوز عليهم عينيه عابساً ، وأجاب :

ـ عليكم الا تمسوا امرأة . ابداً! إن لم تستطيعوا كبح جماح أنفسكم فسوف تفقدون رؤوسكم ، أو ستجرحون . ستندمون فيما بعد حيث لا ينفع ندم . سأتلو عليكم الأدعية . لقد خضت غمار الحرب التركية ، والموت يتعقبني كخرج السرج ، لكنني اجتزتها حياً بفضل هذه الأدعية .

ومضى الى الغرفة الاخرى ، وراح ينقب تحت الايقونة ثم عاد بقصاصة ورق بالية مخرقة وقال :

ـ انهضوا الآن واكتبوها! سترحلون من جديد قبل صياح الديك غداً ، أليس كذلك ؟

ونشر الورقة على المنضدة وسواها براحة يده وتركها . كان انيكوشكا

أول من نهض . وتلاعبت على وجهه الانثوي الناعم الظلال التي كان الضوء الخفّاق يلقيها عليه . وقعد الجميع الآ ستيبان ودوّنوا الادعية . ولف انيكوشكا الورقة التي استعملها وربطها الى خيط الصليب في صدره . فسخر منه ستيبان :

ـ تبني عشاً مريحاً للقمل ، لم يكن خيط الصليب ملائماً لتكاثره فتصنع له بيتاً ورقياً ممتازاً!

فقاطعه العجوز متجهماً :

ـ ايها الشاب ، اذا كنت لاتؤمن ، فأمسك لسانك! لا تكن حجر عثرة أمام الآخرين ولا تسخر من الايمان . إنها لخطيئة .

فابتسم ستيبان ، غير أنه لاذ بالصمت وسأل انيكوشكا العجوز اذ سعى الى تخفيف تجهمه :

ـ يتحدث الدعاء عن رماح الدببة واعواد السهام . فما معنى هذا ؟

ـ هذه الأدعية كتبت منذ زمن بعيد . فحصل عليها جدي الراحل من جده . في الأزمنة الغابرة قاتل الرجال بأعواد السهام ورماح الدببة .

كانت الأدعية التي دونها القوزاق ثلاثة ، وكان بمستطاع المرء ان يختار منها مايشاء .

دعاء ضد الأسلحة

فليباركنا الله . على الجبل صخرة بيضاء تشبه حصاناً . وكما لا ينفذ الماء في الصخرة ، فعسى ألا تنفذ الرصاصة أو السهم فيّ أنا عبد الرب ، أو في رفاقي ، أو في حصاني . وكما ترتد المطرقة عن السندان ، فلترتد الرصاصة عنّي . وكما يدور حجر الرحى ، فليدر السهم فلا يمسني . وكما تكون الشمس والقمر متألقين ، فلأكن أنا عبد الرب قوياً . خلف هذا الجبل توجد قلعة ، سأغلق هذه القلعة وأرمي المفتاح في البحر . سأضعه تحت الصخرة البيضاء المسماة« ألطور » لايمكن أن يراها سحرة أو ساحرات ، ولارهبان أو راهبات ، وكما أن مياه المحيط لاتنضب ،

وذرات الرمل الأصفر لايمكن أن تحصى ، فعسى الا أصاب ، أنا عبد الرب ، بأذى . باسم الأب ، والابن ، والروح القدس . آمين .

دعاء المعركة

يوجد محيط عظيم ، وفي هذا المحيط العظيم توجد صخرة بيضاء ، «ألطور» وعلى تلك الصخرة يوجد رجل صخري ذو قامة قوية . غطني ، أنا عبد الرب ، ورفاقي بالصخرة من الشرق الى الغرب ، ومن الأرض الى السماء . احمني من السيف والحسام الحادين ، من فيصل الفولاذ ومن رمح الدببة ، من الخنجر ، مسقياً وغير مسقي ، من السكين والفأس ، ومن قذائف المدفع ، من الطلقات المصنوعة من معدن الرصاص ، من الأسلحة الفتاكة ، من جميع السهام المذيلة بريش العقبان والبجع والاوز والرهو والغربان ، في جميع المعارك مع الأتراك ، وأهل القرم ، والنمساويين ، والتتار ، والليتوانيين ، والالمان ، والكالميكيين . ايها الآباء القديسون والجبروت السماوية ، احموني ، أنا عبد الرب . آمين .

الدعاء وقت الهجوم

أيها الحاكم الأعلى ، ويا أم الرب المقدسة ، وياسيدنا عيسى المسيح . بارك ياسيدي ، خادمك الداخل في المعركة ، ورفاقي الذين معي . لفهم بالسحاب ، واحمهم بصقيعك الحجري السماوي . ياديمتري سالونيكا القديس ، دافع عنّي ، أنا عبد الرب ، ورفاقي من كل الجهات الأربع . لاتدع الأشرار يطلقون الرصاص ، ولاأن يطعنوا بالرمح ولا أن يضربوا بالبلطة ، ولا أن يلطموا بأخمص البلط ، ولا أن يشجوا بالفأس ، ولا أن يقطعوا أو يطعنوا بالسيف ولا أن يخزوا أو يجرحوا بالسكين ، لا الكبير منهم ولا الصغير ، لا الاسمر ولا الأسود ، لا الزنديق منهم ولا الساحر ، ولا أي مشعوذ بالسحر . أمامي الآن كل شيء ، أنا عبد الرب ، اليتيم الفاني . في البحر ، في المحيط ، وعلى جزيرة«بويان» يقوم عمود حديدي ، يتكيء على عصاة حديدية ، وهو يأمر الحديد والفولاذ والرصاص والصفيح وكل

أنواع التـرباس : «رح ، ايهـا الحـديد الى أمك الارض بـعيـداً عن عبـد الرب وعن رفـاقي وحصـاني . فـاذهبي يا أعـواد السـهـام الى الغـابـة ويا ايهـا الريش الى أمك الطير ، ويا غراء الى السمك» . احمني ، أناعبد الرب ، بدرع ذهبي ، من الحديد ومن الرصاص ، من قذيفة المدفع والعتاد ، من الرمح والسكين ، فعسى أن يكون جسدي أقوى من السلاح . آمين .

خبأ القوزاق الادعية تحت قمصانهم ، وعقدوها بالايقونات الصغيرة التي باركتهم امهاتهم بها ، وبالصرر الصغيرة التي تضم تراب أرضهم . لكن الموت اجتاح الجميع سواسية ، أولئك الذين لم يحملوا الأدعية والذين حملوها . وتعفنت جثثهم في حقول غاليسيا وبروسيا الشرقية ، في جبال الكربات ورومانيا ، وفي كل مكان خفق فيه اللهب الاحمر للحرب وانطبعت على ترابه آثار حوافر خيل القوزاق .

٧

جرت العـادة أن يجند قـوزاق القـصبـات العليـا من الـدون ، بمـا فيـهـا فييشنسكايا ، في كتيبتي القوزاق الحادية عشرة والثانية عشرة وفي حرس الاتمان الخاص ، ولكن لسبب مانُسبّ قسم من وجبة١٩١٤ الى كتيبة قوزاق الدون الثـالثة التي كـانت تتـألف بصورة رئيـسيـة من قوزاق قـصبـة أوست ـ ميدفيدتسكايا . وبين هؤلاء كان ميتكا كورشونوف .

عسكرت كتيبة قوزاق الدون الثالثة في فيلنو مع بعض الوحدات من فرقة الخيـالة الثـالثة . وذات يوم من أيام حزيران خرجت مختلف السـرايا من المدينة لتتسلم مقراتها في الريف .

كان النهار مـعتمـاً الا أنه دافىء . وتجـمـعت السحب السـارية في السـمـاء

فأخفت الشمس وراءها . وكانت الكتيبة تسير وفق مسيرة الرتل ، وفرقة الكتيبة الموسيقية تجلجل في المقدمة ، بينما تجمع الضباط بقبعاتهم الصيفية الخفيفة وقمصلاتهم الخفيفة في المؤخرة ، وقد علتهم سحابة من دخان السكاير .

وعلى جانبي الطريق كان الفلاحون ونساؤهم اللابسات حللاً بهيجة يقطعون العشب ، ويتوقفون لدى مرور القوزاق ليتأملوا ارتالهم . وعرقت الخيل من الحر ، وظهر بين سيقانها زبد مصفر ، ولم يخفف من الحرارة ذلك النسيم الخفيف الهاب من الجنوب الشرقي ، بل زاد من شدة الحر اللاهب .

وكانوا قد قطعوا نصف المسافة تقريباً واشرفوا على قرية صغيرة حينما خب مهر صغير من وراء سياج ، واذ رأى الحشد الهائل من الخيل اطلق صهيلاً طويلاً وجاء يتوثب أمام السرية الخامسة . وكان ذيله الصغير ذو الشعر الكث مرفوعاً الى جانب واحد . وانتشر الغبار من حوافره البديعة على الحشيش المُداس . ومضى يتوثب حتى وصل الى الرعيل الاول ، ودس انفه بغباء في حقو جواد رئيس العرفاء ، فجمح الجواد ، لكنه أشفق على المهر كما يبدو ولم يرفسه .

صرخ رئيس العرفاء ملوحاً بسوطه : «تنح عن الطريق ، يامخبول!»
وضحك القوزاق اذ سرهم المشهد المألوف الذي ذكرهم بالأهل والبيت . ثم حدث شيء غير متوقع . اذ جعل المهر يشق طريقه بين صفوف القوزاق ، فتبعثر الفصيل وفقد تنظيمه المنسق . وحرنت الخيل وامتنعت على راكبيها . انحشر المهر بينها وحاول أن يعض الحصان القريب منه .

وجاء آمر السرية يعدو على حصانه :

ـ مااللذي يجري هنا ؟

كانت الخيل تنخر وتلقي نظرات جانبيه على المهر الصغير الذي طاش صوابه ، بينما حاول القوزاق المتبسمون أن يبعدوه بسياطهم . وكان الرعيل قد شملته فوضى كاملة فيما كان الآخرون يضغطون عليه من الخلف ، وكان بالإمكان رؤية ضابط الرعيل الهائج منطلقاً من مؤخرة الرتل .

هدر آمر السرية وهو يدير حصانه صوب الحشد الحاشد :
ـ ما معنى كل هذا ؟
ـ انه مهر...
ـ حَلّ بيننا .
ـ من الصعب التخلص منه ، هذا الشيطان!
ـ الفحه بالسوط ، ولاتدلله!
وحاول القوزاق ، وهم يبتسمون بحيرة ، أن يشدوا اعنّتهم ويكبحوا جماح الخيل الهائجة .
ـ يا رئيس العرفاء! يا آمر السرية ، ماالذي يجري ، بحق الشيطان ؟ نظم رعائلك! لاينقصنا الا هذا!
وتنحى آمر السرية جانباً . وانزلق ساقا حصانه الخلفيتان في منخفض جانب الطريق . فجعل يهمز حتى تسلق الحصان حافة المنخفض الاخرى المغطاة بنبات رجل الاوز واقحوان أصفر . وعلى مبعدة من هناك كانت مجموعة الضباط قد توقفت . وكان رأس العقيد ملقى الى الوراء وهو يشرب من قارورة ، ويده تحط على حنو السرج بتحنان أبوي .
فرق رئيس العرفاء الرعيل وابعد المهر عن الطريق وهو يسب ويشتم هائجاً . ثم انتظم الرعيل من جديد وجعلت مائة وخمسون زوجاً من العيون تراقب رئيس العرفاء منتصباً على ركابيه فيما كان يطارد المهر . غير أن المهر ظل يحرن ويحاذي جواد رئيس العرفاء العملاق ، ويتوثب منفلتاً فلم يستطع رئيس العرفاء أن يصل بسوطه الى ظهره ، فكان سوطه لاينال غير ذيله الشبيه بالفرشاة ، والذي ما أن يهوي تحت لفح السوط حتى يرتفع في اللحظة التالية ويلوح في الريح بوقاحة .
كان جميع من في السرية يضحك ، بمن فيهم الضباط . حتى أن وجه الرئيس العبوس انثنى بما يشبه ابتسامة معقوفة .
كان ميتا كورشونوف في الصف الثالث من الرعيل القيادي الى جانب

ميخائيل ايفانكوف وكوزما كروتشكوف ، وكلاهما ينحدران من القصبات العليا للدون . وكان ايفانكوف صامتاً طول الوقت ، وهو رجل عريض المنكبين والوجه ، أما كروتشكوف ، الذي كان قوزاقياً مكوّر الكتفين ، مجدور الوجه قليلاً ويكنّى بـ«الجمل» ، فقد كان لايفتأ يشاكس ميتكا . وكان كروتشكوف هذا قوزاقياً« قديماً »اي قوزاقي في عامه الأخير من الخدمة العسكرية ، واستناداً الى قواعد الكتيبة غير المكتوبة ، كان يسهم مع كل القوزاق«القدامى » الاخرين في تعقب الفتيان واصدار الأوامر اليهم والحكم عليهم «بالجلد » لأي ذنب تافه . وكانت العقوبة المقررة لقوزاقي من وجبة ١٩١٣ ثلاث عشرة «جلدة» وللقوزاقي المجند في١٩١٤ اربع عشرة« جلدة» وكان العرفاء والضباط يشجعون هذا الاسلوب على أساس انه يعزز في القوزاقي الاحترام ، لا للرتبة حسب ، ولكن للسن أيضاً .

كان كروتشكوف ، الذي أضحى نائب عريف في المدة الأخيرة ، جالساً على سرجه محدودب الظهر ، كالطائر . وقد ضيق عينيه باتجاه غمامة رمادية منتفخة ، وسأل ميتكا وهو يحاكي لهجة آمر السرية ، النقيب بوبوف :

- آه... اخبـــر...ر...رني ، يا كـورشـــونوف ، مــاذا لو .و...ســـمي آمـر سريــ...يـ .يتنا ؟

فأضفى ميتكا على لهجته سمة الاحترام وهو الذي طالما عرف مذاق السوط لعناده وكراهيته للطاعة .

- النقيب بوبوف ، يانائب العريف!

- ماذا ؟

- النقيب بوبوف!

- ليس هذا ما أريد معرفته . قل لي ماذا نسميه نحن القوزاق فيما بيننا ؟

فغمز ايفانكوف محذراً ميتكا وابتسم ابتسامة عريضة . تلفت ميتكا ورأى النقيب راكباً خلفهم تماماً .

ـ هيا اجبني!

ـ انه يدعى النقيب بوبوف ، يانائب العريف!

ـ اربع عشرة جلدة لك ، اجبني ، أيها الكلب!

ـ لا أعلم ، يانائب العريف .

فقال كروتشكوف ، متحدياً بصوته الطبيعي :

ـ حينما نصل الى المعسكر ، سأسلخ عنك جلدك ، أجب عن سؤالي!

ـ لا اعلم .

ـ الا تعلم الكنية التي نطلقها عليه ، ياوجه الفأر ؟

وتسمع ميتكا الى الخطو المتأني لحصان الرئيس وراءهم ولزم الصمت .

فتجهم كروتشكوف متهيجاً وصاح :

ـ حسناً ؟

وانفجرت قهقهة مكتومة من الصفوف الخلفية . فلم يدرك كروتشكوف سبب الضحك وظن أن القوزاق يتضاحكون منه ، فزمجر قائلاً :

ـ حذار يا كورشونوف! سأعطيك خمسين من خير الجلدات حينما نبلغ المعسكر!

فهز ميتكا كتفيه باستخذاء وقال :

ـ الاوز الاسود .

ـ تلك هي .

ـ كروتشكوف! ـ جاء صوت من الخلف .

فجفل نائب العريف كروتشكوف ، القوزاقي« القديم » ، فوق سرجه واتخذ جلسة الاستعداد .

ـ ما لعبتك ، ايها الوغد ؟ انت ماذا تلقن هذا القوزاقي الشاب ؟

طرف كروتشكوف ، وغمرت خديه حمرة أرجوانية . وانبعث الضحك من الصفوف الخلفية .

ـ من ذا الذي علمته في العام الماضي ؟ على من كسرت هذا الظفر ؟ ـ

ومد النقيب ظفر خنصره الطويل المدبب تحت انف كروتشكوف ـ لاتدعني اسمع هذا ثانية ، قط ! اتفهم ، يارجل ؟

ـ اجل ، ياصاحب السعادة .

وانثنى النقيب عن الصف كي تمر السرية . اسرعت السريتان الرابعة والخامسة سيرهما فأمر النقيب سريته أن تسرع أيضاً .

سوى كروتشكوف سير كتفه وهو يتصبب عرقاً من الضحك :

ـ كان وراءنا . سمع كل شيء . لابد أنه خمن عم كنتما تتحدثان .

ـ كان عليك أن تغمز لي ، يابليد .

ـ لست بحاجة .

ـ لست بحاجة . ها ؟ أربع عشرة على العري .

لدى وصول الكتيبة الى هدفها ، وزعت السرايا على ضياع المنطقة . وكان القوزاق يقطعون البرسيم وعشب المروج لأصحاب الارض أثناء النهار ، وفي الليل يرعون خيلهم المقيدة في الحقول المخصصة لهم ، ويلعبون الورق ويروون القصص الى جانب دخان نيران المعسكر . وقد تقرر أن تقيم السرية السادسة في ضيعة كبيرة تعود لمالك أرض بولندي . فكان الضباط يشغلون المنزل ويلعبون الورق ويسكرون ويوجهون اهتمامهم الى ابنة الوكيل ، بينما نصب القوزاق خيمهم على مبعدة ثلاث فرستات من المنزل . وكان الوكيل يخرج كل صباح راكباً عربة خفيضة من المعسكر . وكان السيد الممتلىء الوقور ينزل من العربة ويحيي القوزاق بتلويحه لا تتغير من قبعته البيضاء ذات الذؤابة اللامعة .

كان القوزاق ينادون عليه : «تعال واقطع العشب معنا ، ايها السيد! فسينفض عنك ذلك بعض شحمك . خذ المحش واقطع وإلا سيشل جسمك» . فيبتسم الوكيل بفتور ، ويمسح رأسه الاصلع بمنديله ، ويمضي مع رئيس العرفاء ليحدد لهم القسم التالي من العشب الذي ينبغي قطعه .

وفي منتصف النهار يصل مطبخ الميدان . فيغتسل القوزاق ويذهبون لاستلام طعامهم .

كانوا يأكلون في صمت ولكنهم يكثرون الاحاديث في فترة الاستراحة القصيرة بعد الغداء .

ـ شيء عفن ، عشب هذه المنطقة . لا يقارن بالسهب .

ـ مع ذلك ، لا توجد حلفاء كثيرة .

ـ لقد اتموا الحش الآن في ديارنا .

ـ عما قريب سنتم أيضاً . هلال جديد بالأمس ، ستمطر .

ـ هذا البولندي عجوز لئيم . كان بمقدوره أن ينفحنا قنينة على اتعابنا .

ـ هو... هو! إنه قمين لنهب مذابح الكنيسة ان اراد قنينة لنفسه .

ـ يا أولاد ماالحكمة في أن المرء كلما زاد ماله ، زاد جشعه ، ها ؟

ـ سل القيصر عن ذلك .

ـ من رأى ابنة رب البيت ؟

ـ ماذا عنها ؟

ـ غانية يغطيها لحم كثير!

ـ آي...

ـ سألتهمها بكل حشاياها .

ـ لاأدري كم هو صحيح ، لكنهم يقولون بأنها تلقت عروضاً بالزواج من العائلة المالكة .

ـ لن ترضى قطعة لدنة مثلها برجل عادي ، أليس كذلك ؟

ـ سمعت شائعة ، ياأولاد ، بأن استعراضاً فخماً ينتظرنا عمّاقريب .

ـ ماذا كنت اقول ، ان لم تجد قطة ما تفعله ، فإنها سوف...

ـ كفاية ، ياتاراس!

ـ أتراك تعطينا نفساً من سيكارتك ، ياولد ؟

ـ أنت مثل شحاذ في فناء الكنيسة .

ـ انظروا ، ياأولاد ، إن مبسم فيدوت جيد لكن سيكارته لا تنفع .
ـ لقد دخنها واحالها رماداً .
ـ انظر ثانية ، يارجل ، انها لم تزل متوهجة كأمرأة .

وانبطحوا على بطونهم ، يدخنون . كانت ظهورهم العارية حمراء من لفح الشمس . في جوارهم كان خمسة قوزاق« قدامى » يستجوبون مجنداً مستجداً :

ـ من أين أنت ؟
ـ يلانسكايا .
ـ من مناجم الملح . ها ؟
ـ اجل .
ـ وكيف يجرون عربات الملح على دروبكم ؟

وعلى مبعدة قليلة ، كان كروتشكوف مستلقياً على مرشحة حصان ، وهو يفتل بفتور شاربه الخفيف حول اصبعه .

ـ بالخيل .
ـ وبأي شيء آخر ؟
ـ بالثيران .
ـ وعلى أي شيء يحملون السمك من القرم ؟ على صنف معين من الثيران ، على ظهورها سنامان وتأكل العوسج . ماذا تدعى ؟
ـ جمال .
ـ هاو ـ هاو ـ هاو!

ونهض كروتشكوف متكاسلاً وسار باتجاه المستجد المذنب ، وهو يحدب كتفيه الشبيهين بكتفي الجمل ، ويمد عنقه الأسمر الزعفراني بجوزته الكبيرة .

ـ احن ظهرك! ـ قال ذلك آمراً وهو ينزع نطاقه .

في غسق أمسية حارة من أماسي حزيران ، تحلق القوزاق حول نيران المعسكر وجعلوا يغنون :

سار قوزاقي الى أرض نائية
ممتطياً حصانه عبر السهل
وترك قريته الى الأبد

وينشج صوت صادح ، فضي الرنين ، وحزين ، بينما تعبر الأصوات الجهيرة عن حزن مخملي عميق :

لن يعود ثانية

وهنا يرتفع الصوت الصادح الى طبقة من الحزن أعلى :

عبثاً شخصت عروسه القوزاقية الشابة
صوب الشمال ، كل صباح ومساء
تنتظر ، يحدوها الأمل في أن حبيبها القوزاقي
سيرجع من الارض التي لن يرحل عنها .

وتبنت الأغنية أصوات عديدة ، وصارت قوية منعشة ، كالجعة البيتية .

لكن خلف التلال حيث يجثم الثلج عميقاً
وتنشرح حقول الجليد وتهب الزوابع
حيث تنحني متجهمة ، أشجار الصنوبر والشربين
ترقد عظام القوزاقي تحت الثلج

ومضت الاصوات تحكي قصة حياة القوزاقي البسيطة ، يدعمها الصوت الصادح بنبراته المرتعشة ، مثل قبرة حائمة فوق أرض نيسانية ، ذائبة الجليد :

وبينما رقد القوزاقي يلفظ أنفاسه الأخيرة

استصرخ وراح يتوسل
ان تكوم فوقه رابية على قبره

وتندمج الاصوات الجهيرة مع الصوت الصادح :

حيث تلوح الى الابد
شجرة بندق من أرض موطنه ، بأزهار زاهية

وحول نار معسكر أخرى ، كان الجمع أصغر والأغنية تنساب في نغم مغاير :

من بحر آزوف العاصف
تمخر السفن في الدون صعداً
لأن اتمانا شابا قد عاد
الى موطن أجداده

وحول نار ثالثة ، كان راوية السرية يغزل الحكايات وهو يسعل من الدخان . وكان القوزاق ينصتون باهتمام لا ينثني . الا في بعض الاحيان حين كان البطل يتخلص بمهارة من مكيدة تدبرها له الروح الشريرة ، فكانت يد أحدهم ، تتوهج بيضاء في ضوء النار ، وهي تنصفق على ساق جزمته ، أو يشهق صوت غليظ مبحوح باستحسان جذل . ثم تمضي نبرات الراوية المنسابة المتواصلة .

... بعد اسبوع من وصول الكتيبة الى مقرها الريفي ، ارسل آمر السرية في طلب الحدّاد ورئيس العرفاء .

ـ كيف حال الخيل ؟

ـ ليست سيئة جداً ، ياصاحب السعادة ، في حالة طيبة ،

فبرم النقيب شاربه الأسود الذي كان سبب كنيته وقال بصوته الصريري :

ـ آمر الكتيبة اصدر التعليمات لتبييض جميع الركائب والشكائم . سيجري استعراض امبراطوري للكتيبة . فليصقل كل شيء حتى يتوهج ، السروج وبقية العدة . على القوزاق أن يصبحوا مشهداً يسر العين . متى يمكنك أن تتم ذلك ؟

نظر رئيس العرفاء الى الحداد ، ونظر الحداد الى رئيس العرفاء . ثم نظرا معاً الى النقيب . واقترح رئيس العرفاء :

ـ مارأيكم بيوم الأحد ، ياصاحب السعادة ؟ ـ ولمس باصبعه باحترام ذؤابة شاربه المبيضة مما تناثر عليها من رماد .

فأضاف النقيب متوعداً : «احرص على أن يكون الاحد!» وصرفهما معاً .

بدأت الاستعدادات في نفس اليوم . وساهم ايفانكوف ابن حداد السرية ، وهو نفسه حداد ماهر ، في تبييض الركائب والشكائم . وقام القوزاق بحس خيلهم ، وتنظيف أعنتها ، وصقل النضاء والأجزاء المعدنية الأخرى من عدة الخيل بحجر الجلي . وما ان حلت نهاية الاسبوع حتى كانت الكتيبة تشع كقطعة نقود جديدة من فئة العشرين كوبيكا ، كان كل شيء يتألق من الصقل ، من حوافر الخيل الى وجوه القوزاق . وفي يوم السبت فتش الكتيبة آمرها وشكر الضباط والقوزاق على استعداداتهم الحماسية ومظهرهم الرائع .

مر الشريط اللازوردي لأيام تموز وتلاشى . كانت خيل القوزاق في أحسن حال ، سوى أن القوزاق أنفسهم كانوا برمين يقلقهم وسواس الحيرة . فلم تند همسة واحدة عن الاستعراض الامبراطوري . ومر الاسبوع في حديث لاينصرم واستعداد لاينتهي . ثم جاء أمر من الكتيبة ، كصاعقة من السماء ، يقضي بالعودة الى فيلنو .

بلغوا المدينة مساء . وسرعان ما صدر أمر ثان الى السرية . كان على الصناديق أن تجمع وتخزن في المستودع ، وأن تجري الاستعدادات لانتقال آخر محتمل .

ـ يا صاحب السعادة ، فيم كل هذا ؟

هكذا كان القوزاق يتلمسون الحقيقة من ضباطهم . وكان الضباط يهزون اكتافهم . لأنهم كانوا أنفسهم على استعداد لبذل الكثير في سبيل أن يعرفوا .

ـ لست أدري .

ـ هل ستجري مناورات في حضور جلالته ؟

ـ ليست لدى انسان فكرة عن الأمر ، بعد .

هكذا كانت أجوبة الضباط لما فيه سرور القوزاق . ولكن ، في التاسع عشر من تموز ، أفلح مراسل آمر الكتيبة أن يهمس في أذن صديق له وهو قوزاقي في السرية السادسة يعمل في الاصطبل :

ـ انها الحرب ، ياولدي!

ـ أنت تكذب!

ـ وحق الرب ، لكن اصمت ولا تفه بشيء!

وفي الصباح التالي صفت الكتيبة على هيئة سرايا خارج الثكنات ، في انتظار الآمر .

كان النقيب بوبوف يركب حصاناً بديعاً على رأس السرية السادسة ، ويده اليسرى تمسك بالعنان يغطيها قفاز ناصع البياض . وكان حصانه يمسح أنفه بعضلات صدره المفتولة ، وهو يقوس عنقه .

وجاء الآمر من وراء ركن بنايات الثكنة ممتطياً حصانه الى مقدمة الكتيبة ، وادار الحيوان جانباً . وسحب مساعد الآمر منديله ، وهو يمد خنصره بأناقة ، ليمسح أنفه ، ولكن الوقت لم يسمح له بإنجاز العملية . فقد قذف العقيد صوته في الصمت المتوتر :

ـ ايها القوزاق!

وحدث كل امرئ نفسه : «هاهي قادمة!» وأبقاهم التوتر مثل نابض فولاذي . وكان حصان ميتكا يراوح من حافر الى حافر ، فكان ميتكا يضرب

خاصرته بكعبه مغتاظاً . والى جانبه كان ايفانكوف ممتطياً حصانه بلا حراك ، وهو يستمع وفمه ذو الشفتين الشبيهتين بشفتي الأرنب فاغر الفم يكشف عن صف داكن من الأسنان غير المستوية . وكان كروتشكوف خلفه ، محدودب الظهر متجهماً . ثم لابين الذي كان يحرك أذنيه الغضروفتين كالحصان ، بينما كان بالمستطاع رؤية التخطيط المتعرج لجوزة عنق شيكولوف الحليقة النظيفة ، خلف لابين .

ـ المانيا أعلنت الحرب علينا...

وجرت همسة على امتداد الصفوف وكأن دفقة من الريح قد تموجت عبر حقل من الشوفان الناضج الكث السنابل . وشق الهمس صهيل حصان فاستدارت عيون جزعة وأفواه فاغرة باتجاه السرية الأولى حيث تجرأ الحيوان على الصهيل .

وقال العقيد مزيداً من الكلام . كان ينتقي الكلمات بتأن ، ساعياً لاستثارة الشعور بالعزة الوطنية . لكن الصورة التي تراءت للقوزاق الالف لم تكن لبيارق أجنبية حريرية تهوي تحت أقدامهم ، بل لحياتهم اليومية هم وقد حلت فيها البلبلة ، لزوجاتهم وأطفالهم وحبيباتهم ، وللحبوب التي لم تحصد ، وللقرى اليتيمة التي خيم عليها الغم .

«في غضون ساعتين سنركب القطار...» تلك الفكرة الوحيدة التي نفذت الى أذهانهم جميعاً .

وبكت زوجات الضباط في مناديلهن ، وكن متجمهرات على مسافة قريبة . وحمل الملازم خوبروف على ذراعيه تقريباً زوجته البولندية الشقراء الحامل وتفرق القوزاق متجهين الى مباني الثكنة .

سارت الكتيبة الى القطار ، تنشد . كانت أصوات القوزاق تطغى على الجوق الموسيقي ، فانكفأ هذا في صمت مرتبك . وكانت زوجات الضباط يركبن عربات مستأجرة ، وحشد ملون يتزاحم على الأرصفة ، وحوافر الخيل تثير سحابة من الغبار . وانطلق المنشد الرئيسي بأغنية قوزاقية مبتذلة وهو

يتضاحك من حزنه وحزن الآخرين ، نافضاً كتفه الأيسر بحيث تراقص سير كتفه الأزرق بصورة محمومة ، ومضى القوزاق بأغنيتهم الى شاحنات المحطة الحمر ، وهم يدغمون الكلمات ، الواحدة بالأخرى ، عن عمد ، فصارت شتائم مسموعة على وقع الحوافر المنعّلة حديثاً . وجرى الى المنشدين مساعد الآمر ، وقداكتسى وجهه لوناً ارجوانياً من الضحك والشعور بالحرج . وغمز المنشد الرئيسي متهكماً الى جميع النساء اللواتي كن يودعنهم ، ولم يكن الذي سال على خديه البرونزيتين الى طرفي شاربيه الاسودين عرقاً ، بل العصارة المُرّة لنبات الشيح .

وعلى الخط الحديدي ، اطلقت الماكنة خواراً محذراً مستعداً للسفر .

* * *

قطارات... قطارات... قطارات لاحصر لها .

على امتداد شرايين ، فوق خطوط السكك المتجهة صوب الحدود الغربية ، كانت روسيا الحائرة المائجة تضخ دمها المتسربل بمعاطف رمادية .

٨

في بلدة تورجوك الصغيرة وزعت الكتيبة الى سراياها الاعتيادية . وبناء على تعليمات هيئة أركان الفرقة وضعت السرية السادسة تحت أمرة فيلق المشاة الثالث ، وواصلت السفر الى بليكاليبه حيث أقيمت نقاط الحراسة .

كانت الحدود ماتزال تحت حراسة قطعات التخوم ، وكانت وحدات جديدة من المشاة والمدفعية تنقل الى هناك . وفي السابع والعشرين من تموز أرسل آمر السرية في طلب رئيس العرفاء وقوزاقي يدعى استاخوف ، من الرعيل الاول . وعاد استاخوف الى الرعيل عند المغرب ، في اللحظة التي

كان فيها ميتكا كورشونوف عائداً بحصانه بعد ورده . فنادى عليه .

ـ أهذا أنت ، يااستاخوف ؟

ـ نعم ، هو أنا . أين كروتشكوف والاولاد ؟

ـ هناك في الكوخ .

ودلف استاخوف الى الكوخ ، وهو قوزاقي ضخم أسمر ، محاوصاً عينيه كأنه لم يقو على الرؤية . والى المنضدة كان شيكولكوف يخيط عناناً مقطوعاً على ضوء فانوس . وكان كروتشكوف واقفاً حذاء الموقد ويداه إلى ظهره وهو يغمز لايفانكوف ويومىء الى صاحب الكوخ البولندي الذي استلقى على سريره متورم الجسم بالحبن* .

كانت ثمة نكتة قد تبودلت بينهما ، وما فتئت وجنة ايفانكوف تهتز ضحكاً .

ـ غدا ، يا أولاد ، سنخرج مع انبلاج الصبح الى نقطة أمامية للحراسة .

سأل شيكولكوف ناظراً اليه وافلت من يديه قطعة جلد :

ـ الى أين ؟

ـ الى بلدة ليوبوف .

فتساءل ميتكا الذي دخل في تلك اللحظة ووضع الجرّة عند الباب :

ـ من سيذهب ؟

ـ شيكولكوف ، كروتشكوف ، رفاتشيف ، بوبوف ، وايفانكوف .

ـ وماذا عني ؟

ـ أنت تبقى هنا ، ياميتكا .

ـ طيب ، اذن فليأخذكم الشيطان جميعاً!

انتزع كروتشكوف نفسه من الموقد وسأل صاحب الكوخ المضيف ، وهو يشد نفسه حتى قرقعت عظامه :

* الحبن : مرض يصيب الجسم فيجتمع فيه سائل مائي . المترجمون

ـ كم يبعد هذا المكان ؟
ـ أربعة فرستات .
فقال استاخوف وهويجلس على مصطبة : «قريب جداً» وخلع جزمته . «أين أستطيع أن أعلق جوربي ليجف ؟» .
انطلقوا في الفجر . وعند طرف القرية كانت فتاة عارية القدمين تستقي الماء من البئر . فشد كروتشكوف عنان حصانه وقال لها :
ـ اسقيني ياعزيزتي!
غطست الفتاة في الوحل بقدميها العاريتين وهي ترفع تنورتها المغزولة في البيت . ومدت الدلو وعيناها الرماديتان تتبسمان وراء أهدابها الكثيفة . فشرب كروتشكوف وهو يمسك بالدلو الثقيل من طرفه ، ويده ترتجف من ثقله ، وتقطّر الماء وطشّ على الخطوط الحمر في بنطاله .
ـ ليحفظك المسيح ، ياذات العينين الرماديتين!
ـ ليحمد الرب!
وأخذت الدلو وخطت مبتعدة وهي تتلفت وتتبسم .
ـ فيم تتبسمين ؟ تعالي لنزهة على الحصان! ـ وتحرّك على سرجه كأنه حاول أن يخلي المكان لها .
فصاح استاخوف وهو يبتعد على حصانه : «تحرك ، لا تقف!»
وتبسم رفاتشيف لكروتشكوف :
ـ لاتستطيع أن تنتزع نظرك منها ، ها ؟
فقال كروتشكوف متضاحكاً : «ساقاها ورديتان كساقي حمامة» . والتفت الجميع ، كما لوصدر اليهم أمر بذلك .
ومالت الفتاة على البئر ، مظهرة مفرق ردفيها تحت تنورتها الضيقة والربلتين الورديتين لساقيها المنفرجتين .
وتنهد بوبوف : «آه لو استطعنا أن نتزوج فقط» .
فاقترح استاخوف : «هب انني زوّجتك بسوطي» .

ـ لن يجدي ذلك نفعاً...

ـ أنت متلهف الى الزواج بهذه الدرجة ، الست كذلك ؟

ـ سيتعين علينا أن نمسك به ونربطه كما نربط الثور .

ومضى القوزاق خبباً يتضاحكون فيما بينهم . وبعد أن ساروا سيراً متواصلاً بعض الوقت ، ارتفعوا ورأوا قرية ليوبوف الكبيرة تجثم على امتداد وادي أحد الأنهار . كانت الشمس ترتفع وراءهم . وعلى مقربة منهم صدحت قبرة بشدوة حنون فوق عمود برق .

وكان استاخوف قد عين مسؤولاً عن الجماعة لأنه كان قد أتم لتوه دورة آمري الحضائر ، فاختار آخر بيت في القرية ليكون نقطة مراقبتهم باعتباره أقرب موضع الى الحدود . وأطلع صاحب البيت القوزاق على سقيفة يستطيعون إيواء خيلهم فيها ، وكان بولندياً حليقاً أحنف الساقين ، يرتدي قبعة لبادية بيضاء . وكان هناك حقل برسيم أخضر وراء السقيفة . وانحدرت السفوح الى غابة قريبة ، وكان ثمة امتداد أبيض للحنطة يقطعه طريق امتدت وراءه حقول برسيم . تناوبوا المراقبة بالمنظارة من الحفرة القائمة وراء السقيفة ، بينما اضطجع الآخرون في السقيفة الباردة التي فاحت برائحة الحنطة المخزونة زمناً طويلاً ، والتبن المترب ، والفئران ، والشذى العفن الحلو بعض الشيء للأرض الرطبة .

واستراح ايفانكوف في ركن مظلم الى جانب محراث ونام حتى المساء . وعند المغرب جاءه كروتشكوف وقال له بمرح وهو يقرص جلد رقبته بأصابعه :

ـ تنام جيداً على زقوم الجيش ، أيها الخنزير! قم واذهب لمراقبة الألمان!

ـ كفاك تعابثاً ، يا كوزما!

ـ هيا ، قم!

ـ هلا كففت ! ها أنا ذا قائم . فتحامل على قدميه ، ووجهه محمر ومنتفخ ، وحرّك رأسه من جانب الى آخر على عنقه القوي الذي شدّ رأسه بثبات الى كتفيه

العريضين وتنشق (إذ أصابه برد من الاضطجاع على الأرض الرطبة) ، وسوى حزم خرطوشه وخرج من السقيفة ، جارا بندقيته من حمالتها . وأخذ مكان شيكولكوف الذي كان يقوم بالمراقبة طوال فترة الظهيرة ، وسوى المنظارة وحدّق طويلاً في اتجاه الشمال الغربي ، صوب الغابة .

كان في مقدوره أن يرى حقل الحنطة الثلجي يتموج في الريح ، وفيضاً أحمر من ضياء الشمس يغسل الرأس الأخضر لغابة الشربين . وكان الأطفال يغطسون ويتصايحون في الجدول الذي امتد في حنوة زرقاء بديعة وراء القرية . وانطلق صوت امرأة هادر ينادي :

«ستاسيا ، ستاسيا! تعالي هنا!» أشعل شكولكوف سيكارة ، وقال فيما رجع الى السقيفة : «انظر الى الوهج في ذياك الغروب! سيهب علينا شيء من الرياح» .

فوافق ايفانكوف : «أحسب كذلك» .

وفي تلك الليلة ، ظلت الخيول واقفة غير مسرجة . وفي القرية أطفأت كل الأنوار وتلاشت الأصوات . وفي الصباح التالي ، نادى كروتشكوف على ايفانكوف من السقيفة :

ـ لنذهب الى القرية ؟

ـ لماذا ؟

ـ نستطيع أن نحصل على شيء نأكل وعلى كأس نشرب هناك .

فنظر ايفانكوف اليه في شك :

ـ نستطع ذلك ؟

ـ طبعاً نستطيع . سألت مضيفنا أنه هنالك في ذلك البيت . أترى السقف القرميدي ؟ ـ وأشار كروتشكوف باصبعه ذات الاظفر الأسود ـ لدى الحسقيل هناك جعه . لنذهب .

وانطلقا . فنادى استاخوف وراءهما :

ـ أين تراكما ذاهبين ؟

فأشاح كروتشكوف عنه وهو الذي يعلوه رتبة :
ـ سنعود عمّا قريب .
ـ عودا ، أيها الولدان!
ـ كفاك نباحاً!
انحنى لهما يهودي عجوز ذو جفنين مجعدين وسالفين طويلين وأدخلهما .
ـ ألديك أية جعة ؟
ـ لم يبق شيء ، أيها السيد القوزاقي .
ـ سنعطيك ثمنها .
ـ ياعيسى بن مريم ، هل يعقل أني... صدّق فيّ أيها السيد القوزاقي كيهودي شريف ، ليست لدي أية جعة!
ـ أنت تكذب أيها الحسقيل!
ـ أيها السيد القوزاقي ، إني أقول لك...
فقاطعه كروتشكوف مغتاظاً وهو يخرج كيس نقوده مهلهلاً من جيب بنطاله :
ـ اسمع يا أنت . هات بعض الجعة والا غضبت .
فضغط اليهودي على قطعة النقود بين ابهامه وخنصره ، وخفض جفنه الملتوي ومضى الى الممر . وعاد بعد دقيقة يحمل قنينة من الفودكا ، رطبة تعلق عليها قشور الشعير .
ـ وكنت تقول لنا ليس لديك أي شيء! أيها العجوز...!
ـ قلت ليس لدي أية جعة .
ـ هات لنا شيء نأكله .
ولطم كروتشكوف أسفل القنينة ليخرج السداد الفليني وصبّ لنفسه قدحاً من الفودكا . خرجا نصف ثملين . ومضى كروتشكوف يتراقص وهو يهز قبضته على النوافذ الخالية كعيون سود غائصة .

كان استاخوف يتثاءب في السقيفة . وكانت الخيل تجتر تبناً وراء الجدار .

مر اليوم بلا عمل . وبعد الظهر أرسل بوبوف الى السرية يحمل تقريراً .

حل المساء . ثم جنّ الليل ، وسطع الهلال الأصفر في أعالي السماء . من حين الى آخر كانت تفاحة ناضجة تحدث صوتاً عند وقوعها على أرض الحديقة خلف البيت . بينما كان ايفانكوف في نوبة حراسته سمع صوت خيل في شارع القرية ، فزحف خارج الحفرة ليستطلع الأمر ، لكن القمر كان قد تلفع بغيمة ، فلم يستطع أن يرى شيئاً خلال العتمة المنيعة . فمضى وأيقظ كروتشكوف الذي كان نائماً عند الباب .

ـ كوزما ! خيالة قادمون !انهض!

ـ من أي اتجاه ؟

ـ إنهم يدخلون القرية .

وخرجا . كانت قعقعة الحوافر تنبعث بجلاء من الشارع على بضعة مئات من الأمتار .

ـ لنذهب الى الحديقة . نستطيع هناك أن نسمع بوضوح أكثر .

ركضا عبر الكوخ الى الحديقة الخلفية الصغيرة ، وجثما حذاء السور . أصوات مكتومة . كان صرير السروج وجلجلة الركائب ينبعثان مقتربين . صار الآن بمقدورهما أن يتبينا الهيكل المعتم للخيالة راكبين في تشكيلة رباعية متوازية .

ـ من يسير هناك ؟

ـ وأجاب صوت بالروسية من الصف الأمامي :

ـ وماذا تريد ؟

ـ من يسير هناك ؟ سأطلق النار! ـ وقعقع كروتشكوف بترباس بندقيته . فشد أحد الراكبين عنان حصانه وأداره باتجاه السور ، وقال :

ـ نحن حرس الحدود ، هل أنتم نقطة أمامية ؟

ـ نعم .

ـ من أي كتيبة ؟

ـ كتيبة القوزاق الثالثة...

وانبعث صوت ينادي من الظلمة :

ـ من تكلم هناك ، ياتريشين ؟

فأجاب الرجل :

ـ توجد نقطة أمامية من القوزاق معسكرة هنا ، ياصاحب السعادة .

وتقدم فارس ثان من السور .

ـ مرحباً أيها القوزاق!

فرد ايفانكوف باحتراس :

ـ مرحبا .

ـ هل كنتم هنا منذ زمن طويل ؟

ـ منذ البارحة .

وقدح الراكب الثاني عود ثقاب واشعل سيكاره . وعلى الوهج الخاطف استطاع كروتشكوف أن يتبين ضابطاً من حرس الحدود .

قال الضابط ، ساحباً نفساً :

ـ إن كتيبتنا تنسحب الآن . عليكم أن تدركوا بوضوح انكم ابعد نقطة أمامية . وقد يتقدم العدو غداً نحوكم .

وتساءل كروتشكوف واصبعه على الزناد :

ـ الى أين ذاهبون ، ياصاحب السعادة ؟

ـ إننا في طريقنا للحاق بسريتنا التي تبعد فرستين من هنا . هيا ، يا أولاد ، لنتحرك . حظاً سعيداً لكم ، ياقوزاق!

ـ حظاً سعيداً لكم .

وفي تلك اللحظة ازاحت الريح بلا رحمة نقاب السحاب عن القمر ،

وانسكب ضوء مصفر ميت على القرية ، والحدائق ، وسقف الكوخ المنحدر ، ومفرزة حرس الحدود الصاعدة على التل .

في الصباح التالي ذهب رفاتشيف الى السرية حاملاً تقريراً . فاتح استاخوف المزارع البولندي ، فوافق الرجل على السماح لهم بقطع البرسيم لخيلهم لقاء بعض النقود . وأثناء الليل ظلت الخيل واقفة مسرجة . وكان القوزاق قد افزعهم أنهم تُركوا الآن لمواجهة العدو . لم يكونوا قد عرفوا الشعور بالعزلة والوحدة طالما كانوا يدركون بأن ثمة حرساً للحدود أمامهم ، أما وقد علموا الان بأن الحدود مفتوحة ، فقد ترك ذلك النبأ فيهم أثراً بيناً .

ولم يكن مرج البولندي بعيداً عن السقيفة . فأرسل استاخوف كلاً من ايفانكوف وشيكولكوف لقطع البرسيم . وقادهما البولندي ذو القبعة من اللباد الابيض الى حصته ومضى شيكولكوف يحش ، بينما كان ايفانكوف يجرف العشب الرطب الثقيل معاً ويربط حزماً . وبينما كانوا منهمكين على ذلك النحو ، لاحظ استاخوف خلال المنظارة التي كان يحدق فيها على امتداد الطريق المؤدي الى الحدود ، صبياً يعدو عبر الحقول من الجنوب الغربي ، كان الصبي يجري هابطاً مثل أرنب برّي بنّي اللون ، وكان مايزال على مسافة ما ، حينما صاح ولوح بكم سترته الطويل ، وجرى إلى استاخوف مبهور النفس ، زائغ العينين وقال لاهثاً :

- أيها القوزاقي! أيها القوزاقي! الألمان! الألمان قادمون!

وأشار باصبعه . فأمسك استاخوف بالمنظارة إزاء عينيه ورأى جمعاً من الفرسان من بعد . وصاح دون أن يرفع منظارته :

- كروتشكوف!

فبرز كروتشكوف من السقيفة وهو يتلفت .

- أجر في طلب الاولاد! هناك دورية ألمانية قادمة!

وتسمع الى كروتشكوف ينطلق مبتعداً ، وصار الآن بامكانه أن يرى

بوضوح جماعة الفرسان تنساب على امتداد الخط المتعرج المخضوضر للأرض العشبية .

وصار بمستطاعه حتى أن يتبين اللون الأحمر لخيلهم ولون بزاتهم المشرب بالأزرق الغامق . كانوا أكثر من عشرين فارساً ، في كتلة متراصة ، قادمين من الجنوب الغربي ، بينما كان قدومهم متوقعاً من الشمال الغربي . عبروا الطريق ثم ساروا على امتداد الأخدود الذي يعلو الوادي عند القرية .

ومضى ايفانكوف يحشو كيس علفة بحزمة من العشب ، وهو يجر أنفاسه بصعوبة وقد لاح طرف لسانه بين شفتيه المزمومتين ، بينما كان البولندي أحنف القدمين واقفاً يجر أنفاسه من غليونه ، ويداه مدسوستان في حزامه . ومضى يحدق من تحت حافة قبعته في شيكولكوف الذي كان لايزال يحش العشب .

حمحم شكولكوف وهو يعمل بشدّة بالمنجل الصغير كاللعبة :

ـ أتسمي هذا منجلاً ؟ أتحش أنت به ؟

فأجاب البولندي دون أن يخرج غليونه من فمه : «احش به» واخرج اصبعاً من حزامه .

ـ بمنجلك هذا يمكن أن تحش المرأة الشعر الزائد في موضع معين!

فوافقه البولندي : «ها ـ ها!»

وقهقه ايفانكوف . وكان على وشك أن يقول شيئاً ما ، لكنه ما أن تلفت حتى رأى كروتشكوف يجري عبر الحقل الوعر ، ويده على سيفه . واذ تقدم منهم ، صاح : «اتركا هذا!» فتساءل شكولكوف وهو يغرز رأس المنجل في الأرض : «الآن ، ماذا بعد ؟» «الألمان!» فقذف ايفانكوف حزمة العشب . وهرع البولندي نحو البيت مقوساً ظهره كأن الرصاص قد بدأ يئز فوق رأسه .

وما أن بلغوا السقيفة ووثبوا الى خيولهم حتى رأوا سرية من الجنود الروس تدخل القرية من ناحية بليكاليه . فجرى القوزاق لملاقاتهم . وأبلغ

استاخوف آمر السرية أن مفرزة ألمانية كانت تتخذ لها طريقاً حول القرية من جهة التل . فتفحص النقيب جزمته العفراء متجهماً ، وتساءل :

ـ كم عددهم ؟

ـ أكثر من عشرين .

ـ اقطعوا عليهم خط الرجعة ، وسنطلق نحن عليهم النار من هنا .

واستدار الى سريته ، وأصدر اليها أمراً بالاصطفاف ، وانطلق يقودهم في مسيرة سريعة .

وحين بلغ القوزاق التل كان الالمان قد أصبحوا بينهم وبين بلدة بليكاليبه . كانوا يسيرون خبباً ، يقودهم ضابط يمتطي كميتاً معقوص الذيل .

أصدر استاخوف أمراً : «وراءهم! سنطاردهم حتى نقطتنا الامامية الثانية» .

وتخلف وراءهم حارس الحدود الخيال الذي انضم اليهم في القرية ، فصاخ استاخوف وهو يستدير على سرجه :

ـ ما الأمر ؟ تتركنا ، أيها الأخ ؟

فلّوح حارس الحدود بلا اكتراث ومضى نازلاً الي القرية متمهلاً . وانطلق القوزاق على خيولهم في خبب سريع . صارت البزات الزرق للخيالة الالمان واضحة للعيان . وكان هؤلاء قد لمحوا القوزاق يتبعونهم ، فمضوا يخبون باتجاه النقطة الامامية الروسية الثانية التي كانت معسكرة في ضيعة تبعد حوالي ثلاثة فرستات من قرية ليوبوف . وتضاءلت المسافة مابين الفريقين بصورة واضحة .

صاح استاخوف وهو يثب عن سرجه :

ـ سنطلق النار عليهم!

وأطلق القوزاق النار وقوفاً ، وقد عقدوا الاعنة على أذرعهم ، وشب حصان ايفاكوف على صوت الاطلاق فأوقعه أرضاً . ورأى وهو يسقط ، واحداً

من الالمـان يميل جانبا في البدء . ثم ينشر ذراعيـه ، وينقلب عن سـرجه بغتـة . أما الآخـرون فلم يتـوقفـوا ولا حـتى نزعـوا بنادقـهم ، بل مضـوا في طريقهم هذباً في تشكيلة مفتوحة . وكانت الأعلام فوق رماحهم ترفرف في الريح . وكـان استـاخوف أول من امتطى صهوة حصانه من جديد . وأعمل القوزاق سياطهم في الخيل . وانحرف الالمان الى اليسار ، ومر القوزاق الذين يتعقبونـهم على مقربة من الخيال الصريع . وابعد ذلك ، جاءت أرض ريفية متموجة تتخللها شعاب ضحلة المياه . واذ كان الالمان يسيرون حذو الجانب الأبعد لكل شعب ، كان القـوزاق يترجلون ويطلقون عليهم النار . وبالقرب من النقطة الامامية الثانيـة هوى الماني أخر . صاح كروتشكوف وهو يضع قدمه على الركاب : «سقط» .

وتمتم استاخوف وهو يحشو مشبكاً من الخرطوش في مخزن بندقيته باصابعه التي اصفرت من التبغ : «لابد أن قوزاقنا سيأتون بعد لحظة . تلك هي النقطة الأمامية الثانية» .

وانطلق الالمان في خبب متواصل . واذ مروا الى جانب الضيعة نظروا اليها ، ولكن الفضاء كان مقفراً . وكانت الشمس تلعق السقف القرميدي بشراهة . وعلموا فيما بعد أن النقطة الأمامية كانت قد سحبت في الليلة الماضية ، بعد أن اكتشفوا أن أسلاك البرق قد قطعت على بعد نصف فرست تقريباً .

واطلق استـاخوف طلقة اخرى صوب الالمـان وهو جالس على سرجه ، فاذا بأحدهم ، وكان متخلفاً قليلاً عن الآخرين ، يهز رأسه ويهمز حصانه .

وصاح استاخوف مستديراً نحو الآخرين من ورائه : «سنطاردهم الى النقطة الأمامية الاولى» . واذ استدار لاحظ ايفانكوف أن أنف استاخوف كان يتقشر وثمة قطعة من الجلد مدلاة من منخره .

وتســاءل قلقـاً ، وهو يصلح من وضع بـندقـيـتـه على ظهـره : «لمَ لايستديرون ويدافعون عن أنفسهم ؟» فرد شيكولكوف وهو يلهث مثل حصان تمزقت رئتاه : «انتظر تر» .

انحدر الالمـان داخل شـعب دون أن يتلفتـوا . واختـفوا عن الأنظار . وعلى الجانب الآخر كانت هناك أرض مـحروثة ، وعلى هذا الجانـب ، نجيل ودغل قليل . واوقف استـاخوف حصانه وازاح قبعته الى الوراء ، ومسح بظهر يده حبات العرق . ونظر الى الآخرين ، وبصق وقال :

ـ ايفانكوف امض أنت لترى أين ذهبوا .

فلعق ايفانكوف شفتيه اليابستين في ظمأ ، وقد احمـر وجهه وتبلل ظهره بالعرق ، وانطلق .

وتمتم كروتشكوف وهو يطرد ذباب الخيل بصوته :

ـ لهفي على سيكارة .

اندفع ايفانكوف الى الشـعب مباشـرة وقد انتصب على ركابيه يشخص ببصره عبر قـرار الشعب . وفجأة رأى رؤوس الرماح المتـموجة ، ثم ظهر الالمـان ، كانوا قد اداروا خيلهم وعادوا يجرون صعـداً على المرتقى يبتغون الهجوم . وكان الضابط في المقدمة ، وقد رفع سيفه بشكل غير طبيعي . وفي خلال الثواني التي قضاها ايفانكوف وهو يدير حصانه ، انطبعت في ذاكرته صورة الوجه الكئيب الحليق لذلك الضابط وجلسته البديعة على السـرج . واعتصـر قلبه رعد حوافر الخيل الالمـانيـة . وتحسس في ظهره قشعريرة المـوت القارصـة بألم يكاد أن يكون حقيـقياً . ومن غيـر أن يصرخ ، أدار حصانه وانطلق باتجاه الآخرين .

لم يتسن لاستـاخوف أن يطوي كيس تبغه وحشره فأخطأ جيبه . حين رأى كروتشكوف الالمـان يطاردون ايفانكوف ، انطلق قبل الآخرين مبتعداً . وكـان خيـالة الجناح الأيمن يجرون ليقطعوا الطريق على ايفـانكوف ، وهم يقتـربون منه بسـرعـة مذهلة . وكـان ايفـانكوف يلهب حـصـانه بالسـوط ، وقشعـريرات شائهة تجتـاح وجهه ، وعيناه جـاحظتان . في المقـدمة كان استـاخوف يجري ، منحنياً على قربوس السـرج . ودوّم غبار بني على اثار الخيل .

«سيلحقون بي ، في اية لحظة الآن!» سيطرت هذه الفكرة المخدرة على ذهن ايفانكوف ، ولم يخطر بباله أن يظهر شيئاً من المقاومة . وكوّم جسمه الضخم حتى صار كالكرة ، ورأسه يلامس عرف الحصان .

لحق به ألماني ضخم أحمر الشعر وغرز رمحه في ظهره . فأصاب رأسه نطاق ايفانكوف الجلدي ونفذ مائلاً في جسمه لعمق يكاد يبلغ نصف فيرشوك* .

فصرخ بجنون ، وهو يمتشق سيفه : «ايها الاخوان ، ارجعوا!» وتفادى طعنة أخرى مصوبة الى جنبه . وضرب بسيفه على ظهر الماني سعى اليه من اليسار . وماهي الا لحظة ، حتى وجد نفسه مطوقاً . واصطدم حصان الماني ضخم بخاصرة حصانه حتى كاد يطرحه أرضاً ، ورأى ايفانكوف صورة قريبة لوجه عدو ، شوهاء فظيعة .

كان استاخوف أول من بلغ الجمع . ولكنه لم يلبث أن اضطر الى التراجع . فلوّح بسيفه وانثنى على سرجه كثعبان الماء ، وقد كشر عن أسنانه ، وغدا وجهه غريباً يحاكي الموتى . وكان ايفانكوف قد أصابه طرف سيف بجرح عبر رقبته . واطبق عليه خيال من اليسار ، وتلألأ في عينيه بريق الفولاذ المرعب ، فدافع بسيفه ، وصلصل الفولاذ بالفولاذ . ومن الخلف ، التصق رمح بسير كتفه ، وانغرز باصرار ، ممزقاً السير . وبدا وراء رأس حصانه وجه عرق محموم لألماني كهل أنمش ، كان يحاول أن يبلغ صدر ايفانكوف بسيفه . واذ وجد السيف لايطال ، قذفه ، وانتزع غدارته من بيت السرج الاصفر ، وقد تسمرت عيناه الطارفتان في وجه ايفانكوف ، لكنه لم يفلح في انتزاع غدارته ، اذ نال منه كروتشكوف برمح عبر حصانه ، فألقى الالماني بنفسه الى الوراء وهو يمزق بزته الزرقاء الغامضة على صدره متأوهاً في ذعر وذهول : «ماين غوت!»

---

* مقياس طول روسي قديم يساوي ٤ سنتمترات . الناشر

وأحاط بكروتشكوف ثمانية خيالة محاولين أسره حياً غير أنه شبّ بحصانه وقاتل حتى أفلحوا في اسقاط سيفه من يده . فنتش رمحاً من الماني ورفعه الى أعلى وكأنه في ساحة استعراض . واذ ردّ الالمان الى الوراء ، راحوا يذودون الرمح بسيوفهم . وتجمعوا معا على رقعة صغيرة من أرض طينية محروثة كالحة ، وهم يتدافعون ويترنحون في حومة القتال ، كما لو كانوا يهتزون في مهب الريح .

وراح القوزاق والالمان ـ وقد مسهم جنون الرعب ـ يطعنون ويضربون كل ما صادفهم في الطريق : من ظهور ، واذرع ، وخيل وأسلحة . وتدافعت الخيل في جنون الخوف من الموت . واذ استرجع ايفانكوف شيئاً من سيطرته على نفسه حاول عدة مرات أن يهوي على رأس ألماني طويل الوجه ، أشقر الشعر ، كان قد تعقبه باصرار ، لكن سيفه كان يهوي على خوذة الرجل فينزلق عنها .

وشق استاخوف طريقه خلال الحلقة وانطلق من اسارها والدم يسيل منه . وتبعه الضابط الالماني . فانتزع استاخوف بندقيته من على كتفه وأطلق النار عليه ، فأرداه قتيلاً على مدى الرمي الأفقي تقريباً . فكانت هذه نقطة التحول في القتال . فما أن فقد الالمان آمرهم ، وقد أصيبوا جميعاً بجراح ضربات طائشة ، حتى تفرقوا وتراجعوا . ولم يتبعهم القوزاق ، ولا أطلقوا النار عليهم ، بل عادوا مباشرة الى سريتهم في بليكاليبه ، فيما انتشل الالمان رفيقاً جريحاً وهربوا باتجاه الحدود .

وبعد مسيرة نصف فرست تقريباً ترنح ايفانكوف على سرجه :

ـ أنا... سوف أقع...

وأوقف حصانه . غير أن استاخوف جر زمامه صائحاً : «تابع!» ومسح كروتشكوف الدم من وجهه تاركاً عليه أثاراً مدماة ، وتحسس صدره . كانت ثمة بقع قرمزية تبدو لزجة على قميصه .وعلى مبعدة من الضيعة حيث كانت النقطة الأمامية الثانية معسكرة ، اختلفت آراء الجماعة حول الطريق .

قال استاخوف مشيراً صوب المستنقع وغيضه خضراء لغابة حور رومي : «الى اليمين!»

فأصر كروتشكوف : «كلا ، إلى الشمال!» .

وافترقوا . وصل استاخوف وايفانكوف الى مقر الكتيبة بعد كروتشكوف وشيكولكوف ، فوجدوا قوزاق سريتهم ، في انتظارهما عند طرف القرية . والقى ايفانكوف بالعنان ، ووثب من السرج ، ثم ترنّح وهوى . ووجدوا مشقة في انتزاع مقبض السيف من أصابعه المتصلبة عليه .

وبعد غضون ساعة من الزمن انطلقت كل السرية تقريباً الى حيث تمدد الضابط الالماني . فجرده القوزاق من جزمته وملابسه واسلحته وتجمهروا حوله لينظروا الى وجه الشاب الصريع العابس الاصفر . وأفلح أحدهم في الاستيلاء على ساعة الضابط ذات الغطاء الفضي ، وباعها في الحال الى عريف رعيله . ووجدوا في خرجه بضع أوراق نقدية ، ورسالة ، وخصلة من شعر أشقر في ظرف ، وصورة فتاة ذات فم بسام مزهو .

٩

تحولت هذه الحادثة بعد ذلك الى مأثرة بطولية . وحصل كروتشكوف ـ وهو الاثير لدى آمر السرية ـ على وسام القديس جيورجي . أما رفاقه فقد بقوا في الظل . وأرسل البطل الى مقر هيئة أركان الفرقة حيث عاش في بحبوحة الى نهاية الحرب ، ونال ثلاثة أوسمة أخرى لأن سيدات وضباطاً ذوي نفوذ جاؤوا اليه من موسكو وبطرسبورغ ليلقوا عليه نظرة . فتأوهت السيدات وتنهدن ، واتحفن قوزاقي الدون بالسكاير والحلوى الغالية . وكان في البداية ينزل عليهن كل لعنات الشياطين ، لكنه فيما بعد جعل من الأمر تجارة مربحة تحت التأثير العطوف للمتملقين الرسميين المتسربلين ببزات الضباط . كان يروي قصة«مأثرته» وهو يبالغ ويكذب دون أن يخزه

ضميره ، بينما يستبد بالسيدات الحبور فيحملقن باعجاب في الوجه اللصوصي المجدور للبطل القوزاقي . وكان الجميع مسرورين سعداء .

وزار القيصر مقر القيادة ، فأخذ كروتشكوف اليه ليراه . فتفحصه الامبراطور الوسنان كما لو كان حصاناً ، وطرف بجفنيه الغليظين ، وربت على كتف القوزاقي .

وعلق الامبراطور قائلاً : «يا للفتى القوزاقي الطيب!» ثم استدار الى حاشيته وطلب ماء معدنياً .

وغدت ناصية كروتشكوف تظهر دائماً في الصحف والمجلات . وظهرت سكاير تحمل صورة كروتشكوف . واهدى تجار نيجني ـ نوفغورد له حساماً مطلياً بالذهب .

أما بزة الضابط الالماني الذي قتله استاخوف فقد علقت على لوح من الخشب المعاكس ووضعها الجنرال فون رننكامف في سيارته وايفانكوف ومساعده يصحبانه لامساكها . ومضى بها أمام القطعات المستعرضة التي كانت بصدد الذهاب الى الجبهة ، وهو يلقي الخطب النارية المألوفة برطانته الرسمية .

ترى ، ماالذي حدث بالفعل ؟ كل مافي الأمر أن رجالاً ، لم يكونوا قد حذقوا فن التقتيل بأبناء جنسهم ، نزلوا ساحة الوغى ، وفي موجة الرعب القاتل التي غمرتهم هجموا ، وضربوا ، وافنى بعضهم بعضاً كالعميان ، مسببين أفدح الضرر ببعضهم وبخيلهم ، ثم عادوا وهربوا وقد أرعبتهم طلقة أصابت أحدهم . لقد ولوا الأدبار وأرواحهم مشوهة .

وسمي ذلك مأثرة بطولية .

١٠

لم تكن الجبهة قد غدت ـ بعد ـ تلك الحية الضخمة الطويلة التي آلت اليها فيما بعد . الا أن مناوشات الفرسان ومعاركهم قد حميت على امتداد

الحدود . وفي الأيام التي تلت اعلان الحرب مباشرة أطلقت القيادة الالمانية كشافة على هيئة مفارز قوية من الفرسان صارت تبث الرعب بين صفوف القطعات الروسية بتسللهم عبر نقاط الحدود والتجسس على الترتيبات العسكرية وعدد القوات . وكان الجيش الروسي الثامن متستراً بفرقة الخيالة الثانية عشرة تحت قيادة الجنرال كاليدين . وعلى جناحه الايسر كانت فرقة الخيالة الحادية عشرة قد تقدمت عبر الحدود النمساوية ، ولكن ما أن احتلت لاشنوف وبرودي حتى اضطرت الى التوقف حينما عززت الوحدات النمساوية بالخيالة المجربين . وقذفت الخيالة المجرية بنفسها على الوحدات الخيالة الروسية واضطرتها الى التراجع صوب برودي .

كان ثمة ألم داخلي ممض يعذب غريغوري ميليخوف منذ معركته الأولى . أصبح أنحف قواماً بشكل جلي ، وغالباً ماكانت تتراءى له ملامح وهيكل ذلك النمساوي الذي صرعه قرب السياج ، سواء كان ماشياً أو مستريحاً ، نائماً أو ناعساً . وعاش في نومه تجربة تلك المعركة الأولى ، مرة تلو المرة ، حتى لقد أحس باختلاج راعش في يده اليمنى ، حين تقبض على الرمح فكان يستيقظ ويطرد الحلم عنه بقوة ، وهو يظلل بيده عينيه المضيقتين الى حد الألم .

مضت الخيالة تدوس على القمح الناضج وتشوه الحقول بحوافر الخيل ، وبدا وكأن عاصفة صقيعية ماحقة قد اجتاحت غاليسيا . ووطئت جزم الجنود الثقيلة الطرق ، وخربشت سطحها المرصوف بالحصى وخبطت الوحل الخريفي .

وغدا وجه الأرض الكئيب مجدوراً بفعل القنابل ، وعلا الصدأ شظايا الفولاذ والحديد متشوقة لدم الانسان . وفي الليل كانت ومضات حمر تضيء الأفق ، وتلتهب القرى والمدن مثل برق الصيف . وفي آب ـ حين تنضج الفواكه وتغدو الحنطة جاهزة للحصاد ـ كانت السماء رمادية عابسة ، وكانت الأيام الصاحية النادرة خانقه شديدة القيظ .

كان شهر آب آفلاً الى زوال . واستحال لون الأوراق أصفر في البساتين ، وانتشر لون أرجواني حزين من سيقانها . وكانت الاشجار تبدو من بعد ، كما لو أصابتها جراح بليغة وسال منها نزيف قاتل .

وكان غريغوري يتفحص باهتمام التغييرات التي أصابت رفاقه . فقد عاد بروخور زيكوف من المستشفى يحمل أثار نعل الحصان على خده ، والألم والذهول يكمنان في زاويتي شفتيه . وصارت عيناه الشبيهتان بعيون العجل تطرفان أكثر من أي وقت مضى . أما يغور زاركوف فلم يضع فرصة لايلعن فيها ويسب ، وغدا أكثر مجوناً من قبل ، وجعل يثور على كل شيء تحت الشمس . وبدا على يميليان غروشيف أنه يحترق ، وهو قوزاقي دؤوب كفء من قرية غريغوري نفسها ، فقد حال لون وجهه داكناً ، وصار يضحك في غم وعصبية . وكان بالمستطاع ملاحظة التغييرات على كل وجه ، وكان كل واحد منهم يداري ويرعى في داخله بذور الأسى التي زرعتها الحرب .

سحبت الكتيبة من خط القتال لتستريح ثلاثة أيام ، وأكمل تعدادها بتعزيزات جلبت من الدون . وكان قوزاق سرية غريغوري على وشك أن يذهبوا ليستحموا في بحيرة قريبة حينما دخلت القرية قوة كبيرة من الخيالة قادمة من المحطة الواقعة على بعد ثلاثة فرستات تقريباً . وفي الوقت الذي بلغ الرجال سد البحيرة كانت القوة تهبط نازلة التل . حتى صار واضحاً أن القادمين هم القوزاق . كان بروخور زيكوف يخلع قميصه حينما رفع بصره وحدق وصاح :

- إنهم قوزاق ، قوزاق الدون!

فشخص غريغوري الى الرتل الزاحف الى داخل الضيعة حيث تعسكر الكتيبة .

- احتياط ، على أكثر تقدير .

- يبدو أنها تعزيزات .

- هذه هي الوجبة الثانية كما أعتقد .

وصاح غروشيف : «انظروا يا أولاد ، ذلك بالتأكيد ستيبان استاخوف! هناك هو ، في الصف الثالث من المقدمة» . وأطلق ضحكة صارفة قصيرة .

ـ وذاك انيكوشكا .

ـ غريشا! ميليخوف! ذاك اخوك .ألا تراه ؟

ـ أراه .

عليك أن تسقيني بالفودكا لأنني أول من رآه .

فحدق غريغوري مخاوصاً عينيه ومحاولاً أن يتبين الحصان الذي كان يركبه بيوتر . وقال في نفسه وهو يحول نظره الى وجه أخيه : «لابد أن ابتاع حصاناً جديداً!» وكان وجهه قد لفحته الشمس بشدة ، وشاربه مقصوصاً وحاجباه قد حال لونهما بفعل شمس الصيف : لقد اعتراه تغير غريب منذ لقائهما الأخير . مضى غريغوري لملاقاته نازعاً قبعته ، وملوحاً بها بصورة آلية وتدفق وراءه القوزاق دون أن يتموا ارتداء ملابسهم ، وهم يدوسون على الأنصال الرقيقة المتكسرة لحشيشة الملائكة وشوك الارقطيون .

انحرفت المفرزة حول البستان داخله الضيعة ، يقودها نقيب متقدم في السن قوي البنية ، تعلو خطوط فمه الحليق الصارم قساوة متخشبة . وقال غريغوري في دخيلته : «شخص خبيث ابح الصوت!» وهو يبتسم لأخيه ويجول بعينيه في الوقت نفسه في قامة الرئيس المتينة وحصانه معقوف الأنف الذي يبدو أنه منحدر من صقع شرقي . وأمر النقيب السرية بصوت رفيع رنان ان توزع مراتب .

وصاح غريغوري مبتسماً واعتراه انفعال مسرور :

ـ مرحباً ، أيها الأخ!

ـ المجد لله! سنكون معاً . كيف حالك ؟

ـ لابأس .

ـ اذن ماتزال حياً ؟

ـ تحيات من العائلة .
ـ كيف حالهم جميعاً ؟
ـ لابأس .
وأراح بيوتر كفه على حصانه القوي ذي اللون المائل للحمرة ، ودار بكل جسمه على السرج ليتفحص غريغوري مبتسماً . ثم مضى واختفى وراء الصفوف المتدفقة من القوزاق الآخرين ، معروفين وغير معروفين .
ـ مرحبا ، ميليخوف! تحيات من القرية!
فتبسم غريغوري متبيناً ميخائيل كوشيفوي من خصلة شعره الذهبية ، وقال :
ـ اذن أنت تنضم الينا ؟
ـ صحيح . نحن كالدجاج يجري وراء الدخن .
ـ اذ نقرت فسرعان ماتنقر .
ـ مستحيل!
وقدم يغور زاركوف من البحيرة وقد ارتدى قميصه فقط وهو يظلع على ساق واحدة ويحاول أن يدس الأخرى في بنطلونه أثناء ركضه .
ـ مرحباً ياأولاد!
ـ هي ، هذا زاركوف!
ـ مرحباً ، أيها الحصان! هل اضطروا الى حجلك اذن ؟
ـ كيف حال أمي ؟
ـ لاتزال حية . أرسلت لك حبها . لكننا لم نقبل أن نحمل هداياها لك . فحملنا ثقيل بما فيه الكفاية .
أنصت يغور الى الجواب وقد اكتسى وجهه تعبيراً جدياً غريباً ، ثم اقتعد الحشيش على عجيزته العارية ، مخفياً وجهه الخائب ومحاولاً بلا جدوى ادخال ساقه المرتعشة في بنطلونه .

وقف القوزاق نصف عراة وراء السياج المطلي بالدهان الأزرق ، وفي الجانب الآخر كانت سرية الاحتياط القادمة من الدون تتدفق على امتداد الطريق المحفوف بأشجار الكستناء ، داخلة الى الفناء .

ـ مرحباً ياابن القرية!

ـ أهذا أنت ، الكساندر ؟

ـ أجل ، هو أنا .

ـ اندريان! كيف ، أيها الشيطان ذو الاذن المصلومة ، الا تعرفني ؟

ـ زوجتك ترسل حبها اليك ، أيها الجندي!

ـ ليحفظك المسيح .

ـ أين بوريس بيلوف ؟

ـ في أيه سرية كان ؟

ـ في الرابعة ، على ما أظن .

ـ من أي مكان هو ؟

ـ من ناحية فيشنسكايا ، من زاتون .

وانضم صوت ثالث الى الحديث المتشعب :

ـ ماذا تريد منه ؟

ـ لدي رسالة له ، هذا ما أريد .

ـ قتل قبل بضعة أيام ، في ريبرودي .

ـ حقاً ؟

ـ صدقني . رأيته بأم عيني . رصاصة في الصدر ، تحت ثديه الأيسر تماماً .

ـ هل يوجد أحد من قرية كورونيا رتشكا ؟

ـ لا .

صفت السرية في الفناء . وعاد القوزاق الاخرون الى استحمامهم ثم انضم اليهم بعد قليل القادمون الجدد . جلس غريغوري الى جانب أخيه .

وانبعثت من طين السدة الرطب المفتت رائحة فجة كريهة ، وكان الماء ذا لون أخضر لمّاع عند الحوافي . قصع غريغوري القمل في ثنايا ومدارز قميصه ، وقال لأخيه :

ـ بيوتر ، روحي تعبانة . اني كرجل تكفيه ضربة أخرى ليخر صريعاً . كأنني كنت بين شقي رحى ، لقد سحقوني ولفظوني .

كان صوته متكسراً ذبيحاً ، وامتدت تجعيدة دكناء منحرفة عبر جبهته(لم يلحظها بيوتر الا الآن ، وبشعور قلق) أضفت عليه طابعاً عجيباً من التغير والغرابة .

فتساءل بيوتر وهو يخلع قميصه كاشفاً عن جسم أبيض يلوح لفح الشمس خطا واضحاً على رقبته :

ـ لماذا ، ماخطبك ؟

فقال غريغوري باستعجال وقد غدا صوته قوياً في مرارته :

ـ الأمر هكذا : لقد جعلونا نحترب ، أسوأ من قطيع من الذئاب . الكراهية في كل مكان . وأحياناً أقول لنفسي إنني لو عضضت شخصاً لأصبته بالسعار .

ـ هل اضطررت أن... تقتل أحداً ؟

ـ أجل .

قالها غريغوري في شبه صياح وهو يعتصر قميصه ويرمي به عند قدميه . ثم يضغط على بلعومه بأصابعه كما لو كان يمنع كلمة تخنقه ، وأشاح بعينيه .

فاستحثه بيوتر متجنباً عيني أخيه :

ـ أخبرني .

ـ إن ضميري يزهق روحي . لقد غرزت رمحي في جسم رجل... في غمرة الهياج... ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، ولكن لِمَ قتلت الآخر... ؟

ـ حسناً ؟

ـ ليس الأمر«حسناً» . لقد قتلت رجلاً بلا سبب ، فيعذب نفسي ، ذاك الخنزير! إن هذا النغل لا يبارحني في أحلامي . هل كنت أنا الملوم ؟

ـ أنت لم تألف الأمر بعد ، ستتغلب على حالتك هذه . فتساءل غريغوري فجأة :

ـ هل ستمكثون مع سريتنا ؟

ـ لا ، فنحن تابعون للكتيبة السابعة والعشرين .

ـ حسبت أنكم جئتم لمساعدتنا .

ـ سوف تلحق سريتنا بفرقة مشاة . إننا نسعى للحاق بها . على أننا جئناكم ببعض البدلاء ، شرذمه من الشبان .

ـ حسناً ، لنستحم .

وخلع غريغوري بنطاله بسرعه ومضى الى حافة السدة ، ملفوح الجسم قوي البنية بالرغم من كتفيه المتهدلين ، وخطر في ذهن بيوتر أنه شاخ خلال فترة فراقهما . وغطس في الماء رافعاً يديه ، فانعقدت عليه موجة خضراء كبيرة ، ثم انحسرت متموجة عنه . ومضى يسبح صوب جماعة القوزاق المتصايحين في الوسط ، ويداه تلطمان الماء برفق ، وكتفاه تتحركان بتكاسل .

كان بيوتر بطيئاً في خلع الصليب والتعويذة المخاطة فيه عن رقبته . فدس الخيط تحت كومه ملابسه ، ونزل الى الماء بحذر وتهيب ، وبلل صدره وكتفيه ، ثم اندفع الى الأمام متأوهاً ، ومضى يسبح للحاق بغريغوري . واتجها صوب الضفة المقابلة ، وكانت رملية يغطيها الدغل . ورطبت الحركة في الماء غريغوري وهدأته ، فراح يتكلم بهدوء وبدون هياجه السابق . قال :

ـ لقد استبد بي الضيق حتى تركت القمل يأكلني! آه ليتني الآن في بيتنا ، فقط! لو أن لي جناحين ، لطرت الى هناك! لأختلس نظرة خاطفة وحسب! كيف حالهم جميعاً ؟

ـ إن ناتاليا تعيش معنا .

ـ كيف حال أبي وأمي ؟

ـ لابأس . لكن ناتاليا مافتئت تنتظرك . انها لاتزال تعتقد بأنك عائد اليها .

نخر غريغوري وبصق ماء دون أن يجيب . فأدار بيوتر رأسه وحاول أن ينظر في عيني أخيه .

ـ حبذا لو ترسل كلمة اليها في رسائلك . إن هذه المرأة لاتحيا الا من أجلك .

ـ ماذا ، أما تزال تريد أن تصل ما انقطع ؟

ـ إنها تحيا على الأمل... إنها امرأة طيبة . ومتزمتة كذلك لن تدع أحداً يتعابث معها!

ـ عليها أن تجد زوجاً .

ـ غريب أن يصدر هذا الكلام منك!

ـ لاغرابة فيه . هذا ما يجب أن تكون عليه الحال .

ـ حسناً ، هذا شأنك . لن أتدخل . ـ وكيف حال دونيا ؟

ـ غدت امرأة ، أيها الأخ! لقد كبرت كثيراً هذا العام حتى أنك لاتعرفها .

فقال غريغوري دهشاً ومبتهجاً بعض الشيء : ـ حقاً!

ـ وحق الرب! وعمّا قريب ستتزوج ، ولن يكون بمستطاعنا حتى أن نغمس عذارنا في الفودكا . أو قد نصبح في عداد القتلى ، عليهم اللعنة! ـ لا أسهل من ذلك!

واضطجعا على الرمل جنباً الى جنب يتشمسان في دفء الشمس الرفيق . ومرّ بهما ميشا كوشيفوي سابحاً :

ـ هيا ، ياغريغوري ، الى الماء .

ـ كلا أريد أن أرتاح .

وتساءل غريغوري وهو يدفن خنفساء في الرمل :

ـ كيف حال اكسينيا ؟

ـ رأيتها في القرية قبيل اندلاع الحرب .

ـ ماالذي كانت تفعله هناك ؟

ـ جاءت لتأخذ من زوجها بعض حوائجها .

فتنحنح غريغوري ودفن الخنفساء ملقياً عليها كومة رمل .

ـ هل حدثتها ؟

ـ تبادلنا بالتحية فقط . كانت تبدو في حال طيبة ، ومبتهجة . يبدو أنها تقضي وقتاً رضياً في الضيعة .

ـ وماذا عن ستيبان ؟

ـ أعطاها حوائجها بالفعل . كان سلوكه لائقاً الى حد كبير . لكن ، عليك أن تفتح عينيك! بلغني أنه أقسم حينما كان ثملاً أن يضع فيك رصاصة في أول معركة . لن يقدر أن يغفر لك .

ـ أعرف ذلك .

وأدار بيوتر وجهة الحديث : ـ ابتعت حصاناً جديداً لي .

ـ بعتم الثيران ؟

ـ بمئة وثمانين ، وكلفنا الحصان مائة وخمسين . وما هو بالرديء .

بالرديء . ـ وكيف حال المحصول ؟

ـ حسن . انتزعونا قبل أن نستطيع خزنه .

ومال الحديث وجهة شؤون منزلية ، وانجاب توتر المشاعر . وارتوى غريغوري بأنباء بيوتر عن البيت . وعاد برهه صغيرة يعيش هناك كما كان ، ذلك الفتى البسيط العنيد .

واقترح بيوتر نافضاً الرمل عن بطنه المبلل :

ـ طيب ، لنغطس غطسة أخرى ، ثم نرتدي ملابسنا . وكان الشعر على ظهره وذراعيه منفوشاً من البرد .

عادا الى الفناء مع جمع من القوزاق . ولحق بهما ستيبان استاخوف عند سياج البستان . وكان أثناء مشيه يمشط شعره الى الخلف تحت ذؤابة قبعته . واذ حاذى غريغوري قال :

ـ مرحباً ، أيها الصديق!

فرد غريغوري : «مرحباً!» وتوقف وتباطأ في مشيه واستدار نحوه وقد بدا على وجهه شعور بالحرج والاثم .

ـ لعلك لم تنسني ، أليس كذلك ؟

ـ كدت . ـ لكنني أتذكرك!

وابتسم ستيبان هازئاً ومضى ، واضعاً ذراعه حول كتف نائب عريف يمشي أمامه .

بعد غروب الشمس جاءت رسالة تلفونية من هيئة أركان الفرقة الى كتيبة غريغوري تأمرها بالعودة الى الجبهة . وتجمعت السرايا خلال خمس عشرة دقيقة ، وانطلقت ، وهي تنشد ، لكي تسد ثغرة في خط القتال احدثتها خيالة العدو .

وفيما كان غريغوري وبيوتر يتوادعان ، دس بيوتر ورقة مطوية في يد أخيه . فتساءل غريغري : ـ ماهذه ؟

ـ لقد استنسخت تعويذة لك . خذها...

ـ هل فيها أية فائدة ؟

ـ لاتسخر ، ياغريغوري!

ـ لست ساخراً .

ـ حسناً ، الى اللقاء أيها الأخ . لا تندفع في مقدمة الآخرين . إن للموت بهرجاً لذوي الدماء الحارة . صن نفسك .

ـ فما جدوى التعويذة اذن ؟

لوح بيوتر يده .

قضت السرايا زمناً ما دون أن تراعي اتخاذ أية احتياطات . ثم أصدر رؤساء العرفاء أوامر بمراعاة أقصى مايمكن من الهدوء ، وان تطفأ كل السكاير . وتطايرت فوق غابة بعيدة صواريخ الاشارة تزينها ذؤابات من دخان بنفسجي .

١١

دفتـرمـذكـرات جلدي ، بني اللون ، صـغيـر القطع . تآكلت زواياه وتمـزقت ، فلا بد أن زمناً طويلاً مضى عليه وهو في جيب صـاحبـه . وقد ملأت صفحاته كتابة مائلة مزخرفة نوعاً ما...

* * *

« ... مضى عليّ حين من الزمن وأنا أحس بهذا الدافع الذي يستحثني على تناول القلم والشروع بالكتـابة . أود أن أبدأ مـايشـبـه «المـذكـرات المدرسية» . أبدأ بها ، قبل كل شيء .

حدث في شبـاط(لا أذكر التاريخ بالضبط) أن تعرفت عليها بواسطة جار لها ، طالب يدعى بويارشكين . صادفتهما خارج دار للسينمـا . وحينما قدمها بويارشكين . ، قال : «ان ليزا من ناحية فيشنسكايا ، كن لطيفاً معها يا تيموفي . فهي فتاة رائعة» .

واذكر أنني تمتمت بضع كلمات غير مترابطة وأخذت يدها الناعمة العرقة بيدي . وهكذا التقيت بليزافيتا موخوفا ، وقد أدركت في الحال أنها بنت ماجنة . ففي عيون اضرابها من النساء ما يكشف الستر عن الكثير . ولي أن أعترف أن الانطباع الذي خلفته لدي لم يكن انطباعاً حسناً . ولربما كان السبب هو ذلك الدبق الذي تحسسته في يدها . اذ أنني لم أر في حياتي شخصاً تعرق يداه بمثل تلك الشدة . ثم كانت هناك عيناها ، جميلتان جداً في الواقع ويغشيهما لون بندقي رائع ، ومع ذلك فهما لا تسران الناظر فيهما .

فاسيا ، ياصديقي العزيز ، أشعر أنني أنمق أسلوبي في الكتابة عامداً ، حتى أنني أخذت الجأ الى نقل الصور على نحو دقيق ، ذلك لأنه حين تصلك هذه المذكرات وأنت في سميبالاتنسك (فأنا أفكر في إرسالها

اليك بعد أن تؤول هذه القصة التي بدأتها مع يليزفيتا موخوفا الى النهاية) ستجد فيها متعة . أود أن تكون لك فكرة جلية عما حدث . سوف أعمد الى سرد الحوادث حسب تتابعها الزمني . حسناً ، وكما سبق أن قلت ، تعرفت بها ودلف ثلاثتنا لمشاهدة فلم عاطفي سخيف . ظل بوياريشكين ساكتاً طوال الفلم (اذ كان يعاني من ألم الأسنان ، أو«ألم الضرس» ، كما دعاه هو) ووجدت من ناحيتي صعوبة في خلق موضوع للحديث . واكتشفنا أننا كنّا في ديرة واحدة ، أي من قصبتين متجاورتين ، ولكن ما أن تبادلنا بعض الذكريات عن جمال الطبيعة في السهب وما الى ذلك حتى صمتنا . فخلدت أنا الى صمت عفوي ، اذ اصح التعبير ، وتقبلت هي نضوب الحديث دون أي مضض . وعلمت منها أنها طالبة طب في السنة الثانية . وأنها سليلة عائلة من التجار ، وأنها ولوع بالشاي القوي ونشوق* اسمولوف . ولك أن تتصور كم هي زهيدة هذه المعلومات لأمرىء يسعى الى معرفة كنه فتاة ذات عينين بندقيتي اللون . وحينما ودعناها عند موقف الترام طلبت مني أن أزورها . فدونت عنوانها . أحسب أنني سأعرج عليها في الثامن والعشرين من نيسان .

٢٩ نيسان

زرتها اليوم . قدمت لي شاياً وحلوى . انها ، في الواقع ، لا تخلو من شيء . حادة اللسان ، ذكية الى حد ما ، ولكنها متعلقة بنظرية ارتسيباشيف القائلة : «افعل مايحلو لك» وباستطاعتك أن تشم ذلك من مسافة فرست . عدت في وقت متأخر ، لففت سكائر وفكرت بأشياء لاعلاقة لها بها أبداً ، وبالنقود بوجه خاص ، أن بدلتي في حالة يرثى لها ، ولكن ليس لدي أي «رأسمال» . وعلى العموم ، فالأمور في غاية العفونة .

---

* النشوق ، أو السعوط : دقيق التبغ يدخل في الأنف فيعطس المرء . المترجمون

١ أيار

شهدت اليوم حادثاً على جانب من الأهمية . فبينما كنا نزجي الوقت في منتزه سوكولنيكي ببراءة مطلقة ، تورطنا في مشكلة . كانت الشرطة ومفرزة من القوزاق ، قوامها عشرون قوزاقياً تقريباً ، يفرقون اجتماعاً للعمال بمناسبة أول أيار . فهوى سكران بضربة من عصاه على أحد خيول القوزاق ، فما كان من القوزاقي الا أن أعمل به ضرباً بسوطه .(لست أدري لماذا يصر بعض الناس على اطلاق كلمة«عسلوج » على السوط ، في حين أن له هذه التسمية الفخمة ـ لم لانستعملها ؟) مضيت اليه وقررت أن أتدخل ، مدفوعاً بأنبل المشاعر ، صدقني . قلت للقوزاقي أنك فظ ، وأنك كذا وكيت ، فما كان منه الا أن استعد ليلفحني بسوطه ، لكنني قلت له مع شيء من رباطة الجأش أنني قوزاقي من قصبة كامنسكايا وبمقدوري أن اشبعه ضرباً . ثم تبين أن القوزاقي كان شاباً لطيفاً لم يكن قد قضى في الجيش زمناً طويلاً يجعله حاد الطباع . فأجاب بأنه من ناحية أوست ـ خوبر سكايا وأنه مشهود له بقوة بارعة ، وافترقنا في سلام . ولو كان قد شرع بمهاجمتي ، لاحتدم بيننا قتال ، ولأصابني شيء أسوأ من ذلك . إن تدخلي هذا يجب أن يفسر بواقع وجود ليزافيتا معنا ، وعندما أكون معها أجدني أندفع برغبة طفولية محض لاتيان «عمل بطولي» . وباستطاعتي بالفعل أن أرى نفسي أغدو ديكاً فتياً وأحس بعرف أحمر غير منظور يطلع تحت قبعتي... الى أين تراني سأنتهي!

٣أيار

الشيء الوحيد الذي استطيع أن أفعله في حالتي النفسية الراهنة هو السُكْر . ففوق كل شيء ، أنا لا أملك شروى نقير . وقد انشق بنطلوني على نحو بائس في أهم موضع(أى ، بصراحة ، عند ملتقى الفخذين) وأصبح مثل

بطيخة مشقوقة في الدون ، والأمل ضعيف في أن يحتمل الرتق . وهل يرجى خير من محاولة رتق بطيخة ؟ لقد زارني فولودكا سترجنيف . سوف أحضر المحاضرات غداً .

٧ أيار

وصلتني نقود من أبي . رسالته غضبى ، لكنني لا أحس بذرة من الخجل ، ماذا لو أن أبي عرف أن قواعد ابنه الأخلاقية تتحلل على هذا النحو...لقد اشتريت بدلة . ورباط عنقي الجديد يجذب انتباه حتى سائقي عربات الأجرة . وبعد حلاقة لدى أحسن حلاق في المدينة خرجت منه لامعاً أشبه ببائع في حانوت خردوات . وفي الشارع ابتسم لي شرطي . ياللوغد الماكر! بيني وبينه شيء مشترك في هذه الهيئة... ومنذ ثلاثة أشهر... ولكن ما فات فات... لمحت ليزا صدفة خلال نافذة الترام . فلوحت بقفازها وابتسمت . مارأيك بي ؟

٨ أيار

«أمام الحب ، لا تملك كل الأعمار الا أن تكون خاضعة...» . لازلت استطيع أن أرى فم زوج تاتيانا فاغراً باتجاهي مثل فوهة مدفع . واستبدت بي رغبة ، وأنا جالس على مقعدي في الصالة العليا ، أن أبصق فيه . وكلما أتذكر تلك العبارة ، وعلى الأخص «خاضعة» في نهايتها ، أحس بفكي يستحثني على التثاؤب ، لعلها رجفة عصبية .

ولكن المهم هنا هو أنني في عمري هذا ، عاشق ، رغم أن كتابة هذه الكلمة تجعل شعر رأسي يقف... زرت ليزا . بدأت معها بمقدمة طويلة براقة . فتظاهرت بأنها لم تفهم وحاولت أن تغير الموضوع . أتراني تسرعت ؟ فليأخذ الشيطان هذه البدلة الجديدة ، لقد اربكت عليّ الأمور . فحينما أنظر الى نفسي في المرأة أحس بأنني شخص لايقاوم . ها قد حان

الوقت اذن ! وفي اعتقادي أن النصر حليف التفكير الرياضي المباشر .

ان لم أفاتحها الآن ، فبعد شهرين يكون الأوان قد فات . سيكون بنطلوني قد تخلق ولن يصبح بإمكاني مفاتحتها بأي حال من الأحوال . واذ أنا أكتب اليك هذا ، أحس بفيض من الاعجاب بنفسي يغمرني . يالي من خليط رائع من أكرم الفضائل لأكرم الناس في عصرنا . فأمامك الآن عاطفة رقيقة ، لكنها نارية في الوقت نفسه ، «صوت العقل السليم»دونما حاجة لذكر حشد من الصفات المحببة الأخرى .

حسناً ، لم أقطع معها شوطاً أبعد من مقدمتي التمهيدية . اذ قاطعتنا صاحبة دارها ، التي استدعتها الى الخارج وسألتها قرضاً ، الا أنها رفضت رغم توفر النقود لديها . كنت متيقناً من ذلك ، وتصورت وجهها وهي ترفض الطلب بنبرة صوتها الصادقة وبذلك الاخلاص المتشرب في العينين البندقيتين . ولم أشأ ، بعد ذلك ، أن أتحدث عن الحب .

١٣ أيار

إنني عاشق بحق وحقيق . لا مجال لأي شك في ذلك . كل شيء ينبئني به . وسأفاتحها غداً . على أنني لم أحضر الكلام المناسب لدوري حتى الآن .

١٤ أيار

حدث الأمر على نحو غير متوقع بتاتاً . كان ثمة مطر ، زخ خفيف دافىء ، . كنّا نتمشى في شارع موخوفايا ، والريح تلفح الرصيف بالمطر . كنت أتحدث وهي صامته ، ورأسها مطأطأ وكأنها تقلب الرأي في شيء ما . وانداح خط من ماء المطر على حافة قبعتها وانساب على خدها . فبدت رائعة الجمال . وجرى الحوار بيننا كالآتي :

ـ يليزافيتا سيرغييفنا ، لقد بحت اليك بما أحس ، فالأمر متروك اليك الآن .

ـ يخالجني الشك في صدق أحاسيسك .

فهززت كتفي بحركة بلهاء وأجبت ببلادة بأنني مستعد لأن أقسم لها ، أو بشيء من هذا القبيل . فقالت :

ـ اسمع ، انك تتكلم وكأنك إحدى شخصيات تورغنيف* . لا تستطيع أن تجعل الأمر بشكل أبسط ؟ .

ـ ليس ثمة ما هو أبسط منه . أنا أحبك .

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ الرأي لك الآن .

ـ أتريدني أن أقول لك إنني أحبك أيضاً ؟

ـ أريدك أن تقولي شيئاً ما .

ـ القضية ، ياتيموفي ايفانوفتش... اوه ، كيف عساي أن أعبّر عنها ؟ إنني أميل اليك بعض الميل وحسب... أنت طويل القامة جداً .

فوعدتها قائلاً :

ـ وسيزداد طولي .

ـ ولكننا لايعرف أحدنا الآخر الا قليلاً . اننا...

ـ مع مر الوقت ستتوثق معرفتنا .

فمسحت خديها المبللين بيد وردية وقالت :

ـ حسناً ، فلنعش سوية . والزمان خير حكم . ولكن عليك أن تدعني أفسخ علاقتي السابقة أولاً .

فتساءلت :

ـ مع من ؟

ـ أنت لا تعرفه . طبيب ، اختصاصي بالأمراض التناسلية .

ـ متى ستتحررين منه ؟

---

* ايفان تورغينيف ، الأديب الروسي المعروف ، مؤلف «الآباء والبنون» و«آسيا» وغيرهما . المترجمون

ـ الجمعة ، كما آمل .

ـ هل سنعيش سوية ؟ اعني ، في شقة واحدة ؟

ـ نعم فإنني أعتقد أن هذه الطريقة هي الأفضل . عليك أنت أن تنتقل الى شقتي .

ـ لماذا ؟

ـ لدي غرفة مريحة جداً . نظيفة ، وصاحبة الدار امرأة لطيفة .

لم اثر أي اعتراض وافترقنا عند منعطف شارع تفرسكايا . وتبادلنا قبلة اثارت دهشة كبيرة لدى سيدة عابرة .

ترى ، ماذا يخبىء المستقبل لي ؟

٢٢ أيار

أعيش حياة ملؤها الحلاوة . على أن حياتي«الحلوة» غشيتها اليوم سحابة حينما أخبرتني ليزا أن علي أن أغير ملابسي الداخلية . لا شك في أن ملابسي الداخلية في حال تثير التقزز . ولكن أين النقود ، أين النقود ؟... . نحن نصرف من نقودي ، ولم يبق إلا القليل . سيتعين علي إيجاد عمل .

٢٤ أيار

قررت اليوم أن أبتاع لي شيئاً من الملابس الداخلية ، على أن ليزا فتحت لي باباً جديداً للصرف . فقد اجتاحتها فجأة رغبة لاتقاوم في تناول الغداء في مطعم جيد وشراء جوارب حريرية لها . تغدينا واشترينا الجوارب ، وانتابني اليأس . لن تكون لي ملابس داخلية!

٢٧ أيار

إنها تمتصني حتى الجفاف . فجسدي لم يعد أكثر من ساق جرداء لزهرة عباد الشمس . إنها ليست بامرأة ، إنما نار مدمرة!

٢ حزيران

استيقظنا اليوم في التاسعة . إن عادتي اللعينة في تمطية أصابع قدمي أدت الى النتائج التالية . جرت الغطاء فعرضت قدمي لفحص دقيق . ثم لخصت رأيها كالآتي : ـ«لك قدم مثل حافر حصان . وأسوأ! أما ذلك الشعر على أصابع قدمك ـ أوف! » وهزت كتفيها بتقزز محموم ، ودفنت رأسها تحت الغطاء واستدارت صوب الحائط .

أصابتني الحيرة . ودسست قدمي أخفيها عن الأنظار ، ولمست كتفها .

ـ ليزا!

ـ اتركني وشأني!

ـ ليزا ، هذا لامعنى له . فأنا لا أستطيع أن أغير شكل قدمي ، فلم أوص عليها ، كما تعلمين . أما من ناحية الانبات فليس لامرىء أن يعرف أين سينبت الشعر في المرة القادمة . إنه ينبت في كل مكان . أنت طالبة طب ، ويتعين عليك أن تكوني ملمة بقوانين الطبيعة .

استدارت . وكان ثمة وميض خبيث في عينيها البندقيتين :

ـ بالله عليك ، اشتر شيئاً من المسحوق المعطر . فقدماك تفوحان برائحة كريهة كجثث الموتى .

فأجبت بدافع العدالة بأن يديها تعرقان على الدوام . فلاذت بالصمت ، وخيمت على روحي سحابة عتماء ، اذا توخينا استعمال الكلمات الضخمة . الأمر ليس متعلقاً بالقدم والشعر... .

٤ حزيران

رحنا اليوم بنزهة في القارب في نهر موسكو . تذكرنا مرابع الدون . إن سلوك ليزا لا يليق بها . فهي لاتني تصب العبارات الجارحة على رأسي ، وهذه في بعض الأحيان شديدة القسوة . فلو أنني رددت عليها بالمثل لكان

معنى ذلك انفصام علاقتنا ، وهذا مالا أريده . وعلى الرغم من كل شيء فإنني أزداد تعلقاً بها يوماً بعد يوم . انها ، ببساطة ، فتاة مدللة ، بيد أنني أخشى أن لا يكون تأثيري عليها من القوة بحيث يؤدي الى أي تغيير جذري في طباعها . إنها فتاة منقلبة الأطوار . أضف الى ذلك أنها فتاة صغيرة خبرت أشياء لم يحدث أن تعرفت عليها أنا الا عن طريق السماع . وفي طريق العودة جذبتني الى صيدلية وابتاعت ، وعلى وجهها ابتسامة ما ، مسحوقاً معطراً وترهات اخرى .« إن هذا سيخفف من فوح الرائحة الكريهة» .

انحنيت لها باحترام وشكرتها .

شيء سخيف ، ولكن ما الحيلة ؟

٧ حزيران

ليس لها ، في الواقع سوى ذكاء ضئيل جداً ، ولكنها خبيرة بجميع القضايا الأخرى .

وفي كل ليلة ، وقبل الذهاب الى الفراش ، صرت أغسل قدمي بالماء الحار ، وأصب عليهما شيئاً من ماء الكولونيا ، وارشهما بمادة مقززة أخرى .

١٦ حزيران

إنها تغدو مستحيلة الاحتمال يوماً بعد يوم . انتابتها أمس نوبة من الهستيريا . إنه لشيء بالغ الصعوبة أن يعيش المرء مع امرأة كهذه .

١٨ حزيران

ليس ثمة تشابه في طباعنا وميولنا قط! حتى اللغة التي نتحدث بها لم تعد واحدة . الشيء الذي يربطنا هو السرير وحياة تافهة .

حدث هذا الصباح أن مضت الى جيبي لتأخذ نقوداً قبل الذهاب الى

الخباز فعثرت على دفتر المذكرات الصغير هذا . نظرت اليه ، وقالت :

ـ ما هذا الذي تحمله في جيبك ؟

فشعرت بالحمى تسري في أوصالي . هبها ألقت نظرة في داخله ؟ وانتابتني الدهشة حين وجدت نفسي أجيب بصوت طبيعي : «مجرد دفتر ملاحظات للحساب» .

فدسته في جيبي ثانية بلا أدنى اكتراث ، وخرجت . عليّ أن أكون أكثر حذراً . إن انطباعات مباشرة كهذه ليست بذات قيمة الا حينما يكون الشخص الآخر جاهلاً بها كل الجهل . إنها ستكون مصدر تسلية لصديقي فاسيا .

٢١ حزيران

إن ليزا تذهلني . هي في الحادية والعشرين . فمتى تسنى لها أن تغدو متحللة الى هذا الحد ؟أي نمط من العوائل عائلتها ؟ من كانت له يد في تنشئتها ؟ إن هذه الأسئلة تثير فيّ أقصى الاهتمام ، إنها جميلة بشكل مريع . وهي فخورة بقوامها الكامل . إنها تعبد نفسها ، وليس في العالم شيء يهمها غير ذلك ، لقد حاولت مراراً أن أبدأ معها حديثاً جدياً ، ولكن... . أن تقنع«مؤمناً قديماً» بعدم وجود الله أسهل من تعيد تربية ليزا .

لقد غدا العيش سوية أمراً مستحيلاً وسخيفاً . ومع ذلك فإنني أشعر بالتردد إزاء فصم العلاقة . ولا بد لي من الاقرار بأنني غدوت كلفا بها رغم كل شيء . لقد غدت جزءاً مني .

٢٤ حزيران

تبين أن غيظها له أسباب بسيطة . تبادلنا حديثاً مكشوفاً اليوم وأخبرتني بأنني لم استطع أن اشبع جسدها . لم يتم الانفصام بعد . لعل ذلك في غضون بضعة أيام .

٢٦ حزيران

إن ما نحتاج اليه هو جواد فحل! فحل بمعنى الكلمة!

٢٨ حزيران

يشق عليّ كثيراً أن أتخلى عنها . إني التصق بها التصاق القدم بالوحل . خرجنا اليوم الى تلال فورو بيوفي . جلست بجانب نافذة الفندق وترشحت الشمس من تحت السقف المزخرف على جعدات شعرها . إن لشعرها لون الذهب الخالص . ها أنا قد غدوت أنظم شعراً!

٤ تموز

تركت عملي ، اذ تركتني ليزا . شربت اليوم جعة مع ستررزنيف . بالأمس شربنا الفودكا . افترقنا ، أنا وليزا ، كما يفترض في الناس المهذبين أن يفترقوا ، وبطريقة لانقة بلا منغصات . واليوم رأيتها في شارع دميتروفكا بصحبة شاب يرتدي جزمة راكبي السباق . استجابت لتحيتي بتحفظ . لعل الوقت قد حان لأن أتوقف عن كتابة هذه المذكرات ـ فقد نضب معينها .

٣٠ تموز

انني ملزم على ماكنت أتوقع تماماً بتناول القلم من جديد . هي الحرب . حماس بهيمي متفجر . كل أصحاب القبعات العالية يفوحون بالوطنية كالكلاب الميتة . الآخرون ساخطون ، غير أنني أشعر بالرضا . لقد أضناني الحنين الى... . «فردوسي المفقود» . طاف بي ليلة أمس حلم هادىء صغير عن ليزا . لقد خلفت فيّ أثراً عميقاً من التشوق . ليته يتجلى .

١ آب

لقد سئمت من كل هذا الضجيج والاضطراب . عاودني الحنين القديم . أنا امصه كمايمص طفل مصاصة .

٣ آب

مخرج من الأزمة! سوف أمضي الى الحرب . حماقة ؟ تماماً . شيء مخجل ؟

ولكن ماعساني أفعل غير ذلك ؟ واه على أي شيء له طعم مغايرا ومع ذلك ، فقبل عامين لم يكن لدي أي شعور بالتخمة كهذا . أم ترى أن الهرم بدأ يدب فيّ ؟

٧ آب

ها أنا أكتب في القطار . لقد تركنا فورونيج لتونا . وفي الغد سأكون بين أهلي . لقد اتخذت قراري . سوف أحارب من أجل «الدين والقيصر ، وأرض الاجداد» .

١٢ آب

يا للتوديع الحافل الذي شيعوني به . كَرَع الأتمان قدحاً أو قدحين ثم القى خطبة جياشة . واخبرته همساً ، بعد ذلك ، إنه أحمق . فصعق ، حتى أن خديه اخضر لونهما مهانة . ثم فح صوته بحقد : «أنا أيضاً أفهم في الأمر . عسى الا تكون واحداً من أولئك الذين اذقناهم لفح السوط عام ١٩٠٥ ، أليس كذلك ؟» فأجبت بأنني ، مع الأسف الشديد ، لست «واحداً من أولئك» . بكى أبي وحاول أن يقبلني وقطرة سائلة تتدلى من أرنبة أنفه . يالأبي العزيز المسكين! كان عليه أن يكون في مكاني . واقترحت عليه هازلاً

أن عليه أن يأتي معي ، فهتف مذهولاً : «ولكن ماذا عن شؤون الضيعة ؟» . غداً ، سأغادرهم ميمماً شطر المحطة .

١٣ آب

هنا وهناك ، حقول قمح غير محصود . سناجب أرضية على الاكمات . إن لها شبهاً عجيباً بالألمان الذين نراهم في الصور الرخيصة وقد انغرز فيهم رمح كوزما كروتشكوف . كان ياما كان ، ويوم كنت تلميذاً أدرس الرياضيات والعلوم الدقيقة الأخرى ، لم يمر في خاطري قط أنني سأعيش الى اليوم الذي أجد فيه نفسي«داعية وطنياً» . ما أن التحق بإحدى الكتائب حتى أتوجه بخطبة الى القوزاق .

٢٢ آب

في إحدى المحطات الواقعة على الخط الحديدي رأيت أول جماعة من الاسرى . كان ضابط نمساوي وسيم رياضي البنية يساق تحت الحراسة صوب بناية المحطة . وكان ثمة فتاتان تتمشيان على الرصيف ، فابتسمتا له . واستطاع أن يدبر لهما انحناءة أنيقة جداً دون أن يتوقف ، وأطار قبلة في الهواء صوبهما . كان ، حتى في أسره ، حليق الذقن ، مهذباً ، وجزمته البنية ملمعة . لبثت أراقبه وهو يمضي مبتعداً . شاب وسيم ، وجه لطيف ودود . لو صادفته في معركة ، لما ارتفعت ذراعك لضربه .

٢٤ آب

لا جنون ، لاجنون ،لاجنون... إن كافة الخطوط الحديدية مزدحمة بقطر من اللاجئين والوحدات العسكرية .

مر أول قطار طبي تواً . وحينما توقف قفز منه جندي فتي . وجهه معصوب . تحادثنا . كان قد جرح بقذيفة عنقودية . كان فرحاً الى حد كبير

لأن من المحتمل أن يعفى من أية خدمة عسكرية أخرى . كانت عينه تالفة . على أنه كان يضحك في الواقع .

٢٧ آب

أنا الآن في كتيبتي . وآمر الكتيبة شيخ لطيف جداً . قوزاقي من الدون الأسفل . إن بمقدور المرء أن يشم رائحة الدم هنا . والشائعات تسري بأننا سنكون في الخط الأمامي بعد غد . أنا في الرعيل الثالث من السرية الثالثة ـ قوزاق من ناحية قسطنطينوفسكايا . رهط تعس . ليس بينهم سوى ماجن ومغن واحد .

٢٨ آب

نحن في الطريق . واليوم ، ينبعث من هناك الكثير من الجلبة . أصوات كالرعد تقصف من بعيد . حتى أنني تشممت الهواء بحثاً عن المطر . بيد أن السماء كانت كالحرير الأزرق .

أمس ، صار حصاني أعرج ، فقد سحج ساقه في عجلة مطبخ الميدان . كل شيء جديد وغريب . لست أدري بم أبدأ وعم أكتب .

٣٠ آب

أمس لم يكن لدي وقت للكتابة . وها أنا الآن أكتب على السرج . ان الارتجاج يجعل قلمي يخط غرائب وعجائب . نحن ثلاثة ماضون على خيلنا مع عجلة علف لجلب العشب .

هاهم الاولاد يقومون بحزم الحمولة ، وأنا متمدد على بطني أدون تسجيلاً متأخراً لما حدث أمس . أمس ، العريف تولوكونيكوف(الذي يناديني باحتقار« أيها التلميذ » ، « لا اسمع يا أنت ، أيها التلميذ ، الا تستطيع أن ترى أن حدوة حصانك قد انخلعت ؟ ») ـ هذا العريف أرسل ستة منا للاستطلاع .

مضينا عبر قرية التهمتها النار عن آخرها . كان الجو شديد الحر . كانت الخيل تتصبب عرقاً ، وكذلك نحن . لا يجوز الزام القوزاق بارتداء السراويل الجوخ في الصيف . في حفرة خارج القرية رأيت أول جثة الماني . ملقى على ظهره وساقاه في الحفرة . التوت احدى ذراعيه تحته . بينما أطبقت الثانية على حافظة بندقية .لابندقية في أي مكان على مقربة منه . منظر مميت ، قشعريرة باردة تسري الآن في عمودي الفقري وأنا أفكر به... .

بدا وكأنه قد قعد وساقاه في الحفرة ، ثم تمدد على ظهره للاستراحة . بزة وخوذة رماديتان . باستطاعتك أن ترى البطانة الجلدية . لقد أصابني ذهول في هذه التجربة الاولى حتى صار من المستحيل عليّ الان تذكّر وجهه . لا شيء سوى النمل الكبير الأصفر يتزاحف فوق جبينه الأصفر وعينيه الجامدتين نصف المغمضتين . أما القوزاق فقد رسموا إشارة الصليب عليهم وهم يمرون بجانبه . نظرت الى بقعة الدم الصغيرة على الجانب الأيمن من بزته . لقد أصابته الرصاصة في جانبه الأيمن واخترقته . وبينما كنت أمر به لاحظت أن في الجانب الأيسر حيث خرجت الرصاصة من جسمه كانت البقعة الحمراء على بزته وكتلة الدم على الأرض أكبر بكثير ، والبزة ممزقة ارباً اربا .

تركته والقشعريرة تخضني ، اذن ، هكذا يحدث الأمر... .

العريف الأقدم ، المكنّى«بالمزعج» ، حاول أن يستنهض مرحنا بأن راح يقص علينا حكاية بذيئة ، بيد أن شفتيه كانتا ترتعشان .

وبعد مسيرة نصف فرست تقريباً من القرية ، صادفنا معملاً مبقور البطن ، لم يبق منه سوى حيطان من الطابوق سودها الدخان عند القمة . خشينا ان نمضي باستقامة الطريق لأنه كان يمتد بمحاذاة هذا التل من الرماد ، فقررنا ان ندور حوله من الجانب الآخر . وما ان خرجنا عن الطريق حتى شرع أحدهم باطلاق الرصاص علينا من جهة المعمل .لقد كاد صوت تلك الطلقة الاولى أن يقلبني من على سرجي ، وإن كنت أشعر بالخجل من

الاقرار بذلك . قبضت على رمانة السرج ، وبحركة غريزية انحنيت وشددت على العنان . انطلقنا عائدين هذباً الى القرية مارين بالحفرة التي رقد فيها الالماني القتيل ، ولم نستعد صوابنا الا بعد أن خلفنا القرية وراءنا . ثم استدرنا وترجلنا . تركنا الخيل مع رجلين ، وشق أربعتنا الطريق عائدين الى تلك الحفرة . جثونا لنمضي خلالها . ومن بعيد وقع بصري على ساقي الالماني القتيل في جزمتهما الصفراء القصيرة ، مدلاتين فوق الحافة . وحينمامررت به قطعت نَفَسي ، كما لو كان نائماً أخشى إيقاظه . كان العشب تحته ندياً أخضر .

تمددنا في الحفرة ، وما أن مرت بضع دقائق حتى انطلق تسعة ألمان منح املي الحراب راكبين من وراء خرائب المعمل المهدوم . كان بمقدوري أن أشخص فيهم حاملي حراب من بزاتهم . صاح أحدهم ، ضابط حتماً ، بصوت غليظ ، فانطلقت المفرزة برمتها باتجاهنا .

هاهم الاولاد ينادون عليّ الآن لاذهب لمساعدتهم في تحميل العشب . يجب أن أمضي .

٣٠ آب

أريد أن أتم وصف كيف أطلقت الرصاص على رجل لأول مرة في حياتي . هجم حاملوا الحراب الالمان علينا ، ولا أزال أستطيع أن أرى تلكم البزات الخضر بلون السحالي وخوذهم المتلألئة التي تشبه الأجراس شكلاً ، ورماحهم والأعلام ترفرف في رؤوسها .

كانوا يمتطون خيلاً كمتاً غامقة اللون . ولسبب ما سرحت بنظري على حافة الحفرة ولاحظت خنفساء صغيرة زمردية . راح جرمها يكبر حتى بدت هائلة الحجم . وجعلت تشق طريقها ، وهي تهز أوراق الحشيش كالعملاق ، متجهة صوب مرفقي الذي كنت قد ركزته على فتات الطين الجاف للحافة . تسلقت كم قمصلتي وزحفت مسرعة نحو البندقية ، ومنها الى الحمالة .

كنت لا أزال اراقب رحلتها حينما تناهى اليّ صوت «المزعج»زاعقاً : «اطلق النار ، ماذا دهاك ؟!»

ركزت مرفقي بثبات أكثر ، وضيقت عيني اليسرى وشعرت بقلبي يتضخم حتى غدا هائلاً كتلك الخنفساء . وارتعشت موجهات بندقيتي ازاء بزة رمادية مخضوضرة .ضغطت على الزناد واستمعت الى نواح الرصاصة الطائر . والى جانبي اطلق«المزعج» ناره ، لا بد أن موجهاتي كانت خفيضة اكثر مما يجب ، ذلك لأن الرصاصة ارتدت عن الارض فأطارت قرمة من العشب وخلفت مثاراً من الغبار . تلك أول طلقة سددتها على رجل في حياتي . ثم افرغت مخزن العتاد دونما تصويب ، ودون أن أرى شيئاً أمامي . ولم ألق نظرة باتجاه الالمان الا حالما سحبت الزناد فلم الق استجابة . كانوا يسرعون عائدين على نفس النمط الأول ، والضابط في المؤخرة . كانوا تسعة كما من قبل . واستطعت أن أرى الكفل الاسمر الغامق لحصان الضابط والصفحة المعدنية في قمة خوذته ، خوذه حاملي الحراب .

٢ أيلول

في «الحرب والسلم» فقرة يتحدث فيها تولستوي عن الخط الفاصل بين الجيشين المتقاتلين ، خط المجهول الذي يبدو أنه يفصل بين الأموات والأحياء ، تمضي السرية التي يخدم فيها نيكولاي روستوف الى القتال ، ويرى روستوف دلك الخط بعيني بصيرته . انني أتذكر تلك الفقرة على وجه التخصيص بشكل حي هذا اليوم ، لأننا في فجر اليوم قمنا بهجوم على وحدة من الخيالة الالمانية الخفيفة . فمنذ غبشة الصباح كانت قواتهم ، تساندها المدفعية الممتازة ، تشيع القلق في صفوف مشاتنا . رأيت بعض رجالنا ـ كتيبتي المشاة ٢٤١و٢٧٣ ، على ما أظن ـ يلوذون بالفرار وقد استبد بهم الرعب . لقد انهارت معنوياتهم تماماً بعد أن دفعوا الى الهجوم من غير ما مدفعية تساندهم . وكانت نار العدو قد حصدت ثلث عددهم تقريباً ، وكانت

الخيالة الالمانية تطاردهم . ثم قذف بكتيبتنا في المعركة ، وكانت تقف في فسحة داخل احدى الغابات . هذا هو الحدث كما أتذكره .

غادرنا قرية تيشفيتشي بين الثانية والثالثة صباحاً . كان الفجر على وشك أن يطل ، والظلام دامساً ، وكان الهواء مفعماً برائحة الشوفان وابر الصنوبر . تقدمت الكتيبة على شكل سرايا . انحرفنا عن الطريق وصرنا نضرب عبر الحقول . وراحت الخيل تنخر وهي تنفض الندى الثقيل عن الشوفان بحوافرها .

كان البرد لاسعاً رغم معاطفنا . جعلوا الكتيبة تسير عبر الحقول وقتاً طويلاً ، ومرت ساعة قبل أن يقدم ضابط على حصانه ويسلم أمراً الى آمرالكتيبة . وتلا شيخنا الأمر علينا بنبرة برمة ، فاستدارت الكتيبة يميناً صوب الغابة . وانحشرت أرتالنا في الممرالضيق . كان القتال يدور في موضع ما الى اليسار . وأدركت من الأصوات ، أن عدداً كبيراً من البطاريات الالمانية تطلق النيران . وكان صوت الرمي يتذبذب في الهواء ، فخامرني شعور بأن كل الصنوبر الشذي فوق رؤوسنا تلتهمه النيران . ولم نكن لنفعل شيئاً غير الإنصات ، حتى مشرق الشمس . انطلق هتاف«هورا» ، هتاف مبتور مهلهل ، ثم خيم السكون يسحبه الطَرق الصافي للمدافع الرشاشة ، وفي تلك اللحظة كانت أفكاري تدور في دوامة ، كان الشيء الوحيد الذي أستطيع تذكره ـ واضحاً كل الوضوح والى حد الالم ـ هو وجوه مشاتنا وهم يتقدمون .

كنت أستطيع أن أرى بعين بصيرتي تلك الهياكل الرمادية الخرقاء ، بقبعاتهم العسكرية المسطحة ، وجزمهم القصيرة الغليظة وهي تضرب على الارض الخريفية ، وكنت أستطيع أن استمع الى ثرثرة المدافع الرشاشة الالمانية ، الحادة المبحوحة ، وقد شرعت تحيل هذه الأجسام البشرية العرقة الحية الى جثث .

كانت الكتيبتان قد حصد منهما الكثير ، فهرب الباقون تاركين

أسلحتهم وراءهم ، ثم أغارت كتيبة من الخيالة الالمانية الخفيفة عليهم . فخرجنا اليهم من جانبهم على مبعدة قليلة . وصدر أمر إلينا . فتشكلنا في الحال . ثم سمعت أمراً بارداً مقتضباً :

«الى الأمام!» . وبدا وكأنه يمنعنا عن التقدّم . كما تفعل الشكيمة بالحصان . ثم انطلقنا إلى الأمام كانت اذنا حصاني ملتصقتين تماماً على رأسه بحيث لم يكن أن ترفع باصابع اليد . ألقيت نظرة حولي ـ كان ورائي آمر الكتيبة وضابطان . أجل ، هو ذاك الخط الفاصل بين الأحياء والأموات . تلك هي ، لحظة الجنون الكبرى!

تخبط الخيالة الالمان واستداروا أمام عيني ، قام آمر سريتنا تشيرنتسوف بقتل فارس ألماني . ورأيت قوزاقياً من السرية السادسة يلحق بألماني ويعمل سيفه بجنون بكفل حصانه . وانثالت شرائط من الجلد عن السيف فيما كان يعلو ويهبط . كان شيئاً لا يصدّق! لا اسم له! وفي طريق العودة رأيت الى وجه تشيرنتسوف ، راسخاً مرحاً ـ وكأنه جالس الى طاولة قمار ، لا على سرجه ،وقد قتل رجلاً لتوه ، سيصعد آمر السرية تشيرنتسوف في مدارج الرقي . إنه رجل كفوء!

٤ أيلول

نحن في فترة استراحة . يجري الآن استقدام الفرقة الرابعة للجيش الثاني الى الجبهة . نحن معسكرون في بلدة كوبيلينو الصغيرة . مرت هذا الصباح مسرعة عبر البلدة وحدات من فرقة الخيالة الحادية عشرة وقوزاق الاورال . مازال القتال مستمراً في الجبهة الغربية . هدير لا ينقطع . ذهبت بعد الغداء الى مستشفى الميدان . كانت عربات الجرحى قد وصلت لتوها . وكان حَمَلة النقالات يفرغون عربة كبيرة ويتضاحكون . مضيت اليهم . كان جندي مديد القامة ذو وجه مجدور قد هبط لتوه بمساعدة نفر وهو يتألم ويبتسم . قال ، موجهاً كلامه الي : «مارأيك بهذا أيها القوزاقي . لقد افرغوا

حملاً من الحمص في عجيزتي . إنها ملأى بنثار قذيفة عنقودية» . فسأله النفر إن كانت القذيفة قد انفجرت خلفه .«اللعنة على خلفي . كنت أتقدم مديراً ظهري الى الأمام» . خرجت ممرضة من أحد الأكواخ . رنوت اليها فشعرت بضعف بالغ حتى أنني اضطررت الى الاتكاء على عربة . كان لها شبه خارق بليزا . العينان نفسيهما ، الوجه البيضوي نفسه ، الأنف ، الشعر ، حتى صوتها كان مشابهاً . أم تراني كنت أتخيل الأشياء ؟ أحسب أنني ، الآن ، سأجد شبهاً لها في كل امرأة أصادفها .

٥ أيلول

نعمت الخيل بيوم كامل من الطعام في المعالف ، وها نحن بصدد المضي الى الجبهة من جديد . أنا حطام من الناحية البدنية . وها هو البوقي يطلق الايعاز بالركوب . هو ذا رجل بودي أن أضع رصاصة في رأسه!»

***

كان آمر السرية قد أرسل غريغوري ميليخوف يحمل رسالة الى مقر قيادة الكتيبة . وفيما كان سائراً على حصانه عبر المنطقة التي وقع فيها القتال الاخير لاحظ قوزاقياً ميتاً ممدداً على قارعة الطريق العام . كان مستلقياً برأسه الاجعد الاشقر قريباً من الطريق الذي حفرته السنابك . فترجل غريغوري وأمسك انفه (فقد كان الميت يفوح بجيفة التفسخ) ، وفتشه . فوجد دفتر المذكرات هذا في جيب سرواله ، وبقية قلم لا يمحي أثره ومحفظة نقود . ازاح سير العتاد ونظر الى الوجه البليل الشاحب الذي جعل يتفسخ . كان لون الصدغين وجسر الانف يحول الى سواد وعلى جبينه أخدود مائل معفر بالتراب وقد جمد هناك جمود الأموات .

غطى غريغوري الوجه بمنديل رقيق القماش وجده في جيب الميت ثم مضى على حصانه الى المقر ، كان يلقي بين الفينة والفينة نظرة الى الوراء...

وسلم دفتر المذكرات الى كُتّاب المقر الذين تجمعوا ليقرؤوه ويضحكوا من حياة هذا الرجل الوجيزة ورغباته الدنيوية .

١٢

خلال بداية شهر آب ، راحت فرقة الفرسان الحادية عشرة تستولي خطفاً على المدن ، واحدة إثر الاخرى ، وفي أواسط الشهر كانوا منتشرين حول بلدة كامينكا ـ سترو ميلو فو . وكان الجيش ، يأتي خلفهم ، ووحدات المشاة تتكتل في قطاعات ستراتيجية مهمة ، ووحدات القيادات وقطر الأمتعة تتجمع عند مفارق خطوط السكك الحديدية . وامتدت الجبهة من البلطيق كلفحة سوط مميتة . وفي مقر هيئة الاركان كان العمل يجري لاعداد هجوم كبير . كان الجنرالات يحدقون في خرائطهم ، والسعاة الفرسان يمرقون جيئة وذهاباً حاملين أوامر المعركة ، وكان مئات الالاف من الجنود يغذون السير نحو حتفهم .

افادت دوريات الاستطلاع أن قوات كبيرة من خيّالة العدو كانت تقترب من البلدة . وفي الغابات الواقعة على امتداد الطرق حدثت مناوشات بين مفارز القوزاق والحرس الأمامي للعدو .

منذ أن رأى غريغوري ميليخوف أخاه وهو يسعى لوضع حد لأفكاره المؤلمة ، ولاستعادة هدوئه الذهني السابق . بيد أن ذلك كان عبثاً . وفي التعزيزات الأخيرة التي جيء بها من وجبة الاحتياط الثالثة ، كان ثمة قوزاقي يدعى اليكسي اوريوبين قد جند في رعيل غريغوري . كان اوريوبين طويل القامة ، ظهره مقوس ، وفكه الاسفل عدائي المظهر ، وعذاراه كالميكيان متهدلان . كانت عيناه الجذلتان الجريئتان دائمتي الابتسام ، وكان أصلع الرأس خلا شعرات مفرقة حمر حول حوافي جمجمته حادة التقاطيع . وقد أطلقت عليه كنية «الاشعث» منذ اليوم الاول لوصوله .

بعد أن انتهى القتال حول بلدة برودي أعطيت الكتيبة يوماً للراحة . كان غريغوري واوريوبين ينزلان كوخاً واحداً ، وسرعان ما ضمهما حديث :

ـ اتعلم ، يا ميليخوف ، لا بد أنك مهلوس .

فتساءل غريغوري متجهماً :

ـ ماذا تعني : مهلوس ؟

فشرح له اوريوبين :

ـ أنت خامل ، كأنك مريض .

كانا يطعمان حصانيهما وقد توقفا يدخنان وظهراهما الى سياج متداع نما عليه الطحلب . كان ثمة فرسان يسيرون في الطريق في تشكيله رباعية ، وجثث الموتى مبعثرة هنا وهناك حذاء الاسيجة ، فقد نشب القتال في الشوارع أثناء انسحاب النمساويين ، وكانت رائحة أشياء محروقة تنبعث من خرائب معبد يهودي مبقور البطن . وفي زحمة الالوان الثرة للمساء المبكر بدت البلدة صورة هائلة واحدة للخراب والفراغ الموحش .

ـ أنا بخير ـ وبصق غريغوري دون أن ينظر الى الآخر .

ـ أنت تكذب! لي عينان أرى بهما!

ـ حسناً ، وما الذي باستطاعتك أن تراه ؟

ـ أنت خائف! تخاف الموت ؟

ـ انك أحمق! ـ قال ذلك غريغوري بازدراء ، وهو يحدق في أظافره بعينين ضيقتين .

فأستأنف اوريوبين استجوابه محدقاً في وجه غريغوري :

ـ قل لي ، هل قتلت أحداً ؟

ـ نعم ، وماذا في ذلك ؟

ـ هل يثقل ذلك على قلبك ؟

ـ يثقل على قلبي ؟

وابتسم غريغوري بمرارة .

فاستل اوريوبين حسامه من غمده ، وقال :

ـ اتريدني أن أطوح برأسك ؟

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ سأقتلك بلا انّه ندم . لا رحمة عندي .

كانت عينا اوريوبين تبتسمان ، ولكن غريغوري ادرك من صوته واختلاجة منخريه الوحشية أنه يعني ما يقول .

فقال غريغوري ، وهو يتفحص وجه اوريوبين عن كثب :

ـ أنت غريب الأطوار ، أنت متوحش .

ـ ياه ، إن قلبك مصنوع من ماء . اتعرف هذه الضربة ؟ انتبه!

وانتقى اوريوبين شجرة بتولا عجوزاً في السياج ، ويمم صوبها مباشرة ، وهو يقيس المسافة بنظرة . وتدلت دونما حراك ذراعاه الطويلتان القويتان برسغيهما العريضين بشكل خارق .

ـ انتبه!

ورفع حسامه ببطء ، وفجأة هوى به مائلاً بقوه فظيعة . فقطع الشجرة كلياً على علو اربعة ارشينات* من الأرض ، فهوت ، واغصانها تخبط على النافذة وتخمش حيطان الكوخ .

ـ أرأيت ذلك ؟ تعلّمه . كان هناك اتمان يدعى باكلانوف ، أسمعت به ؟ كانت شفرة حسامه مسقيه بالفضة . فكان رفعه ثقيلاً ولكنه كان يستطيع أن يشطر حصاناً به . هكذا!

استغرق غريغوري وقتاً طويلاً ليتعلم تكنيك هذه الضربة الجديدة .

ـ أنت قوي ، ولكنك بليد في استعمال سيفك . هذه هي الطريقة!

ومضى اوريوبين يعلمه ، هاوياً بحسامه على نحو مائل وبقوة هائلة . ـ اقتل الناس بقوة قلب! فالانسان رخو كالعجين ـ وسرت ابتسامة الى عينيه ـ

---

* مقياس طول روسي قديم يساوي ٠,٧١ متر . الناشر .

لا تفكر بالاسباب والنتائج . أنت قوزاقي ، مهمتك أن تقتل دون أسئلة . إن قَتْلك عدواً في معركة واجب مقدس . وكل رجل تقتله تكفر لك عن خطيئة عند الرب وكذلك عند قتلك لأفعى ولكن لا تقتل حيواناً الا عند الضرورة ، عجلاً أو غيره ولكن امحق الانسان! إنه كافر ، نجس . يسمم الاراضي ، وهو يعيش مثل نبات الفطر!

واذ اعترض غريغوري على كلامه ، قطب وجهه وخلد الى صمت عنيد .

لاحظ غريغوري مندهشاً ان جميع الخيول كانت تخاف اوريوبين فاذا ما اقترب منها نصبت آذانها وتجمعت معاً وكأن المتقدم منها حيوان لا انسان . وحدث ذات مرة أن كان على السرية أن تشن هجوماً على الاقدام في منطقة تغطيها الغابات والمستنقعات . فاقتيدت الخيول الى وهدة جانبية . وكان اوريوبين من بين الذين انتدبوا لهذا العمل ، الا أنه رفض ذلك رفضاً باتاً . فهاجمه عريف الرعيل : «اوريوبين لماذا بحق الشيطان لا تقود خيلك ؟ »

أجاب اوريوبين والتلألؤ المعهود يومض في عينيه : «إنها تخافني ، والله ، انها تخافني! »

لم يكن ليأخذ دوره في سوس الخيل قط . سوى أنه كان يعامل حصانه بلطف ، بيد أن غريغوري لاحظ أنه كلما اقترب من الحيوان مسبل اليدين كالعادة سرت رجفة في ظهر الحصان وراح يتململ قلقاً .

وسأله غريغوري ذات مرة : «قل لي ، لمَ تخافك الخيل ؟ » فأجاب ، هازاً كتفيه : «لا أدري . فأنا شفيق بها » .

ـ انها تعرف السكير فتخشاه ، ولكنك لا تسكر قط .

ـ عندي قلب قاس ، ويبدو انها تحس بذلك .

ـ ان لك قلب ذئب . أو لعل الذي لديك حجر وليس قلباً البتة .

ـ جائز! ـ رد بذلك اوريوبين موافقاً .

أرسل الرعيل الثالث في مهمة استطلاعية . اذ كان تشيكي هارب من الجيش النمساوي قد أخبر القائد الروسي في المساء السابق عن تحول في

موقف قوات العدو وعن نيته بشن هجوم مضاد ، فاستجدت الحاجة الى بث مراقبة دائمة على الطريق الذي يتعين على الكتائب المعادية أن تجتازه . ترك ضابط الرعيل أربعة قوزاق بصحبه العريف في طرف احدى الغابات ، واتجه هو بالباقين صوب بلدة تقع خلف المرتفع الآخر . وكان الذين تركوا مع العريف هم غريغوري ، واوريوبين ، وميشا كوشيفوي ، وقوزاقي آخر . اتخذوا موقعاً لهم بالقرب من مصلّى قديم .

اصدر العريف لهم أمراً بالترجل وطلب من كوشيفوي أن يقود الخيل الى ماوراء أجمة كثيفة من أشجار الصنوبر ويعنى بها .

استلقى القوزاق يدخنون بجانب صنوبرة ساقطة ، فيما راح العريف يراقب المدى خلل منظارته . ولبثوا هناك نصف ساعة يتبادلون جملاً كسلى . وكان يتناهى من مكان ما الى اليمين هدير رمي متواصل . وكان ثمة حقل من الجويدار غير المحصود على مبعدة بضع خطوات ، لم تعد سنابله تحمل حبوباً ، يتماوج في مهب الريح . فزحف غريغوري الى داخل الجويدار ، وانتقى بضع سنابل لم تزل محملة ، فقشرها ومضى يمضغ الحبوب .

قال العريف بصوت خفيض :

ـ لا بد أنهم نمساويون .

انتفض سيلانتييف : ـ أين ؟

ـ انظر الى اليمين .

خرجت ثلة من الفرسان من غابة بعيدة وتوقفت لتتفحص المنطقة المكشوفة ، ثم استأنفت عدوها باتجاه القوزاق .

صاح العريف : ـ ميليخوف!

زحف غريغوري الى شجر الصنوبر .

همس العريف بنبرة محمومة :

ـ لندعهم يقتربون ثم نَصْليهم بنارنا استعدوا ببنادقكم ، يا أولاد .

مضى الفرسان من غير عجلة متجهين الى اليمين . أما القوزاق الاربعة فكانوا منبطحين تحت الصنوبر صامتين وأنفاسهم محبوسة . تناهى الى مسامعهم صوت جهير يتكلم بالالمانية .

رفع غريغوري رأسه . كانوا ستة من الخيالة المجريين بقمصلاتهم الأنيقة المزركشة بالضفائر والشرائط البيض . وكان قائدهم يمتطي حصاناً أدهم ضخماً ويمسك بغدارته بين يديه ، وهو يضحك بهدوء .

وانطلق أمر العريف : «ارم!» فاندفعت رشقة الرصاص تتصادى خلل الاشجار .

وجاءت صيحة مذعورة من كوشيفوي من وراء أشجار الصنوبر : «ماذا حدث ؟ هوه ، أيها الشيطان! اهدأ في مكانك!» . وبدا صوته عالياً جداً . وهرع الخيالة هذباً الى داخل حقل الجويدار في تشكيلة أحادية . واطلق أحدهم ، وهو القائد ، طلقة في الهواء واقعى أخرهم ، وهو يتشبث برقبة الحصان ويمسك قبعته بيده اليسرى .

كان اوريوبين أول من وثب على قدميه . واسرع متعثراً خلل الجويدار وهو يرفع بندقيته مستعداً لاطلاق النار . وعلى مبعدة مائة خطوة تقريباً ، وجد حصاناً منطرحاً على الأرض يرفس وينافح ، وخيالاً مجرياً واقفاً الى جانبه يفرك ركبته التي اصيبت عند السقوط . هتف بشيء لاوريوبين ورفع يديه علامة الاستسلام وهو يحدق في رفاقه المتراجعين .

حدث كل هذا بسرعة كبيرة بحيث لم يتسن لغريغوري أن يستوعب ماكان يجري حينما عاد اوريوبين بالاسير .

صرخ اوريوبين بالمجري : «جرده!» وهو يجرده بفظاظة من سيفه .

فابتسم الاسير مذعوراً ، واسرع يتلمس نطاقاً سعيا لتسليم السيف بأسرع مايمكن . لكن يديه ارتعشتا ، ولم يستطع أن يفلح في حل المشبك . فعاونه غريغوري بحذر ، فشكره الخيال بابتسامة وايماءة من رأسه ، وكان فتى منتفخ الخدين تعلو زاوية شفتيه العليا شامة صغيرة . وبدا

سعيداً بتجريده من السلاح ، ثم نقب في جيبه باضطراب واخرج كيساً جلدياً ، وغمغم بشيء وقدم تبغاً للقوزاق .

ـ انه يعزمنا! ـ وابتسم العريف ومدّ يده باحثاً عن أوراق سكائره . وقهقه سيلانتييف قائلاً : «لندخن على حساب الغير» .

ولف القوزاق سكائر من تبغ الخيال ودخنوا . وسرعان ما صعد التبغ الاسود القوي الى رؤوسهم .

وتساءل العريف وهو يسحب نفساً شرهاً من سيكارته : «أين بندقيته ؟» .

فقال اوريوبين : «هي ذي» ، وكشف من وراء ظهره عن الحمالة الصفراء المخاطة . قال العريف :

ـ من الأفضل أن نأخذه الى السرية . فسوف يرغبون في سماع مالديه . من منكم سيأخذه ، ياأولاد ؟ ـ ونحنح ومر عينيه على القوزاق .

فأسرع اوريوبين مجيباً : «أنا» .

ـ حسناً ، هيا!

وبدا على الاسير أنه أدرك ما كان ينتظره ، اذ أنه ابتسم ابتسامة شوهاء ، وأفرغ جيوبه ، وقدم للقوزاق شيئاً من الشيكولاته الطرية المتكسرة . وراح يتأتىء ، وهو يلوح بارتباك ، ويده ممدودة بالشكولاته : «روسين ابش... روسين... ناين اوستريش...»*

فسأله العريف : «هل من أسلحة لديك ؟ لا تقعقع هكذا ، فنحن لا نقدر أن نفهمك هل لديك مسدس ؟ طاق ـ طاق ؟» وسحب العريف زنادا خالياً . فهز الاسير رأسه نفياً .

وعرض عليهم أن يفتشوه عن طيب خاطر ، وخداه المنتفخان يرتعشان . والدم يسيل من خدشة على ركبته فمسحها بالمنديل وتمطق

* بالالمانية ما معناه : أنا مع روسيا... مع روسيا... لا مع النمسا . المترجمون

بالشفتين ودمدم بلا انقطاع ، وكان قد ترك قبعته بجانب حصانه الميت ، فسأل أن يسمح له بجلبها مع بطانيته ودفتر ملاحظاته حيث كان يحتفظ بتصاوير عائلته . وبذل العريف جهداً في محاولة فهمه غير أنه لوح بيده في النهاية يائساً وقال :

ـ هيا امض به!

فامتطى اوريوبين حصانه ، ثم أشار الى الاسير ، وهو يصلح من وضع بندقيته على ظهره . واذ استشعر المجري التشجيع من ابتسامة اوريوبين ، ابتسم هو الآخر وسار بجانب الحصان . وحاول أن يشيع الالفة بينهما فربت على ركبة اوريوبين ، غير أن القوزاقي أطاح بيده عن ركبته بفظاظه وشد العنان على حصانه .

ـ هيا امض . لا تجرب أيا من حيلك معي!

فابتعد الاسير عن الحصان كمن اقترف ذنباً ، وسار مكتئب الوجه ، وهو لا يني ينظر الى الوراء نحو القوزاق الاخرين ، وقد انتصب شعره الأشقر متألقاً على تاج رأسه . هكذا انطبعت صورته في ذاكرة غريغوري : بقمصلته الملقاة على كتفه ، وشعره الأشقر المنفوش ، ومشيته المتزنة الوثوق .

أصدر العريف أمراً : «ميليخوف ، اذهب وحل السرج عن الحصان!» وقذف من فمه آسفاً عقب سيكارته التي كان قد دخنها حتى احرقت أصابعه . فسار غريغوري الى الحيوان الطريح ، وازاح عنه السرج ، ولسبب مبهم التقط القبعة المطروحة على مسافة قريبة . فتشمم بطانتها وأحس برائحة الصابون الرخيص والعرق . وعاد يحمل عدة الحصان الى أجمه الاشجار وهو يمسك باعتناء بقبعة الخيال في يده اليسرى . فقرفص القوزاق على مؤخراتهم وراحوا ينقبون في خرج السرج متأملين الشكل الغريب للسرج .

ـ كان تبغه جيداً . كان علينا أن نطلب منه المزيد .

ـ نعم تبغه جيد .

وتأوه العريف وهو يستعيد طعم السيكاره وبلع ريقه .

ولم تكد تمضي بضع دقائق حتى ظهر رأس حصان من بين أشجار الصنوبر ، ثم جاء اوريوبين على حصانه . فهتف العريف وهو ينتفض مذهولاً :

ـ ماذا ، أين النمساوي ؟ لعلك لم تدعه يهرب ؟ فاقترب اوريوبين وهو يلوح بسوطه ، ثم ترجل ومط كتفيه . فتساءل العريف من جديد وهو يمضي اليه : «ماالذي صنعت بالنمساوي ؟ »

فرد اوريوبين مزمجراً : «لقد حاول أن يهرب» .

ـ تركته يهرب ؟

ـ بلغنا ممراً مكشوفاً ، وأراد... . ولهذا قتلته . فصرخ غريغوري :

ـ أنت كذاب ! انك قتلته بدون أي سبب .

ـ علام تصرخ ؟ ماعلاقتك بذلك ؟ـ وسمرّ اوريوبين عينيه في وجه غريغوري .

ـ ماذا ؟

وكان غريغوري ينهض ببطء ، ويده المرتعشة تتلمس الأرض . فأجاب الآخر بصرامة :

ـ لا تتدخل بما لايجوز لك! أفهمت ؟

فنتش غريغوري بندقيته ورفعها . وراح اصبعه يرتعش وهو يتلمس طريقه الى الزناد ووجهه المكفهر يعتمل غضباً .

فهتف العريف متوعداً وهو يهرع اليه : «على مهلك!» ، وطوح بالبندقية قبل أن تنطلق ، فأطارت الرصاصة غصناً من أحد الاشجار وابتعدت تئز . فشهق كوشيفوي صائحاً : «ماالأمر ؟ »

وتهدل فك سيلانتييف فقعد فاغر الفم .

دفع العريف غريغوري في صدره وانتزع البندقية من يديه ، فيما وقف اوريوبين دون أن يغير موضعه ، وقد باعد بين ساقيه ، ويده اليسرى على نطاقه .

ـ هيا ، اطلق النار من جديد!

ـ لسوف اقتلك! ـ واندفع غريغوري صوبه . فصاح العريف :

ـ مهلاً ، علام كل هذا ؟ أتريد أن تحاكم أمام محكمة عسكرية وتعدم ؟

ودفع غريغوري الى الوراء ، ثم وضع نفسه بين الرجلين وقد بسط ذراعيه .

ـ أنت تكذب ، لن تقتلني! ـ وابتسم اوريوبين .

ـ وبينما كانوا في طريق عودتهم ، كان غريغوري أول من رأى جثة الخيال ملقاة في الممر . فسار أمام الآخرين ، ثم كبح جماح حصانه الخائف وجعل يحدّق الى أسفل . كان الرجل ممدداً وذراعاه منشوران فوق الطحلب المخملي ، ووجهه الى أسفل ، وراحتاه الصفراوان كأوراق الخريف ، مبسوطتان الى أعلى . كانت ضربة فظيعة من الخلف قد شطرته نصفين من الكتف الى النطاق .

ـ شطره شطرين... . ـ غمغم العريف بذلك فيما كان يمر ناظراً بذعر الى شعر القتيل الاشقر المنفوش ، وقد مال جانباً عن الرأس الملتوي .

مر القوزاق على خيلهم صامتين الى مقر قيادة السرية . كانت ظلال المساء قد ادلهمت ، وثمة نسيم يصعّد غيمة سوداء رقيقة من الغرب . ومن مستنقع قريب انبعثت رائحة ثقيلة من أعشاب المستنقعات ومن الرطوبة الدبقة والعفونة . وهدر طائر الأنيس . ولم يكن يقطع الصمت الوسنان سوى جلجلة عدة الخيل ، وصليل السيوف على الركائب بين الحين والحين ، أو خشخشة مخاريط الصنوبر حين تهرسها حوافر الخيل . كان الألق المخضّب المدلهم للشمس الراحلة ينساب فوق جذوع الصنوبر خلال الممر . ظل اوريوبين يدخن بلا انقطاع ، وكان الشرر المتطاير من سيكارته يضيء أصابعه الغليظة بأظفارها المسودّة ، وهي تعتصر السيكارة عصراً .

طافت الغيمة فوق الغابة ، فادلهمّت الألوان الذاوية لظلال المساء وعمقت اساها الذي يعز عن الوصف .

بدأ في الصباح التالي هجوم على البلدة . كان المفروض أن يتقدم المشاة من ناحية الغابة عند الفجر ، يعززهم الفرسان من الجانبين ، فيما تقف وحدات أخرى من الفرسان احتياطاً . ولكن خطأ ارتكب في موضع ما ومن جهة ما ، فلم تصل كتيبتا المشاة في الوقت المحدد . فصدر أمر لكتيبة البنادق رقم ٢١١ بالعبور صوب الجناح الأيسر ، وفي أثناء حركة الالتفاف التي بدأتها كتيبة أخرى ، تعرضت الأولى لنيران صبتها عليها البطارية التابعة لها . فحصل اضطراب وبلبلة مهلكة قلبت الخطط ، وبات مصير الهجوم يتهدده الفشل ، إن لم يكن كارثة . وبينما كان المشاة ينقلون هنا وهناك والمدفعية تجرجر مدافعها من أحد المستنقعات حيث أرسلت بناء على أوامر صدرت من جهه ما ، هبط أمر بالتقدم على فرقة الفرسان الحادية عشرة . بيد أن الأرض التي أوقفوا فيها على أهبة الاستعداد كانت أرض غابات ومستنقعات ، فلم يكن بمستطاعهم ، والحالة هذه ، أن يشنوا هجوماً جبهوياً واسعاً ، وصار على القوزاق في بعض الأحيان أن يتقدموا رعائل . وكانت السريتان الرابعة والخامسة التابعتان للكتيبة الثانية عشرة قد وضعتا احتياطاً في الغابة ، فلم ينقض ربع ساعة على بدء التقدم العام حتى تناهت الى أسماعهم ضوضاء المعركة الهادرة القاصفة .

انطلق هتاف راعش مديد . ومن حين لآخر ، كان قوزاقي يتكلم .

ـ هذه منّا .

ـ لقد بدؤوا .

ـ أي صخب يبعثه ذلك المدفع الرشاش .

ـ يحصد أصحابنا ، على مايبدو .

ـ صمتوا ، ها ؟

ـ لا ، ليس هناك بعد .

ـ يعني سندخل المعمعان بعد قليل .

سيقت السريتان الى ممر في الغابة . فأحاطت بهما جذوع الصنوبر القوية وحجبتهما عن تتبع سير المعركة . مرت بهم سرية من المشاة تكاد تركض خبباً . وتوقف ضابط صف ، أنيق المظهر خفيف الحركة ، وصاح بصوت أجش في الصفوف الخلفية :

ـ نظام ، ايتها الصفوف!

ومضت السرية وعدتها تجلجل ، ثم اختفت في أجمة من أشجار الحور الرومي .

ومن بعيد ، تناهى ذلك الهتاف الراعش ، خافتاً خلال الاشجار ، ثم انقطع على حين غرة وخيم صمت عميق .

ـ لقد وصلوا هناك الآن .

ـ أي ، هم الآن في المعمعان... يقتتلون .

أصاخ القوزاق السمع ، غير أنهم لم يستطيعوا أن يسمعوا أكثر من ذلك . فمن الجناح الأيمن ، كانت المدفعية النمساوية تقصف بقذائفها صوب القوات المهاجمة ، وكان القصف تتخلله لعلعة المدافع الرشاشة .

القى غريغوري نظرة على رعيله . كان القوزاق يتململون بعصبية ، والخيل لا يقر لها قرار وكأن ذباباً يضايقها . وكان اوريوبين قد علق قبعته على قربوس سرجه وراح يمسح رأسه الأصلع ، فيما كان ميشا كوشيفوي الى جانب غريغوري ينفث بقوة دخان تبغة المحلّي . كانت كل الأشياء من حوله متميزة وحقيقية أكثر مما هي في الواقع ، تماماً كما تبدو غبّ ليلة مؤرقة .

ابقيت السريتان في الاحتياط ثلاث ساعات . كان الرمي يتلاشى حيناً ، ويرتفع حيناً ، وهدرت طائرة من عل . وبعد بضع دورات على ارتفاع شاهق ، يممت صوب الشرق موغلة في الارتفاع ، وانتثرت على صفحة السماء الزرقاء نفثات بلون اللبن لقذائف متفجرة أطلقتها المدافع المضادة للطائرات .

نفذت كل عدة التبغ ، كان الرجال يتحرقون الى نتيجة ما حينما قدم قبيل الظهر مراسل يحمل تعليمات ، وهو يعدو هذبا على جواده . فقاد آمر السرية الرابعة رجاله في الحال الى احد الجوانب . وبدا لغريغوري انهم لايتقدمون ، بل يتراجعون . اما سريته هو فقد سارت خلال الغابة زهاء عشرين دقيقة ، وضوضاء المعركة تقترب منهم قليلا قليلا . وعلى مسافة غير بعيدة خلفهم كانت بطارية تطلق نيرانها سريعة ، فتشق القذائف طريقها خلال السماء المنيعة بهدير زاعق . وقد أدت ممرات الغابة الضيقة الى تشتيت نظام السرية ، فخرجت الى العراء بلا نظام وعلى مبعدة نصف فرست تقريبا كان فرسان مجريون يعملون السيوف برجال بطارية روسية .

فصاح الامر :

ـ سرية ، انتظم!

ولم يكن القوزاق قد نفذوا الى فحوى الامر تماما حتى انطلق الامر الثاني :

ـ سرية ، استلوا السيوف . هجوما الى الامام !

فومض بريق خاطف ازرق من السيوف . وانطلق القوزاق من الخبب الخفيف الى هذب سريع .

كان ستة فرسان مجريين منشغلين بخيل مدفع الميدان في الطرف الايمن للبطارية . وكان احدهم يجرجر شكائم خيل البطارية الهائجة ، واخر يضربها ببطن سيفه ، فيما كان الباقون المترجلون يدورون ويسحبون قضبان عجلات العربة . وكان ضابط يصدر أوامره من على فرس بنية قصيرة الذيل . واذ لمحوا الفرسان القوزاق ، قفزوا الى خيلهم .

ـ«اسرع ، فاسرع» ومضى غريغوري يستحث ايقاع حصانه المنطلق . وبينما هو في انطلاقه ، انزلقت احدى قدميه لحظة من ركابها ، فأحس بالقلق فوق سرجه وخالجه ذعر داخلي ، فانحنى وتلمس برأس قدمه الرِكاب

السائب . وحينما استرجع موضع قدمه ، صعد نظره فوجد نفسه أمام الجياد الستة لمدفع الميدان . كان الحارس المتقدّم ممدداً فوق رقبة الحيوان ، محتضنها ، وقد تناثر الدم والمخ على قميصه . فوطأ حصان غريغوري جثة المدفعي القتيل بحافره محدثاً خشخشة فظيعة . وكان اثنان آخران ممددين بجانب حافظة قذائف مقلوبة . وكان رابع قد هوى على عربة المدفع ، ووجهه الى اسفل . كان سيلانتييف أمام غريغوري مباشرة . وأطلق الضابط المجري النار ، برمية تكاد تكون أفقية ، فهوى القوزاقي ، ويداه تمسكان بالهواء وتحتضنانه . جر غريغوري عنان حصانه ، وحاول أن يغير على الضابط من جهة اليسار ، حيث يستطيع أن يستعمل سيفه بشكل أفضل ، بيد أن الضابط أدرك مناورته فأطلق عليه النار من تحت ذراعه . واذ وجد أن عتاد مسدسه قد نفذ ، استل سيفه . وأفلح في تجنب ثلاث ضربات قاصمة بمهارة المبارز الخبير . فصرّ غريغوري على أسنانه ، وانقض عليه بضربة رابعة وهو منتصب على ركابه . حصاناهما يعدوان الآن جنباً الى جنب تقريباً ، فاستطاع أن يلمح خد الضابط الحليق الداكن ورقم كتيبته المطرزعلى ياقته . وبحركة خادعة أفلح غريغوري في حرف انتباه الضابط ، ثم غير اتجاه ضربته وغرز نصل سيفه بين لوحي كتف المجري . ثم سدد ضربة ثانية على رقبته ، في أعلى العمود الفقري تماماً . فأسقط الضابط سيفه والعنان من يديه ، وقوّس ظهره كمن أصابته لسعة ، ثم انكفأ على قربوس سرجه ، واذ استشعر غريغوري راحة فظيعة لفحة بضربة على رأسه ، فرأى سيفه ينفذ الى العظم فوق اذنه .

ثم نزلت على غريغوري ضربة فظيعة من الخلف افقدته وعيه . وأحس مذاق الدم المالح المحروق في حلقه ، فأدرك انه يهوى ، ورأى الأرض الجرداء تتقدم نحوه من الجانب مدومة ، محومة في الجو . وحينما طاح على الأرض ، أعاده صوت السقوط العنيف الى وعيه لحظة . ففتح عينيه ، فتدفق الدم فيهما . ومرّت باذنيه قعقعة . وأنفاس خيل مجهدة . ثم فتح

عينيه للمرة الاخيرة ورأى منخري حصان ورديين مفتوحين ، وقدم انسان ما في ركاب . «النهاية!» انسلت الخاطرة المريحة خلل ذهنه ، كالافعى . وضج هدير ما ، ثم خيّم فراغ مظلم .

١٤

في بداية آب قرر يفغيني ليستنتسكي أن يقدم طلباً بنقله من كتيبة حرس الاتمان الخاص* الى أحد الكتائب القوزاقية الاعتيادية . فحرر طلبه الرسمي ، وبعد ثلاثة أسابيع جاءه أمر النقل المطلوب . وقبل أن يغادر بتروغراد كتب الى أبيه يقول :

«والدي . لقد قدمت طلباً بنقلي من كتيبة الاتمان الى الجيش النظامي . ولقد استلمت اليوم أمر نقلي ، وأنا راحل الى الجبهة للمثول أمام آمر الفيلق الثاني . لعلك ستندهش لقراري هذا ، غير أنني أود أن اشرح دوافعي اليه . لقد سئمت ما يحيط بي هنا . استعراضات ، حراسة ، واجبات خفارة – إن خدمتي في القصر توتّر أعصابي . وأنا برم بها . انني أريد عملاً حيّاًأو - كما تشاء - أعمالاً بطولية . أحسب أنه دم آل ليستنتسكي الذي بدأ يفصح عن نفسه عندي ، ذلك الدم الطاهر لاولئك الذين ضاعفوا ، منذ حرب ١٨١٢ ، أكاليل الغار على مجد السلاح الروسي . اني ذاهب الى الجبهة . أرجو أن تمنحني بركتك . رأيت الامبراطور في الاسبوع الماضي قبل أن يغادر مقرّه . انني أعبد هذا الرجل . كنت أقف للحراسة داخل القصر . وحينما مرّ بي ابتسم وقال بالانكليزية لرودزيانكو الذي كان بصحبته : «حرسي المجيد . سأضرب على يد فيلهلم** به» . انني أعبده ، كما تفعل صبية صغيرة . ولست خجلاً من الاعتراف بذلك ، رغم أنني قد تعديت

---

* المقصود الحرس الامبراطوري الخاص . المترجمون

** امبراطور النمسا آنئذ . المترجمون

الثامنة والعشرين من عمري . ان القيل والقال الذي يدور في القصر يسبب لي أفظع القلق ، فهو يلوث الاسم المجيد للامبراطور . انني لا اصدقه . لا أقدر أن أصدقه . لقد كدت أن أطلق الرصاص على النقيب كروموف قبل مدة لأنه تفوه أمامي بكلمات مستخفّة عن حضرة جلالتها الامبراطورية . كان ذلك شيئاً دنيئاً ، وقلت له أنه لا أحد يستطيع أن يهبط الى مستوى ذلك الدرك القذر الا من تجري في عروقه دماء العبيد . حدثت الواقعة أمام عدد آخر من الضباط . كنت عصبياً ، فأمسكت مسدسي وأوشكت أن أغرز رصاصة في ذلك الوضيع ، الا أن رفاقي انتزعوا المسدّس من يدي . إن حياتي يزداد بؤسها مع كل يوم أقضيه في هذه البالوعة . وانك لن تجد أي وطنية صميمة في صفوف كتائب الحرس ، وعلى الأخص بين الضباط ، ولا تحس ـ وإن كان النطق بذلك يرعبني ـ أنهم يشعرون بأي حب للعائلة المالكة . فما هؤلاء بالنبلاء ، انهم رعاع . وهذا هو السبب الحقيقي الذي دعاني لترك الكتيبة ، فليس بمستطاعي أن أعمل مع أناس لا احترمهم . وبعد ، فهذا هو كل مالدي تقريباً . ارجوك أن تغفر لي تشتت أفكاري ، فأنا في عجالة ، وعليّ أن أحزم حوائجي وارحل الى القومندان . حافظ على صحتك ، يابابا . سأكتب لك مطولاً من الجبهة» .

ولدك يفغيني»

كان القطار القاصد وارشو يترك بتروغراد في الثامنة مساءً . فاستأجر ليستنتسكي عربة ومضى بها الى المحطة . وامتدت خلفه بتروغراد في ألق من الضياء أزرق بلون الحمام . كانت المحطة شديدة الضوضاء مزدحمة بالناس ولا سيما العسكريين . جلب الحمال حقيبة ليستنتسكي ، واذ نفحه هذا شيئاً من النقود تمنى له سفره طيبة . نزع ليستنتسكي نطاق سيفه ومعطفه ، ثم نشر على المقعد لحافاً قفقاسياً حريرياً مزركشاً . وكان يجلس الى جانب النافذة قس له وجه الزهاد الناحل ، وقد نشر زاده على طاولة صغيرة . ومدّ يده بفطيرة الى فتاة سمراء البشرة ناحلة ترتدي بزة مدرسية

وتجلس في المقعد المقابل له ، وهو ينفض النثار من لحيته الشبيهة بالقنب .

ـ كلي شيئاً ، ياعزيزتي .

ـ لا ، شكراً لك .

ـ لاداعي للاستحياء ، إن فتاة على مثل جسمك بحاجة الى غذاء كثير .

ـ لا ، شكراً لك .

ـ تذوقي شيئاً من هذه الفطيرة اذن ، عسى أن تأخذ شيئاً من هذا ، ياسيدي ؟

مال ليستنتسكي رأسه الى أسفل لينظر اليه ، وتساءل :

ـ اتراك توجّه الحديث الي ؟

ـ اي ، نعم ـ انبعثت من عيني القس الدكناوين نظرة نفاذة ، ولم تفتر سوى شفتيه الرفيعتين عن ابتسامة تحت شاربه الرفيع المتهدّل .

ـ لا ، شكراً لك . فلست أشتهي أي طعام الآن .

ـ خسارة . فما الاكل بخطيئة هل أنت في الجيش ؟

ـ نعم .

ـ عسى أن يعينك الله .

وبينما كان النور يغشى ليستنتسكي ، تناهى الى مسمعه صوت القس الرخو وكأنه قادم من مسافة بعيدة ، وخيّل اليه أنه يتسمّع الى صوت النقيب كروموف الشاكي يقول :

ـ أنت تعلم أي دخل بائس هذا الذي تحصل عليه عائلتي . ولهذا فإنني ماضٍ لأعمل قساً عسكرياً للقطعات . فليس باستطاعة الشعب الروسي أن يحارب بلا إيمان . وكما لا يخفى عليك ، فالإيمان في تزايد ، عاماً بعد عام . ولاشك ، أن هناك من ينحرف عن الطريق القويم ، ولكن أولئك من بين المثقفين فقط ، أما الفلاحون فإنهم معتصمون بحبل الله .

لم يستطع صوت القس الخفيض أن ينفذ الى أبعد من ذلك في مدارك يفغيني وأخر ما يحسته في اليقظة هو رائحة ذكية للدهن الذي كان يطلي به

السقف الخشبي وما يسمعه هو صيحة فيما وراء النافذة : «هذا من شأن قسم الأمتعة ، ليس من شأني!» ففكر للحظة خاطفة : «أي قسم للأمتعة ؟» ثم انقطع خيط ادراكه . فقد غمره نعاس لذيذ ، غب ليلتين مسهدتين . ولم يستيقظ الا بعد أن ابتعد القطار زهاء أربعين فرستا عن بتروغراد . كانت العجلات تقعقع بإيقاع رتيب ، والعربة تترنح وتتمايل ، وكان ثمة من يغنّي في مقصورة مجاورة ، والمصباح يلقي ظلالاً ليلكية مائلة .

كانت الكتيبة التي نسب اليها ليستنتسكي قد أصيبت بأضرار فادحة في المعارك الأخيرة ، وقد سحبت من الجبهة لتستكمل خيلها وتسد الخسائر البشرية . كان مقر هيئة أركان الكتيبة في قرية بيريزنياكي ، وهي مركز تجاري كبير . فغادر ليستنتسكي القطار عند موقف لا اسم له . وفي نفس المحطة انزل من القطارمستشفى ميدان . فاستفسر من الطبيب المسؤول عن وجهة المستشفى ، وعلم أن المستشفى كان قد نقل من الجبهة الجنوبية ـ الغربية ـ الى القطاع الذي تعمل فيه كتيبته . وتحدّث الطبيب الضخم ذو الوجه الاحمر عن رؤسائه بلهجة لاذعة ، وشتم ضباط أركان الفرقة ، وراح ينفس عن غضبه المحموم في أذني هذا الشخص الذي تعرّف عليه صدفه ، وهو يشد على لحيته طوال الوقت وعيناه تومضان من وراء نظارتيه المعلقتين على أنفه .

فقاطعه ليستنتسكي متسائلاً :

ـ هل تستطيع أن تأخذني الى بيريزنياكي ؟

ـ أجل ، اصعد الى العربة ، أيها الملازم ـ وجعل يدور الزر في معطف ليستنتسكي بلا كلفة ، واستأنف يقعقع بشكاواه من جديد : ـ حسبك أن تتصور فقط ، أيها الملازم . اننا قطعنا مائتي فرست داخل شاحنات للماشية لا لشيء الا لنتسكع هنا بلا عمل ، في حين أن معركة دموية تجري منذ يومين في القطاع الذي نقل منه مستشفانا . كان هناك المئات من الجرحى ممن هم في أمس الحاجة الى مساعدتنا!

وكرر الطبيب كلمتي« معركة دموية » بنبرة ملؤها الغيظ .

فتساءل الملازم مجاملاً : ـ كيف تفسّر مهزلة كهذه ؟

ـ كيف ؟ ـ ورفع الطبيب حاجبيه فوق نظارتيه متهكماً وانطلق هادراً : ـ فوضى ، هرجلة ، غباء هيئة اركان القيادة ـ ذاك هو السبب . أوغاد يحتلون المناصب العليا ويلوصون بكل شيء . عجزة ، يفتقرون حتى الى التفكير السليم . هل تتذكر مذكرات فرساييف عن الحرب الروسية ـ اليابانية ؟ حسناً ، فالحال مثل تلك الحال ، سوى أن سوءها قد تضاعف .

حياة ليستنتسكي ثم مضى الى العربات ، فيما كان الطبيب لايزال ينعب من ورائه :

ـ لسوف نخسر الحرب ، أيها الملازم . لقد خسرنا واحدة مع اليابانيين ، الا أننا لم نزدد عقلاً أبداً . فكل ما نستطيع فعله هو التباهي ، ولا شيء غيره .

ومضى يسير على امتداد السكك ، متجنباً الوقوع في برك صغيرة يغشيها غطاء من الزيت ثر الألوان ، وهو يهز رأسه في يأس .

كان الغسق ينشر أذياله حينما اقترب مستشفى الميدان من بيريزنياكي . وكانت الريح تعبث بجذامة الزرع الصفراء ، والسحب تتكاثف في الغرب ، فكانت كتلة بنفسجية دكناء في الأعالي ، ليلكية مضببة خفيفة الظلال في الاسافل . أما في الأواسط ، فقد انداحت جانباً كتلة السحب الشوهاء ، وتكومت مثلما تتكوم طافيات الجليد ازاء سد في النهر . ومن خلال فرجة بين الغيوم ، سال فيض برتقالي من أشعة الشمس ، لينشر نثاراً من الضوء ، ولينسج تحته طيفاً باخوسياً من الألوان .

كان ثمة حصان ميت ملقى في حفرة ممتدة على جانب الطريق . وكان النعل يلتمع في أحد حوافره ، التي طرحت الى أعلى بشكل عجيب . واذ كانت العربة تمر بالجثة مقعقعة ، القى ليستنتسكي نظرة عليها . أما الجندي الذي كان راكباً بصحبة ليستنتسكي فقد بصق على بطن الحصان الضخم وقال

موضحاً : «لابد انه كان ينهب الحبوب...» ثم صحح قوله بعد أن نظر الى الملازم : «يأكل أكثر مما يجب من الحبوب...» وأوشك أن يبصق ثانية ، الا أنه ابتلع البصقة ، تأدباً ، ومسح فمه بكمّه .«يرقد هناك ، ولا أحد تكلف نفسه عناء دفنه . أما الالمان فإنهم يختلفون عنّا» .

فصاح يفغيني بغضب هائج لا سبب له : «ومالذي تعرفه أنت ؟» . وكانت كراهيته لوجه الجندي البليد الموحي بالكبرياء والاستخفاف قد فاضت في تلك اللحظة وكان الرجل في الواقع ذابلاً كليلاً مثل حقل أجرد في شهر أيلول . ولم يكن ليختلف قط عن آلاف الجنود الفلاحين الذين كان يفغيني قد صادفهم في طريقه الى الجبهة . فقد بدا الذبول والتهدّل على الجميع ، والكلال يطل من أعينهم جميعاً ، شهباء ، زرقاء ، خضراء ، أو أي لون كانت ، وكانوا يذكرونه بشكل لجوج بقطع نقود نحاسية قديمة دارسة .

أجاب الجندي متمهلاً : «لقد عشت في المانيا ثلاث سنين قبل الحرب» . وكان صوته ينم عن نفس الكبرياء والاستخفاف الباديين على وجهه . واستأنف الجندي كلامه متكاسلاً ، وهو يلفح الحصان بالعنان المعقود : «اشتغلت في مصنع للسكاير في كونيكسبرغ» .

فهتف ليستنتسكي آمراً بصرامة : «امسك لسانك!»

والتفت ليحدّق في رأس الحصان وشعر ناصيته المتناثر فوق عينيه وصف أسنانه المكشوفة المصفرة بفعل الشمس .

كانت إحدى سيقانه قائمة ثم منحنية على شكل قوس ، وكان الحافر مشقوقاً شقاً صغيراً ، الا أنه كان ينبعث من الفجوة بصيص رمادي صقيل ، وكان بمقدور الملازم أن يدرك من ساق الحصان ورسغه البديع أنه كان حصاناً فتياً وأصيلاً .

ساروا على الطريق الوعر . الالوان في الغرب قد ذوت ، وهبّت ريح ففرقت شمل الغيوم . وازاءها كان ساق الحصان الميت قائماً مثل صليب

مكسـور على جانب الطريق . وحينمـا التفت يفـغيني الى الوراء ورنـا اليـه ، سقطت على الحصـان حزمة من الأشعة فجأة ، فازهر السـاق بشعره الأشقـر تحت ضيـائها البرتقـالي ، على غير ميـعاد ، كما يزهر فرع شـجرة أجرد سحري في اسطورة من الاساطير .

وبينمـا كان مستـشفى المـيدان يمضي داخلاً بيـريزنياكي مروا بقافلة من الجنود الجرحى . وكـان بيلوروسي كـهل ، وهو صـاحب العربة الأولى ، يمـشـي على مقـربة من رأس حصـانه ، وعنانه القنّبي مجمـوع في يديه . وكـان يرقـد في العربة قوزاقي معصوب الرأس . كان متكئاً على مرفقـه ، بيـد أن عينيه كانتـا مغمضـتين بكـلال فيمـا راح يمضغ الخبـز ثم يبصقـه خليطاً أسـود . والى جانبـه مدد جندي ، وقـد تغضّن فوق ردفيه بنطلونـه الممـزق وتصلّب بالدم المتجمد . وكـان يقذف سباباً مقذعاً دون أن يرفع رأسـه . وأصـاب ليـستنتـسكي الفـزع بينمـا هو يتـسـمع لنبـرات صـوت هذا الجندي ، ذلك لأنها بدت كنبرة مؤمن يتـمتم صـلاته بحمـاس . وكان في العربة الثانية خمـسة أو ستّة جنود يرقدون جنباً الى جنب . وكـان أحدهم يروي حكاية ، وقد استـبد به مـرح محـمـوم ، وعيناه مشعتـان ملتهبتـان بصورة غير طبيعية :

ــ ... يبـدو أن سفيـراً من لدن امبـراطورهم جاء هنا وقدم عـرضاً لاعـلان السـلم . والواقع أن الذي أخبـرني بهـذا رجل شـريف . كل أملي أنه لـم يكن ينسج لي حكاية ملفقة .

فـاشتـرك في الحديث أحدهم بلهجة شكوك : «أحسبـه كـان كاذباً» ، وهو يهز رأسه الحليق الذي تعلوه ندب داء الخنازير الذي أصابه مؤخراً .

وعلّق ثالـث برطانة أهل الفـولغـا الرقيـقـة : «ولكن ، من المـحتـمل أن يكون قـد أتى هنا فـعـلاً» . كـان هذا جـالسـاً وظهـره الى الخيل . وكـان في العربة الخامسة ثلاثة قوزاق في جلسـة مريحة .

وحينمـا مرّ بهم ليـستنتـسكي رنوا اليـه بصمـت دون أن تفصح وجوههم

الخشنة المعفرة عن أيما احترام للضابط . فحياهم الملازم : «طاب يومكم ، أيها القوزاق!»

فرد القوزاقي الوسيم ذو الشارب الفضي والحاجبين الكثيفين والجالس الى جانب السائق ، بلهجة خالية من الاهتمام : «طاب يومك ، ياصاحب السعادة» .

فاستمر ليستنتسكي ، محاولاً أن يميز الرقم المنقوش على سير كتف القوزاقي الازرق : «ومن أية كتيبة أنتم ؟»

ـ الثانية عشرة .

ـ وأين هي كتيبتكم الآن ؟

ـ لا ندري .

ـ حسناً ، أين جرحت ؟

ـ على مقربة من القرية... ليس بعيداً من هنا .

وتبادل القوزاق الهمس فيما بينهم ، ثم قفز أحدهم من العربة وهو يمسك يده المعصوبة عصباً غير محكم بيده السليمة ، وقال :

ـ لحظة ، ياصاحب السعادة ـ وخطا عبر الطريق ، عاري القدمين ، شديد الاعتناء بيده التي مزقها الرصاص وبدأت علائم الالتهاب تظهر على الجرح .

ـ لعلك من فيشينسكايا ، أليس كذلك ؟ لعلك ليستنتسكي ؟

ـ أجل ، هو أنا .

ـ ذاك ما حسبناه . هل لديك شيء ندخنه ، ياصاحب السعادة ؟ أعطنا شيئاً بحق المسيح ، فنحن نموت شوقاً الى نَفَس واحد من التبغ .

وجعل يسير بمحاذاة العربة ممسكاً بجانبها المطلي . فأخرج ليستنتسكي علبة سيكائره . فابتسم القوزاقي متوسلاً وقال : «اتستطيع أن تستغني عن دزينة منها ؟ فنحن ثلاثة ، كما ترى» .

فأفرغ ليستنتسكي محتويات علبته في راحة الرجل السمراء العريضة ، وسأله : «هل جرح الكثير من كتيبتكم ؟»

ـ ما يزيد عن العشرين .

ـ خسائر فادحة ؟

ـ قتل الكثير منّا . اشعل عود ثقاب لي ، ياصاحب السعادة . اشكرك جزيل الشكر . ـ واذ أشعل سيكارته ، تباطأ في السير وصاح : «ثلاثة قوزاق من تتارسكي ، بالقرب من ضيعتكم ، قتلوا ، واجهز على الكثير منّا ، نحن القوزاق» .

ثم لوح بيده ومضى ليلحق بالعربة . وعبثت الريح بقمصلته غير الممنطقة .

كان آمر كتيبة ليستنتسكي الجديدة قد اتخذ مقره في بيت قس . وعندما بلغوا الساحة ودّع ليستنتسكي الطبيب الذي تفضّل باعطائه مقعداً في عربة المستشفى ، ومضى يبحث عن مقر قيادة الكتيبة ، وهو ينفض الغبار عن بزته . ومرّ به رئيس عرفاء ذو لحية زاهية الاحمرار يقود حرساً ، ليستبدلهم بأخرين . فأدى التحية لليستنتسكي بلباقة ، ورد على استفساره ، بالاشارة الى بيت القس . كان المكان هادئاً ومتكاسلاً ، شأن كل مقرات هيئات الأركان البعيدة عن خط الجبهة : الكُتّاب منكبون فوق طاولة ، ونقيب كهل يتضاحك في لاقطة الصوت لتلفون ميدان ، والذباب يطن حول الشبابيك ، واجراس تلفونات بعيدة تنز كالبعوض . أخذ جندي ليستنتسكي الى الغرفة الخاصة بآمر الكتيبة . فالتقيا عند عتبتها بعقيد مديد القامة على ذقنه ندبة ، حيّاه بفتور وسمع كل ما قاله له يفغيني ودعاه بإيماءة للدخول الى الغرفة . واذ أغلق العقيد الباب مر بيده على شعره بحركة تنم عن ارهاق لا يوصف ، وقال بصوت رقيق رتيب :

ـ اعلمتني هيئة أركان اللواء أمس بأنك في الطريق الينا ، اجلس .

واستفسر من يفغيني عن خدمته السابقة ، وعن آخر الأخبار من العاصمة ، وتساءل عن الرحلة ، ولكنه ، أثناء كل حديثهما القصير ، لم يحدث قط أن أرفع عينيه المرهقتين الى وجه ليستنتسكي .

فحدّث ليتستنكي نفسه مشفقاً وهو ينظر الى جبين الآمر العريض الذي كان يوحي بالذكاء : «لابد أنه قاسى أياماً عصيبة في الجبهة . ان عليه علائم ارهاق مميت» . ولكن العقيد حك جسر أنفه بمقبض سيفه وقال ، وكأنه يريد ازالة الوهم الذي خطر ببال ليستنتسكي :

ـ حسناً ، أيها الملازم ، يجب أن تتعرف على اخوانك الضباط . ارجو أن تعذرني ، فأنا لم أنم منذ ثلاث ليال متوالية . ففي هذا الجحر المميت ليس لدينا مانفعله سوى السُكرْ ولعب الورق .

فأدّى ليستنتسكي التحية ، واستدار نحو الباب ، مخفياً ازدراءه وراء ابتسامة . وخرج وهو يستعيد بامتعاض مقابلته الاولى هذه مع ضابطه الآمر ، ويسخر مما أوحى اليه من احترام مظهر العقيد المرهق والندبة في ذقنه .

١٥

أوكلت الى الفرقة مهمة شق الطريق عبر نهر ستير وضرب العدو في مؤخرته .

وفي غضون أيام قلائل ألفَ ليستنتسكي ضباط كتيبته وسرعان ما جرفه تيار المعركة فزايله شعور الدعة والرضى الذي كان قد تسلل الى نفسه .

تمت عملية اقتحام النهر على نحو رائع فحطمت الفرقة تجمعات كبيرة من قوى العدو على الجناح الأيسر منها ، ونفذت الى مؤخرة قوات العدو . وحاول النمساويون شن هجوم مضاد مستعينين بالخيالة المجريين ، الا أن بطاريات القوزاق اكتسحتهم بالمنشار ، فتقهقرت سرايا المجريين دونما نظام ، تمزقها نيران المدافع الرشاشة التي أحاطت بها ، وتتعقبها خيالة القوزاق .

شارك ليستنتسكي في الهجوم المضاد مع كتيبته . وخسر الرعيل الذي كان تحت امرته قوزاقياً واحداً ، وأصيب أربعة بجراح وقد سحق أحدهم

تحت حصانه الميت ، وكان شاباً معقوف الأنف . فمر الملازم به ، وهو بادي الهدوء ، جاهداً أن لا يسمع أنين القوزاقي الخفيض الأبح . كان مصاباً في كتفه ، وظل يتوسّل الى القوزاق المارين على خيلهم بقربه :

ـ لا تتركوني أيها الاخوان . خلصوني من الحصان ، يا اخوان... .

كان صوته المعذب يحمل نداءاته الخافتة الى أسماع القوزاق ، ولكنه لم يثر في قلوبهم الهائجة ذرة من الرحمة ، ولو كان عندهم شيء منها لسحقتها ارادتهم المحرمة عليهم أن يترجلوا . وسار الرعيل لخمس دقائق خبباً لكي يدعوا الخيل تستعيد أنفاسها . وكانت سرايا المجريين المتبعثرة ، على بعد نصف فرست ، في تقهقر عام ، وتظهر بينهم ، هنا وهناك ، بزات مشاة العدو ذات اللون الازرق الداكن . وانسلّت قافلة شحن نمساوية على سفح تل يودعها دخان القنابل المحموم من فوقها .

كانت احدى البطاريات تقصف القافلة من جهة اليسار ، فيهدر دويها الكئيب على الحقول ويتجاوب خلل الغابة .

أصدر المقدّم الذي يقود السرايا الثلاث أمره بالخبب فانطلقت في خبب غير سريع . فراحت الخيل تتمايل تحت فرسانها والزبد ينتشر من خواصرها على شكل أزهار وردية مصفرّة .

توقفت الكتيبة لتبيت ليلتها في قرية صغيرة . وانحشر الضباط الاثنا عشر في كوخ صغير . وكان قد أضناهم الإرهاق والجوع فاستسلموا للنوم . ولم يصلهم مطبخ الميدان حتى منتصف الليل تقريبا ، حين جاءهم حامل العلم تشوبوف بقدر من الحساء . وقد أيقظت الضباط الرائحة الطيبة ، وما أن مرّت دقائق حتّى شرعوا يأكلون بصمت ونهم ، ووجوههم ماتزال منتفخة من النوم ، ليعوضوا عن اليومين اللذين أنفقوهما في القتال . زال شعورهم بالنعاس بعد تلك الوجبة المتأخرة ، وجلسوا فوق عباءاتهم على القش يتجاذبون أطراف الحديث ويدخنون .

لوّح النقيب كالميكوف يديه بحدّه ، وهو ضابط ربعة ، كان وجهه

المدور فضلاً عن اسمه ، يحمل آثار أصله المنغولي ، قال موجهاً كلامه الى الملازم ترسينتيسيف :

ـ هذه الحرب لاتروق لي . لقد ولِدتْ بعد زماني بأربعة قرون . أتدري ، إنني لن أعيش لأرى نهاية هذه الحرب . ردّ عليه الملازم من تحت عباءته بصوت جهير :

ـ دعك من قراءة الفال!

ـ إنه ليس فالاً . بل نهايتي المكتوبة . أنا ممن يؤمنون بعودة الانسان الى أصله ، ولا يحتاجني أحد هنا ، حين كنّا اليوم عرضة للنار ارتجفت بجنون ، أنا لا أطيق قتالاً لا أرى فيه عدوّي وجهاً لوجه . إن الشعور الفظيع الذي يتملكني أشبه بالخوف . إنهم يطلقون النار عليك من بعد عدّة فرستات ، وأنت على حصانك كطير حباري يطارد على السهب .

قال الرئيس اتاما نتشوف ، وهو يلعق بقايا اللحم المعلب من على شاربيه الأحمرين المشذبين على الطريقة الانكليزية :

ـ رأيت مدفعاً نمساوياً في كوبالكا . هل رأى أحدكم مدفعاً من هذا النوع ، أيها السادة ؟

فجاءه جواب حماسي من حامل العلم تشوبوف الذي كان آنئذ قد أفرغ قدراً ثانياً من الحساء :

ـ صناعة رائعة! مسدداته ، وماكنته برمتها هي الكمال بعينه .

ـ لقد رأيته ، ولكن ليس لدي ما أقوله ، أنا جاهل كل الجهل في شؤون المدفعية . إنه لم يبد لي سوى مدفع كسائر المدافع له ماسورة كبيرة ، وهذا كل مافي الأمر .

استطرد كالميكوف ، ملتفتاً صوب ليستنتسكي :

ـ اني أغبط أولئك الذين حاربوا في الأيام الخوالي ، على الطريقة البدائية . فالكرّ على العدو في معركة مشرّفة ، وشطره بسيفك شطرين ، ذلك هو النمط من القتال الذي أفهمه . أما هذه الحرب فالشيطان وحده يعرف ماهي .

ـ لن يبقى للخيالة دور في حروب المستقبل .
ـ سوف تلغى تماماً .
ـ لا أعتقد .
ـ ليس ثمة شك في ذلك .
ـ ولكن ليس بوسعك أن تستبدل الرجال بالمكائن . أنت تبالغ كثيراً .
ـ أنا لا أعني الرجال ، بل الخيل . ستحل الدراجات البخارية أو السيارات محلها .
ـ لا أكاد أتصوّر شكل سرّية من السيارات!
فقاطعه كالميكوف منفعلاً :
ـ كل هذا هراء! وهم سخيف! ستظل الجيوش تستخدم الخيل لوقت طويل . لسنا ندري كيف ستجري الحرب بعد قرنين أو ثلاثة ، أمّا اليوم فإن الخيالة... .
ـ ماذا أنت فاعل بالخيالة اذا ماحفرت الخنادق على طول الجبهة ؟ أجبني!
ـ نقتحم بها الخنادق ، فنثب عبرها ، ونتعمق الى مؤخرة العدو ، تلك هي مهمة الخيالة .
ـ هراء .
ـ الزمن خير حكم .
ـ اخرسوا ، دعونا نأخذ قسطاً من النوم .
وصل النقاش الى نهايته ، وحلّ الشخير محلّه . استلقى ليستنتسكي على ظهره ، ورائحة القش اللذيذة ، الذي فرش عباءته عليه ، تنفذ الى أنفه . واستلقى كالميكوف بجانب يفغيني ، وهو يرسم علامة الصليب .
عليك أن تتحدث الى المتطوع بونتشوك . إنه في رعيلك ، وهو رجل يثير الاهتمام .
فسأله ليستنتسكي وهو يدير اليه ظهره :

ـ كيف ؟

إنه قوزاقي عاش في روسيا . سكن موسكو . إنه عامل اعتيادي . ولكنه مولع بأمور المكائن وهو حامل رشاش من الطراز الأول كذلك .

فاقترح ليستنتسكي قائلاً :

ـ دعنا ننام .

فأيده كالميكوف قائلاً : «ربما كان علينا أن نفعل ذلك» . وهو يفكّر بشكل آخر ، ثم تجهّم وقال محرجاً : «يجب أن تغفر لي جيفة قدمي ، أيها الملازم . إنني لم أغيّر جوربي منذ اسبوعين ، إنهما متعفنان من العرق تماماً... .رائحة كريهة حقّاً . عليّ أن أحصل على زوج من الجوارب من أحد الجنود » .

فغمغم ليستنتسكي وهو يغفو :

ـ لا عليك .

نسى ليستنتسكي اشارة كالميكوف الى بونتشوك تماماً ، ولكن الصدفة ساقته في اليوم التالي الى التعرف على هذا المتطوع . فقد أمره قائد الكتيبة أن يخرج عند الفجر على رأس دورية استطلاع ، وأن يجري اتصالاً ، إن أمكن ، مع كتيبة المشاة التي استمرّت على التقدّم في الجناح الأيسر . فذهب في عتمة الفجر يتعثر في أرجاء الحوش ، ويقع على أجسام القوزاق النائمين ، فوجد عريف الرعيل وقال له :

ـ أريد خمسة رجال يذهبون معي في مهمة استطلاع . دعهم يسرجون حصاني . اسرع! وفيما كان ينتظر حضور الرجال ، جاء الى باب الكوخ قوزاقي ربعة ، وقال :

ـ ياصاحب السعادة ، العريف يرفض السماح لي بالذهاب معك بحجة أنه ليس دوري . هل تسمح لي أن أذهب ؟

فسأل ليستنتسكي الرجل ، جاهداً أن يتبين وجهه في الظلام :

ـ هل ارتكبت شيئاً ؟ وتريد أن تبرر خطأك ؟

ـ لم أرتكب أي شيء .

فقال ليستنتسكي : «لا بأس . بوسعك أن تأتي» . وحين استدار القوزاقي ليذهب ، صاح في اثره :

ـ هاي! ارجع!

اقترب القوزاقي منه .

ـ قل للعريف... .

فقاطعه القوزاقي قائلاً :

ـ اسمي بونتشوك .

ـ متطوع ؟

ـ أجل .

وحين تدارك ليستنتسكي ارتباكه ، عدل اسلوب كلامه فقال : «حسناً ، يابونتشوك ، قل للعريف أن... . اوه ، لابأس سأقول له ذلك بنفسي» .

خفت عتمة الفجر حين خرج ليستنتسكي من القرية على رأس رجاله عبر الحراس والمراكز الأمامية . حين قطعوا بعض المسافة نادى قائلاً :

ـ أيها المتطوع بونتشوك .

ـ سيدي .

ـ اقترب بحصانك منّي ، من فضلك .

فقرب بونتشوك بمطيته الاعتيادية الى جانب حصان ليستنتسكي الأصيل . فسأله ليستنتسكي وهو يتملى صورته الجانبية :

ـ من أي قرية أنت ؟

ـ نوفوتشيركا سكايا .

ـ هل لي أن أعرف السبب الذي دعاك الى التطوع في الجيش ؟

فأجابه بونتشوك وعلى شفتيه أثر ضئيل من ابتسامة ، وفي عينيه الخضراوين نظره قاسية نفاذة مسمرة :

ـ بالتأكيد! إنني مولع بفن الحرب . أريد إتقانه .

ـ هناك مدارس حربية أسست لهذ الغرض .

ـ نعم .

ـ حسناً ، ما السبب اذن ؟

ـ أريد دراسته في التطبيق أولاً . وبوسعي أن أحصل على النظرية فيما بعد .

ـ ماذا كنت قبل اندلاع الحرب ؟

ـ كنت عاملاً .

ـ أين كنت تشتغل ؟

ـ في بطرسبورغ ، وروستوف ، وفي معمل السلاح في تولا . أنا أفكّر في طلب الانتقال الى مفرزة الرشاشات .

ـ هل تعرف أي شيء عن الرشاشات ؟

ـ بوسعي أن استعمل أنواع برتية ، ومادسن ، وماكسيم ، وهوتشكيس ، وفيكرس ، ولويس ، وبضعة أنواع أخرى .

ـ أو هو! سأقول لآمر الكتيبة كلمة حول ذلك!

ـ افعل ذلك من فضلك .

وصوب ليستنتسكي نظرة ثانية الى هيئة بونتشوك الربعة ، فذكرته بشجرة الدردار الفليني التي تنمو على ضفاف الدون . فلم يكن في الرجل مايثير الانتباه ، ولا يميزه عمن حوله من جموع الجنود القوزاق سوى فكيه المنطبقين بشدة ونظرته المتحدية المباشرة . كان لا يبتسم الا لماما ، بثنيات من شفتيه ، وحتى لو فعل ذلك فلم تكن عيناه تزدادان رقة بل تحتفظان بوميض خافت من اللامبالاة . كان بتحفظه البارد يشبه شجرة الدردار الفليني ، شجرة الصلابة الحديدية القاسية التي تنمو على التربة الدكناء الرخوة عند ضفاف الدون غير المعطاء .

سارا صامتين بعض الوقت . وأسند بونتشوك راحتيه الواسعتين على قربوس سرجه الأخضر المقشّر . وانتقى ليستنتسكي سيكاره ، ولمّا أشعلها

من ثقاب بونتشوك شمَ في يد الرجل رائحة عرق الخيل الراتنجية الحلوة . كان ظهر يده مكسواً بشعر بني كثيف ، فانتابت ليستنتسكي رغبة لا إرادية في أن يمسد عليه . ثم ابتلع دخان التبغ الحريف ، وقال :

ـ حين نصل الغابة ، ستذهب أنت وقوزاقي آخر في الطريق المؤدي الى اليسار . هل تراه ؟

ـ أجل .

ـ وإذا لم تصادف مشاتنا بعد أن تقطع نصف فرست ، عد أدراجك .

ـ حسناً جداً .

شرعوا يخبّون . كان عند منعطف الطريق المؤدي الى داخل الغابة أجمة من أشجار البتولا . وحين يتعداها المرء يرهق عينيه الصفار الكئيب لأشجار الصنوبرالقميئة ودق الشجر البرّي والشجيرات التي سحقتها قوافل الشحن النمساوية . كانت الأرض ، والى يمينهم ، ترتج بالمدافع البعيدة ، ولكن عند أجمة البتولا خيّم صمت لا يوصف . كانت الأرض تعبّ الندى الغزير ، والأعشاب ذات الظلال الوردية تطفح بالألوان الخريفية التي كانت تندب موتها الوشيك . توقف ليستنتسكي عند البتولا ، وأخرج منظارته وراح يتفحص المرتفع الماثل وراء الغابة ، وقد حطّت نحلة على مقبض سيفه العسلي اللون . فعلق بونتشوك قائلاً بهدوء وعطف :

ـ يا للحمقاء !

فاستدار ليستنتسكي اليه ، قائلاً :

ـ من هي ؟

فأومأ بونتشوك الى النحلة بعينه ، فابتسم ليستنتسكي قائلاً :

ـ سوف يغدو عسلها مراً ألا تظن ذلك ؟

لم يأت الجواب من بونتشوك . فقد بدد الصمت صياح عقعق في ثنايا أكمة بعيدة من أشجار الصنوبر ، ومرقت رشقة من الرصاص خلال أشجار البتولا ، فأهوت غصناً على عنق حصان ليستنتسكي .

فاستداروا وعادوا الى القرية هذباً ، يستحثون خيلهم بالصياح والسياط . وراح الرشاش النمساوي يقذف بقية عتاده وراءهم .

بعد هذا اللقاء تعددت لقاءات ليستنتسكي مع المتطوع بونتشوك . وقد راعه كل مرّة ما يومض في عيني هذا الرجل من عزم لا يلين ، ولم يستطع أن يتوصل الى ما يكمن وراء هذا الغموض المغلق الذي يغشى وجه هذا الانسان غير الملفت النظركثيراً . كان بونتشوك كلّما تحدّث اليه تحتبس بين شفتيه القويتين ابتسامة ، وقد خلق لدى ليستنتسكي انطباع من يطبّق قواعد محددة ليسلك سبيلاً ملتوياً . ثم نقل الى مفرزة رشاشات . وبعد أيام ، والكتيبة تنال قسطاً من الراحة ، خلف جبهة القتال ، لحق ليستنتسكي به اذ كان سائراً حذاء جدار لمأوى أتت النار عليه .

ـ آه ، المتطوع بونتشوك!

فأدار القوزاقي رأسه وأدّى التحيّة . فسأله ليستنتسكي :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

ـ الى آمر وحدتي .

ـ نحن إذن سائران في نفس الطريق .

ـ نعم .

سارا بصمت بعض الوقت في شارع القرية المهدّم . كان الناس يتجولون حول مرافق الأبنية القليلة التي مازالت سالمة ، ومرّ بهما خيّالة ، وكان ثمّة مطبخ ميدان يرسل الدخان في وسط الشارع وقد وقف صف طويل من القوزاق الى جانبه في انتظار أدوارهم ، وكان في الهواء رذاذ بارد .

سأل ليستنتسكي وهو يخاوص النظر الى بونتشوك الذي كان متخلفاً عنه قليلاً :

ـ حسناً ، هل تتعلم الآن فن الحرب ؟

ـ أجل إني أتعلمه .

فسأل الملازم وهو ينظر الى [illegible]

ـ ماذا تنوي أن تفعل بعد الحرب ؟
أجاب بونتشوك مضيقاً عينيه :
ـ البعض يحصد ما يزرع... ولكنّي سأرى .
ـ كيف لي أن أفسّر هذه الملاحظة ؟
ـ أتعرف المثل القائل «من يزرع الريح يحصد العاصفة ؟» هكذا يكون الأمر .
ـ ولكن إذا وضعنا الأحاجي جانباً ؟
ـ المسألة واضحة كما هي . عفوك ، إني ذاهب من هنا صوب اليسار .
ثم رفع أصابعه الى قمة قبعته ، واستدار من الطريق فهزّ ليستنتسكي كتفيه ووقف يرسل النظرات وراءه .
سأل ليستنتسكي نفسه مغتاظاً وهو يدلف الى حفيرة* آمر السرية المعتنى بها : «أيحاول صاحبنا أن يبدو شخصاً غريب الأطوار ، أم أن في رأسه نحلة تطن ؟» .

١٦

استدعيت وجبتا الاحتياط الثانية والثالثة للخدمة سويّة . فبدت قرى الدون خاوية وكأن الجميع غادروها للحصد أو الحش في زحمة موسم الحصاد .
إلا أن الذي جناه القوزاق على امتداد الحدود عامئذ كان حصاداً مريراً ، فقد اقتفت المنية خطى القوزاق ، فناح العديد من زوجاتهم وهن حاسرات الرأس على من رحلوا عنهم : «آواه ، يا حبيبي ، ياعزيزي كيف سأعيش في هذه الدنيا من دونك ؟» وقد تهاوت رؤوس الأعزاء في كل مكان ، وأريقت

* الحفيرة ـ خندق مسقوف لوقاية وايواء الجنود في ميدان القتال . المترجمون

دماء القوزاق ، فرقدوا بعيون جامدة هامدين فيما كانت المدفعية تدوي باللحن الجنائزي ، في النمسا ، وفي بولندا ، وفي بروسيا... . فريح الشرق لم تعد تحمل الى مسامعهم نواح زوجاتهم وأمهاتهم .

لقد بارحت القرى نخبة القوزاق وهلكت وسط قمل وفظائع سوح القتال .

ذات يوم جميل من أيام أيلول تعلّق فوق تتارسكي خيط حليبي من ريق الشمس . وراحت الشمس الشاحبة تبتسم كالثكلى ، وكانت السماء المقطّبة ذات الزرقة العذرية صاحية شماء على نحو يثير النفور . وكانت الغابة عبر الدون تكتسي صفرة يرقانية ، فالحور خابي الألق ، والبلوط ينفض بين حين وآخر أوراقاً ذات أشكال هندسية ، إلا الحور الرومي فقد بقي أخضر مزوقاً يسرّ بديمومة خضرته عين العقعق النفاذة .

تلقى بانتلاي بروكوفتش ذلك اليوم رسالة من الجيش المحارب . جاءت دونيا برسالة من البريد . وكان مأمور البريد العجوز ، حين ناولها الرسالة قد انحنى وهزّ هامته الصلعاء ونشر ذراعيه متضرعاً :

ـ اغفروا لي بحب الله . لقد فتحت الرسالة . أخبري أباك أنني فتحتها . كنت بحاجة ماسة الى معرفة كيف تسير الحرب... .اغفروا لي ، وأخبري بانتلاي بروكوفتش بما قلت .

كان بادي الاضطراب ، ولم يفطن الى بقعة الحبر على أنفه ، فخرج من مكتبه بصحبة دونيا . وهو يتمتم شيئاً غير مفهوم وقد ملأها القلق ، فقفلت راجعة الى البيت . وراحت تفتش عن الرسالة في صدرها لوقت طويل . فصرخ فيها بانتلاي بروكوفتش وهو يجز لحيته :

ـ عجلي!

وفيما أخرجت الرسالة قالت لاهثة :

ـ أعلمني مأمور البريد أنه قرأ الرسالة ، ويرجو أن لا تزعل منه .

ـ ليأخذه الشيطان! أهو ...

يتنفس في وجهها منفعلاً ، وأضاف : ـ أمن غريغوري ؟ أم من بيوتر ؟

ـ كلا ، يا ابتي... . لا أعرف هذا الخط .

فصرخت الينشنا وهي تترنح بثقل نحو المصطبة : «اقرئيها!» .

كانت ساقاها تسببان لها في تلك الأيام متاعب جمّة . وهرعت ناتاليا الى الحوش ووقفت عند الموقد ، مائلة الرأس ، ومرفقاها يشدان على صدرها . واختلجت على شفتيها ابتسامة كشعاع الشمس كانت ماتزال ترقب من غريغوري رسالة أو أقل إشارة اليها في رسالة جزاء أمانتها وولاءها اللذين يشبهان أمانة الكلب وولاءه . وهمست ايلنتشنا :

ـ أين داريا ؟

فصرخ بانتلاي بروكوفتش : «اخرسي!» واردف مخاطباً دونيا«اقرئيها!»

«ينبغي أن أحيطكم علماً» هكذا بدأت الرسالة ، وتهاوت دونيا من على المصطبة ، حيث كانت جالسة ، وعاطت :

ـ أبتاه! أماه!... ويلاه ، ماما... . عزيزنا غريشا! : أواه ، أواه!... غريشا... . قتل .

كان ثمّة يعسوب يضطرب بين أوراق الجيرانيوم التي أوشكت على الذبول ، فراح يضرب على النافذة ويطن مهتاجاً . وفي الفناء كانت دجاجة تقوق رضيّة ، وتناهى خلال الباب المفتوح ضحك طفولي رنان .

سرت اختلاجة عبر وجه ناتاليا ، رغم أن شفتيها مازالتا تكتسيان بسمتها الراعشة . قام بانتلاي بروكوفتش على قدميه ، ورأسه يرتعش كالمشلول ، وراح يحملق الى دونيا بحيرة مخبولة . جاء في الكتاب :

ينبغي أن أحيطكم علماً أن ولدكم غريغوري بانتليفتش ميليخوف ، من قوزاق كتيبة الدون الثانية عشرة ، قد قتل في السادس عشر من أيلول قرب مدينة كامينكا ـ ستروميليو . لقد مات ابنكم ميتة الشجعان ، فأتمنى أن يكون ذلك

عزاءكم في خسارتكم هذه التي لاتعوّض . ستسلم حاجياته الشخصية الى اخيه ، بيوتر ميليخوف . وسيبقى حصانه في الكتيبة .

آمر السرّية الرابعة النقيب بولكو فنيكوف .
جيش الميدان ـ ١٨ أيلول ، ١٩١٤ .

اعترى بانتلاي بروكوفتش ، بعد تلقي هذه الرسالة ، ذبول مفاجىء ، كانت الشيخوخة تظهر عليه أكثر مع كل يوم حتى أخذت ذاكرته تخونه وفقد صفاء الذهن . كان يتجوّل هنا وهناك بظهر محنى ، وقد علا وجهه ظل بلون الحديد ، وكان الوميض المحموم في عينيه ينم عن اجهاد في نفسه .

أخفى الرسالة تحت الأيقونة . وكان يذهب الى سقيفة الباب مرّات عديدة كل يوم ليوميء الى دونيا . وحين تدخل الدار يأمرها أن تأتيه بالرسالة لتقرأها له ، وهو يتطلع بوجل الى باب غرفة أمامية حيث تمضي زوجته أيام الحداد . كان يقول لدونيا ، وعينه تطرف بدهاء : «اقرئيها بهدوء ، وكأنك تقرئين لنفسك لكي لا تسمع الوالدة... والا...» . فتختنق دونيا بعبراتها ، وتقرأ الجملة الأولى ، وبانتلاي بروكوفتش جالس القرفصاء ، فيرفع يده السمراء الكبيرة التي تشبه الحافر ليقول :

ـ كفاية . أعرف البقية . خذي الرسالة واعيديها حيث كانت . هدوء والا فالوالدة... ـ ثم يغمز بعينه غمزة ناشزة ووجهه ملتو كلحاء شجرة محروق .

بدأ يشيب وأخذت شعرات الشيب الساطعة تبقع رأسه وتوخط لحيته بسرعة . وغدا كذلك شرها يزدرد طعامه ازدراداً دون أن يعتني بالنظافة حين يأكل .

مضت أيام تسعة على قداس الجنازة فدعا آل ميليخوف الأب فيساريون والأقارب الى وليمة في ذكرى القتيل غريغوري . وتناول بانتلاي بروكوفتش الطعام بعجالة وضراوة فتعلقت الشعرية في لحيته كالاهلة . وكانت ايلنشنا تراقبه منذ أيام بقلق ، فانفجرت باكية :

ـ مابك ياأب ؟

ـ هاه ؟

قال العجوزذلك جافلاً ، وهو يرفع عينيه العمشاوين من على صحنه . فلوحت الينتشنا يدها وادارت وجهها وهي تشد المنديل على عينيها .

فقالت داريا مغضبة وعيناها تتقادحان :

ـ أبي ، أنت تأكل وكأنك صُمت ثلاثة أيام .

ـ أنا آكل ؟... حسناً ، لن آكل .

هكذا رد بانتلاي بروكوفتش وقد تملكه الحرج . ثم أجال ناظريه حول المائدة ، وضم شفتيه وعقد مابين حاجبيه وخلد الى الصمت ، دون أن يجيب على أي سؤال . وحاول الأب فيساريون بعد أن فرغوا من الطعام أن يشجعه فقال :

ـ تشجع ، يابروكوفتش ! ماجدوى كل هذا الأسى ؟ لقد مات غريغوري ميتة مقدسة ، فلا تغضب الرب ، ياشيخ . لقد فاز ابنك بأكليل الشوك من أجل قيصره ووطنه . وها أنت ذا... إنها الخطيئة ، وإن الله لن يغفرها لك .

ـ هكذا بالضبط ، أيها الأب «لقد مات ميتة الشجعان» . ذلك ماكتبه آمر وحدته .

وبعد أن لثم الشيخ يد القديس ، اتكأ على عمود الباب ، وللمرة الاولى منذ وصول الرسالة ، اجهش في البكاء ، فراح جسده يختض بعنف .

ومنذ ذلك اليوم استعاد رباطه جأشه ، وأبلّ من مصابه قليلاً .

لعق كل منهم الجرح على طريقته : فحين سمعت ناتاليا دونيا تصرخ ان غريغوري قد مات هرعت الى الحوش : «ساقتل نفسي . انتهى كل شيء بالنسبة لي» . كانت هذه الفكرة تسوقها كالنار . فجعلت تقاوم بين ذراعي داريا ، ثم اغمي عليها ، فاستسلمت بارتياح . لقد اجل الإغماء ، على الأقل ، لحظة عودة الوعي ، حين تقفز الأحداث الى ذاكرتها بعنف . وأمضت اسبوعاً في ذهول مطلق . ثم افاقت الى عالم الواقع ، وقد تغيرت ، فغدت

أكثر هدوء عمّا كانت عليه ، تنهشها أنياب ضنى قتال... كانت جثة غير مرئية تحوم في أرجاء بيت ميليخوف ، فيعيش الاحياءفي لجّة رائحتها العفنة .

١٧

بعد مضي اثني عشر يوماً على نبأ وفاة غريغوري ، تلقى آل ميليخوف من بيوتر رسالتين دفعة واحدة . قرأتهما دونيا في دائرة البريد ، وجرت مسرعة الى البيت ، كقشة حملتها الرياح ، ثم ترنحت ووقفت متكئة على أحد الاسيجة . وقد أثارت في القرية بلبلة غير قليلة ، وأشاعت في البيت اضطراباً لايوصف . فقد نشجت واعولت وهي ماتزال على مبعدة :

ـ غريشا حي! عزيزنا على قيد الحياة! بيوتر كتب الرسالة . غريشا جرح ، ولكنه لم يمت وانه حي ، حي!

كتب بيوتر في رسالته المؤرخة في العشرين من أيلول :

«تحية ، يا أبوي العزيزين ، ينبغي أن أخبركما أن عزيزنا غريشا كاد يلفظ أنفاسه ، لكنّه الآن ، والحمد لله ، حي معافى ، كما نتمنّى لكما الصحة والرفاه ، بجاه الله . فقد اشتبكت كتيبته في معركة قرب مدينة كا مينكا ـ ستروميلوفو ، ورأى قوزاق رعيله فارساً مجرياً يطعنه فهوى غريغوري الى الأرض من على حصانه ، ولم يدر أحد ماالذي حصل بعد ذلك ، وحين استفسرت منهم لم يستطيعوا أن يفيدوني بشيء . ولكنّي علمت من ميشا كوشيفوي بعدئذ ـ وهو جاء الى كتيبتنا في مهمة الاتصال ـ إن غريغوري بقي مطروحاً حتى الليل ، ولكنه ثاب الى وعيه أثناء الليل وشرع يزحف . وقد زحف مسترشداً بالنجوم ، وعثر على أحد ضباطنا وقد أصابته شظية في بطنه وساقه . فالتقطه وجرّه مسافة ستّة فرستات . وقد منح غريغوري جزاء ذلك وسام القديس غيورغي ، ورقي الى رتبة نائب عريف . لم يصب الا بخدوش في رأسه ، ولكنه سقط عن حصانه فاغمي عليه . وقد اخبرني ميشا انه عاد

الى الجبهة ثانية . ارجو الا تعيبوا عليّ هذا الخط ، فإني اكتب وأنا على السرج » .

وفي الرسالة الثانية طلب بيوتر من أهله أن يرسلوا له بعض الكرز المجفف من بستانهم ، واخبرهم الا ينسوه بل أن يكتبوا له اكثر مما يفعلون . وانحنى باللائمة على غريغوري في الرسالة نفسها ، لأنه لا يعني بحصانه العناية اللازمة ، ـ على حد أقوال القوزاق ـ وكان بيوتر غاضباً لأن الحصان يعود له في واقع الحال . ورجا اباه ان يكتب الى غريغوري ، وذكر انه ارسل من يقول له أن بيوتر سيلطمه لطمة تدمي أنفه إن لم يعن بالحصان ، رغم كونه يحمل وسام القديس غيورغي . واختتم رسالته بقائمة لا نهاية لها من التحيات . ولم يكن عسيراً أن يستشفوا من خلال السطور المغضنة التي بقعها المطرشعوراً بالمرارة والأسى . فمن الجلي أن بيوتر ، هو الآخر ، كان يجابه في الحرب وقتاً عصيباً .

كان مرأى بانتلاي بروكوفتش يبعث على الاشفاق . لقد دوخه الفرح ، فأمسك بكلتا الرسالتين في يده وخرج بهما الى القرية ، مستوقفاً كل من يستطيع القراءة ليحمله على تلاوة الرسالتين . لم يكن الخيلاء ، بل هو الفرح المتأخر ، الذي دفعه الى الزهو في شوارع القرية بكاملها .

ما إن يرفع يده حين يبلغ القارىء المتعثر تلك الفقرة التي وصف فيها مأثرة غريغوري ، فيقول : «اها! مارأيك بولدي غريشا ؟ إنه أول من نال وساماً في القرية» . كان يعلن ذلك بفخر ، ثم يأخذ الرسالتين بكل اهتمام ، فيدسهما في بطانة قبعتة ويمضي في البحث عن قارىء آخر .

حتى سيرغي موخوف ، الذي رأه من خلال نافذة دكانه ، خرج لملاقاته رافعاً قبعته :

ـ ادخل دقيقة . يابروكوفتش!

وحين دخلا ، شد على قبضة الشيخ بيده البيضاء المنتفخة ، وقال :

ـ حسناً ، اني اهنئك ، فلابد أنك فخور أن يكون لك ولد مثله . كنت أقرأ لتوي عن مأثرته في الجرائد .

فجفت حنجرة بانتلاي بروكوفتش وشق عليه ابتلاع ريقه .

ـ هل أخذتها الجرائد ؟

ـ أجل ، لقد قرأتها لتوي .

وانزل موخوف من على الرف علبة من أجود التبوغ التركية ، وافرغ بعض الحلوى الغالية في كيس دون أن يكلف نفسه عناء وزنها . ثم قال وهو يناول بانتلاي بروكوفتش التبغ والحلوى :

ـ حين ترسل رزمة الى غريغوري بانتلاي بروكوفتش ابعث اليه تحية مع هذه من عندي .

غمغم العجوز ، وهو يهبط درجات الدكان : « ياالهي! أي شرف هذا لغريشا! القرية برمتها تتحدث عنه . لقد عشت لارى... »ثم تمخّط ومسح الدموع من على خدّيه بكمّه ، وهو يقول في نفسه : «ها ان علائم الشيخوخة تظهر عليّ ، فما أسرع ما تدمع عيناي . آه يابانتلاي! ماذا فعلت بك الأيام ؟ كنت ذات يوم صلداً كحجر الصوان ، كان بوسعك أن تحمل على ظهرك ثمانية بودات وكأنها ريشة ، وها انت ذا . إن قضية غريشا قد هدّت حيلك بعض الشيء!»

وفيما كان يتطلع على امتداد الشارع ، ضاماً كيس الحلوى الى صدره ، عادت أفكاره ترفرف حول غريغوري كما يرفرف زقزاق فوق غيضه ، وجالت كلمات بيوتر في مخيلته . وفي تلك الاثناء كان كورشونوف حمو غريغوري مقبلاً في الطريق ، فنادى على بانتلاي :

ـ يابانتلاي توقف دقيقة!

لم يكن الرجلان قد التقيا منذ اعلان الحرب ، فقد فترت وتوترت العلاقة بينهما وغدت اضطرارية مذ غادر غريغوري بيت أهله . وكان ميرون غريغوريتش متكدراً من ناتاليا لأنها اذلّت نفسها لغريغوري ولأنها جعلت والدها يعاني ذلة مماثلة .

كان يلوم ناتاليا أمام عائلته قائلاً :

ـ يا للعاهرة المتجولة . لمَ لا تستطيع العيش مع عائلتها بدل الذهاب الى أهل زوجها ؟ لكأنهم يطعمونها خيراً منّا . ينبغي لوالدها ، جراء حمقها ، أن يتحمّل هذا الخزي فلا يقوى على رفع رأسه في القرية .

تقدّم ميرون غريغورفتش من بانتلاي بروكوفتش ومدّ اليه يده النمشاء :

ـ كيف حالك ؟

ـ الحمد لله... .

ـ كنت تتسوق ؟

فهز بانتلاي بروكوفتش رأسه ملوحاً بيده اليمنى وقال :

«هذه هدايا لبطلنا . لقد قرأ سيرغي بلاتونوفتش عن مأثرته في الجرائد فأهدى اليه بعض الحلوى والتبغ قال : «سلّم عليه وابعث له هذه الهدايا ننتظر منه المآثر في المستقبل أيضاً» . أتدري ، عيناه اغرورقتا بالدموع» . ومضى العجوز يتباهى ، مسمّراً نظراته في وجه ميرون غريغوريتش ، محاولاً أن يجتلي أثر كلماته .

تجمعت الظلال تحت أهداب ميرون غريغوريتش الشقراء ، مضيفة على محياه بسمة ساخرة ، فقال باقتضاب :

ـ هكذا!

ثم استدار ليعبر الشارع ، فهرع بانتلاي بروكوفتش وراءه ، فاتحاً الكيس وهو يهتز غضباً ، وقال له بنبرة حاقدة :

ـ هاك ، ذق هذه الشوكولاته ، إنها حلوة كالعسل . ذقها ، أنا أقدمها باسم ولدي . ليست حياتك حلوة جداً ، فبوسعك أن تأكل واحدة ، وقد ينال ابنك شرفاً كهذا في يوم من الأيام ، وقد لاينال شيئاً .

ـ لاتحشر نفسك في حياتي... أنا ادرى بها .

فانحنى بانتلاي بروكوفتش برقة مبالغ فيها ، وجرى أمام ميرون غريغورتيش واصابعه المعروقة تسلخ غلاف الشوكولاته الرقيق ، قائلاً :

ـ ذق واحدة على الأقل ، اعمل لي هذا المعروف .

فدفع ميرون غريغوريتش يده جانباً وقال :

ـ لسنا متعودين على الحلوى ، فهدايا الغرباء تؤذي أسناننا . لا يليق بك أن تستجدي الصدقات لولدك . إذا اضطرتك الحاجة يمكن أن تجيء الي . ابنتنا ناتاليا تأكل خبزكم . كان بوسعنا أن نعطيك شيئاً تواري به فقرك .

ـ لا أحد منّا استجدى صدقة في عائلتنا . فلا تكذب بلسان خشن ، يانسيب . أنت متباه جداً . اترى ابنتك أتت الينا لكونك ثرياً ؟

فقال ميرون غريغوريتش بلهجة متسلطة :

ـ مهلاً! لا داعي لشجارنا . أنا لم استوقفك للشجار . لدي أمر أود أن أحدثك به .

ـ ليس هناك أمر نتحدث به .

ـ أجل ، هناك . تعال .

أمسك بانتلاي بروكوفتش من كمه وجرّه الى زقاق فرعي . فسارا خارج القرية نحو السهب .

سأله بانتلاي بروكوفتش بلهجة أكثر هدوءاً وودأ : «حسناً ، ماالأمر ؟» وخاوص بصره الى وجه ميرون غريغوريتش النمش فطوى ميرون غريغورتش ذيل معطفه الطويل تحته وجلس على حافة حفرة واخرج كيس تبغه العتيق .

ـ اتدري ، يابروكوفتش ، ان الشيطان وحده يعلم سبب هجومك عليّ كالديك المعارك . الحق أن الأمر غير لائق ، أليس كذلك؟

ثم تحولت نبرة صوته فغدت خشنة جافة فيما استطرد : ـ أود أن أعلم الى متى يجعل ابنك من ناتاليا اضحوكة . قل لي!

ـ ينبغي أن تتوجه بالسؤال اليه ، لا الي .

ـ ليس عندي ما أسأل منه ، أنت رب البيت . وأنا اتحدث اليك .

اعتصر بانتلاي بروكوفتش الشوكولاته ، التي مازالت في يده ، فاندلق الخليط اللزق من بين أصابعه . ومسح راحة يده بطين الجرف الأسمر ، ثم شرع يلف سيكارة بصمت ، فاتحاً علبة التبغ التركي . وبعد أن أخذ منها نتفة ناولها الى ميرون غريغورتش . فأخذها ميرون غريغورتش دونما احجام ولف سيكارة من التبغ الذي أهداه موخوف بكل اريحيه . وتعلقت فوق رأسيهما غمامة بيضاء ثرة مزبدة ، وامتد نحوها خيط صاعد رقيق كان يتماوج في الريح .

آل النهار الى نهايته ، وتهدهد سكون أيلول بسلام وحلاوة لا توصفان . كانت السماء قد فقدت وهجها الصيفي الكامل ، فأمست زرقاء باهتة . وانتثرت في الحفرة أوراق تفاح أرجوانية زاهية ، الله وحده يدري من أين جاءت . واختفى الطريق على امتداد حافة التل المتماوجة وراح يومىء بلا طائل صوب الاصقاع المجهولة وراء الأفق الزمردي الغامض كالأحلام . وقد لازم الناس أكواخهم وحياتهم اليومية فراحوا يضنون الأنفس كدحاً ، ويستنزفون قواهم على ساحات درس الحبوب ، فاذا بالطريق درب مهجور ، يستبد به الحنين وينساب عبر الأفق صوب المجهول ، وجرت الريح عليه مثيرة الغبار .

قال ميرون غريغوريتش وهو ينفث سحابة من الدخان :

ـ هذا تبغ ضعيف . كالعشب .

فأيده بانتلاي بروكوفتش الى حد ما :

ـ ضعيف ، ولكنّه لطيف .

ثم رجاه ميرون غريغورتش بنبرة هادئة وهو يطفىء سيكارته :

ـ اعطني جواباً ، بانتلاي بروكوفتش .

ـ غريغوري لايأتي على ذكر الموضوع في رسالته . إنه الآن جريح .

ـ نعم بلغني ذلك .

ـ ماذا وراء ذلك ، لا أدري . قد يقتل ، ثم ماذا بعد ذلك ؟

فطرف ميرون غريغوريتش بعينيه شارد الفكر تعيساً :

ـ ولكن كيف يمكن استمرار الحال على هذا المنوال ؟ لاهي فتاة ، ولا هي زوجة ولا أرملة شريفة ، إنه لوضع معيب ، فلو كنت أعلم أن الأمور ستنتهي الى هذا المآل لما سمحت للخاطبين أن يتخطوا عتبة داري . آه ، بانتلاي... . بانتلاي... كل والد يأسى لطفلته . الدم أكثف من الماء... .

فرد عليه بانتلاي بروكوفتش بغيظ مكظوم :

ـ ماذا يمكن ان افعل ؟ اتظنني سعيدا بخروج ولدي من البيت ؟ هل جنيت من ذلك شيء ؟ يا للناس!

فأملى عليه ميرون غريغوريتش ، والتراب ينهال من تحت يديه الى الحفرة على وقع كلماته :

ـ اكتب اليه . دعه يقرر بشكل نهائي .

ـ ان له طفلة من تلك... .

فصاح كورشونوف ، وقد ازرق لونه : «وسيكون له طفل من هذه! هل يمكنك ان تعامل انسانا بهذا الشكل ؟هاه ؟ حاولت ان تقتل نفسها فصارت شوهاء بقية عمرها... . هل تريدون دفعها الى القبر ؟هاه... . يالقلبه ،يالقلبه... ـ كان صوت غريغوريتش كالفحيح ، وهو يمزق صدره بيد ، ويشد طرف معطف بانتلاي بروكوفتش باليد الاخرى ـ ام له قلب ذئب ؟

فند عن بانتلاي بروكوفتش صوت كالازيز واشاح بوجهه .

ـ المراة مخلصة له ، ولا حياة لها بدونه . اهي قن في خدمتكم ؟

فصاح بانتلاي بروكوفتش وهو ينهض من جرف الحفرة :

ـ هي اكثر من ابنة بالنسبة لنا!امسك لسانك! وافترقا دون وداع ، كل الى حال سبيله .

١٨

حين تنجرف الحياة عن مجراها الطبيعي تتشعب جداول متعددة . ومن العسير ان يتنبأ المرء اي جدول منها سيضم مسار حياته الملتوي الغدار . فحيث يترقرق اليوم ، كالنهير على ارض رملية ، تكاد لضحالته ترى قعره ، يجري في الغد ثرا طافحا... .

على حين غرة قررت ناتاليا ان تذهب الى اكسينيا ، في ياغودونويه ، وتسالها وتتضرع اليها ، ان تعيد غريغوري اليها . وقد خيل لناتاليا ، لسبب ما ، ان كل شيء يتوقف على اكسينيا ، وان كل ماعليها ان تفعله هو ان ترجوها فيعود اليها غريغوري ، ومعه يعود هناؤها السابق . ولم تترو لتعرف ما اذا كان ذلك ممكنا ، او كيف ستتلقى اكسينيا رجاءها هذا . ساقتها دوافع العقل الباطن ، فعمدت الى تنفيذ قرارها باسرع ما يمكن . وصلت في نهاية الشهر رسالة من غريغوري . وبعد ان خاطب اباه وامه بعث تحياته واحتراماته الى ناتاليا . ومهما يكن السبب الذي دفعه الى ذلك فإنه كان بمثابة الحافز الذي كانت ناتاليا تحتاجه ، فتأهبت للذهاب الى ياغودنويه يوم الأحد التالي .

سألتها دونيا فيما كانت تراقبها وهي تتملى ملامحها باهتمام في كسرة من مرآة :

ـ الى أين ذاهبة ، ياناتاليا ؟

ـ ذاهبة لزيارة أهلي .

كذبت ناتاليا ، فاحمر وجهها اذ ادركت للمرة الاولى انها معرضة نفسها لمهانة عظيمة ، وامتحان أخلاقي مريع . فاقترحت داريا قائلة :

ـ لم لا تخرجين معي في إحدى الامسيات ؟ تعالي هذا المساء ، الا تأتين ؟

ـ لا أدري ، لا أظن ذلك .

ـ يا للراهبة! دورنا يأتي فقط حينما يكون ازواجنا غائبين .

قالت داريا ذلك وغمزت بعينيها ، ثم انحنت لتتفحص الحاشية المطرزة لتنورتها الجديدة الزرقاء الفاتحة . لقد تغيرت داريا كثيراً منذ رحل بيوتر ، فبدا نفاذ الصبر في عينيها ، وفي حركاتها ومشيتها . فراحت تزيّن نفسها بعناية أشد أيام الآحاد ، ولا تعود الى البيت الا في ساعة متأخرة في المساء ، كئيبة العينين سيئة المزاج ، فتبث شكواها الى ناتاليا :

ـ فظيع ، فظيع حقاً! اخذوا من القرية كل القوزاق اللائقين ، ولم يتركوا فيها سوى الصبيان والشيوخ .

ـ حسناً ، وما الفرق بالنسبة لك ؟

ـ كيف ، لم يعد هناك أي شخص الهو معه مساء . ليتني أستطيع الذهاب يوماً الى الطاحونة لوحدي . فليس ثمة مسلاة لنا هنا بوجود حمينا .

ثم سألت ناتاليا بصراحة لوذعية : ـ كيف يسعك ، يا عزيزتي ، أن تصبري هذه المدّة الطويلة من دون قوزاقي ؟

فاحمر وجه ناتاليا وقالت :

ـ اخزاك الله! أليس لديك ضمير ؟

ـ الا تشعرين بأية شهوة ؟

ـ واضح أنك تشعرين بها .

فاحمر وجه داريا وارتعش قوسا حاجبيها وردت ضاحكة :

ـ بالطبع أشعر! لماذا يجب أن أخفي ذلك ؟ أنا على استعداد في اللحظة أن ابعث الحرارة حتى في شيخ عجوز واهيّجه! حسبك أن تتصوري ، لقد مضى شهران مذ رحل بيوتر .

ـ أنت تدخرين لنفسك الاحزان ، ياداريا .

ـ اخرسي ، أيتها العجوز الفاضلة! نحن نعرفكن ، أيتها الهادئات! أنتن لا تعترفن به .

ـ ليس لدي ما أعترف به .

فصوبت اليها داريا نظرة جانبية ساخرة ، ثمّ عضّت على شفتيها بأسنانها الصغيرة الشرسة وقالت :

ـ قبل أيام جلس بجانبي تيموفي ما نتسيف ، ابن الاتمان . جلس وهو يتصبب عرقاً . رأيته يخاف أن يبدأ . ثم دسّ يده تحت ذراعي بهدوء ، ويده ترتجف . لم أفعل شيئاً سوى الانتظار ، ولم انبس ببنت شفّة ، ولكن الغضب بدأ يتملكني . ليته كان شاباً ـ لكنّه مجرّد سافل صغير . كان عمره ستة عشر عاماً ولا أكثر من ذلك بيوم واحد . الا أن دمه يفور أيضاً . جلست صامتة ، ومضى هو يخمش بيده ويخمش ، ثم همس : «تعالي معي الى سقيفة المواشي في بيتنا» وحينذاك اتحفته بشيء!

ضحكت بمرح ، وارتعش حاجباها واندلق الضحك من عينيها نصف المغمضتين واردفت :

ـ أي درس علمته! قفزت ناهضة : «انت ، يا كذا وياكيت! أنت أيها الجرو الغبي! أتحسب نفسك قادراً على مراودتي بهذا الشكل ؟ متى بللت فراشك لآخر مرّة ؟» وجهت اليه كلاماً جميلاً .

تغير موقف داريا من ناتاليا في الاونة الاخيرة ، وغدت العلاقة بينهما بسيطة وديّة . لقد تلاشى النفور الذي استشعرته داريا ازاء المرأة الاصغر منها سناً فأخذت المرأتان ، المتباينتان في كل شيء ، تعيشان معاً عيشة ود .

فرغت ناتاليا من ارتداء ملابسها وخرجت . وادركتها داريا عند سقيفة الباب . فقالت :

ـ هل ستفتحين الباب لي هذه الليلة ؟

ـ اتصور أني سأقضي الليل عند أهلي .

فراحت داريا تحك أنفها بمشطها وهي مستغرقة بالتفكير ، ثمّ هزّت رأسها :

ـ آه ، حسناً ، لم يكن بوديّ أن أطلب ذلك من دونيا ، ولكن لا أرى بدأ من ذلك .

اخبرت ناتاليا ايلنتشنا بأنها ذاهبة لزيارة أهلها ، ثم خرجت الى الشارع . كانت العربات تقرقع قادمة من ساحة السوق ، والقروريون عائدين من الكنيسة . انعطفت في زقاق جانبي وتسلقت التل على عجل . والتفتت عند القمة فنظرت خلفها . كانت القرية سابحة في نور الشمس ، والبيوت الصغيرة المطلية بالكلس تبهر العين ببياضها ، والشمس تنعكس على سقف الطاحونة المائل ، جاعلة صفائح الحديد تتوهج كذوب المعدن الخام .

١٩

كانت ياغودنويه قدخلت أيضاً من رجالها بسبب الحرب . ذهب فنيامين وتيخون ، فغدا المكان أكثر قفراً ، ومللاً ، وانعزالاً . وتولّت اكسينيا خدمة الجنرال بدل فنيامين ، وتولّت لوكيريا ذات العجيزة مهام المطبخ واطعام الدواجن . وكان ساشكا العجوز يعنى بالخيل والبستان . ولم يكن هناك سوى وجه جديد واحد ، هو قوزاقي عجوز يدعى نيكيتش استخدم حوذياً .

بذر ليستنتسكي العجوز عامئذ بذرا أقل ، وزوّد الجيش بحوالي عشرين حصان ركائب عسكرية ، فلم يبق للضيعة سوى جياد أصيلة وثلاثة جياد لجر العربة . وكان يمضي وقته في صيد الحباري والقنص بكلاب الصيد .

لم تتلق اكسينيا من غريغوري الا رسائل قليلة مقتضبة ، يخبرها أنه مازال بخير وهو يعاني مرارة التجربة . كان قد اشتد عوده ، والا فإنه لا يريد أن يخبرها بضعفه ، فقد عمد ألا تفلت منه أية شكوى من حياة الجندية التي ألفاها شاقة كئيبة . كانت ثمة نبرة فاترة في رسائلة ، وكأنّه كتبها شعوراً منه بالواجب . ولم يقل إلا في رسالة أخيرة : «كل وقتي في جبهات القتال ، لقد مللت الحرب وأنا أحمل الموت على ظهري» . وكان في كل رسائله يسأل عن ابنته ، ويطلب من اكسينيا أن تكتب له عنها : «اكتبي كيف حال ابنتي

وما هو مظهرها الآن ؟ رأيتها منذ أيام في منامي مرتدية فستاناً أحمر ومتكبرة» .

بدا على اكسينيا وكأنها تتحمل الفرقة بشجاعة . وقد أغدقت كل حبّها على طفلتها ، سيما بعد أن اقتنعت بأنها طفلته حقاً . لقد زودتها الحياة ببراهين لا تدحض : فتبدل شعرها الكستنائي واستحال أسود مجعّداً ، وغدت عيناها سوداوين مستطيلتين وحتّى ابتسامتها أصبحت تشابها ابتسامة غريغوري . ويزداد شبهها بأبيها يوماً بعد يوم . وبات بوسع اكسينيا أن ترى صورته في الطفلة بما لا يقبل الشك ، فازدادت عاطفتها نحوها عمقاً . ولم تعد تشيح عن المهد رأسها ، كما فعلت بعض الأحيان في السابق ، لأنها كانت تستشف في وجه الطفلة الغافي بعض ملامح ستيبان المقيتة .

على أن الأيام مضت متثاقلة ، وفي نهاية كل يوم تجثم على صدر اكسينيا مرارة كاوية . كان القلق على حياة محبوبها ينفذ في ذهنها كإبرة حادة ، فلا يبارحها نهاراً . كل ما اعتصر نفسها وحاولت أن تكبحه بإرادتها يعود فيقوّض كل السدود أثناء الليل ، فتتضوّروتتقلّب ، باكية دونما صوت ، وهي تعضّ على يدها ، كي لا توقظ الطفلة بنشيجها ، وقد بذلت وسعها لإغراق عذاب روحها بعذاب جسدها . وكانت تفرغ بقية دموعها على قماط طفلتها ، فتحدّث نفسها بسذاجتها الطفولية : «إنها طفلة غريشا ، لا بد أن يحس في صميمه كم أحن اليه» .

كانت اكسينيا تنهض صباحاً بعد ليالي مثل هذه وكأن أحداً قد أشبعها ضرباً لا رحمة فيه . كان الألم يبرّح كل جوارحها ، وتدق في عروقها مطارق فضيّة صغيرة لا تنقطع ، ويلوح الحزن في طرف شفتيها . وأضفت هذه الليالي الشيخوخة عليها .

ذات يوم أحد قدمت الفطور الى سيدها ، ثم خرجت الى الفناء وإذا كانت واقفة على عتبة الباب رأت امرأة تدنو من البوابة . كانت العينان تبدوان من تحت العصابة البيضاء مألوفتين بشكل غريب . فتحت المرأة

البوابة وولجت الفناء . وشحب وجه اكسينيا إذ عرفت ناتاليا ، ومضت اليها متمهلة . كانت طبقة كثيفة من الغبار قد استقرّت على حذاء ناتاليا . توقفت وقد تدلّت على جانبيها بلا حياة يداها الكبيرتان الخشنتان من الكدح ، وكانت تسحب أنفاسها بمشقّة ، وهي تحاول عبثاً أن تقيم رقبتها الشوهاء . فبدت وكأنها تنظر جانباً . قالت ، وهي تمرر لسانها الجاف فوق شفتيها : «جئت لأراكِ ، يا اكسينيا» .

القت اكسينيا نظرة خاطفة على نوافذ البيت وقادت ناتاليا بصمت الى داخل غرفتها فتبعتها ناتاليا . وبدا لأذني ناتاليا المصيختين بأن حفيف تنورة اكسينيا كان عالياً بشكل غير طبيعي : «أذناي ليستا على مايرام . لا بد أن ذلك بفعل الحرارة» . راحت هذه الفكرة المضطربة تعتمل في رأسها مع جملة من أفكار أخرى .

أغلقت اكسينيا الباب ، ثم وقفت في وسط الغرفة ويداها تحت وزرتهاوأخذت زمام المبادرة .

سألت اكسينيا بصوت واطىء أقرب الى الهمس :

ـ علام جئت ؟

فأجابت ناتاليا وهي تجول بعينيها في أرجاء الغرفة ببطء :

ـ أريد أن أشرب ماء .

انتظرت اكسينيا فشرعت ناتاليا في الكلام رافعة صوتها بمشقّة :

ـ لقد أخذت زوجي منّي... أعيدي لي غريغوري العزيز . حطمتِ حياتي . ألا ترين كيف...

فصرّت اكسينيا بأسنانها وتساقطت الكلمات من فمها متلاحقة كما تتساقط قطرات المطر المتباطئة على الحجر :

ـ أعيد زوجك ؟ أعيده ؟ ممن تطلبين ؟ لماذا جئت ؟ طلبك بعد فوات الأوان . بعد فوات الأوان!

دنت اكسينيا من ناتاليا وهي ترسل ضحكات كاوية تهزّ بدنها برمّته .

وراحت تهزأ بها وهي تصوّب النظرات الى غريمتها . هاهي واقفة ، تلك الزوجة الشرعية المهجورة ، ذليلة ، سحقتها التعاسة ، هي ذي المرأة التي حلّت بين اكسينيا وغريغوري ففرقت بينهما ، وأدمت قلب اكسينيا ألماً . ويوم كانت تضني نفسها بالشوق القتّال كانت الاخرى ، ناتاليا هذه ، تداعب غريغوري وتضحك منها دونما ريب ، تضحك منها هي العشيقة المهجورة . لهثت اكسينيا قائلة :

ـ وجئتِ تطلبين منّي أن أتخلّى عنه ؟ ايتها الأفعى الزاحفة ، أنت التي اغتصبت غريشا منّي لأول مرّة ! كنت تعرفين أنني أعاشره . لماذا تزوجته ؟ أنا استعدت ما يخصني . إنه ملكي ولي منه طفلة ، أما أنت ... .

وراحت تحدّق في عيني ناتاليا بمقت عاصف ، وفيما كانت تلوّح ذراعيها بجنون ، طفقت تصب حمماً جارفة من كلماتها :

ـ غريشا لي ، ولن اتخلّ عنه لأحد ! إنه لي ، لي! أتسمعين ؟... لي! اخرجي أيتها العاهرة الفاحشة ، أنت لست زوجته . أتريدين أن تسرقي من الطفلة أباها ؟ ولماذا لم تأتي قبل هذا ؟ ها ، لماذا لم تأتي ؟

مشت ناتاليا جانباً وجلست على المصطبة ، مسبلة رأسها مغطية وجهها بيديها :

ـ أنت تركت زوجك . لا تصرخي هكذا .

ـ لا زوج لي سوى غريشا . ليس لي في الدنيا أحد .

أحسّت اكسينيا بغيظ يلتهب في داخلها ولا يجد له منفذاً ، وراحت تحدّق في خصلة الشعر الأسود التي انسلّت من تحت عصابة ناتاليا ، وسألتها غاضبة :

ـ أهو بحاجة اليك ؟ انظري الى رقبتك الملتوية! أتحسبينه يحن اليك ؟ لقد هجرك وأنت سليمة ، فهل يمكن أن ينظر اليك وأنت شوهاء ؟ لن أتخلّى عن غريشا! ذلك كل ما عندي من قول . اخرجي! .

تنمرت اكسينيا في الذود عن عشها ، وفي الثأر لكل ما عانته في

الماضي . كان بوسعها أن تلاحظ أن ناتاليا مازالت تبدو مليحة رغم عنقها المعوج قليلاً . كان خدا وشفتا ناتاليا نضرتين ، لم تمتد اليهما يد الزمن ، أمّا هي فقد أحاطت الغضون عينيها ، وكل ذلك بسبب ناتاليا .

رفعت ناتاليا عينيها ، وقد دوخها الألم :

ـ أتظنين أنني كنت آمل أن استعيده بالرجاء ؟ فلهثت اكسينيا قائلة :

ـ اذاً لمَ اتيتِ ؟

ـ دفعني الشوق .

استيقظت طفلة اكسينيا على الأصوات فتلملمت في فراشها وشرعت تبكي . فرفعت الأم ابنتها ، وجلست ووجهها صوب النافذة . وحملقت ناتاليا بالطفلة وأوصالها ترتعش . واحتبست غصة يابسة في حنجرتها . كانت عينا غريغوري تطلان عليها من وجه الطفلة بفضول .

خرجت ناتاليا الى سقيفة الباب وهي تبكي وتترنح ، ولم تنهض اكسينيا لتودعها . وبعد دقيقة أو دقيقتين دخل عليها ساشكا الغرفة . وسألها ، ولابد أنه قد حزر :

ـ من تلك المرأة ؟

ـ واحدة من قريتنا .

قطعت ناتاليا في طريق عودتها مسافة ثلاثة فرستات تقريباً ، ثم رقدت تحت شجيرة شوك بريّة . كان الحنين قد هدّ حيلها فاستلقت ورأسها خلو من أي فكرة . ولم تغب عن مخيلتها صورة عيني غريغوري الكئيبتين وهما تطلان عليها من وجه الطفلة .

٢٠

انطبعت الليلة التي اعقبت المعركة في ذاكرة غريغوري انطباعاً عميقاً لا يمحوه الدهر . فغدا وكأنه ألم يعمي الأبصار . ثاب الى رشده قبيل الفجر ،

فتلملمت يداه على جذامات الزرع الواخزة ، وعلى أنينه من الألم الذي ملأ رأسه . ورفع يده بمشقة ، فجرها الى جبينه ، وتلمّس شعره المتلبد بدمه . وحين لامس اصبعه الجرح أحسّ وكأن جمرة حمراء قد وضعت عليه . ثم صرّ بأسنانه وانقلب على ظهره . كانت أوراق شجرة أذواها الزمهرير تحف فوق رأسه بجرسٍ بلوري أسيان . وبدت الأغصان السوداء واضحة المعالم على صفحة السماء ذات الزرقة العميقة ، وكانت ثمّة نجوم تومض من خلالها . شخص غريغوري اليها بعين لا تطرف ، فبدت له النجوم أشبه بثمار غريبة صفر مزرقّة تتدلى من الأغصان .

أدرك ما حل به ، فانتابه هلع لا مفر منه وشرع يزحف على أطرافه الأربعة وهو يصر بأسنانه . اشتدّت عليه وطأة الألم فجعلته يهوى ووجهه الى الأسفل . خيّل اليه أنه زاحف أبد الدهر ، فحمل نفسه على التطلّع الى وراء ، فإذا الشجرة التي كان يرقد تحتها فاقد الوعي ماثلة بسوادها على بعد خمسين خطوة تقريباً . وزحف مرة عبر جثة هامدة ، فأسند مرفقيه على بطن الرجل الميت الغائرة الصلدة . كان خائر القوى من كثرة مافقد من دم ، فجعل يبكي كالرضيع ، وراح يمضغ العشب الندي لكي لا يفقد وعيه . واستطاع أن ينهض على قدميه مستعيناً بصندوق مقلوب من صناديق القنابل ، فوقف يترنح وقتاً طويلاً ، ثم شرع يسير . وبدأت قواه تعاوده ، فمشى بخطى أشد ثباتاً ، واستطاع أن يسترشد بالدب الأكبر ، فيمم وجهه صوب الشرق .

وعند طرف الغابة أوقفته صرخة منذرة مباغتة :

ـ قف ، والا أطلقت النار!

سمع طقة مسدس ، فنظر باتجاه الصوت . كان ثمة رجل يتكأ على شجرة صنوبر .

ـ من أنت ؟

قالها غريغوري ، منصتاً لصوته وكأنه صوت رجل آخر .

ـ روسي ؟ يا الهي! تعال هنا!

وتهاوى الرجل الماثل قرب الصنوبر على الأرض ، فتقدّم غريغوري نحوه :

ـ أنحن!

ـ لا أقدر .

ـ لمَ لا ؟

ـ سأقع فلا أستطيع النهوض ثانية ، أنا مصاب بجرح في رأسي .

ـ من أي كتيبة أنت ؟

ـ من كتيبة قوزاق الدون الثانية عشرة .

ـ ساعدني ، أيها القوزاقي!

فأجابه غريغوري ، وقد عرف من سيري كتفه أنه ضابط :

ـ سأقع ، ياصاحب السعادة .

ـ أعطني يدك على الأقل .

أعان غريغوري الضابط على النهوض ، ومضيا سويّة ولكن الضابط اشتد تعلقه بذراع غريغوري خطوة بعد أخرى . وفيما كانا يصعدان من وهدة ، أمسك الضابط غريغوري من كمّه وقال مصراً بأسنانه :

ـ اتركني ، ياقوزاقي . أصبت بجرح ... في معدتي تماماً .

كانت عيناه خابيتين وراء نظارته المعلقة على أنفه ، وجعل فمه الفاغر يلهث بأنفاس مبحوحة . ثم أغمي عليه ، بيد أن غريغوري جرّه معه ، فراح يهوي وينهض مرّة بعد أخرى . وقد ألقى حمله مرتين وتركه ، ولكنه في كل مرّة كان يعود فيرفعه ويمضي كالسائر في نومه .

وعند الساعة الحادية عشرة التقطتهما دورية وذهبت بهما الى مركز للتضميد .

انسل غريغوري من المركز في اليوم التالي مباشرة . وما أن بلغ الطريق حتى انتزع الضماد من على رأسه ، وسار يلوّح ضماده المضمّخ بالدم في يده وهو يتنفس الصعداء .

وحين ذهب الى مقر قيادة الكتيبة سأله آمر سريته بدهشة :

من أين أتيت ؟

ـ عدت الى الواجب ، ياصاحب السعادة .

وحين غادر آمر السرّية التقى بعريف فصيله .

ـ حصاني ... الكميت ، أين هو ؟

ـ إنه بخير ، يافتى . امسكنا به حالما فرغنا من النمساويين . ولكن ماذا حل بك ؟ لقد صلينا من أجلك ، كي تذهب الى الجنّة .

فقال غريغوري ، وهو يبتسم ابتسامة كالحة :

ـ كنتم على عجل . .

وجاء في الأمر الصادر عن كتيبته مايلي :

بالنظر لإنقاذ حياة آمر كتيبة الفرسان التاسعة ، المقدّم كوستاف كروزبرك ، على يد القوزاقي التابع لكتيبة قوزاق الدون الثانية عشرة ، غريغوري ميليخوف ، تقرر ترفيعه الى رتبة نائب عريف ، والإيصاء بمنحه وسام القديس غيورغي ، من الدرجة الرابعة .

كانت كتيبة غريغوري قد توقفت في كامينكا ستروميلوفو مدّة يومين ، وكانوا حينذاك على أهبة التقدّم ثانية . وعثر غريغوري على البيت الذي أوى اليه قوزاقي رعيله ، ثم ذهب ليرى حصانه . وافتقد منشفته وبعض ملابسه الداخلية من خرج سرجه . فاعترف ميشا كوشيفوي اعتراف المذنب قائلا :

ـ سرقت امام عيني ، ياغريغوري . نزل هنا حشد من المشاة ، وسرقوها .

ـ حسنا ، يمكن ان يحتفظوا بها ، عليهم اللعنة! اريد فقط ان اعصب رأسي

ـ بوسعك أن تأخذ منشفتي .

دخل اوريوبين السقيفة ، حيث كانا واقفين . ، فمد لغريغوري يده وكأن شجارا لم يحدث بينهما قط .

ـ مرحبا ، ميليخوف! اذن ما زلت حيا!

ـ تقريبا .

ـ الدم ينزف من رأسك . امسح جبينك .

ـ سوف افعل ذلك في أوانه .

ـ دعنا نرى ما فعلوا بك .

ثم حمل غريغوري على ان يميل برأسه الى وراء ، وزنخر قائلا :

ـ لماذا سمحت لهم بقص شعرك ؟ يا لمنظرك! الأطباء لا ينفعونك دعني أداويك .

دون أن ينتظر موافقة غريغوري ، اخرج خرطوشة من حافظته ، ثم أفرغ البارود الاسود في راحه يده .

ـ ميشا ، آتني بنسيج عنكبوت .

كشط كوشيفوي برأس سيفه نسيج عنكبوت من أحد أعمدة السقف وناوله الى اوريوبين . ثم حفر اوريوبين بالسيف نفسه بعض التراب ، وبعد أن مزجه بنسيج العنكبوت والبارود مضغه بين أسنانه . ثم لبخ المزيج اللزج على الجرح النازف وابتسم اذ أعلن

ـ سيكون الآن على مايرام في غضون أيام ثلاثة . ولكن ها أنذا اعتني بك ، بينما كنت ستقتلني .

ـ شكراً لعنايتك بي ، ولكنّي لو قتلتك لقَلَّ خطيئة واحدة عدد ما يثقل ضميري من خطايا .

ـ يا لك من ساذج ، أيها الفتى .

ـ ربّما . كيف يبدو رأسي ؟

ـ هناك جرح لابأس به . انه شيء يذكرك بهم .

ـ سوف لا أنساهم .

ـ لن تستطيع أن تنساهم حتى لوشئت ، فالنمساويون لا يشحذون سيوفهم كما ينبغي ، لذلك ستبقى لديك ندبة بقية حياتك .

قال كوشيفوي باسماً :

ـ من حسن حظّك ، ياغريغوري ، ان الضربة انحرفت ، والا كنت ستوارى بتربة أجنبية .

ولوى غريغوري قبعته الممزقة الملطخة دماً بين يديه بحيرة ، اذ قال :

ـ ماذا عساني فاعلاً بقبعتي ؟

ـ ارمها . ستأكلها الكلاب .

وتناهت اليهم من باب الدار صيحة قائل :

ـ وصل الطعام ، اولاد . هلموا لاستلامه!

ترك القوزاق السقيفة ، وصهل وراءهم حصان غريغوري الكميت ، وهو يقلّب بياض عينيه .

فأومأ كوشيفوي الى الحصان وقال :

ـ كان يحن اليك ، ياغريغوري . لقد استغربت ذلك ، كان يصد عن الطعام ويصهل طوال الوقت .

فقال غريغوري بصوت متهدّج وقد أشاح بوجهه :

ـ حين كنت أزحف بقيت أناديه . كنت على ثقة أنه لن يتركني ، وكنت أعلم أنه لن يكون من السهل على غريب أن يمسكه .

ـ هذا صحيح . لم نستطع الامساك به الا بالانشوطة .

ـ إنه حصان طيب . حصان أخي بيوتر .

والتفت غريغوري ليخفي عينيه الدامعتين .

دخلوا الدار . كان يغور زاكوف نائماً في الغرفة الامامية على فراش ذي نوابض . كان ثمّة اضطراب لا يوصف يشهد بصمت على عجالة أهل البيت عندما رحلوا عنه . فثمة كسرات وأوان ، وأوراق ممزقة ، وكتب ، وسقط متاع ولعب أطفال ، وجزم عتيقة ، وطحين منثور ، كلها ممرغة على الأرض باضطراب .

كان يميليان كروشيف وبروخور زيكوف قد نظفا فسحة في وسط الغرفة ، وجلسا يتناولان غداءهما ، ولدى رؤية غريغوري ، كادت عينا بروخور الشبيهتان بعيني العجل تطفران من محجريه :

ـ غريشا! من أين نبعت ؟

ـ من الآخرة .

فصاح اوريوبين :

ـ اهرع واجلب له شيئاً من الطعام . لا تحملق به هكذا!

ـ لن يستغرق ذلك دقيقة . المطبخ عند المنعطف .

وهرول بروخور الى الباب ، يمضغ أثناء عدوه . وجلس غريغوري في مكانه بوهن . ثم قال : «لست أتذكّر متى أكلت آخر مرّة» . ثم ابتسم ابتسامة ذاوية وكأنّه يحس بالذنب .

كانت وحدات من الجيش الثالث تتحرّك خلال المدينة ، فغصّت شوارعها الضيقة بالمشاة ، وعربات الشحن ، والخيالة ، وكانت مفارق الطرق مزدحمة ، والضوضاء تلج البيوت حتى وهي مغلقة الأبواب . وعاد بروخور على عجل بإناء من الحساء ومقلاة من الحنطة السوداء .

ـ أين أصب الطعام ؟

فالتقط كروشيف مبولة ، دون أن يعرف ماهي ، وقال : «اليك إناء ذا عروة» . فقال بروخور عابساً :

ـ إن اناءك هذا كريه الرائحة .

ـ لابأس عليك . افرغه وسنتقاسمه فيما بعد .

قلب زيكوف الاناء في الصحن فاندلقت العصيدة الدسمة الثخينة كتلة واحدة ، يحيط بها سوار من دهن عنبري . فراحوا يأكلون ويثرثرون . حكى لهم بروخور ، وهو يمسح باللعاب بقعة من على شريط سرواله :

ـ هناك بطارية تابعة لفوج جبلي من المدفعية الخيالة في جوارنا . إنهم

يطعمـون الآن خيلهم وقد قرأ نائب ضـابطهم في الجريدة أن حلفاء الالمـان يتبعثرون .

غمغم اريوبين من فمه المملوء بالعصيدة :

ـ ليتك كنت هنا يا ميليخوف هذا الصباح . آمر الفـرقة شكرنا بنفسه . استـعرضنا ثم شكرنا على سحق الخيالة المـجرية وإنقـاذ البطاريـة . قال : «ايها القوزاق إن القيصر والوطن لن ينسياكم» .

وفيما هو يتحدّث ارتفع في الخارج صوت اطلاقة ثم اخرى . وطفق مدفع رشاش يلعلع . تناهى الى مسامعهم صوت يأمر : «اخرجوا!» فرمى القوزاق ملاعقهم وهرولوا الى الخارج . كانت ثمّة طائرة تحوم واطئة فوق الرؤوس بهدير يحمل النذير .

فصاح اوريوبين :

ـ انبطحوا تحت السياج . سيقذفون قنبلة بعد لحظة فهناك بطارية تأوي بجوارنا .

ـ ليذهب واحد ويوقظ يغور . سوف يقتل على فراشه الوثير!

ـ اخرجوا البنادق .

سدد اوريوبين مرماه بدقّة من على الدرجات وأطلق النار . وتراكض في الشـارع جند وقد خفضوا رؤوسهم لسبب ما . وتناهى من الحوش المجاور صهيل الخيل وامر مقتضب . القى غريغوري نظرة عبر الحاجز فرأى المدفعيين يدخلون مدفعاً الى السقيفة على عجل . وخاوص عينيه من زرقة السماء الواخزة وشخص الى الطائر الهادر المنقض . وفي تلك اللحظة سقط منه شيء توهّج في نور الشمس بشدة . وهز دوي مـاحق الدار والقـوزاق المنبطحين قرب الدرج ، وصهل في الحوش المجاور حصان في احتضاره . وهبّت عبر السياج موجة من دخان البارود الحريف .

صـاح اوريوبين وهو يهرع هابطاً الدرج : «انبطح!» فقفز غريغوري وراءه ، والقيا بنفسيهما قرب السياج . وتوهّج أحد جناحي الطائرة فيما

استدارت . وبلغهما صوت اطلاقات متقطعة في الشارع . كان غريغوري قد دس لتوّه مشطاً جديداً من الخراطيش في مخزن بندقيته حين قذف به دوي ساحق مسافة بضع خطوات عن السياج . ولطمته لبدة من التراب على رأسه بقوّة ، فملأت عينيه غباراً... .

انهضه اوريوبين على قدميه . وقد حال ألم حاد في العين اليسرى بين غريغوري والرؤية . ثم رفع جفنه الأيمن بمشقّة فرأى أن نصف الدار قد تهدّم . وتصاعد فوق حطام الآجر دخان وردي . زحف يغور زاكوف من تحت الدرجات . كان وجهه يصرخ برمته ، وعيناه تذرفان دمعاً دامياً وقد اندلقتا من محجريهما . دفن رأسه بين كتفيه ، ويصرخ دون أن يفتح شفتيه المزرقتين .

انجرّت وراءه احدى ساقيه ، مقطوعة عند الفخذ ، متعلقة بخيط من الجلد وشريط من سرواله المحروق ،أمّا الساق الأخرى فقد زالت تماماً . كان يزحف على يديه ببطء ، ومن شفتيه ينبعث صراخ رفيع يكاد يشبه صراخ الأطفال . ثم انقطع الصراخ ، وسقط على جنبه ، شاداً بوجهه على الأرض الصلدة القاسية التي تبعثر فوقها الطابوق والروث . ولم يحاول أحد أن يذهب اليه .

صاح غريغوري ويده ماتزال تضغط على عينه اليسرى :

ـ التقطوه!

تراكض رجال من المشاة داخل الحوش ، وتوقفت عند البوابة عربة ذات عجلتين يصحبها جنود التلفونات . وصاح بهم ضابط وهو يتعداهم هذباً على حصانه :

ـ استمروا في المعركة! لا تقفوا هناك ياشياطين!

وتقدمت امرأتان ورجل عجوز يرتدي معطفاً طويلاً أسود . وسرعان ماحفت بزاركوف حشد صغير . واندفع غريغوري بينهم فرآه مايزال يتنفس وينشج بعنف ويرتعش رعشة شديدة . حبات كبيرة من العرق تبدت على جبينه الاصفر الموات .

ـ احملوه! هل أنتم ، رجال أم شاطين ؟

فزجر رجل من المشاة قائلاً :

ـ فيم عواؤك ؟ احملوه ، احملوه! ولكن الى أين يمكن أن نذهب به ؟ الا تراه يحتضر ؟

ـ ذهبت ساقاه كلتاهما!

ـ انظروا الى الدم! ما أكثره!

ـ أين هم حملة الناقلات ؟

ـ ماجدواهم!

ـ وما يزال على وعيه .

لمس اوريوبين غريغوري كتفه من الخلف ، وهمس قائلاً :

ـ لا تحرّكه ، تعال الى الجهة الاخرى وانظر .

ثم سحب غريغوري من كمه ، ودفع الحشد جانباً . القى غريغوري نظرة واحدة ، فأحنى منكبيه وأشاح بوجهه صوب البوابة . فتحت بطن زاكوف كانت الامعاء الوردية والزرقاء يتصاعد منها البخار . كانت الكومة المتشابكة ملقاة على الرمل والروث ، وتنتفخ ، والى جانبها يد الرجل المحتضر تهرش الارض .

اقترح أحدهم قائلاً :

ـ غطوا وجهه .

وفجأة رفع زاكوف نفسه على يديه ، وأمال رأسه الى الخلف حتى تدلّى من بين عظمي اللوح ، وصاح بصوت مبحوح لا يشبه صوت البشر :

ـ اخواني ، اقتلوني... اقتلوني! ... لماذا تقفون متفرجين ؟... اواه... اواه اخواني ، اقتلوني!

٢١

تمايلت عربة القطار برفق وكانت ضربات عجلاتها تبعث في النفس نعاساً مهدهداً . وانسابت من الفانوس حزمة صفراء من النور . ما أحلى أن

يتمدد المرء بطوله ، وقد خلع جزمتيه ، لتحظى قدماه براحتهما ، فيخلي المسؤولية جانباً ، ويدرك الاّ خطر يتهدد حياته ، وان الموت بعيد عنه . وثمّة متعة خاصة أن ينصت الى ثرثرة العجلات المتغيرة ، فمع كل دورة ، ومع كل جرّة من جرات القاطرة ، تتناءى جبهة القتال عنه . ورقد غريغوري يصغي ويلوي أصابع قدميه العاريتين ، فينعم كل بدنه بالملابس الجديدة النظيفة . واستولى عليه شعور من نزع عن نفسه جلداً قذراً وانطلق يلج الى عالم جديد وهو نظيف تمام النظافة .

ولم يكن يقطع عليه هناءه الرائق الهادىء سوى ألم في عينه اليسرى . كان يتلاشى بين أونة وأخرى ، ليعود فجأة ، فيضرم عينه ويحمل الدمع على الانسياب من تحت ضمادته . كان طبيب يهودي شاب قد فحص عينه في مستشفى الميدان وكتب شيئاً على قصاصة ورق وقال له :

ـ ينبغي لك أن ترحل من هنا . إن حالة عينك سيئة للغاية .

ـ هل سأفقدها ، يادكتور ؟

فابتسم الطبيب وقد أحسّ بالرعب البادي في صوت غريغوري ، وقال له مبتسماً برقّة : «ماالذي يدعوك الى هذا الظن ؟ ولكن يجب أن تعالجها ، وربّما دعت الضرورة الى اجراء عملية . سنرسلك الى بتروغراد أو موسكو » .

ـ شكراً جزيلاً .

ـ لا تخف ، ستكون عينك على مايرام .

وربت على كتف غريغوري وقاده الى الممر بلطف . وحين استدار ، شمّر عن ساعديه تأهباً لاجراء عملية .

وبعد انتظار طويل ، الفى غريغوري نفسه في قطار خاص بالمرضى . واستلقى طيلة أيام ، يهنأ بنعمة الطمأنينة . وقد بذلت القاطرة العتيقة كل قواها لجر الصف الطويل من العربات .

دنوا من موسكو ، فبلغوها ليلاً . ونقل ذوو الحالات الخطرة على الناقلات ، أما الذين يستطيعون السير فقد جمعوا على الرصيف . ونادى

الطبيب المرافق للقطار باسم غريغوري وسلمه الى احدى الممرضات وأخبرها أين يجب أن يذهب .

ـ أمعك أمتعة ؟

ـ أية امتعة تحسبين القوزاقي يملك ؟ معطف وحقيبة ميدان ، وهذا كل شيء .

ـ اتبعني .

قادته الممرضه الى خارج المحطة ، ولباسها يحف وهي تعدل شعرها تحت عصابتها . وراح غريغوري يسير بخطى غير واثقة وراءها . ثم اكتريا عربة . لقد خلف هدير المدينة الكبيرة ، وصخب اجراس الترام ، والوهج الازرق المنبعث من المصابيح الكهربائية ، شعوراً بالانسحاق لديه . فاتكأ على مسند العربة وراح ينظر بفضول الى الشوارع المزدحمة رغم أن الليلة قد حلّت ، وكان غريباً لديه أن يشعر بالدفء المثير لجسد امرأة تجلس الى جانبه . كان الخريف قد حل في موسكو . وكانت أوراق الاشجار على جانبي الشوارع تومض وميضاً أصفر في ضوء المصابيح ، وأنفاس الليل تحمل رطوبة باردة كعهدها في الخريف . وانحرفا في وسط المدينة الى شارع فرعي مهجور . وراحت حوافر الخيل تصفق أحجار الشارع ، وتمايل الحوذي على مقعده المرتفع بسترته الطويلة الزرقاء وهو يلوّح لفرسه بطرف العنان . وتناهى اليه صفير قاطرات بعيدة . فقال غريغوري في نفسه وقد وخزه الحنين : «ربّما تحرّك قطار لتوّه صوب الدون» .

سألته الممرضة قائلة :

ـ أتشعر بالنعاس ؟

ـ كلا .

ـ سنصل عمّا قريب .

استدار الحوذي : ـ ماذا تريدين ؟

ـ اسرع!

التمع ماء بركة من وراء قضبان حديدية التماع الزيت ، ولمح غريغوري مرسى تسوّره القضبان وقد ربط اليه قارب . وكان الهواء مفعماً برائحة الرطوبة .

قال غريغوري في نفسه شارد الذهن : «انهم هنا يحبسون حتى الماء وراء القضبان ، ليس الامر كالدون...» وخشخشت اوراق الشجر تحت دواليب العربة المطاطية .

توقفا خارج منزل ذي ثلاثة طوابق ، فقفز غريغوري نازلاً . وقالت الممرضة وهي تنحني صوبه :

ـ اعطني يدك .

فأمسك يدها الغضة بيده ، واعانها على النزول . فقالت وهي تدق الجرس وتضحك بهدوء :

ـ إن فيك رائحة عرق الجندية .

فرد عليها غريغوري بغضب مكبوت :

ـ ينبغي أن تعيشي هناك بعض الوقت . يا ممرضة ، وحينئذ سينبعث منك نتن آخر .

فتح الباب حاجب ، فارتقيا سلما ذا سوار ذهبي الطلاء الى الطابق الثاني فدقّت الممرضة الجرس ففتحت لهما الباب امرأة برداء أبيض . فجلس غريغوري ازاء طاولة مستديرة فيما همست الممرضة شيئاً الى امرأة فسجلت كلماتها .

وظهرت من أبواب الغرف الممتدّة على جانبي الممر الضيق وجوه عليها عوينات من شتّى الالوان .

طلبت امراة أن ينزع غريغوري معطفه فأخذه منه خادم يرتدي ملابس بيضاء هو الآخر وقاده الى الحمام .

ـ اخلع ملابسك .

ـ علام ؟

ـ ينبغي أن تستحم .

وفيما كان غريغوري يخلع ملابسه ، ويجيل النظرات الدهشة في الحمام ، بنوافذه ذوات الزجاج المغبّش ، ملأ الخادم الحوض بالماء ، وقاس الحرارة ، ثم طلب اليه النزول فيه . فغمغم غريغوري في حيرة وهو يرفع ساقه السمراء لينزلها في الحوض :

ـ هذا الحوض لا يجديني .

ساعده الخادم على غسل بدنه كلّه ، ثم أعطاه منشفه ، وقمصاناً ، وخفّاً منزلياً ، ومعطفاً رمادي اللون ذا حزام . فسأله غريغوري مستغرباً :

ـ ماذا عن ملابسي ؟

ـ سترتدي هذه مادمت هنا . وستعاد ملابسك حين تغادر المستشفى .

وحين مر غريغوري بمرآة جدارية لم يعرف نفسه . فقد بدا ممشوق القامة ، داكن المحيا ، على خدّيه بقع قرمزية وبعض الشعر على شاربيه وذقنه ، وقد ارتدى معطفاً منزلياً ، وخصلات شعره تتدلّى من تحت عصابة الضماد ، ولم يبق الا شبه طفيف بينه وبين غريغوري ميليخوف السابق . فابتسم ابتسامة ضامرة وهو يقول في نفسه : «لقد غدوت أصغر سنّاً» .

قال الخادم :

ـ الردهة السادسة ، الباب الثالث الى اليمين .

وفيما دخل غريغوري الردهة الواسعة البيضاء كاد قسيس يرتدي قميص المستشفى ونظارات داكنة ، أن ينهض . وقال مجاملاً ، وهو يقدم الى غريغوري كرسياً :

ـ آه ، جار لي ؟ يسعدني لقاؤك ، سيؤنس أحدنا الآخر . أنا من زارايسك .

وبعد دقائق قليلة فتحت الباب ممرضة بدينة لها وجه كبير لا جمال فيه . ثم قالت بصوت خفيض كأنه ينبعث من صدرها :

ـ ميليخوف ، نريد أن نلقي نظرة على عينك . ثم وقفت جانباً لتفسح له الطريق .

٢٢

قررت قيادة الجيش أن تشن بالفرسان هجوماً واسع النطاق على الجبهة الجنوبية الغربية بغية اقتحام خطوط العدو وتخريب خطوط مواصلاته ، واشاعة البلبلة في قواته بهجمات مباغتة على مؤخرته . وكانت القيادة تعلق على هذه الخطّة آمالاً كباراً ، فحشدت قوى كبيرة من الفرسان في المنطقة ، وكانت من بينها كتيبة يفغيني ليستنتسكي . وقد حدد الثامن والعشرون من آب موعداً للهجوم ، غير أن عاصفة من المطر أدّت الى تأجيله الى اليوم التالي .

وفي الصباح الباكر انتشرت الفرقة على رقعة واسعة تأهباً للهجوم .

وشن المشاة هجوماً مصطنعاً على بعد ثمانية فرستات بغية اجتذاب نيران العدو . وأرسل كذلك جانب من إحدى فرق الخيالة باتجاه آخر للتضليل .

لم يبد أمام كتيبة ليستنتسكي أي أثر للعدو . وكان بوسع يفغيني أن يرى على بعد فرست تقريباً صفوف خنادق العدو المهجورة ، ومن ورائها حقول الجويدار تتماوج في ضباب الصباح الباكر المائل الى الزرقة تتلاعب به الريح . لا بد أن العدو لمس بوادر الهجوم ، وتراجع خلال الليل نحو ستّة فرستات ولم يترك وراءه سوى مكامن الرشاشات لمضايقة المشاة .

بزغت الشمس من وراء سحب مدلهمّة ، واكتنف الوادي برمّته ضباب أصفر حليبي ، وصدرت الأوامر للبدء في الهجوم ، فزحفت الكتائب . وقد بعثت ألوف الحوافر دوياً هادراً بدا وكأنّه صادر عن جوف الارض . وجر ليستنتسكي عنان جواده كي يحول بينه والهذاب . قطعوا فرستا فاقتربت طلائع القوات المهاجمة من الحقول . كان الجويدار يعلو الى خصر الرجل بطوله وقد تشابك بأعشاب ونباتات متسلقة مما جعل تقدّم الخيالة غاية في المشقة . ومن أمامهم كانت ذؤابات الجويدار الصفر ماتزال تتماوج . ومن

خلفهم انطرحت على الأرض مهروسة بحوافر الخيل . وبعد أربعة فرستات من هذه المسيرة بدأت الخيل تتعثر وتتصبب عرقاً ، ولكنهم لم يقعوا للعدو على أثر . والقى ليستنتسكي الى آمر سرّيته نظرة فألفى وجه النقيب في سيماء القنوط التام .

استنزفت ستّة فرستات من هذه المسيرة قوى الخيل ، فتهاوى بعضها تحت فرسانها ، وتعثّر أشدّها قوه وهي تبذل كل ما في طاقتها لتواصل التقدّم . وعند ذاك بدأت رشاشات النمساويين عملها ، فأمطرتها وابلاً من الرصاص . واصلتهم البنادق رشقات من نارها . وكانت كتيبة من حملة الرماح أول من تخاذل وتراجع ، ثم تمزّق شمل كتيبة قوزاقية . فقد لفح رجالها وابل من رصاص الرشاشات والمدافع واشاع فيهم الذعر وحملهم على الهزيمة . وانتهى ذلك الهجوم الواسع النطاق الى هزيمة تامة ، جراء الاهمال الاجرامي الذي أبدته القيادة العليا . وقد فقدت بعض الكتائب نصف تعدادها من الرجال والخيل . ووقع مابين قتيل وجريح اربعمائة قوزاقي وستّة عشر ضابطاً في كتيبة ليستنتسكي وحدها .

وكان حصان ليستنتسكي قد صرع من تحته ، وأصيب هو بجراح في رأسه وساقه ، فقفز رئيس عرفاء من على حصانه والتقطه والقاه على قربوس سرجه وعاد يهذب به .

التقط رئيس أركان الفرقة العقيد الركن كولفاتشيف بضع صور فوتوغرافية للمعركة ، وعرضها بعدئذ على بعض الضباط فكان تشيرفاكوف وهو ملازم جريح أول من هوى بقبضة يده على وجهه وانفجر باكياً . ثم جاء بعض القوزاق ومزقوا كولفاتشيف ارباً ، ومثلوا بجثته ، ثم القوا بها آخر الأمر في حفرة على قارعة الطريق . وهكذا انتهى ذلك الهجوم المشين .

ومن احدى مستشفيات وارشو اخبر يفغيني اباه انه منح اجازة ، وانّه قادم الى ياغودنويه . فأوصد العجوز عليه باب حجرته ولم يخرج ثانية الا في اليوم التالي ووجهه عابس متجهم . فأمر نيكيتيتش الحوذي أن يشد الحصان

الخباب الى عربة خفيفة ، ثم تناول طعام الفطور ، وذهب الى فيشنسكايا .

ومن هناك حول لابنه اربعمائة روبل برقياً ، وأرسل اليه رسالة مقتضبة :

«يسعدني جداً ، ياولدي العزيز ، أنك تعمّدت* في النار . فسوح القتال هي المكان اللائق بالنبلاء لا القصور . إنّك لأشرف وأذكى من أن تحتمل التذلل براحة ضمير ، ولم يفعل ذلك أي فرد من عائلتنا قط . من جراء ذلك فقد جدّك حظوته ومات في ياغودنويه غير آمل أو منتظر فضل الامبراطور . اعتن بنفسك ، يا يفغيني واستعد صحتك ، تذكّر أنّك كل ماعندي في هذه الدنيا . عمّتك تبلّغك حبها . إنها بصحة جيدة . أمّا أنا ، فليس ثمّة ما أخبرك به ، فأنت تعلم كيف أعيش . ترى كيف يمكن أن تؤول الأمور في الجبهة الى هذا الحال ؟ أمن المعقول أن تخلو بلادنا من أناس ذوي فطنة ؟ لست أصدّق أخبار الصحف . إنها أكاذيب برمتّها ، كعهدي بها في السنين الخوالي . أثمّة احتمال أن نخسر هذه الحملة يا يفغيني ؟ إنني انتظرك في البيت بفارغ الصبر» .

والحق ، لم يكن في حياة ليستنتسكي الشيخ ما يكتب عنه ، فقد مضت متثاقلة كالسابق دون أن يطرأ عليها تغيير ، الا أن تكاليف اليد العاملة قد تصاعدت ، وشحّت الكحول . كان رب البيت يشرب أكثر من عادته ، فازداد طبعه حدّة ومشاكسة . وذات يوم استدعى اكسينيا وتبرّم قائلاً :

ـ إنك لا تولين واجباتك عناية . لماذا كان فطور الأمس بارداً ؟ ولماذا لم تنظّفي الأقداح كما ينبغي ؟ اذ حدث ذلك مرّة ثانية سأستغني عن خدمتك ، فاهمة ؟ أنا لا أطيق الاهمال . أتسمعين ؟ ولوّح بيده في تهيّج .

زمّت اكسينيا شفتيها ثم انفجرت باكية :

ـ نيكولاي اليكسييفتش! طفلتي مريضة . دعني اعتني بها بعض الوقت . أنا لا أستطيع تركها .

---

* من التعميد : أول أسرار الدين المسيحي وباب النصرانية . وهي غسل الصبي وغيره بالماء باسم الأب والابن والروح القدس . المترجمون

ـ مابال الطفلة ؟

ـ يبدو عليها الاختناق .

ـ ماذا ؟ الحمّى القرمزية ؟ لماذا لم تنطقي من قبل ، أيتها الحمقاء ؟ اسرعي واخبري نيكيتين أن يذهب بالعربة الى فيشنسكايا لاحضار الطبيب . اسرعي!

فهرعت اكسينيا خارجة ، والعجوز يزمجر وراءها بصوته الجهوري العميق :

ـ أنت يا حمقاء النساء ، يا حمقاء!

جاء نيكيتتش بالطبيب صباح اليوم التالي ففحص الطقلة المغشية المحمومة ، وذهب الى السيد مباشرة دون أن يلتفت الى ضراعة اكسينيا ، فاستقبله الشيخ في غرفة الانتظار دون أن يصافحه . وسأل الطبيب ، وهو يرد على تحيّته بإيماءة لا تنم عن اهتمام :

ـ حسناً ، مابال الطفلة ؟

ـ الحمّى القرمزية ، ياصاحب السعادة!

ـ هل ستشفى ، أهناك أمل ؟

ـ الأمل ضئيل جداً . انها تحتضر . إنها صغيرة السن .

فقال الشيخ وقد احمر وجهه : «أنت أيها الأحمق! علام درست الطب ؟ اشفها!» ثم صفق الباب بوجه الطبيب وراح يقطع الصالة جيئة ورواحاً .

طرقت اكسينيا الباب ودخلت :

ـ يريد الطبيب خيلاً تقله الى فيشنسكايا .

فاستدار الشيخ على عقبيه وصاح ، وهو يهز قبضته العظيمة :

ـ قولي له انك بليد العقل! اخبريه أنه لن يبارح هذا المكان حتى تتعافى الطفلة . اعطيه حجرة وأطعميه واسقيه ما شاء . ولكنّه لن يذهب .

وخطا الى النافذة ، ونقر عليها بأصابعه ، ثم التفت الى صورة لابنه

وهوطفل بين ذراعي مربيته ، فخطا الى الوراء خطوتين وراح يتفرّس في الصورة ، وكأنّه لا يستطيع معرفة الطفل .

حين انتاب طفلة اكسينيا المرض تملكها الاعتقاد بأن الله يعاقبها لاساءتها الى ناتاليا . وفقدت توازنها تحت وطأة الاشفاق على حياة الطفلة ، فراحت تجول على غير هدى ، ولم تستطع القيام بعمل .«يقيناً أن الله لن يأخذها الى جواره» كانت هذه الخاطرة المحمومة لا تني تطرق رأسها ، فلم تسلّم ، وحاولت بكل جوارحها ألا تسلّم ، بأن الطفلة ستموت ، فراحت تتضرع الى الله بجنون ، تسأله رحمة أخيرة ليحفظ حياة الطفلة .

لكن الحمّى أخذت بخناق الروح الصغيرة ، فرقدت البنت على ظهرها ، وانبعثت الأنفاس من حنجرتها الوارمة بشهقات قصيرة مبحوحة . ظل الطبيب يفحصها اربع مرات كل يوم ، وكل مساء كان يقف طويلاً يدخّن على عتبة جناح الخدم وهو شاخص بنظره الى النثار البارد لنجوم الخريف .

ومكثت اكسينيا طوال الليل جاثية الى جانب السرير . كانت حشرجة الطفلة المقرقرة تعتصر قلبها . همست الشفتان الصغيرتان اليابستان :

ـ ماما...

فأنّت الأم :

ـ صغيرتي . بنيتي الصغيرة ، زهرتي ، لا تذهبي ، ياتانيا . انظري ، ياحلوتي ، افتحي عينيك الصغيرتين ، عودي . ياحبيبتي ياسوداء العينين! لماذا ، ربّاه ؟ ...

ومن حين لآخر كانت الطفلة تفتح أجفانها الملتهبة فتند من عينيها المحمرتين ومضة حيرى ، فتتشبث الأم بالنظرة بنهم ، فتبدو البنت كالمنطوية على نفسها . وقد انتابها الحنين والاذعان .

ماتت البنت بين ذراعي أمها ، فقد انفغر فمها الصغير للمرة الاخيرة واختلج جسدها . وانكفأ الرأس الصغير على ذراع الأم ، وراحت العينان الميليخوفيتان الصغيرتان تحدّقان بنظرة مأخوذة اسيانه .

حفر ساشكا العجوز قبراً صغيراً تحت شجرة حور شائخة على ضفّة البحيرة ، وحمل التابوت الى القبر وواراه بعجالة غير مألوفة ، ثم انتظر في صبر ريثما تنهض اكسينيا من الربوة الطينية . وحين عيل صبره ، تمخّط بعنف ومضى الى الاسطبل . واخرج من المعلف قنينة من ماء الكولونيا وابريقاً من الكحول المعدوم . فمزج الشرابين في قنينة ، وتمتم وهو يرفع المزيج الى الضوء :

ـ في ذكراها! لتفتح مملكة السماء للصغيرة أبوابها! لقد مات الملاك .

وعبّ من الشراب ثم هز رأسه بعنف وهو يغرز أسنانه في الطماطة المخللة ، ثم حدّق في القنينة برقّة ، وقال :

ـ لا تنسيني ، ياعزيزتي ، أمّا أنا فلن أنساك قط!

ثم أجهش باكياً . بعد ثلاثة أسابيع بعث يفغيني ليستنتسكي برقية يقول فيها أنه قادم الى أهله ، فأرسلت عربة تجرها ثلاثة خيول لكي تلقاه في المحطة ، وكان كل من في الضيعة على أحر من الجمر في انتظاره . وقد ذبحت الديكة الرومية والاوز ، ونحر ساشكا العجوز خروفاً . كانت الاستعدادات قمينة بحفلة راقصة ضخمة . وصل السيد الشاب ليلاً . كان ثمّة مطر بارد يساقط ، وفوانيس الفناء تلقي على البرك أشعّة عابرة صغيرة . توقفت الخيل عند درجات الباب وأجراسها تجلجل . فألقى يفغيني المبتسم عباءته الوثيرة الى ساشكا وخطا وهو يظلع قليلاً صعد الدرج بانفعال . وهرع أبوه يلقاه ، مطيحاً بالكراسي في طريقه .

اعدّت اكسينيا مائدة العشاء في غرفة الطعام ، ثم ذهبت تدعوهما الى العشاء . وحين تطلعت خلال ثقب المفتاح رأت الشيخ يعانق ابنه ويقبله على كتفيه ، واللحم المترهل يرتعش على رقبته . انتظرت بضع دقائق ، ثم نظرت ثانية . كان يفغيني هذه المرة يركع على ركبتيه أمام خارطة كبيرة منشورة على الأرض ، والشيخ يدق على مسند الكرسي بعقل أصابعه ، وينفث من غليونه سحباً من الدخان ، ويهدر ساخطاً :

ـ الكسييف ؟ لا يمكن ذلك! لا أصدّق ذلك .

كان يفغيني يرد عليه بهدوء وهو يمرر اصابعه على الخارطة ليقنعه .

فأجاب الشيخ بصوت رصين عميق : « إن القائد العام ، والحالة هذه ، على خطأ . افتقار كلي للبصيرة . اسمع ، يفغيني ، سأورد لك مثلاً مشابهاً من الحرب الروسية اليابانية . دعني! دعني! »

طرقت اكسينيا الباب ، وتردد صوت الشيخ :

ـ ماذا ؟ العشاء جاهز ؟ نذهب حالاً .

فخرج الشيخ منتعشاً مرحاً ، تشع عيناه بوميض الشباب . وشرب مع ابنه قنينة شراب معتّق منذ عام ١٨٧٩ . وقد اشتد باكسينيا الشعور بالوحدة فيما كانت تخدمهما فترى البشر في محياهما... كان يعذبها حنين لم تبلله الدموع . فقد أرادت أن تبكي بعد موت طفلتها ، بيد أن الدموع لم تؤاتها . كانت الغصّة تتصاعد الى حلقها غير أن عينيها بقيتا جافتين ، فتضاعفت وطأة الحزن الخانق عليها . امست كثيرة النوم ، تنشد العزاء في سباتها ، الا أن نداء الطفلة كان يتناهى اليها حتى في نومها . فيخيل اليها أن الطفلة نائمة الى جوارها ، فتنقلب يدها تتحسس على الفراش وهمسة« ماما ماما » ترن في أذنيها . فتجيب بشفتين مثلجتين :

« أي حبيبتي » . وكانت حتّى في ضوء النهار المزعج تتصور أن الطفلة ازاء ركبتيها ، فتفيق على نفسها ويدها ممتدة تداعب شعرها الأجعد .

جلس يفغيني بعد عودته بأيام ثلاث يسامر ساشكا العجوز في الاسطبل ، الى وقت متأخر من المساء ، منصتاً الى حكاياته الساذجة عن الحياة الطليقة التي عاشها القوزاق في الأيام الخوالي ، ثم بارحه في بداية الساعة التاسعة . وكانت ثمة ريح شديدة تهب عبر الحوش ، والوحل يخشخش تحت قدميه . ومضى هلال أصفر العذارين يتواثب خلال السحب ، فنظر يفغيني على ضوئه الى الساعة ، ثم عرج الى جناح الخدم . توقف عند الدرج فأشعل سيكارة ولبث يفكّر برهة ، ثم هز كتفيه وارتقى السلم بعزم .

ورفع المزلاج حاذراً ، ثم فتح الباب ومضى الى غرفة اكسينيا وأشعل عود ثقاب .

تساءلت وهي تجر الغطاء حولها :

ـ من هناك ؟

ـ أنا ، لا غير .

ـ سأرتدي ملابسي في الحال .

ـ لا تزعجي نفسك . لن أبقى الا لحظة أو لحظتين . القى معطفه وجلس على حافة السرير .

ـ اذن ، فقد ماتت ابنتك الصغيرة .

فهتفت اكسينيا مرددة : أجل ، ماتت... .

ـ يبدو عليك تغير ملحوظ . بوسعي أن أخمّن ما يعنيه فقدان الطفلة عندك . ولكن احسبك تعذبين نفسك دونما طائل ، فليس بإمكانك أن تعيديها . ما زلت شابة تستطيعين انجاب الاطفال . شدّي حيلك ، اصبري ثم أنك على أية حال ، لم تفقدي كل شيء ، مازالت الحياة برمتها أمامك .

شد على يدها ، راح يربت عليها ملاطفاً متسلطاً في آن واحد ، وهو يلعب بأوتار صوته الواطئة . ثم خفض صوته فغدا همساً ، وحين سمع بكاء اكسينيا الكظيم ، شرع يلثم خديها وعينيها الخضلتين .

ما أسرع ما يستجيب قلب المرأة للرقة والعاطفة . كان اليأس قد أثقل عليها ، فلم تدرك ماهي فاعلة حين استسلمت له بكل عواطفها الجياشة التي طال عليها الرقاد . ولكنها ثابت الى رشدها حين همدت موجة النشوة العارمة الساحقة ، فصرخت بحدة ، وفقدت كل معاني الصواب أو الحياء فاندفعت راكضة الى سقيفة الباب وهي شبه عارية ، لا يسترها سوى قميصها . وهرع يفغيني يخرج في اثرها ، تاركاً الباب مفتوحاً ، يرتدي معطفه أثناء سيره . وفيما كان يرتقي السلم الى شرفة المنزل تبسم راضياً مسروراً . شمله الشعور بالمرح . وحين آوى الى فراشه ، راح يدلك صدره

اللدن المكتنز ، وهو يقول في نفسه : «إن ما أتيته معيب يناقض الأخلاق ، من وجهة نظر الرجل الشريف . غريغوري... لقد سلبت جاري ، وعلى كل حال ، فقد عرضت حياتي للخطر في جبهة القتال . فلو أن الرصاصة مالت الى اليمين قليلاً لاخترقت رأسي ، وترتب عليّ الآن أن أكون طعاماً للديدان . على المرء أن يحيا هذه الأيام بعواطفه كيفما اتفق . إن بوسعي أن أفعل أي شيء» . وقد راعة برهه مايدور في أفكاره ، بيد أن الخيال عاد به ثانية الى لحظة الهجوم ، وكيف أنه رفع نفسه من على حصانه الميت ليهوى ثانية ، وقد أصابه الرصاص . وفيما كان يغفو قرر أن«غداً نفكّر في هذا ، أما الآن فإلى النوم» .

وصباح اليوم التالي ، حين وجد نفسه منفرداً واكسينيا في غرفة الطعام ، دنا منها ، وعلى محياه ابتسامة مذنبة ، ولكنها التصقت بالجدار ، ومدّت ذراعيها ، فألهبته بهمسها الخانق :

- ابتعد عنّي ، ايها الشيطان!

ولكن الحياة تملي على الانسان شرائعها التي لم يسنها مخلوق . فما أن مضت ثلاثة أيام ، حتّى ذهب يفغيني ثانية الى اكسينيا ليلاً ، فلم تصدّه .

٢٣

كانت ثمّة حديقة صغيرة ملحقة بمستشفى العيون . وفي ضواحي موسكو عديد من هذه الحدائق المشذبة غير الجذابة حيث لا تجد العين ما يزيح عنها وطأه المدينة الحجرية الثقيلة ، وحين يتطلع المرء الى هذه الحدائق تعود ذاكرته بألم أشد الى طلاقة الغابات الفطرية . وقد خيّم الخريف على حديقة المستشفى فعلت ممراتها أوراق برتقالية وبرونزية ، وسحق زمهرير الصبح الازهار واغرق رقع الحشيش بأخضر مائي . كان المرضى في الأيام الصاحية يجوبون الممرات ، فينصتون الى أجراس كنائس

موسكو الورعة . وحين يسوء الطقس(وكانت أغلب الأيام عامئذ كذلك) فإنهم يتجولون من ردهة الى أخرى أو يستلقون على سررهم صامتين ، يبعثون السأم في نفوسهم ونفوس الأخرين .

وكان المرضى المدنيون يشكلون غالبية نزلاء المستشفى ، وقد افردت ردهة للجنود الجرحى ، وكانوا خمسة : يان فاريكيس ، وهو لاتيفي مديد القامة ، أزرق العينين ، له لحية عريضة ، وإيفان فروبلفسكي ، وهو فارس وسيم من مقاطعة فلاديمير ، وحامل بندقية من سيبيريا يدعى كوسيخ ، وجندي قميء أصفر لا يقر له قرار ، يدعى بوردين ، وغريغوري . وفي أواخر أيلول أضيف اليهم رجل آخر .

كانوا يتناولون شاي المساء حين سمعوا رنين جرس متواصل ، فأطل غريغوري الى الممر . كان ثلاثة أشخاص قد دخلوا الصالة : ممرضة ، ورجل يرتدي معطفاً قفقاسياً طويلاًيمسك بثالث من تحت ابطيه . ودلت قمصلة الجندي الوسخة ، وقد علت صدرها لطخ سود من الدم ، على أنه جاء من المحطة لتوه . وقد أجريت له عملية في المساء ذاته . وبعد أن أدخلوه صالة العمليات ببضع دقائق ، سمع المرضى الاخرون صوت غناء مكتوم . كان يغنّي ويرسل شتائم مبهمة وهو واقع تحت تأثير الكلوروفورم فيما كان الجراح يزيل بقايا احدى عينيه التي مزقتها شظية قذيفة . وجيء به اثر العملية الى الردهة . وحين زال عنه أثر الكلورفورم ، أخبر الاخرين أنه جرح في الجبهة الالمانية ، وأن اسمه كارانجا ، وأنّه حامل رشاشة أوكراني من مقاطعة تشرنيكوف . وقد اقام مع غريغوري ، الذي يجاوره السرير ، صداقة خاصة ، فكانا بعد التفتيش كل مساء يتسامران وقتاً طويلاً بصوت خفيض .

افتتح حديثه الأول قائلاً :

ـ حسناً ، أيها القوزاقي ، كيف تجري الأمور ؟

ـ عفنة .

ـ هل ستفقد عينك ؟

ـ أنا اتلقى حقنات الابر .

ـ كم تلقيت منها ؟

ـ ثماني عشرة ، حتى الان .

ـ هل توجعك ؟

ـ كلا ، أنا اجدها ممتعة .

ـ التمس منهم ان يقلعوا لك عينك .

ـ علام ؟ لا يجوز أن يكون الجميع عوراً .

ـ صحيح .

كان جار غريغوري المغل الحاقد لا يرضيه شيء . كان يشتم الحكومة ، والحرب ، وحظه ، وطعام المستشفى ، والطباخ والاطباء ، وكل ماياتي على لسانه .

ـ علام حاربنا ، إنا وأنت ؟ هذا ما أريد أن أعرف .

ـ لنفس السبب الذي حارب لأجله كل الاخرين .

ـ هاه ! أنت أحمق! عليّ أن أجتر الأمر ثانية من أوله الى أخره ! اننا نحارب من أجل البرجوازية ألا ترى ذلك ؟ ومن هم البرجوازيون ؟ إنهم طيور على الفاكهة .

وراح يفسّر لغريغوري تلك الكلمات الصعبة ذاراً على أقواله فلفلاً من الشتائم . وكان غريغوري يقاطعه قائلاً : «لا تسرع في كلامك هذا . لا استطيع أن أفهم رطانتك الاوكرانية . تكلم ببطء أكثر» .

ـ لست سريع الكلام هكذا يابني . اتحسب انك تقاتل من أجل القيصر ؟ ولكن ما القيصر ؟ انه نهّاب ، والقيصرة عاهرة ، وكلاهما عبء على كواهلنا . الا تفهم ؟ ان صاحب المعمل يشرب الفودكا ، أما الجندي فيقصع القمل . إن صاحب المعمل يجني الارباح ، اما العامل فيعيش عرياناً . هذا هو النظام الذي لدينا . واصل خدمتك ، أيها القوزاقي ، واصل . ستنال وساماً آخر ، وساماً جيداً ، مصنوعاً من خشب البلوط .

كان يتحدث بالاوكرانية ، ولكنه ، في مناسبات نادرة ، حين ينفعل ، كان يتحول الى الروسية الصافية ويغدق عليها سباباً جماً .

راح يكشف لغريغوري ، يوماً بعد يوم ، حقائق كان يجهلها ، موضحاً له الأسباب الحقيقية للحرب ، ساخراً مرّ السخرية من الحكومة الاتوقراطية . وقد حاول غريغوري أن يعترض عليه ، بيد أن كارانجا كان يسكته بأسئلة بسيطة ، قاتلة في بساطتها ، فلا يجد بداً من الموافقة .

وافظع مافي الأمر ، أن غريغوري أخذ يعتقد أن كارانجا على حق ، وأنه عاجز عن معارضته لأنه لا يملك ما يعترض عليه به . وادرك بشعور من الرعب أن الاوكراني الذكي الحانق يقوّض ببطء وعزم كل أرائه السابقة عن القيصر ، والوطن ، وواجبه العسكري كقوزاقي .

وخلال الشهر الذي أعقب مجيء الاوكراني ، أمسى البناء الذي كانت ترتكز عليه أفكار غريغوري حطاماً ينبعث منه الدخان ، وكانت العفونة قد شاعت فيه قبل ذلك ، حيث تأكلته قروح الشعور بعبث الحرب ووحشيتها ، ولم يكن يعوزه الا رجه واحدة كي يتقوّض ذلك البنيان . وقد أتت الرجة ، فاستيقظ ذهن غريغوري الساذج الطيب . كان يتخبّط بحثاً عن مخرج له ، عن حل لعقدته ، وقد سرّه أن يعثر على ذلك في أجوبة كارانجا .

نهض غريغوري في هزيع متأخر لاحدى الليالي وأيقظ كارانجا . وجلس على حافة سرير الاوكراني . كان ينساب خلال النافذة ضوء مخضوضر من قمر أيلول . وبدا خدّا كارانجا داكنين من كثرة الغصون ، وكان محجرا عينيه الاسودان يومضان . ثم تثاءب ودثّر ساقية بالبطانية .

ـ لماذا لم تنم ؟

فأجاب غريغوري :

ـ لا أستطيع النوم . أوضح لي هذا الأمر فحسب . الحرب تفيد البعض وتضر الأخرين ، أليس كذلك ؟

فتثاءب الاوكراني قائلاً :

ـ حسناً ؟

فهمس غريغوري وهو يتأجج غضباً : «مهلاً! أنت تقول أنك تساق الى حتفك لمصلحة الاغنياء . ولكن مابال أفراد الشعب ؟ أليس ثمة من يوقظهم ، من يستطيع الذهاب اليهم ليقول : اخواني ، من أجل هذا تموتون ؟» .

ـ من يستطيع ذلك ؟ قل لي ؟ لنفرض أنك قمت بذلك . ها نحن اولاء نتهامس كالاوز بين القصب ، ولكن ما أن ترفع عقيرتك بالصياح ، حتى يهيئوا لك رصاصة . إن الشعب غارق في جهله . وستوقظه الحرب . فالرعد تتبعه العواصف .

ـ ولكن ما عسانا فاعلين بشأنها ؟ قل لي ، يا أفعى! لقد أيقظت قلبي .

ـ وماذا يقول لك قلبك ؟

فاعترف غريغوري قائلاً :

ـ لا أستطيع أن أفهم ما يقول .

ـ إن من يدفعني الى شفا الهاوية سوف يقع هو فيها . يجب ألا نخشى أن ندير بنادقنا الى صدورهم . علينا أن نقتل الذين يسوقون الشعب الى الجحيم . ـ ثم رفع كارانجا جسمه قليلاً على فراشه ، ومد يديه ، وهو يصر بأسنانه : ـ ستطغى موجة عارمة تودي بهم جميعاً .

ـ أنت تعتقد اذن أن كل شيء ينبغي أن يقلب رأساً على عقب ، أليس كذلك ؟

ـ أجل ، يجب أن نرمي الحكومة جانباً مثل خرقة بالية . ينبغي أن نجتز صوف الاسياد ، فقد طال عهدهم بتقتيل الناس .

ـ وماذا تراك فاعلاً بالحرب حين تحصل على الحكومة الجديدة ؟ سنمضي في الاحتراب ، وإن لم نفعل ذلك نحن ، فإن أطفالنا سوف يفعلون ذلك . أنّى لك اجتثاث الحروب . وما فتىء الناس يقتتلون منذ عصور ؟

ـ هذا صحيح ، لقد استمرت الحرب منذ الازل ، وستستمر حتى نكنس الحكم الفاسد . ولكن حين تصبح كل الحكومات بيد العمال فإنها ستكف عن

الاحتراب . هذا ما ينبغي أن نفعله . وسوف يتحقق لنا ذلك ، وليوارهم الشيطان جميعاً! سوف يكون ذلك . فحين يقيم الالمان ، والفرنسيون ، والاخرون كلهم ، حكومات العمال والفلاحين ، علام نتحارب حينذاك ؟ لتزل الحدود ، ليزل الغضب! حياة حلوة واحدة في أرجاء الدنيا بأسرها . آه!...

وتنهد كارانجا ، ثم ابتسم حالماً وهو يفتل طرفي عذاريه ، وعينه الوحيدة تومض :

ـ غريشا ، اني على استعداد لأن أريق دمي قطرة اثر قطرة كي ترى عيني ذلك اليوم . قلبي يلتهب .

وامتد بهما الحديث حتى مطلع الفجر . وحين لاحت الظلال الرمادية استسلم غريغوري الى رقاد مضطرب .

أيقظه في الصباح صوت كلام ونحيب . كان ايفان فروبلفسكي مستلقياً على وجهه يبكي في فراشه ، وقد وقفت من حوله الممرضة ويان فاركيس وكوسيخ . فزمجر بوردين ، مخرجاً رأسه من تحت أغطيه للفراش :

ـ علام يعول ؟

فأجابه كوسيخ بنبرة فيها من الضغينة أكثر مما فيها من شفقة .

ـ كسر عينه . اخرجها لتوه من القدح فسقطت على الأرض .

كان الماني متجنّس بالجنسية الروسية ، يبيع العيون الصناعية ، قد دفعه شعوره الوطني الى تزويد الجيش بمنتجاته مجاناً . وفي اليوم السابق كانوا قد ركّبوا لفروبلفسكي عيناً زجاجية صنعت بمهارة جعلتها تبدو بزرقة عينه الحقيقية تماماً . كانت صناعتها من الكمال بحيث يعجز الفاحص المتمعن أن يميّز العين الحقيقية من المقلّدة ، فظل فروبلفسكي بسببها ضاحكاً جذلاً كالطفل .

وقد قال بلهجة أهل الفولغا المتراخية :

ـ سأرجع الى أهلي ، واحصل على اية فتاة أريد . سأتزوج ، وبعدئذ سأعترف بأن عيني زجاجية .

فقهقة بوردين قائلاً :

ـ يا للشيطان ! سيفعل ذلك .

واذا بالحادث يقع ، وها هو الفتى الوسيم سيرجع الى قريته أعور العين أشوه . فواساه غريغوري قائلاً :

ـ سيعطونك عيناً جديدة ، لا تتعب .

فرفع فروبلفسكي وجهه المبتل بالدمع من على الوسادة ، كاشفاً عن محجره الخاوي :

ـ كلا ، لن يعطوني . لقد كلفت تلك العين ثلاثمئة روبل . لن يعطوني عيناً جديدة قط .

فقال كوسيخ باعجاب وحماس :

ـ يالها من عين! كم كانت دقيقة الصنع!

وبعد الفطور ذهب فروبلفسكي الى حانوت الالماني بصحبة الممرضة ، فأعطاه عيناً جديدة . وهتف فروبلفسكي ، وقد جنّ فرحاً :

ـ عجباً ، الالمان أفضل من الروس! إن تاجراً روسياً لن ينفحك كوبيكاً ، ولكن هذا أعطاني عيناً جديدة دون أن ينبس بشيء .

انقضى شهر أيلول . ومضت الأيام متثاقلة لا نهاية لها ، يملؤها سأم مميت . ففي الساعة التاسعة صباح كل يوم يقدّم الشاي للمرضى مع شريحتين شفافتين بائستين من الخبز ، وفص من الزبدة بحجم ظفر الاصبع . وكان الجوع لا يفارقهم حتى بعد تناول الغداء . ثم يشربون الشاي في المساء ثانية ، فيرتشفون معه الماء البارد لمجرد التنويع . وقد تغير مرضى الردهة العسكرية (هكذا أصبح المرضى يسمون ردهة الجنود الجرحى) . فرحل السيبيري أولاً ، ثم أعقبه اللاتيفي . ثم صرف غريغوري في أواخر تشرين الأول .

فحص جرّاح المستشفى عينيه وقرر أن بصرهما بحالة مرضية . ولكنه نقل الى مستشفى آخر نظراً لأن جرح رأسه انفتح على غير انتظار وأخذ يتقيح قليلاً . وقال غريغوري وهو يودّع كارانجا :

ـ أترانا نلتقي ثانية ؟

ـ الجبلان لا يلتقيان ، ولكن... .

ـ حسناً ياجار ، اشكرك لتبصرتي . وبوسعي الآن أن أرى . واصبحت حاقداً .

ـ حين تعود الى كتيبتك أنقل للقوزاق الاخرين ماقلته لك .

ـ سأفعل ذلك .

ـ وإذا صادف أن جئت الى منطقة تشيرنيكوف في قرية كوروخوفكا أسأل عن الحداد اندريه كارانجا ، وسأكون مسروراً لرؤيتك . الى اللقاء ، يافتى .

تعانقا . ولبث في ذاكرة غريغوري طويلاً صورة الاوكراني بعينه العوراء ، والخطوط اللطيفة تمتد من فمه عبر خديه المصفرين .

امضى غريغوري في المستشفى الثاني عشرة أيام . وقد راحت تراود ذهنه قرارات لما تتخذ شكلها النهائي بعد . كانت تعاليم كارانجا الثورية تعتمل في دخيلته . فلم يتحدث الى جيرانه في الردهة الا لماماً ، واتسمت كل حركاته بشيء من الاضطراب والحذر .

واعتبره رئيس الاطباء «رجلاً قلقاً» حين القى الى وجهه غير الروسي نظرة عاجلة أثناء الفحص الأول .

وقد انتابت غريغوري الحمى في الايام القليلة الاولى ، فلزم فراشه ولبث ينصت الى طنين يدوي في اذنيه .

ثم طرأ حادث .

قدم شخص مرموق ، من أفراد العائلة الامبراطورية ، لزيارة المستشفى . وقد أبلغ الاطباء والممرضات بالنبأ صباحاً ، فراحوا يتراكضون هنا وهناك كالفئران في مخزن تلتهمة النيران . فغيروا ملابس الجرحى وبدلوا أغطية الاسرّة قبل أوانها . وقد بلغ الامر بأحد الاطباء أن حاول تلقين المرضى كيف يجيبون على أسئلة شخصية مرموقة ، وكيفية التحدّث اليها .

وسرت عدوى القلق الى المرضى كذلك ، فشرع بعضهم يتحدث همساً قبل حلول موعد الزيارة بوقت طويل .

وارتفع عند الظهر صوت بوق سيارة ، فمرّ الشخص المرموق عبر بوابة المستشفى يرافقه العدد المألوف من الموظفين والضباط . وقد أكدّ أحد المرضى لزملائه بعد ذلك ، وكان رجلاً مرحاً مضحكاً ، أن علم الصليب الاحمر المعلق خارج المستشفى أخذ يرفرف خافقاً على حين غرة لحظة دخول الزوار المرموقين رغم صفاء الطقس وركود الهواء على غير عادته ، كما أن الرجل الانيق بخصلات شعره الجميلة المرسوم على رقعة حلاق في الجانب الآخر من الشارع قد انحنى مطأطئاً بالفعل . طاف الوجيه المرموق بالردهات ، موجهاً الأسئلة السخيفة المعهودة التي تناسب مركزه ومقامه . فأجاب المرضى ، وعيونهم تحملق أكثر من اللازم ، وفق تعليمات الطبيب المساعد : «تماماً ، يا صاحب السمو الامبراطوري» و«لا ، ابدا ، ياصاحب السمو الامبراطوري» . وكان رئيس المستشفى يعقب على أجوبتهم وهو يتلوى كحية العشب حين تخزقها المذراة ، كان منظره يثير الاشفاق حتى لدى من ينظر اليه من بعيد . وقد وزع الامير ايقونات صغيرة على الجنود . ثم اندفع حشد البزات المتألقة وموج العطور الفواحة الثمينة نحو غريغوري . كان واقفاً بجانب سريره ، طويل اللحية ، هزيل البدن ، محموم العينين . وقد فضحت انفعاله تلك الاختلاجة الطفيفة البادية على البشرة السمراء التي تعلو عظمي وجنتيه .

كان يقول في سريرة أفكاره : «هاهم اولاء! هاهم الذين يتلهون بسوقنا من قرانا ودفعنا الى الهلاك . آه! يا للخنازير! عليهم اللعنة! ها هو القمل العالق بظهورنا . أمن اجلهم وطئنا قمح الآخرين بخيلنا وقتلنا الغرباء ؟

أمن أجلهم زحفت فوق جذامات القمح باكياً ؟ والذعر الذي حل بنا ؟ لقد انتزعونا من عوائلنا وساموا الجوع في الثكنات . اثقلت تلك الأفكار اللاهبة رأسه وارتعشت شفتاه حنقاً : «انظر الى وجوههم السمينة اللماعة! لو كان الأمر بيدي لارسلتكم الى هناك ، عليكم اللعنة ، لأضعنكم على الخيل ، والبنادق على

ظهوركم ، واحملكم بالقمل ، واطعمكم خبزاً متعفناً ولحماً مدوداً! »

راحت عينا غريغوري الضجرتان تنخران ضباط الحاشية ذوي الوجوه الناعمة ، ثم استقرتا على خدي الامير المتهدلين .

تكلف رئيس المستشفى بالابتسام وهو يشير الى غريغوري ويقول : « من قوزاق الدون ، إنه يحمل وسام القديس غيورغي » . وقد أوحت نبرات صوته وكأنّه هو الذي نال الوسام . فسأل الأمير ، وقد تأهّب لاعطاء الأيقونة :

ـ من أي منطقة ؟

ـ من فينشسكايا ، ياصاحب السمو الامبراطوري .

ـ كيف نلت الوسام ؟

لاح السأم والتخمة في عيني الامير الصافيتين الخاويتين . وقد تكلّف رفع حاجبه الايسر لكي يضفي على وجهه المزيد من سيماء العظمة . احس غريغوري بالبرد لحظة واعتمل في داخله احساس ممزق . كان يستشعر احساساً كهذا وهو ينطلق صوب المعركة . فالتوت شفتاه واختلجتا دون ارادته :

ـ عفوك... انني بحاجة ماسة الى أن ـ ياصاحب السمو ـ إنها حاجة صغيرة فحسب .

ثم ترنّح غريغوري ، وكأن ظهره قد قصم . وأشار الى تحت السرير .

ازداد حاجب الامير ارتفاعاً ، والتفت ، وقد انفرجت شفتاه دهشة ، صوب جنرال أشيب ، يقف بجانبه فسأله شيئاً بالانكليزية ، واعترى أفراد الحاشية حرج لا تكاد العين تلمسه . فقد مس ضابط طويل القامة ، يحمل شارات كتف مقصّبة ، عينه بيده ذات القفاز الأبيض ، وطأطأ ثان رأسه ، والتفت ثالث الى جاره بنظره مستفهمة . وتبسّم الجنرال الاشيب باحترام ، ورد على صاحب السمو الامبراطوري بالانكليزية ، وقد سر صاحب السمو أن يدس الأيقونة في يد غريغوري ، وينعم عليه بشرف لا يدانى حين لمسه من الكتف .

ولما بارح الضيوف هوى غريغوري على سريره ، فدفن رأسه في وسادته ، ورقد بضع دقائق ، وكتفاه يهتزان ، ولم يكن بالوسع أن يتبين

المرء ما اذا كان يبكي أم يضحك . ثم نهض جاف العينين . وقد استدعى الى غرفة رئيس المستشفى في الحال .

بادره الطبيب وهو يدعك بأصابعة لحيته التي تحاكي بلونها الفأر :

ـ أيها الجلف الفظ!

فرد غريغوري ، وهو يخطو نحو الطبيب : «لست جلفاً ، ياخنزير! إني لم أرك في الجبهة» . ثم استعاد زمام نفسه ، فقال بهدوء : «ارسلني الى أهلي» .

تقهقر الطبيب خلف مكتبه وهو يقول بلطف : «سنرسلك! بوسعك أن تذهب الى الشيطان!» .

خرج غريغوري وشفتاه تختلجان ابتساماً ، وعيناه تشعان بريقاً . وقد حرم من طعامه ثلاثة أيام لسلوكه الفظيع ، الذي لا يغتفر ، في حضرة الأمير . ولكن رفاقه في الردهة مدوه بالطعام . فضلاً عن الطبّاخ ذي القلب الرقيق الذي كان مصاباً بالفتق .

٢٤

في مساء الرابع من تشرين الثاني بلغ غريغوري أول قرية من قرى منطقته وهو في طريقه من المحطّة . لم تكن ياغودنويه لتبعد عن تلك القرية الا بضعة فرستات . وبينما هو سائر في الشارع كان الفتيان ينشدون أغنية قوزاقية قديمة تحت ظلال الصفصاف على الشاطىء .

ينطلق القوزاق على الخيل بسيوف وهاجه...

اعترت الرجفة قلبه ، وتحجرت عيناه اذ راح يصغي الى تلك الكلمات المألوفة وظلت الأغنية تلاحقه وهو سائر عبر القرية يتنسم بنهم رائحة الدخان المتصاعدة من المداخن .

«وأنا الآخر كنت أنشد هذه الأغنية ، ولكن صوتي قد ذهب الآن ، وحالت

الحياة دون أن أتم أغنيتي . ها أنا ماضٍ للعيش مع زوجة رجل آخر ، لاركن لي ، لابيت لي ، كأنني ذئب » هذا مادار في خلده ، وهو سائر بخطى متواصلة كليلة ، يبتسم بمرارة من حياته التي كانت ملتوية على نحو غريب .

وارتقى التل خارجاً من القرية ، ثم التفت من على قمته لينظر خلفه ، كان الضوء الاصفر ينبعث خلال النافذة من نافوس معلّق في آخر منزل وأبصر في الضوء امرأة كهلة تجلس الى دولاب غزل...

مضى سائراً خلال العشب الرطب المتجمد على حافة الطريق . وبات ليلته في قرية صغيرة ، ثم استأنف رحلته حالما أطل الصباح . بلغ ياغودويه عند المساء ، فقفز عبر السياج ومر قرب الاسطبل ، فاستوقفه سعال ساشكا ، فصاح :

ـ هل أنت نائم ، أيها الجد ساشكا ؟

ـ مهلاً ؟ أنا أعرف الصوت . من هذا ؟

خرج ساشكا ، وهو يلقي معطفه العتيق حول كتفيه :

ـ يا أباءنا القديسين... غريشا! من أين اتيت بحق الشيطان ؟

وتعانقا . ثم قال ساشكا وهو يصعد الى وجه غريغوري :

ـ ادخل ودخّن سيكارة .

ـ كلا ، ليس الآن . سآتي غداً . أنا... .

ـ قلت لك ، ادخل .

فدخل غريغوري وراءه على مضض ، وجلس على المقعد الخشبي ريثما ينتهي العجوز من نوبة سعاله .

ـ حسناً أيها الجد ، أنت ماتزال حياً ، اذن . ماتزال تدب على الأرض ؟

ـ آه أنا كحجر الصوان لا يبليني شيء .

ـ وكيف حال اكسينيا ؟

ـ اكسينيا ؟ الحمد لله ، إنها على مايرام .

وسعل العجوز بعنف فعرف غريغوري أنه يصنع السعال لاخفاء حرجه .

ـ أين دفنتم تانيا ؟

ـ في البستان تحت شجرة حور .

ـ حسناً ، حدّثني بكل ماعندك من أخبار .

ـ إن سعالي يسبب لي متاعب جمة ياغريشا .

ـ حسناً ؟

ـ إننا جميعاً على قيد الحياة وبصحة جيدة . وإن السيد يفرط في الشراب بجنون ، ياللأحمق .

ـ كيف حال اكسينيا ؟

ـ إنها وصيفة البيت الآن . هلا دخّنت . جرّب تبغي من الدرجة الأولى .

ـ لا أريد أن أدخّن . تكلّم ، والا ذهبت! أشعر... ـ واستدار غريغوري بقوة فصرّ المقعد من تحته . ـ اشعر أنك تخفي عنّي شيئاً ، كحجر تحت معطفك . ارم به!

ـ وسأرمي به! لا أقدر على السكوت ، يا غريشا ، سيكون معيباً .

فقال غريغوري «قل لي ، اذن» . والقى يده على كتف العجوز برقّة . وانتظر حانياً ظهره .

فصاح ساشكا على حين غرّة بصوت فظ حاد :

ـ كنت تربّي حية . كنت تطعم ثعباناً . إنها تعبث مع يفغيني .

وانساب خيط من اللعاب اللزج حدر ذقن العجوز الدي تعلوه الندبة ، فمسحه وجفف يده على سرواله .

ـ أحقاً ما تقول ؟

ـ لقد رأيته بأم عيني . إنه يذهب اليها كل ليلة . أظنّه معها الآن .

ـ هكذا الأمر اذن!

طقطق غريغروري عقل أصابعه ، وجلس مدّة طويلة محدودب الظهر وعضلات وجهه تختلج .

وكان في أذنيه طنين هائل رنان .

قال ساشكا :

ـ المرأة كالقطة تتودد الى كل من يداعبها . لاتثق بهن ، ولا توليهن ثقتك .

لف ساشكا سيكارة ودسّها في يد غريغوري قائلاً : «دخّن!» .

جر غريغوري نفسين أو ثلاثة من السيكارة ثم أطفأها بين اصابعه وخرج دونما كلمة . توقف عند نافذة جناح الخدم ، وهو يلهث بشدّة ، وقد رفع يده عدّة مرات ليطرق بها ، ولكنّها كانت تنكفىء في كل مرة ، وكأنها قد نحيت بضربة . وحين طرق النافذة آخر الأمر ربت عليها بأصابعه في البداية ، الا أن صبره نفذ فأهوى بثقله على الحائط وراح يضرب النافذة بجمع يديه ، فجعل الاطار يرن مع الضربات ، ونو ر الليل الأزرق يتلامع مع الزجاج .

فظهر وجه اكسينيا المرتعب في النافذة هنيهة ، ثم فتحت الباب فندّت عنها صرخة خافتة . احتضنها وهو يرى الى عينيها .

ـ طرقت بشدّة فأرعبتني . كنت نائمة . لم أكن أتوقع مجيئك ياعزيزي .

ـ أنا متجمّد الأوصال .

احسّت اكسينيا جسمه الهائل يرتجف بعنف رغم أن يديه ساخنتان كالملتهبتين .

وأحدثت جلبة لاداعي لها ، فأشعلت المصباح ، وتراكضت في أرجاء الغرفة وعلى كتفيها الأبيضين المكتنزتين شال ازغب وأخيراً اشعلت النار في الموقد .

ـ لم أتوقّع مجيئك . لم تكتب لي منذ زمن طويل . حسبت أنك لن تعود . هل تسلمت آخر رسائلي ؟ كنت سأرسل لك رزمة ، ولكنني آليت التريث علّني اتسلّم منك رسالة...

كانت تخاوص النظر الى غريغوري وقد تجمّدت ابتسامة على شفتيها الحمراوين .

جلس غريغوري على المصطبة دون أن يخلع معطفه ، كان خدّاه غير الحليقين يضطرمان ، وقد انحجبت عيناه المسبلتان بياقة معطفة . ثم شرع يفك أزرار الياقة ، ولكنّه تململ فجأة ليتحسس كيس تبغة . وراح يبحث في جيوبه عن ورقة . ومر بعينيه على وجه اكسينيا بشوق لاحد له .

لقد ازدادت حسناً شيطانياً أثناء غيابه . كان رأسها الجميل شامخاً بمهابة لاعهد له بها ، ولم يبق على سابق حاله سوى عينيها وجعدات شعرها الوبري الكبيرة . لكن هذا الجمال العارم الساحق لم يعد ملك يده . كيف له أن يستحوذ عليه ، وهي خليلة ابن صاحب الضيعة ؟

- إنك في مظهرك أشبه بوصيفة بيت منك بخادمة .

فألقت اليه نظرة وجلة ثم تضاحكت غصباً .

جر غريغوري صرته وراءه ، ومضى نحو الباب .

- الى أين أنت ذاهب ؟

- لكي أدخّن .

- قليت لك بعض البيض .

- لن أتأخّر .

فتح غريغوري الصرّة على الدرج واخرج من باطنها عصابة رأس منقوشة باليد وقد لفّت بعناية في قميص نظيف ، . كان قد ابتاعها من تاجر يهودي في جيتومير لقاء روبلين ، وقد حافظ عليها كما يحافظ على حدقة عينيه ، كان يخرجها أحياناً ويمتع ناظريه بوفرة الوانها القزحية ، ويستبق مذاق الفرحة التي ستغمر اكسينيا وهي تنشر العصابة أمامها . يالها من هدية تعيسة! أبوسعه أن ينافس بهدايا ابن ملاك ثري ؟ ومزّق العصابة ارباً ثم دسّها تحت الدرج وهو يكبح نوبة من البكاء الجاف . ثم القى الصرة على المصطبة في المجاز وعاد الى الغرفة .

- اجلس ، وسأنزع عنك جزمتك ، ياغريشا .

وراحت تشد حذاء غريغوري العسكري الثقيل بيدين بيضاويين طلقتا العمل الشاق منذ حين . ثم جثت عند ركبتيه تبكي بصمت لوقت طويل . فتركها غريغوري تبكي ما شاءت ثم سألها قائلاً :

- ما خطبك ؟ الا تسرّك رؤيتي ؟

وحين هجع الى فراشه استسلم للنوم بسرعة ، وخرجت اكسينيا الى

الدرج وليس عليها سوى قميصها . وقفت في مهب الريح الباردة النفاذة ، وذراعاها يعانقان العمود الرطب ، وراحت تصغي الى مرثاة الجنائز ترتلها ريح الشمال العاصفة ، ولبثت على حالها تلك حتى مطلع الفجر .

وفي الصباح ، القى غريغوري معطفه على كتفه ومضى نحو الدار . كان الشيخ واقفاً على الدرجات وقد ارتدى سترة من الفرو وقبعة استراخانية صفراء .

ـ عجباً! هو ذا حامل وسام القديس غيورغي! ولكنّك غدوت رجلاً ، ياصاحبي!

ثم حيّا غريغوري ومد له يده .

ـ هل ستبقى طويلاً ؟

ـ اسبوعين ، ياصاحب السعادة .

ـ لقد دفنّا ابنتك ، واأسفاه . واأسفاه... .

لبث غريغوري صامتاً . ثم خرج يفغيني وهو يلبس قفازه .

ـ ماذا ، هذا غريغوري ، من أين قدمت ؟

اسودّت الدنيا في عيني غريغوري ولكنّه تبسّم قائلاً :

ـ عدت من موسكو ، بإجازة .

ـ لقد جرحت عينك ، أليس كذلك ؟ سمعت بهذا . لقد غدا فتى رائعاً أليس كذلك يابابا ؟

وأومأ الى غريغوري ثم استدار نحو الاسطبل منادياً الحوذي :

ـ الحصان ، يا نيكيتيتش!

فاتم نيكيتيتش الرزين شد الحصان بالعربة الخفيفة ، ثم قاد الحصان الاشهب الخبّاب الى الدرجات ، وهو يحدّج غريغوري بنظرة عدائية . وخشخشت الأرض المتجمدة تحت عجلات العربة . فالتفت غريغوري صوب يفغيني بابتسامة متوددة وقال بلهجة فيها رجاء :

ـ ياصاحب السعادة ، دعني أسوق مركبتك بحق الأيام الخوالي .

فقال يفغيني في نفسه ، «يا للفتى المسكين ، إنه لايدري» . وابتسم

راضياً ، والتمعت عيناه من وراء نظارتيه المعلقتين على أنفه . ثم قال :

ـ لابأس ، اصعد .

فقال ليستنتسكي الشيخ ، وهو يبتسم متلطفاً :

ـ ماذا ، لم تكد تصل ، وها أنت ذا ستترك زوجتك الشابة . ألم تفتقدها ؟

ضحك غريغوري قائلاً :

ـ ليست الزوجة دباً . إنها لن تهرب الى الغابة .

اعتلى مقعد السائق ودس السوط تحته ثم لمَّ الأعنّة في يده .

ـ آه ، سأمتعك بسياقة ، يا يفغيني نيكولايفتش!

ـ سق جيداً ، وسأنفحك بقشيش .

ـ ألم أنل مافيه الكفاية لكي أشعر بالامتنان ... انني ممتن لك لإطعامك ... اكسينيا... لإعطائها كسرة... .

انقطع صوت غريغوري فجأة ، فاشاع شك غامض مزعج اضطراباً في نفس الملازم : «أمن المؤكّد أنه لايعرف طبعاً لا! كيف يسعه ؟» ثم اتكأ في مقعده واشعل سيكارة .

ونادى ليستنتسكي الشيخ وراءهما قائلاً :

ـ لاتتأخر .

وتطاير مثار الثلج من تحت العجلات كالأبر .

جر غريغوري على فم الحصان بالعنان واستحثّه الى اقصى سرعته . ولم تمض خمس عشرة دقيقة حتى اجتازوا الربوة ، وما أن بلغا أول وهدة ، حتى قفز غريغوري الى الأرض ، وسحب السوط من تحت المقعد .

فقال الملازم عابساً :

ـ ما الأمر ؟

ـ سأريك!

لوّح غريغوري سوطه وانزله بقوة مريعه على وجه الملازم . ثم أمسك السوط من مجلدته ، وراح يضرب الضابط بمقبضه على وجهه وذراعيه دون

أن يتيح له وقتاً للنهوض . وقد أصابت ليستنتسكي شظية من زجاج عويناته فوق حاجبيه ، فانساب الى عينه خيط من الدم . وقد غطى أول الأمر ، وجهه بيديه ، غير أن الضربات تعاقبت عليه بسرعة متزايدة ، فوثب على قدميه ، وقد شوّه الدم والهياج وجهه ، فحاول أن يذود عن نفسه ، بيد أن غريغوري تراجع وشل ذراع الضابط بضربة على معصمه .

ـ هذه من أجل اكسينيا! وهذه من أجلي! من أجل اكسينيا! واخرى من أجل اكسينيا! من أجلي .

راح السوط يصفر والضربات تتعاقب بصوت طامس وأخيراً طرح غريغوري يفغيني على نتوءات الطريق الوعرة ، وراح يدحرجه على الأرض ، وهو يركله بوحشية بكعب حذائه المغطّى بالحديد .

وحين لم تعد فيه قوة تساعد على المضي ، اعتلى مقعد العربة وعاد ينهب الأرض نهباً وهو يكاد ينهك قوى الحصان . وترك العربة عند البوابة وامسك بالسوط ، واندفع الى جناح الخدم متعثراً بأذيال معطفه المفتوح .

وحين اصطفق الباب وانفتح تلفتت اكسينيا حولها .

ـ يا أفعى! ياعاهرة!

وصفر السوط فالتف حول وجهها .

اندفع غريغوري الى الحوش وهو يلهث ناشداً الهواء ، ثم غادر الضيعة دون أن يلتفت الى تساؤلات ساشكا . وحين قطع مسافة بضعة فرستات ادركته اكسينيا . فمضت تسير الى جانبه صامتة . وهي تلهث بشدة ، وتجر كمه بين حين وآخر . وعند مفترق الطريق ، وقرب المصلى البني المثبت على جانبه ، قالت له بصوت غريب ناء :

ـ غريشا ، اغفر لي!

فكشّر عن أسنانه ، واحنى كتفيه ، وهو يرفع ياقة معطفه وترك اكسينيا واقفة عند المصلى ، ولم يلتفت مرة ، ولم ير يدها ممدودة اليه .

وحين بلغ قمّة التل المطل على تتارسكي وجد أنه مايزال ممسكاً

السوط ، فألقى به جانباً ، وانحدر الى القرية . والتصقت وجوه الناس بزجاج النوافذ وقد أخذتهم الدهشة لرؤيته ، وانحنت النسوة تحية له وهو يمر بهن .

وعند بوابة حوش بيته ، هرعت حسناء ، ضامرة القد ، سوداء العينين ، لتلقاه ، فالتفّت ذراعيها حول عنقه ودفنت رأسها في صدره . فضم غريغوري خديها بين يديه ورفع رأسها فوجد أنها دونيا .

تناهى الى سمعه صرير الدرجات الذي كان مألوفاً لديه الى حد الإيلام ، ثم وجد نفسه في سقيفة الباب . وجرت أمه العجوز اليه بخطوات سريعة كالفتاة ، فبللت ياقة معطفه بدموعها ، واحتضنت ابنها وشدته اليها ، وهي تتمتم بأشياء لارابطة بينها بلغة الأمومة التي لا يسع المرء أن يعبّر عنها بالكلمات ، وكانت ناتاليا واقفة عند الباب ، متشبثة به مخافة السقوط ، وقد ارتسمت على وجهها الشاحب ابتسامة معذبة . واذ أصابتها نظرة غريغوري الخاطفة الشاردة ، كادت تهوي الى الأرض...

* * *

وحين أوى بانتلاي بروكوفيتش وزوجته الى فراشهما تلك الليلة لكز زوجته في ضلوعها وهمس :

ـ اذهبي بهدوء وانظري ان كانا مضطجعين معاً أم لا ؟

ـ لقد أعددت فراشهما على السرير .

ـ ولكن اذهبي ، وانظري ، انظري!

نهضت ايلنتشنا واسترقت النظر خلال شق الباب المؤدي الى غرفة .

ـ انهما سوية .

فنشج الشيخ وهو ينهض على مرفقيه ويرسم على نفسه اشارة الصليب .

ـ الحمد لله! الحمد لله!

ميخائيل شولوخوف

نوبل 1965

ولد في قرية فيوشينسكايا في بلاد القوقاز 1905 .
.لم يكمل شولوخوف دراسته الابتدائية
عاش الفترة من 1918 وحتى 1924 في أقليمه
حيث كانت المنطقة تحت سيطرة الجيش الابيض
.الذي اراد ان يطيح بثورة البلاشفة
في 1924 سافر إلى موسكو ليجرب مختلف الاعمال
.ويمارس حظه في الكتابة والنشر والتعرف على الاوساط الادبية
بعد عامين اي في عام 1926 عاد الى موطنه الاصلي
.ولم يفارقه حتى مماته
.وفي نفس العام ظهرت مجموعته الاولى قصص الدون وقصة سهب لازوريف
انضم إلى الحزب الشيوعي السوفيتي عام 1932
. وفي عام 1934 أصبح عضوا في اتحاد الكتاب
كتب روايته الدون الهادئ في الفترة ما بين 1928 - 1940
فقد صدر الجزء الأول من الرواية عام 1928
.وانتظر القراء 12 عاما ليكمل شولوخوف روايته الملحمية

وتوفي في 21 فيفري 1984

ISBN 978-9933-407-05-6

9 789933 407056